

٢٠٠٣ اهداءات

أسرة أ.د/رمزي طنطاوي

القاهرة

# رُومَا وَبِيزنطِيَّةٌ

من قطعة فوشيوس

حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين

١٢٠٤ - ٨٦٩

الدكتور إسماعيل ناصر وس عبيد

مدرس العصور الوسطى  
 بكلية الآداب — جامعة عين شمس

١٩٧٠



دار المعرف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٠٣٠

فہرست

صفحة

- تمهيد . . . . .

الفصل الأول : قطعة فوشيوس (عام ٨٦٩) . . . . . ١—٢٠

الفصل الثاني : الشقاق الديني الأكبر بين روما وبيزنطة (١٠٥٤) . . . . . ٢١—٣٩

الفصل الثالث : بيزنطة والبابوية وغرب أوربا من ١٠٥٤—١٠٩٥ . . . . . ٤١—٦٦

الفصل الرابع : بيزنطة والحركة الصليبية . . . . . ٦٧—١٢٤

الفصل الخامس : البابوية تبشر بحملة صليبية ضد بيزنطة (١١٠٧) . . . . . ١٢٥—١٥٤

الفصل السادس : علاقات بيزنطة باللاتين في عهد يوحنا كومين . . . . . ١٥٥—١٧٦

(١) مع الإمارات الصليبية . . . . . ١٥٦

(٢) مع دويلات إيطاليا . . . . . ١٦٥

(٣) مع البلاط الألماني . . . . . ١٦٧

(٤) مع البابوية . . . . . ١٧١

الفصل السابع : بيزنطة والحملة الصليبية الثانية . . . . . ١٧٧—٢٠٦

الفصل الثامن : بيزنطة والإمارات الصليبية من ١١٤٣—١١٨٠ . . . . . ٢٠٧—٢٣٥

الفصل التاسع : العلاقات السياسية بين بيزنطة وغرب أوروبا من ١١٤٧—١١٨٠ . . . . . ٢٣٧—٢٦٩

الفصل العاشر : بيزنطة والبابوية من ١١٥٦—١١٨٠ . . . . . ٢٧١—٢٧٨

الفصل الحادى عشر : بيزنطة والصليبية الثالثة . . . . . ٢٧٩—٢٩٦

الفصل الثاني عشر : مشروع صليبي هنري السادس ضد بيزنطة . . . . . ٢٩٧—٣٠٤

الفصل الثالث عشر : الجوانب الكنسية في الصليبية الرابعة التي انتهت بغزو القسطنطينية (١٢٠٤) . . . . . ٣٠٥—٣٥٢

الأصول المراجع : . . . . . ٣٥٣—٣٥٧

## تَحْمِيد

هذا الكتاب يبحث في موضوع العلاقات بين روما وبيزنطة من وقت القطعية الدينية بين الحانبين على عهد البطريرك فوشيوس حتى الغزو اللاتيني للقدسية سنة ١٢٠٤ . والفترة التي وقع عليها الاختيار (من ٨٦٩ - ١٢٠٤ ) شهدت أخطر الأحداث الكنسية والسياسية ، ومن بينها محاولات الغرب اللاتيني مهاجمة الامبراطورية البيزنطية في أكثر من مناسبة ، وذلك بتأييد البابوية . غير أن بيزنطة آنذاك حصدت بفضل جهود الاباطرة الذين جلسوا على عرش قسطنطين العظيم ، إلى أن حانت فرصة الكنيسة الغربية لتنقض على بيزنطة وكنيستها المسكونية في عام ١٢٠٤ .

والنظرية التي يعتمد عليها هذا الكتاب تتلخص في أن الغزو الصليبي لبيزنطة سنة ١٢٠٤ لم يكن ولد «إنحراف» أو «صلافة» كما يذهب الكثيرون ، وإنما تسمة خطط ساهمت فيه البابوية بدور كبير . ولذا كان لزاماً على الكاتب الرجوع إلى جذور المشكلة من عام ٨٦٩ ، عام القطعية الدينية بين روما القديمة وروما الجديدة ، وذلك لتقصي الحقائق الكامنة وراء هذا الصراع الذي انتهى بسقوط مدينة قسطنطين العظيم سنة ١٢٠٤ في أيدي جنود البابا أووسنت الثالث .

والله الموفق .

المؤلف

## الفصل الأول

### قطيعة فوشيوس

كان المجتمع البيزنطي مجتمعاً عقائدياً بطبيعة تكوينه ، وهذا فلقد كان للعقيدة آثارها البالغة في كافة المجالات المتصلة بحياة الإمبراطورية . ونجم عن ذلك أن قامت الكنيسة البيزنطية بدور خطير في تاريخ الإمبراطورية ، وكانت شخصية بطريرك أيها صوفيا لا تقل هيبة واحتراماً عن شخصية الإمبراطور ذاته . ولقد زاد من ثقل الأهمية تلك الحقوق الطائلة المدئ التي منحها مجمع القسطنطينية المسكوني<sup>(١)</sup> (٣٨١) لبطريرك بيزنطة ، ثم ماجاء من قرارات في مجمع خلقدنونية<sup>(٢)</sup> (٤٥١) لتعزيز كيان كرسى بيزنطة . واستناداً على قرارات آباء خلقدنونية ، اتخد بطريرك بيزنطة لقب «مسكوني» منذ القرن السادس . وبعد الفتح العربي لأقاليم سوريا وفلسطين ومصر — في القرن السابع — وبعد أن استقلت بطريركيات أنطاكية وأورشليم والإسكندرية عن التفود البيزنطى ، أصبح بطريرك القسطنطينية الرأس الأوحد للكنيسة الأرثوذكسية الإمبراطورية ، وصار بمثابة البابا الفعلى في المشرق .

ولقد جرى التقليد في بيزنطة على أن يقوم البطريرك بمسح الإمبراطور الجديد بالزيت المقدس قبيل تتويجه ، في حين تعهد الأباطرة بحماية الكنيسة وعدم المساس ب المقدساتها وامتيازاتها المتعارف عليها . وكانت الكنيسة البيزنطية وافرة الثراء والكنوز ، وورداً غنياً للحكومة تأخذ منه في وقت الحاجة العسكرية . وكانت فوق ذلك صاحبة أثر عميق على خاصة الشعب وسوداته . وعلى هذا الثقل المعنوى واستناداً إلى الثراء المادى كان بمقدور البطريرك أن يسدى عديد

Mansi, Vol. III, col. 560.  
Ibid., Vol. VII, col. 428.

(١)  
(٢)

النعم إلى الإمبراطور لحظة التوافق ، غير أنه إذا ما دب الخلاف بين الطرفين ، كان في وسع البطريرك أن يعرقل على حامل التاج الكثير من خططه ؛ بل إنه في كثير من الأوقات كانت معارضته البطريرك سبباً في خلع بعض الأباطرة عن العرش .

وللجانب طبقة القسيسين والأساقفة ورؤساء الأساقفة الذين كانوا يديرون شئون الكنيسة في أبروشياتهم في كافة أنحاء الإمبراطورية ، كانت هناك طبقة رجال الدين النساك ، الذين تمعنوا باحترام بالغ والذين اشتهروا بالتفوي ونقاوة القلب . ونظرت الجماهير إلى الرداء الديركاني الأسود على أنه خير ضمان للعبور فوق قنطرة هذه الدنيا قبلة النعيم الأزلي . ولهذا فقد عمرت أقاليم الإمبراطورية بالأديرة ، في العاصمة وفي سوريا وفي العراق وفي فلسطين وفي شبه جزيرة سيناء وفي صحاري مصر وعلى جبل أولاد في بيثنينا وفي كيابادوكيا ثم على قمم آتوس . ومن تلك البيرت الصامدة المتأمرة تخرج خيرة اللاهوتيين والساسة ، ووُجِدَ البعض منهم عرش البطريركية يرحب به زعيماً لشعب آيا صوفيا .

كان طبيعياً أن يقوم الخلاف في كثير من الأحيان بين الزعيم الروحي وبين الإمبراطور : فالإمبراطور ، بصفته خليفة لقسطنطين العظيم ، كان من حقه أن يرأس الجامع ويدير المجادلات ويناقش المراطقة ويملأ على آباء الكنيسة ما يراه صالحًا من قرارات . كما كان من حقه الأوتوقراطي والشيوقراطي تنفيذ قوانين المجامع الكنسية بحد السيف ، مما خول له السلطة في سجن أو نفي أو خلع أو إعدام « أعداء الله » والكنيسة . غير أن الأباطرة ما كانوا يجرؤون على اتخاذ قرار — سياسياً كان أو دينياً — دون مشاورة البطريرك . وتشهد السجلات المعاصرة بأن بعض البطارقة قد صدوا لعنة الحberman والقطع ضد أعمى الأباطرة وأشدتهم بأساً ، فلقد أصدر نيقولا قرار الحberman ضد ليو السادس ( ٩١٢ - ٨٨٦ ) وأمر أشعب أن يغفل كافة مراضيه الإمبراطورية . كانت روما القدية — وعلى رأسها خاتمة بطرس الرسول — ترقب التفرد

المتزايد لبطريكتية بيزنطة في قلق شديد . ولقد أجمع من نار الحقد في قلب البابوات ذاك القانون الثامن والعشرون لمجمع خلقديونية الذى منح بطريقك القسطنطينية « روما الجديدة » ما كان لأسقف روما « القديمة » من حقوق وامتيازات . ورغم المعارضة الشديدة التى أبدتها البابا ليو الأول ضد هذا القرار الخلقديوني ، فإنه منذ عام ٥٨٨ تلقب أسقف بيزنطة بلقب « المسكونى » وصار مساوياً لأسقف روما في المرتبة الكنسية . وكان هذا هدماً صريحاً للنظرية البطرسية الرومانية التى أعطت خلفاء بطرس « أمير رسول المسيح » الإمارة على الكنيسة العالمية ( الصخورة ) .

حتى القرن الثاني عشر يزور رجال الدين في بيزنطة الإكليلوس في غرب أوربا اللاتيني في العلوم اللاهوتية والفلسفية ، فبینما كانت اللغة اليونانية من المرونة والمقدرة لأن تعبّر عن أدق المعانى المجردة والفوق طبيعية ، عجزت اللغة اللاتينية — بسبب جفافها وخشونتها — عن بحارة لسان البيزنطيين . وهذه كان عسيراً على دارسى اللاهوت في غرب أوربا أن يتبعوا أن يتابعوا أعمق ما تنطوى عليه كتابات اللاهوتيين البيزنطيين .

ولما ظهرت المحرّقات الشرقيّة ، من أريوسية ونسطوريّة وموفيزيّة ويوطاخية نظر إليها أهل الغرب اللاتيني في شك وريبة ، ذلك لأنّهم لم يدرّكوا كنهها لعجز أدّاة تعبيرهم .

ولقد عبر عن تلك الحيرة البابا جريجورى العظيم في قوله بأنّ اللاتين وإن كانوا لا يملكون ما للبيزنطيين من مهارة لغوية وفلسفية ، إلا أنّهم قد صانوا العقيدة المسيحية من الغموض والإبهام والانحراف . وللدفاع عن كيانها ، أخذت كنيسة روما تدعى إلى الحفاظ على البساطة الأولى التي صاغها الآباء الأول للعقيدة ، وتزعم أن « صخورة » القديس بطرس هي رأس الكنائس المسؤولة عن الوحدة المسيحية العالمية وعن التوافق اليقيني في مجال العقيدة والطقوس . غير أنّ هذا الزعم البابوى كان بدعة في تاريخ الكنيسة ، ورد البيزنطيون هذه الحجة بإعلان بطلانها لأنّها مغايرة لتقليد الآباء الطوباويين الذين أرسوا بناء

الكنيسة والذين وضعوا قانون الإيمان النيق في عام ٣٢٥ « بوحى من الروح القدس » .

والحق أن الظروف السياسية التي حلت بالإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس والتي انتهت بسقوط روما في أيدي البرابرة الجرمانيين ، قد قضت على سلطان الإمبراطور في الغرب من ناحية ، بينما أخذ نفوذ أسقف روما في الزيادة من ناحية أخرى كنتيجة غير مباشرة لهذه الأحوال . فلقد غدت كنيسة روما – في أعين قبائل الجرمانيين – النظام القديم الأوحد الذي قدر له الصمود والبقاء بعد سقوط الإمبراطورية في عام ٤٧٦ . فقد اختفى الأمراء والأباطرة الرومان ، ولم يبق لروما سوى البابا وأساقفته . وفي غياب السلطان الإمبراطوري في الغرب ، اضططع أسقف روما بمهام القيادة كما فتح باب المفاوضات السياسية مع الرعماء الجرمانيين القادمين من كل صوب . وليس بمستغرب أن نظر المתרبرون إلى زعيم روما الدينى وإلى مؤسساته الكنيسة على أنها السلطة الشرعية الوحيدة الباقية من المجد الرومانى العتيد ، يؤيدوها في هذا المظاهر القانون الرومانى الرابض في أكناf الكنيسة وبالحلالة الإمبراطورية التي اتسم بها البابوات أنفسهم ، إذ بدا البابا في نظرهم منبع القانون الرومانى والأوتوقراط الأوحد في الغرب . والنتيجة الخطيرة التي ترتبت على هذا هي أن البابوات في القول وبالفعل قد اضططعوا بالمهام الحكومية للإمبراطور عدة قرون عندما قطعت جحافل القوتوسطي والهون سبل الاتصال بين روما وبيزنطة .

وجاءت الأسرة السورية (٧١٧ - ٨٠٢) لتوسيع الهوة بين روما وبيزنطة ، إذ أشعل أفراد هذه الأسرة ناراً لا تهدأ في الأيقونات . فسر البابوات ورجالات الكنيسة الغربية حملات الأيسوريين ضد تمجيل الأيقونات والصور المقدسة على أنها هرطقة جديدة في سلسلة الانحرافات العقائدية داخل كنيسة بيزنطية . وهنذا فقد كتب البابا جريجورى الثانى (٧١٧ - ٧٣١) إلى الإمبراطور الأيسورى (السورى) ليواجهه بالعقاب وفق السلطات التي فوضها إياه القديس بطرس ، كما أنه أعلن لليو أنه قد قطعه من جسد الكنيسة العالمية . وإن أهم

فقرة وردت في خطاب البابا هذا تلک التي أكد فيها لخاطبه أن الغرب اللاتيني بات يلتف حول خليفة بطرس الرسول ، وأن دول الغرب وضعت آمالها عليه . ولئن جرؤ الإمبراطور على أن يقدم لتحطيم أيقونات القديس بطرس – كما ذكر في رسالة له – فإن غرب أوروبا سوف يهب قاطبة للانتقام منه . وقد بين البابا للإمبراطور البيزنطي أن لا سلطان له على غرب أوروبا المسيحي ، وبأنه عاجز عن الاقتراب من مدينة روما <sup>(٣)</sup> .

ولما جاء البابا جريجوري الثالث ( ٧٤١ - ٧٣١ ) عقد مجلساً في مدينة روما أصدر فيه قراراً بحرمان أعداء الأيقونات ومحظتها <sup>(٤)</sup> . ولقد قرر ليو معاقبة البابا لوقفه هذا ، فنهج في ذلك المنهج البيزنطي التقليدي ، إذ أرسل أسطولاً قوياً للقبض على جريجوري الثالث . غير أن عاصفة حطم الأسطول وهو إذ في البحر الأدربياني . وعلى هذا فقد أصدر الإمبراطور أمراً بحب الضرائب من صقلية وكلابريا ثم صادر دخول البابوية من الضرائب المستحقة لها في جنوب إيطاليا . هذا إلى جانب أن قام ليو بسلخ كلابريا وصقلية وأقاليم الابيريا ومقدونيا وثيساليا وآخايا وموئيزيا وداردونيا وپرایفاللس من التبعية لمطريركية روما وضمها إلى نفوذ بطريرك بيزنطة ، مما كان له بالغ الأثر في تدهور العلاقات بين الطرفين فيما تلى من تاريخ .

على أن الحدث الأدبح الذي استشاط له البيزنطيون غضباً هو توبيخ شارلمان ، زعيم الفرنجة ، إمبراطوراً رومانياً في كنيسة القديس بطرس بروما على يد البابا ليو الثالث في نهاية صلاة قداس عيد الميلاد لعام ٨٠٠ م . والذى حدث أن أحرز ليو الثالث تاجاً وعباءة أرجوانية وألبس شارلمان هذه الأوسمة الإمبراطورية ، بين هتاف المصليين :

“Carolo augusto, a Deo coronato magno et pacifico imperatori Romanorum, Vita et Victoria” <sup>(٥)</sup>

Patrologia Latina, Vol. LXXXIX, cols. 520 - 21; Mansi, Vol XII,  
cols. 959-74.

(٣)

L. Duchesne, Liber Pontificalis, Vol I, p. 416.

(٤)

Annales Regi Francorum (ed. Pertz), in SS. R.G. SC., p. 112.

(٥)

وما من شك في أن البابا والزعيم المتبرير كانا يعلمان علم اليقين أن الإمبراطورية الرومانية كانت قائمة — وفي صلابة — على ضفاف البحور ، بحكمتها المركزية وبمجلس شيوخها وبجيوشها الإمبراطورية الجرارة . وعلى هذا فلم تكن هنالك كيونة شرعية ولا سند واقعى ليبرر هذا الاغتصاب الصارخ للناح الرومانى من أصحابه الشرعين ، خلفاء قسطنطين العظيم وبالحايين على عرش الإمبراطورية فى مدينة القسطنطينية .

حقيقة أن العاصمة البيزنطية قد شهدت فى تلك الفترة مؤامرة نسائية قامت بها ليرينى الوصية على العرش ضد ابنها القاتل قسطنطين بأن سميت عينيه وأودعته السجن ثم انفردت بالحكم ، غير أن لتلك الحادثة سوابق مماثلة فى تاريخ بيزنطة ، ولم تكن — على أية حال — لتبرر اغتصاب الحقوق الشرعية للإمبراطورية والإمبراطور لصالح زعيم جرماني من قبائل الفرنجة . والتبرير الكلاسيكي لفعلة ليو الثالث وحليفه شارلمان قد ورد فى رسالة موجهة من الإمبراطور «الغربي» لويس الثانى إلى الإمبراطور البيزنطى بازل الأول فى عام ٨٧١ . جاء فى هذه الرسالة أن حاكم بيزنطة ليس إمبراطوراً رومانياً ، لأنه يونانى كما أن البابا لم يتوجه ، ولن يتوجه لهذا السبب ، ولأن اليونان يتبعون قانون الإيمان المغلوط والضال ، كما أن «الأمير البيزنطى» عاجز عن الدفاع عن روما .

وهكذا فإن عوامل الخلاف والشقاق على المستويات العقائدية والسياسية كانت جد وفيرة بين روما القديمة وروما الجديدة ، بين الغرب اللاتينى والشرق اليونانى ، وبين البابا الرومانى والبطريرك البيزنطى . ولقد بدأ الصدام الفعلى بين الطرفين عندما وجدت روما فرصة سانحة للتدخل فى شئون الكنيسة البيزنطية وذلك وقت النزاع الشخصى بين البطريرك إجناشيوس ومنافسه القوى فوشيوس فى النصف الثانى من القرن التاسع .

في عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧) ، قامت الإمبراطورة الأم ثيودورة — بطلة إعادة عبادة الأيقونات — بتعيين إجناشيوس

بطريركاً لبيزنطة . وكان إجناشيوس — رغم تقواه — منطوفاً لا يعرف المهاودة مع خصوومه ، ولهذا فبمجرد أن تولى مهام منصبه قام بحرمان معارضيه ثم طردهم من مناصبهم الأسقفية <sup>(٦)</sup> . وكان إجناشيوس ضاحل الثقافة الكلاسيكية والفلسفية ، كما أنه كان يشير إلى علوم القدامى على أنها من « دنس الأمور » <sup>(٧)</sup> . وفي ذلك الحين كان بيت فوشيوس — الأستاذ في جامعة القدسطنطينية — الصالون الفكري الدائم الصيغ ، والذي كان يرتاده محبو الكلasicية وفلسفتها . وكان أمراً طبيعياً أن أحد فوشيوس ومربيه من جماعة الراديكاليين في التعريض « بجهل » إجناشيوس وأتباعه .

كان فوشيوس صديقاً مقرباً للقيصر باردادس عم الإمبراطور ميخائيل الثالث . وكان باردادس هذا على خلاف شديد مع الإمبراطورة الأم ثيودورة ، وبالتالي فقد كان كارهاً لإجناشيوس حليف الإمبراطورة وأوزيرها القوى النفوذ ثيوكتستوس . وفي عام ٨٥٦ اغتال باردادس ذلك الوزير فقدت ثيودورة الكثير من سلطانها في البلاط . وللحق أن باردادس كان رجلاً خليعاً ، فبعد أن طلق زوجته بات يعاشر أرملة ابنه في غير كتمان . وبهذا فإن البطريرك إجناشيوس قد حرمه من شركة التناول على مشهد من جميع المصلين في آيا صوفيا .

وفي عام ٨٥٧ وجه باردادس تهمة الخيانة العظمى إلى إجناشيوس لأنه قد آوى شخصاً يدعى جيميون ، الذي كان يدعى الأحقية في العرش . وأمام هذا قرار الإمبراطور ميخائيل الثالث — بتوجيه من عمه باردادس — نفى إجناشيوس إلى تيرينثوس بعد أن اضطر لتوقيع إقرار بالتنازل عن منصبه البطريركي . وفي نفس الوقت نجح باردادس في إجبار ثيودورة على اعتزال حياة القصر والتواري في أحد الأدبرة .

اختير فوشيوس ليشغل الكرسي البطريركي لبيزنطة بعد ذلك . وقد رغب

Nicetas the Phalagonian, ‘Vita Ignatii’; in P.G., Vol. CV, col. 512. (٦)

Mansi, Vol. XVI, col. 6. (٧)

في جامدة البابوية فأرسل سفارة للبابا نقولا الأول يبلغه أن إيجناشيوس قد اعتزل منصبه طواعية وبأنه قد انتخب وفق القانون لتبوأ مهام البطريركية بدلًا منه . غير أن البابا وجد في هذا الموقف فرصة طيبة لمحاولة التدخل في الشؤون الداخلية لكنيسة بيزنطة ، فكتب رسالة إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث مبدياً دهشته تخلع إيجناشيوس دون علم البابوية ، مضيفاً بأنه مرسى مندوبيه للتحقيق في الأمر عن كثب ، « وبعد هاسوف ذوجه أوامرنا الرسولية للفصل في الأمر حتى تتمكن كنيستكم ، المضطربة قلقاً وإقلاقاً ، من أن تبراً من الشعب » . وانحتم البابا رسالته طالباً من الإمبراطور أن يعيد للبابوية حقها ونصابها في إليريا وكالابرية وصقلية<sup>(٨)</sup> .

وبالفعل حضر مندوبيو البابا إلى القسطنطينية وعقدوا مجلساً في عام ٨٦١ ، حيث أضطر إيجناشيوس أن يظهر أمامهم . غير أن البطريرك المخلوع صرخ في وجه الرسل الرومان بأن لا حق لهم ولا سلطان في استجوابه<sup>(٩)</sup> . عاد مندوبيو البابا وأطلاعوا سيدهم على الموقف ، غير أن نقولا الأول لم يكن راضياً عن النتائج التي توصل إليها سفراؤه . وقد زاد من حنقه أنه تلقى رسالة خشنة العبرة من الإمبراطور ميخائيل الثالث . ولهذا فقد أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي يعلمه بأنه غير قائم بقرارات مجلس ٨٦١ ، موجهاً التقرير لميخائيل بسبب « وقاحة اللفظ وقبح العبارة » في رسالته . وراح البابا يقول : « لعله قد لا يغيب عن بالكم أنه منذ اعتقاد المجتمع المسكوني السادس والأباطرة البيزنطيون تبعاً قد لطخوا أنفسهم بعار المرضقة » . وفي ختام كلامه هاجم نيكولا الإمبراطور لوصفه اللغة اللاتينية على أنها « لسان البرابرة » ، مستنكراً عليه أن يحمل لقب « إمبراطور الرومان »<sup>(١٠)</sup> من ناحية ، ومن ناحية أخرى أكد النظرية البطرسية من جديد ، معطياً حق الكرازة لروما والإسكندرية

Ep. VI, in M.G.H. S.S., Vol. VI, pp. 443 - 49.

(٨)

Nicetas the Paphlagonian, op. cit., cols. 517-19.

(٩)

M.G.H. SS., Vol. VI, p. 459.

(١٠)

وأنطاكية [ حيث كان بطرس الرسول وتلميذه مرقص الانجيلي أساقفة ] ، في حين أوضح أن القسطنطينية ليس لها سند رسولي أبنته ، وعلى هذا وجوب عليها الإذعان للبابا ، خليفة أمير الرسل ، الذي أعطيت له سلطات الربط والخل على الأرض وفي السماء ، وعلى كافة أعضاء الكنيسة العالمية<sup>(11)</sup>.

والواقع أن رسالة الإمبراطور ميخائيل الثالث الخشنة العبارة لم تكن العامل الأساسي وراء غضب البابا نيقولا الأول ، بل كانت هناك أسباب أخرى . في تلك الفترة تأججت غيرة البابوية وحقدتها بسبب النجاح الهائل الذي أحرزتهبعثات التبشيرية البيزنطية في بلغاريا تقيدها في ذلك القوات العسكرية الإمبراطورية . وتفصيل ذلك أن الأمير الموراث راستلاف عقد حلفاً عسكرياً مع بيزنطة ضد البلгар في عام ٨٦٢ . وتكلمة لهذا التحالف توجه المبشران الشهيران الأخوان قسطنطين وميثوديوس إلى مورافيا حيث رحب بهما الأمير ، ومن ثم أخذوا في التبشير بين هذه الشعوب بالديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي . وفي نفس الوقت كانت روما تتضع مخططاً للتبشير بالمسيحية على المذهب اللاتيني بين تلك الشعوب السلافية . وهذا فقد أيد البابا نيقولا الأول الملك الألماني لويس في حربه ضد الأمير راستلاف الموراث حليف بيزنطة ، ووعد لويس بالصلة من أجل معركته ، آملاً أن يتم على يده أيضاً نشر الكاثوليكية بين شعوب البلغار . غير أن آمال البابا لم تتحقق ، إذ غرت الجيوش البيزنطية مملكة البلغار ، وأذعن ملوكها بورس لقبول شروط الصلح وافق على اعتناق الأرثوذكسيّة هو وشعبه . وكان موقف بورس هذا طعنة لخليفه لويس الألماني وخيبة أمل كبيرة للبابوية .

كانت المسألة البلغارية إذن عاملًا أساسياً من عوامل غضب البابا نيقولا الأول ضد الإمبراطور ميخائيل الثالث وضد البطريرك فوشيوس الذي كان الموجه الفعلى للأمور السياسية في ذلك الوقت ، والذي أرسل القديسين قسطنطين وميثوديوس لنشر الأرثوذكسيّة في بلغاريا .

ويعتقد المؤرخون أن الرسالة التي رد بها ميخائيل الثالث على البابا كانت في الواقع الأمر من وضع البطريرك فوشيوس ذاته<sup>(١٢)</sup>. جاء في هذه الرسالة أن البابا نيكولا الأول قد كان جاجداً لفضل الكريم الذي أبداه الإمبراطور والبطريرك المسكوني عندما سمحا لإنناشيوس المخالع بالظهور في مجلس أمام مندوبي البابا . كما أنه ليس من شأن روما أن تنشر أنفها في أمور الكنيسة الأرثوذكسية القوية . ومضت الرسالة تقول إن البابا قد أخطأ الفهم عندما أرسل مندوبيه لمحاكمة إنناشيوس ، لأنه لم يطلب منه ذلك ، وإنما ما قصد إليه الإمبراطور بالفعل في كتابه المبكر هو أن يرسل البابا سفراً له للمشاركة في مجلس غايته إدانة هرطقة تحطيم الأيقونات التي كان لها بقايا من الأنصار لا في بيزنطة فحسب وإنما أيضاً في غرب أوروبا اللاتيني . أما فيما يتصل بادعاءات البابا في إمرة الكنيسة ، فإن كاتب الرسالة قد أوضح للروماني زيف هذا الادعاء وبطلانه . ولم ينس ميخائيل الثالث في ذيل خطابه الهام أن يضم اللاتينية بأنها « لسان البربرة » .

وفي أثناء ذلك حدثت تطورات هامة في موقف بورس ملك البلغار ، إذ راح يطلب من بيزنطة السماح له بتعيين بطريرك بلغاري لملكته . غير أن فوشيوس استنكر على هذا الأمير جرأته في هذا الطاب . فما كان من بورس إلا أنه فتح باب المفاوضات مع البابا طالباً منه الإذن بتعيين بطريرك بلغاري لملكة البلغار (أغسطس ٨٦٦) . سارع البابا نيكولا الأول فأوفد أسقفين ، بولس من بوبيلونيا وفورموزوس من بورتو ، للتبيشير بين ظهراني هذا الخبر<sup>(١٣)</sup> . ثم كتب رسالة إلى الملك بورس عدد له فيها الأغلاظ الطقوسية والعقائدية داخل الكنيسة البيزنطية ، مؤكداً له أن بيزنطة لم تشرف بأصل رسولي لأسقفيتها ، وعلى هذا فليس من حقها أن تتلقب بلقب « البطريركية » .

See J. Hergenröther, Photius, Patriarch von Konstantinopel (3 Vols., 12)

Regensburg, 1887 - 89), Vol I, p. 553; also. F. Dvornik, The Photian Schism, Cambridge, 1948, p. 109.

L. Duchesne (ed.) Liber Pontificalis, Vol. II, p. 184. (13)

ولقد طار انحان البلغاري فرحاً ونشوة وهو يقرأ الرسالة البابوية خاصة وأن البابا قد كشف له أن بطريرك بيزنطة «المتعجرف» لم يكن سوى أسفراً عادياً لا يحق له التزيين بلقب بطريرك . وعليه فقد أمر بورس كافة المبشرين البيزنطيين بالرحيل فوراً عن أراضي ملكه ، ثم أحل مكانهم أصحابه الجدد الوافدين من روما .

وعاد المبشرون البيزنطيون ليعلنوا لبطريركهم فوشيوس أن اللاتين قد دنسوا العقيدة في بلغاريا ، وبأنهم يبشرون بتعاليم المانوية وقد حرموا على القسيسين الزواج ، وأدھى من هذا كلھ فقد زيفوا قانون الإيمان النبیق بأن أضافوا إليه أن «روح القدس ينبع أيضاً من الابن» . وفي نفس الوقت أعلن المبشرون اللاتين لشعب البلغار أن كنيسة بيزنطة منبع للهرطقة وأن رجال الدين فيها جلهم من الحصيان . وغلت المشاعر .

أمسك فوشيوس بقلمه وكتب مقالاً بعنوان<sup>(١٤)</sup> *De Spiritu Mystagogia* هاجم فيه انحراف قانون الإيمان عند اللاتين بسبب إضافة الـ *Filioque* «روح القدس المنبع من الابن أيضاً» ، معلناً أن في هذه الإضافة انحرافاً عمما اتفق عليه آباء الكنيسة الأولى في الجامع المسكونية ، ومنافية لنص الكتاب المقدس . وأوضح البطريرك أن مثل هذه الإضافة «البدعة» تؤدي إلى الخلط بين طبيعتي الآب والابن ، مما يبعث من جديد هرطقة أصحاب الطبيعة الواحدة التي قد أدينـت في مجمع مسكوني سابق<sup>(١٥)</sup> .

وكان اللاتين يبررون تلك الإضافة بالاستشهاد بالعبارة التي وردت على لسان المسيح وهو يخاطب تلاميذه قائلاً «إن الروح انبعـت بواسطـي من الآب». والنـص اللاتـيني لهـذه العبـارة – أوضح فوشـيوـس – ترجمـة خـاطـئة للـنص الأـصـلـي الوارد بالـلغـة اليـونـانـية . ولـما كانت اللـاتـينـية لـغـة عـاجـزـة فإن الأـصـلـ اليـونـانـي للـعبـارة قد تـرـجمـ في اللـسانـ اللـاتـينـي لـى *Spiritus de me accipiet*

*Patrologia Graeca*, Vol. CII, cols. 283 seq.

(١٤)

Ibid.

(١٥)

وهنا يسخر فوشيوس من العقلية اللاتينية التي فات عليها أن تترجم النص اليوناني ترجمة صحيحة إلى *de me* بدلاً من *de me* ، لأن الفرق بين الاثنين جد خطير ، فال الأولى تعني « الروح القدس المنبع بواسطى من الآب » بينما تعنى الثانية « الروح القدس المنبع مني » وراح البطريرك البيزنطي يقول إن صغار التلاميذ لا شئ يدركون الفرق بين العبارتين<sup>(١٦)</sup> .

ومضى فوشيوس في كتابته فانتقد القديسين أو غسطينوس وامبروز لأنهما كانا يعلمان انبثاق الروح القدس من الآبن ، وانتقد رجال الدين الالatin لتسليمهما لما قاله القديسان رغم تعارض هذا مع ما ورد في الإنجيل على لسان بولس الرسول : « ولكن إن بشرناكم نحن أو ملائكة من السماء بغير ما بشرناكم فليكن أناثها »<sup>(١٧)</sup> .

والحق أن قانون الإيمان المتفق عليه في مجمع نيقايا المسكوني في عام ٣٢٥ قد نص في بساطة على الآتي : « في الحقيقة أؤمن بالروح القدس » . ولما عقد مجمع القسطنطينية المسكوني في عام ٣٨١ لإدانة بدعة ماسيدونيوس ، اتفق الآباء المؤمنون على توضيح النص السابق فصار كالتالي : « في الحقيقة أؤمن بالروح القدس المنبع من الآب » .

وفي القرن الثامن ظهرت الإضافة « والمنبع من الآبن أيضاً » ، ومصدر هذه البدعة إسبانيا ، ثم تحمس لها الكنيسة الفرنجية بوجه خاص . غير أن البابا ليو الثالث (في أوائل القرن التاسع) لاعترض في حزم على هذه الإضافة « *Filioque* » ، ولكن يؤكّد تمكّنه بنص قانون الإيمان المتفق عليه في مجمع القسطنطينية السابق أمر بأن ينقش هذا النص في صيغته الأصلية باليونانية واللاتينية على لوحات فضية في كنيسة القلبيس بطرس بروما ،

وأهم من هذا كله أن البطريرك فوشيوس قد كتب في عام ٨٦٠ إلى البابا

Ibid., col. 300.

(١٦)

Gal. I. 8.

(١٧)

نيقولا الأول يبلغه باختياره لكرسي بيزنطية ، معلناً « قانون إيمانه » — كما جرت العادة من قديم عند تبادل الرسائل في مثل هذه المناسبات — وكان قانون الإيمان لفوشيوس — بطبيعة الحال — ينص على « انبثاق الروح القدس من الأب » [ فقط ]<sup>(١٨)</sup> . ولقد رد البابا على كتاب فوشيوس في رسالة بتاريخ ١٨ مارس ٨٦٢ يعلن فيها البابا أن « إيمان فوشيوس أرثوذكسي وقويم »<sup>(١٩)</sup> .

من هذا يتضح أنه بينما تميزت كنيسة بيزنطية بالثبات على قانون الإيمان المتفق عليه منذ عام ٣٨١ ، والذي وافقت عليه روما ، فإن الأخيرة كانت تصر على إضافة إلى Filioque . وواقع الأمر أن نحو كنيسة بيزنطية وازدياد نفوذها وهيبتها كانوا مبعث حقد كبير لدى البابوية . والغريب أن البابا نيكولا الأول الذي امتنع « أرثوذكسيّة فوشيوس وعلمه وقوامة إيمانه » سرعان ما كتب إلى صديقه الكاردينال هنكلمار يهاجم مدينة القدسية وبطريركها لتلقبيه نفسه بلقب « المسكوني »<sup>(٢٠)</sup> .

وما من شك في أن كنيسة روما قد وجدت في شخص فوشيوس متحدياً جباراً لادعاءاتها في الزعامة والإمارة على الحواس الخمس للكنيسة العالمية ، والحق أن فوشيوس قد قوض النظرية البطريركية : إذ بين للعالم انحراف قانون الإيمان في الغرب ، وجرد روما من الإمارة ، لأن بطرس كان أيضاً أسقفًا لمدينة إنطاكيه قبل أن يذهب إلى روما ، وأنه في إنطاكيه ظهرت لفظة « مسيحي » لأول مرة . هذا كما أن أورشليم لها من السنديقدسي ما يبرر لها المطالبة بالزعامة العالمية لأن فيها قد ولد المسيح فات ثم صعد في اليوم الثالث . أما عن « الصخرة » التي شيد عليها المسيح « كنيسته » ، فهذه لم تكن شخصية بطرس الذي لا يتوافق سلوكه قبل وبعد الصليب مع صفات الصخرة . وإنما الصخرة ، كما أوضح فوشيوس ، هي « إيمان » بطرس الذي لا يمكن تمييزه

*Patrologia Graeca*, Vol. CII, col. 589.

(١٨)

M.G.H. SS., Vol. VI, p. 440.

(١٩)

M.G.H.SS., Vol. VI, p. 605 - The letter is dated 23 October, 867.

(٢٠)

عن «إيمان» لإخوته الرسل الباقين . ولقد نعت فوشيوس مزاعم روما في إマارة الكنيسة على أنها امتداد للروح الوثنية القدامية الراسخة هناك . وعلى هذا فإن فوشيوس عندما كتب إلى بورس ملك البلغار يرده إلى صوابه ، فقد تعمد أن يدرج بطريركية القسطنطينية في المرتبة قبل بطريركية روما ، وذلك في مجال حديثه عن قصة المجالس المسكونية السبعة<sup>(٢١)</sup> .

وفي ٢٤ سبتمبر ٨٦٧ ، اغتال بازل المقدوني سيد الإمبراطور ميخائيل الثالث وجلس على عرش بيزنطة . وتبع هذا الانقلاب أن أعيد إجناشيوس إلى كرسى البطريركية بعد أن خلع فوشيوس عنه . ولقد تافت روما هذا النبا بارتياح شديد . وعندما عقد إجناشيوس مجلساً في القسطنطينية في ٥ أكتوبر ٨٦٩ ، سارع البابا هادريان الثاني ، خليفة نيقولا الأول ، فأرسل مندوبيه ليضموا صوتهم إلى صوت إجناشيوس عند إدانة البطريرك المخلوع فوشيوس . وكان هادريان قد عقد مجلساً سابقاً في روما حيث لعن فوشيوس وتعاليه «المهرطقة» ووصفه بالعجزة «ودنس الفم» والتجلديف<sup>(٢٢)</sup> . ويحدثنا نيكيتا بن البلاجوني - كاتب حياة إجناشيوس - أن السفراء البابويين الذين شاركوا في مؤتمر إجناشيوس قد وقعوا قرار الحرمان ضد فوشيوس «بعداد من دم المسيح»<sup>(٢٣)</sup> .

على أنه يجب أن ندرك أن المجلس الذي قد دعا إليه إجناشيوس لم يصدر قرار الحرمان ضد فوشيوس بسبب هجومه على كنيسة روما ، وإنما بسبب دوره في خلع إجناشيوس وأنه كان من أنصار القيسير باردادس من العهد «البائد» . ومع أن فوشيوس قد عزل من منصبه ، إلا أن تعاليه قد بقيت .

وتجدر باللحظة أن إجناشيوس ذاته راح يجادل مع روما بنفس الحجج

P.G., Vol. CII, cols. 623 seq.

(٢١)

Mansi, Vol. XVI, col. 123.

(٢٢)

Nicetas the Paphlagonian, op. cit., col. 545.

(٢٣)

التي ابتكرها خصميه . ذلك أن إجناشيوس قد أعلن في مجلسه هذا الرفض التام لادعاءات روما في الإمارة على الكنيسة العالمية ، وأكده أن البطارقة الخامسة (لروما وبيزنطة والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم) متساوون في الرتبة الكنيسة دون تمييز على الإطلاق . وشهدت الجلسة الختامية لمجلس إجناشيوس حدثاً خطيراً ، إذ وصلت إلى القدس: طينية في ذلك الوقت سفارة بلغارية فسمح لأعضاءها بحضور هذه الجلسة . وفيها قضى الإمبراطور بازيل الأول والبطريرك إجناشيوس أن بلغاريا ملك للإمبراطورية البيزنطية . وهنا وقف المندوب البابوي وأبرز من جيشه خطاباً من البابا هادريان الثاني يحذر فيه إجناشيوس من « التامر اليوناني » ضد روما في بلغاريا ، غير أن البطريرك أهمل كلام المندوب ورفض قراءة خطاب البابا<sup>(٢٤)</sup> .

وبعد قليل أمر بورس ملك البلغار رجال الدين اللاتين بأن يغادروا بلاده ، وأحل محلهم القساوسة البيزنطيون . فكان هذا الموقف مدعاه لغضب البابا الجديد يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢) ، الذي أرسل كتاباً إلى بورس يتوعده فيه ويهدد بعقاب إجناشيوس ولعنه وخاتمه « هنا الشخص الذي أعدناه إلى منصبه بفضل عطافنا الرسولي ». كما كتب البابا إلى دوماجوي الأمير الكروati رسالة يؤكد له فيها أن إجناشيوس وكافة رؤساء الأساقفة الذين عينهم في بلغاريا « انفصاليون » ومنحرفون<sup>(٢٥)</sup> .

ترى إجناشيوس في ٢٨ أكتوبر ٨٧٧ ، وعندما أعاد الإمبراطور بازيل الأول البطريرك المخلوع فوشيوس إلى عرش أبي صوفيا مرة أخرى . ويعتقد بعض الباحثين أن بازيل كان قد أجرى صلحًا بين فوشيوس وإجناشيوس ، وأن الأول كان قد مارس مهمات البطريركية قبل وفاة إجناشيوس ببضعة شهور<sup>(٢٦)</sup> .

Liber Pontificalis, Vol. II, p. 185.

(٢٤)

M.G.H. SS., Vol. VI, p. 278.

(٢٥)

See F. Dvornik, op. cit., p. 178.

(٢٦)

كان انتصار فوشيوس ببعث حرج للبابوية ، ففتح يوحنا الثامن باب المفاوضات مع هذا «البيزنطي العنيف» يساومه فيها بأن يعرف بشرعية انتخابه للبطيركية مقابل تسليم بلغاريا لروما . وبعد قليل بدأت المصادر المسئولة في روما تتحدث عن فوشيوس «التقى الورع»؛ كما امتنحت فيه الحكمة والرصانة والقدسية . وكتب يوحنا الثامن إلى أتباع إجناشيوس يأمرهم « بالعودة إلى الأب الورع فوشيوس » ، وإلا فإنه مصدر ضدهم قرار الحرمان<sup>(٢٧)</sup> .

عقد فوشيوس مجلساً في القدسطنطينية في ٨٧٩ - ٨٨٠ ، شارك فيه مندو بو  
البابا ومندو بون عن بطريركيات الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم . ووقف  
المندوب البابوي ، الأسقف بولس من أنكونا ، فلعن المجلس الذي كان  
لجناشيوس قد عقده عام ٨٦٩ وأعلن إلغاء قراراته . ثم راح بولس يعلن قرار  
الحرمان ضد «من تسول له نفسه الانفصال عن أو العصيان ضد السيد  
الكبير والبطريرك المسكوني المقدس فوشيوس»<sup>(٢٨)</sup> . ولذا المجلس أهمية فريدة  
في نوعها ، ففيه أجبر الرسل البابويون على الاستماع — دون معارضة — لنص  
قانون الإيمان النيقو — قسطنطيني ، والذي كان — بطبيعة الحال — خالياً من  
الإضافة «Filioque» . واتخذ المؤمنون قراراً بأن البابا بطريرك كسائر البطارقة  
الأربعة الآخرين ، ومن ثم فليس له سلطان أبلته على الكنيسة العالمية ،<sup>(٢٩)</sup>  
وعليه فليس هناك ما يبرر أنخذ موافقته عند اختيار بطريرك جديد لكنيسة  
القدس طينة .

ولما علم البابا يوحنا الثامن بهذه القرارات أرسل مندوبه الخاص مارينوس (الذى أصبح بابا فيما بعد من ٨٨٢ - ٨٨٤) إلى القسطنطينية ليطالب بالغاء تلك القرارات ، غير أن الإمبراطور بازل الأول والبطريرك فوشيوس أمراً بالقبض على المندوب البابوى وإيداعه السجن !

ولقد كان الاعتقاد حتى وقت قريب أن قطبيعة ثنائية حلّت بين فوشيموس

Liber Pontificalis, Vol. II, p. 187.

(۲۴)

Mansi, Vol. XVII A - XVIII A, col. 507.

(۲۸)

وروما في عام ٨٧٩ - ٨٨٠ ، إلا أن جماعة من الباحثين وعلى رأسهم Amann و Dvornik يطالعون بأن هذا لم يحدث<sup>(٢٩)</sup> .

حقيقة أن العلاقات بين بيزنطة ورومما لم تقطع تماماً أثناء اضطلاع فوشيوس للمرة الثانية بمنصب البطريركية ، على أنه لا بد من مراعاة أن تلك العلاقات كانت من النوع العرضي المتقطع والتي كان يشوبها الكثير من المراة ، الأمر الذي يدعونا إلى القول أن شيئاً أشبه بالقطيعة الفعلية كان قائماً بين الطرفين . ويؤيد هذا القول ما نسوقه هنا من الأدلة التاريخية .

عندما عالم البابا يوحنا الثامن بقدارات مجلس ٨٧٩ - ٨٨٠ وقف أمام المصلين في كنيسة القديس بطرس بروما وهو يمسك بالإنجيل ، فلعن فوشيوس ولعن سائر الذين لا يشاركونه في الموافقة على هذه اللعنة<sup>(٣٠)</sup> .

لم يكن البابا يوحنا الثامن الوحيد الذي لعن فوشيوس ، وإنما تبعه في هذا كافة البابوات الذين خلفوه وهم : مارينوس الأول (٨٨٤ - ٨٨٢) ، هادريان الثالث (٨٨٤ - ٨٨٥) ، ستي芬 الخامس (٨٨٦ - ٨٨٥) ، فورموزوس (٨٩٦ - ٨٩١) ، بونيفاس السادس (٢٣ مايو ٨٩٦ - ٦ يونيو ٨٩٦) ، ستي芬 السادس (٨٩٦ - ٨٩٧) ، رومانوس (أغسطس ٨٩٧ - أكتوبر ٨٩٧) ، ثيودور الثاني (٨٩٧ - ٨٩٨) ، يوحنا التاسع (٨٩٨ - ٩٠٠) . هؤلاء جميعاً اعتبروا فوشيوس مجرد علماني « لعين »<sup>(٣١)</sup> .

وقد كان موقف البابوية هذا مشجعاً لأقلام كتاب غرب أوربا اللاتيني في نهاية القرن التاسع وأوائل العاشر لأن تطاول على البيزنطيين بالسب والقذف بوجه عام وعلى فوشيوس بوجه خاص . ومن بين الذين تعرضوا لفوشيوس

E. Amann, Photius, in Dict. de Théol. Cathol. (1935), Vol. XII, cols. 1536- (٢٩)

1604; F. Dvornik, op. cit., loc. cit.; V. Grumel, " Y'cut -il un second Schisme de Photius? " in Revue des Sciences Phil. et Théol. (1933), Vol. XII.

Mansi, Vol. XVI, cols. 447 - 49. (٣٠)

Ibid., col. 475. (٣١)

روما وبيزنطة

أودو أسقف بوشية<sup>(٣٢)</sup> ، إينياس أسقف باريس<sup>(٣٣)</sup> ، راترامنوس مقدم دير كوربيه<sup>(٣٤)</sup> ، ثم الراهب أرشمبرتوس<sup>(٣٥)</sup> . وصف إينياس أسقف باريس الكنيسة البيزنطية على أنها مصدر المهرطقة والتجديف ، كما أنه نعت بطراقة أيا صوفيا على أنهم هرطقة وأصحاب «السنة أفعوانية»<sup>(٣٦)</sup> .

أما مقدم دير كوربيه فقد أعلن أن البيزنطيين قد بجذروا بال المسيح بإنكارهم انبثاق الروح القدس من الآبن . وقد زعم الكاتب اللاتيني أن القديس آثاناسيوس بطل نيقية الشهير قد قال بانبثاق الروح القدس من الآبن ، لكنه قد جانب الحق والصواب في قوله هذا<sup>(٣٧)</sup> . وراح الراهب أرشمبرتوس يلعن اليونانيين على أنهم من جنس الحيوان ، مسيحيون بالاسم فقط ، ولكنهم على خلق قمي<sup>(٣٨)</sup> .

قال البعض إن البابا فورموزوس (٨٩١ - ٨٩٦) قام بمحاولات لمصالحة كنيسة بيزنطة وبأنه قد أظهر روحًا من التسامح تجاه بطارقها . ولكن هنا الفول مردود ، لأن فورموزوس قد كتب رسالة إلى صديقه فولكوس أسقف مدينة ريمز يطلب منه فيها الصلاة من أجل كنيسته الأم (روما) في صراعها الذي لن يهدأ ضد الكنيسة البيزنطية «المنحرفة المهرطقة»<sup>(٣٩)</sup> .

Odo's work had been lost.

(٣٢)

Aeneas de Paris, 'Liber adversus Graecos', in P.L., vol. CXXI, cols. 719  
Seq.

Ratramnus de Corbie, *Contra Graecorum Opposita Romanam Ecclesiam* (٣٤)  
*Insamantium*, in P.L., Vol. CXXI, cols. 225 - 346.

Erchemberti Cassinensis Monachi, 'Historia Longobardorum,' in P.L., vol. (٣٥)  
CXXIX, cols. 782 Seq.

Aeneas de Paris, loc. cit : (٣٦)

Ratramnus de Corbie, loc. cit. (٣٧)

Erchembertus, loc. cit. (٣٨)

Flodoradi 'Historia Remensis Ecclesiae, lib. IV, in M.G.H. SS., vol. XIII,  
p. 559. (٣٩)

ولعل أهم وثيقة دامجة تثبت نظرية العداء المستمر تجاه بيزنطة وبطريركتها المسكوني فوشيوس ما ورد في قرارات مجلس Trosley الذي دعا إلى عقده رئيس أساقفة ريمز بناءً على أوامر البابا سيرجيوس الثالث (٩٠٤ - ٩١١). تقول أعمال المجلس بأن الكرسي البابوي قد أحاط المؤمنين علمًا بأن تعاليم فوشيوس «الدنسة» ضد الروح القدس لا زالت منتشرة في المشرق، وعليه فإنه يتتحم على الآباء اللاتين أن يخرجوا من بطون الكتاب المقدس «سهاماً حادة ليسحقوا بها رأس الأفعى»<sup>(٤٠)</sup>.

هذا الرجل — فوشيوس — الذي استطعوه الغرب اللاتيني الاعنات بتوجيهه من البابوية الحاقدة، أدرجه البيزنطيون في عداد القديسين. وظللت سيرته مبعث إلهام وقوة للأجيال التي تليه، وباتت تعاليه وأقواله ضد كنيسة روما والنظرية البطرسية ضد انحراف قانون الإيمان في الغرب هادياً لسائر البطارقة الذين أتوا من بعده. يحدثنا يوحنا، كاتب سيرة القديس يوسف صاحب الألحان الكنسية، أن فوشيوس كان أعلم رجال عصره، وأنه بقدرة شخصيته وخفة ظاهر قد سحر أفئدة العالم أجمع<sup>(٤١)</sup>. ووضع آريثاس من قيسارية، وهو من تلامذة فوشيوس، سيده البطريرك المسكوني في النعيم الخالد بجوار القديس يوحنا كرايزوستوم «صاحب الفم الذهبي»<sup>(٤٢)</sup>. أما البطريرك نيقولا مستيكوس فرأى في فوشيوس «رجل الله الحسن الأحسن.. سيدى وأبى في الروح القدس»<sup>(٤٣)</sup>.

Mansi, Vol. XVII A — XVIII A, cols. 263 - 308. (٤٠)

John the Deacon, 'S. Josephi Hymnographi Vita,' in P.G., Vol. CV, cols. (٤١)

908 Seq.

\*Epitaphius' in Euthymium Patr., republished by M. Jugie, in Patr. Orient., (٤٢)

vol. XVI, p. 498.

In Nicholas Mysticus' letter to the Emir of Crete, in P.G., Vol. CXI, cols.] (٤٣)

هذا وقد ظهر اسم فوشيوس في السنكساريا ( سير القديسين ) في كنيسة  
بيزنطة في نهاية القرن العاشر ، ويرجح أن قرار خلع القداسة عليه قد تم في  
عهد بطريركية سيزينيوس ( ٩٩٦ - ٩٩٨ )<sup>(٤٤)</sup> :

---

M. Jugie, "La Culte de Photius dans l'Eglise Byzantine," in Revue de l'Orient Chrétien (1922 - 23), 3rd ser. III, pp. 109 seq.

## الفصل الثاني

### الشقاق الديني الأكبر بين روما وبيزنطة

( ١٠٥٤ )

كان القرن الذي أعقب قطيعة فوشيوس من أمجاد صفحات الدولة البيزنطية ، إذ جلس على عرشهما جماعة من أمراء القواد العسكريين من أفراد الأسرة المقدونية الذين أصلحوا نظم الإدارة ، وقضوا ملك البلغار ، ثم استرجعوا ما كان لبيزنطة من نفوذ وهيبة في جنوب إيطاليا . وجنباً إلى جنب مع هذه الانتصارات العسكرية بدأت الحركة التبشيرية الأرثوذكسيّة في روسيا تحرز ثمارها . وأينما حلّت فيالق الإمبراطورية ، نشرت كنيسة أيا صوفيا ألويتها ونظمها الكنسية وفق التراث المسكوني القويم .

غير أنها لا زكاد نجد شيئاً في الحوليات عن العلاقات بين البطارقة العشرة والبابوات الواحد والعشرين من معاصرיהם في تلك الفترة الطويلة . ومورد ذلك أن الكتاب البيزنطيين في القرن العاشر أيقنوا أن غرب أوروبا قد ضل الطريق فانسلخ متوارياً يوم أن أصبح للبابا خليلة شريعة ويوم أن أمسى الفاتيكان بيت سوء يشرب فيه البابا (يوحنا الثاني عشر) الخمر في صحبة الشيطان في ليلة عيد الميلاد !

وفي نفس الوقت دب الخلاف بين أوتو العظيم « الإمبراطور الجermano - روماني المقدس » وبين نقولور فوكاس وخليفةه يوحنا زيمسكس . وفي عام ٩٧٤ اغتال البابا الخامس فرانكو البابا الشرعي بنيدكت السادس ، ولما طرده الملك الألماني أوتو الثاني ، بلأ إلى القسطنطينية حيث وحّب به زيمسكس . وهكذا فإن بيزنطة لم تعرف بالبابوات الشرعيين بنيدكت السابع (٩٨٣-٩٧٤)

ويوحنا الرابع عشر (٩٨٣ - ٩٨٤) اللذين اختارهما الملك الألماني.

مات أوتو الثاني وهو لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره ، تاركاً على العرش طفلاً لا يتجاوز الثالثة هو أوتو الثالث . واتبع هذا سياسة أبيه فعين برونو ابن عمه للبابوية (جريجوري الخامس / ٩٩٦ - ٩٩٩) ثم جربرت (سلفيستر الثاني / ٩٩٤ - ١٠٠٣) . وحمل الملك الألماني الشاب لقب إمبراطور الرومان *Romanorum Imperator* ، كما كان يوقع رسائله إلى أهل روما بصفته « خادم يسوع المسيح » (*Servus Iesu Christi*) وهو نفس الأسلوب الذي ابتدأه القديسان بطرس وبولس . وفي نفس الوقت كان أوتو الثالث يحتقر البيزنطيين وينكر على حامل التاج التلقيب بلقب إمبراطور الرومان . وفي عام ١٠٠٢ توفى أوتو الثالث دون أن يترك وريثاً للعرش . وفي عام ١٠١٤ اختار النبلاء الدوق هنري الثاني ملكاً على الألمان ، وقام البابا بتنصيبه إمبراطوراً . وجاء بعد هنري الأمير البرجندى كونراد الثاني (١٠٣٩-١٠٤٢) ، وخلفه ابنه هنري الثالث على الحكم (١٠٥٦-١٠٣٩).

فرض هنري الثالث نفوذاً كاملاً على مدينة روما . وحدث أن نشب نزاع على عرش البابوية بين ثلاثة مرشحين ، فطردهم هنري جميعاً وعين البابا كلمانت الثاني (١٠٤٦ - ١٠٤٧) ، الذي منح الملك الألماني لقب *Patricius* وبذاته صار له حق تعيين البابوات .

كانت بيزنطة في تلك الفترة تسيطر على جنوب إيطاليا الذي كان يشمل الإمارتين اللومبارديتين سالرنو وكاپوا - بینینيتشتو ، والمدن التجارية جاياتا ونابلي وأمالفي . كذلك كان لها الإشراف على كلابريا وأبوليا . غير أن نفوذ بيزنطة تعرض لأشد اللطمات بداية من عام ١٠١١ . في ذلك العام ترد القائد الأول ميلو ضد الحكم البيزنطي مستعيناً في ثورته بالفرسان المرتزقة من النورمان الذين كانوا وقتها يحجون إلى ولائهم القديس ميخائيل على جبل جارجانو . ومع أن السلطات البيزنطية قد نجحت في قمع ثورة ميلو ،

إلا أن الفرسان النورمان قرروا الإقامة في جنوب إيطاليا ، وأرسلوا إلى ذويهم (في نورمانديا) ، فحضروا واستقروا هم أيضاً هناك . ومن عام ١٠٤٠ فصاعداً راح أبناء تانكرد دي هوت فيل في تقويض نفوذ بيزنطة في الجنوب الإيطالي بشكل مذهل وسريع ، مما أزعج السلطات الحاكمة في القسطنطينية .

ولم تكن ممتلكات بيزنطة وحدها فريسة للنورمان في جنوب إيطاليا ، إذ وجه هؤلاء ضرباتهم أيضاً ضد الإمارات البابوية هناك .

في عام ١٠٤٨ اختار الإمبراطور الألماني هنري الثالث البابا ليو التاسع لعرش القديس بطرس . وليو هذا كان أسقفًا لمدينة تول في إقليم اللورين ، المدرسة الأولى للإصلاح الكنسي . أحضر ليو معه إلى روما أشهر زعماء الإصلاح من أمثال فردرريك اللوريني ، وأودو من تول ، وهبيو الأبيض من ريمونت ، ثم هبرت من سلفا — كانديدا .

وقد كان أثر هذا الحزب الإصلاحي عميقاً للغاية ، مما جعل المؤرخ Fliche يتحدث عن « الإصلاح اللوريني » وكأنه النواة الأولى لنقطة التحول في تاريخ الكنيسة اللاتينية<sup>(١)</sup> .

كان الحم الأول والأخير بجماعة ليو تحرير البابوية من قبضة الملوك الألمان الذين منذ أيام شارلمان كانوا يحركونها كيفما شاءوا . وما من شك أن *Constitutio Romanorum* الذي صدر في عام ٨٢٤ ، والمرسوم الإمبراطوري الذي جاء في عام ٨٩٨ ، و« الامتياز » الذي حصل عليه أوتو العظيم — كل هذا قد ثبت من نفوذ الإمبراطور على البابا . يلاحظ أيضاً أن النبلاء الرومان كانوا لهم نفوذ كبير على البابوية . وهكذا فإن سلطان البابا والكرادلة لم يكن له وزن يذكر في القرنين التاسع والعشر . ولما جاء هنري الثالث أثبت لمعاصريه أنه أشد العثمانيين استغلالاً لسلطانه

A. Fliche, et Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1948, Vol. I,

(١)

pp. 113 - 128, and II, pp. 173 - 204.

القيصر - بابوى ، ولكته رغم هذا قد خسر المعركة ؛ لأنه هو الذى جاء بليو التاسع وحزبه من اللورين إلى روما ؛ وسرعان ما انقلب هؤلاء المصلحون ضد الملك الألماني بهدف تحرير الكنيسة من السيطرة العلمانية .

نقطة أخرى أخذ المصلحون على عاتقهم إنفاذها ؛ هي تحقيق وحدة الكنيسة العالمية تحت إمرة خليفة بطرس « سيد الرسل ». وكان هذا داعياً لأن تبدى المدرسة الجديدة رأيها منذ وقت مبكر في كنيسة بيزنطة . رأى ليو وأتباعه أن كنيسة بيزنطة قد أذنبت فأخرجت سلسلة من المهرقات والبدع ، إلا أن الجرم الأكبر في نظر هذا الحزب كان إصرار بيزنطة على عدم الاعتراف بإمرة البابا على « الصخرة » .

وعلى هذا فإن الدلائل باتت تشير إلى صدام بين اللاتين والأرثوذكس ، وقد كان .

في تلك الأثناء كان النورمان في جنوب إيطاليا قد زحفوا على ممتلكات البابوية ، بعد أن أجهزوا على أراضي الدولة البيزنطية هناك . وهنا قرر البابا ليو التاسع عقد محالفه مع الإمبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع مونومانخوس ( ١٠٤٩ - ١٠٥٥ ) لمحاربة النورمان . وتم التحالف بين الطرفين بعد أن توسط القائد اللومباردى آرجيروس بين البابا والإمبراطور من أجل محاربة النورمان .

كان بطريرك بيزنطة في تلك الفترة ميخائيل كريولاريوس ، الذى شغل قبل ذلك منصباً سياسياً هاماً وأصبح من أبرز رجال البلاط الإمبراطوري . في عام ١٠٤٠ كان كريولاريوس طرفاً في مؤامرة لإطاحة الإمبراطور ميخائيل الرابع عن العرش . غير أن المؤامرة فشلت ، وعندما قرر الإمبراطور معاقبة كريولاريوس بإجباره على دخول سلك الرهبنة . ولكن كريولاريوس وقف في وجه الإمبراطور رافضاً الإذعان . وعندما انتحر شقيقه طرأ على حياته تغير كبير ، إذ قصد بنفسه إلى أحد الأديرة

وأنخرط في سلك الرهبانية . وفي عام ١٠٤٣ استولى قسطنطين التاسع مونوماخوس على الحكم ، ولما كان صديقاً لكريولاريوس فقد اختاره لكرسي البطريركية خلفاً للبطريرك المتوفى الكسيوس .

كان كريولاريوس معارضًا للتحالف بين بيزنطة والبابوية ، إذ رأى بشاقب نظره أن هذا قد يعطى روما فرصة للتتدخل في شؤون الكنيسة الشرقية . كذلك كان البطريرك مرتاباً في موقف أرجirios القائد الومباردي الذي وكلت إليه مهمة الإشراف على جيش بيزنطة في جنوب إيطاليا ، ومن أجل هذا فقد أصدر قراراً بالحرمان ضده .

بدأ الخلاف بين كنيستي روما وبيزنطة بعد أن علم كريولاريوس أن النورمان قد منعوا اليونانيين في جنوب إيطاليا من ممارسة طقوسهم الدينية وذلك بموافقة كنيسة روما . وردًا على هذا الموقف فقد أمر كريولاريوس الكنائس اللاتينية في القسطنطينية باتباع الشعائر اليونانية ، وعند رفضها أمر بإغلاقها (نهاية عام ١٠٥٣) .

ولما علم البابا ليو التاسع بغلق الكنائس اللاتينية في بيزنطة أرسل للإمبراطور ي THEM كريولاريوس « بالواقحة » وبحددي قانون الله ، كما شبه سلوكه بموقف « الفريسيين والكتبة الذين يوصلون ملائكة السماوات في وجه البشر » (٢) . وقد اتهم الكاردينال هبرت من سلشا — كأنديدا السلطات البطريركية بأنها دبرت فتنة عند غلق الكنائس اللاتينية وأنها أمرت بأن « يدادس خبز التناول المقدس » اللاتيني تحت الأقدام (٣) .

وهكذا تجدد العداء الدفين بين الكنسيتين في صورة أكثر عنفًا مما سبق . حيث كريولاريوس صديقه ليو من أونخريدا رئيس أساقفة الكنيسة البلгарية على أن يكتب رسالة إلى يوحنا أسقف مدينة ترانى « في أبوليا » ليسلمها إلى

P.L., Vol. CXLIII, cols. 758 - 64.

(٢)

Ibid., col. 1004.

(٣)

البابا وسائر أساقفة الفرنجية<sup>(٤)</sup> . تبدأ رسالة ليو بتوضيح أن الكنيسة اللاتينية باستدامها « الخبز الغير مختمر » فيتناوله تبعًا في شركة مع اليهود الذين يفعلون نفس الشيء وفق القوانين الموسوية . وأوضح الكاتب أن الخبز الذي تناول منه المسيح هو وحواريه في العشاء الأخير مختمر (أرتوس) ، أما الخبز الغير مختمر فلا حياة فيه ، أصم كالحجر . وراح يقول إن شركة التناول بالخبز المختمر تمثل الميلاد الجديد : شركة الغبطة والعهد الجديد في نعمة جسد المسيح .

ثم يمضي الكاتب مستنكرًا على اللاتين صيام السبت : « ألم تطالعوا ما فعله الملك داود ، عندما كان محوzaً وخاوي البطن ، هو ومن كانوا معه .. ألم يدخل المعبد على الكاهن الأكبر آلي آثار فأكل من خبز التناول هو وصحابه رغم مخالفة ذلك للقانون ، قائلًا لعارضيه « لقد جعل السبت لابن الإنسان لا ابن الإنسان للسبت ، وهكذا فإن ابن الإنسان سيد على يوم السبت نفسه ». إن رجال الدين اللاتين — كتب ليو — يماثلون الفهود لأن جلدده لا هو بالأبيض ولا بالأسود . وعلى هذا فاللاتين يظلون معلقين بين طرف تقىض ، فهم ليسوا يهوداً ولا هم بمسحيين<sup>(٥)</sup> . ثم يمضي رئيس الأساقفة البيزنطي فيهاجم اللاتين لأنهم يأكلون المنخنة وأنهم يحرمون على القساوة الزوج .

وصل خطاب ليو هذا إلى إيطاليا في وقت حرج من عام ١٠٥٣ ، إذ أن جيوش بيزنطة والجيش البابوي قد لقيت هزيمة فادحة على يد النورمان . وفي موقعة Civitate (يونية ١٠٥٣) وقع البابا ليو التاسع أسيراً في يد النورمان ، فحملوه إلى مدينة بينيقتون ، غير أنهم سمحوا له بإدارة شؤون الكنيسة من هناك ، إذ كان النورمان أنفسهم أعضاءً متخصصين للكنيسة اللاتينية . وللذى سمح النورمان للسكرتير البابوى — همبرت من سلثا — كانديدا — بأن يلحق بسيده عندما يشاء . وأثناء رحلته من روما إلى بينيقتون ، عرج همبرت على مدينة ترانى ، وهناك سلمه الأسقف البيزنطى

Ibid., cols. 929 - 32.

(٤)

Ibid., col. 931.

(٥)

يوحنا رسالة ليو رئيس أساقفة بلغاريا السالفة الذكر .

لم يكن هبرت ضالعاً في اللغة اليونانية ولكنه قام بعمل ترجمة سريعة للرسالة ، ولأنه كان كارهاً لبيزنطة وكنيستها ، ضخم من عبارات المجموع على كنيسة روما الواردة في الرسالة . وعندما وصل إلى بييفنشتو قدم الرسالة وترجمتها إلى سيده ليو التاسع ، الذي كان يشغل وقت أسره في تعلم اللغة اليونانية ، غير أنه من المشكوك فيه أن البابا كان على دراية كاملة باليونانية تمكنه من مراجعة ترجمة هبرت <sup>(٦)</sup> .

ثار ليو التاسع غاضباً عندما قرأ هذه الرسالة المجموعية الواردة من رئيس الأساقفة البيزنطي ، فأمر هبرت بأن يكتب رسالتين ، إحداهما موجهة في لهجة غير مهدبة إلى « الأسقفيين كريولاريوس وليو من أخريرا <sup>(٧)</sup> » ، والثانية لم ينص فيها على الشخص المرسل إليه <sup>(٨)</sup> . وأهم ما ورد في هاتين الرسالتين ، أن كنيسة روما لم تلتفظ طوال تاريخها بالهرطقة لأن « المسيح ذاته قد صلى من أجل بطرس ليثبت إيمانه » ، أما الكنيسة اليونانية فقد كانت منبعاً للتجديف ، فهي التي أخرجت آريوس ونسطور ويوطاخيوس وغيرهم . وراح البابا يقول إن كرسى روما هو الذي تصدى لتلك البدع فسحقها ونظف العقيدة من الانحرافات المشرقية . وقد أصر البابا في كتابه على إبراز إمارة روما على سائر الكنائس والبطيريكيات الأخرى مسبقاً الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم على كنيسة القسطنطينية ، طالباً خضوعها جميعاً ل الخليفة القديس بطرس ، أمير الرسل <sup>(٩)</sup> .

ثم ذكر البابا في رسالته أن كنيسة روما هي التي قضت على هرطقة تحطيم الأيقونات ، وأنها انتصرت لإجناشيوس ضد فوشيوس . واختتم ليو التاسع كلامه بمحاجمة الكنيسة البيزنطية بطريق غير مباشر : إذ ألمح

S. Runciman, The Eastern Schism, London, 1955, p. 42.

(٦)

P.L., Vol. CXLIII, cols. 744 - 69.

(٧)

Ibid.

(٨)

Ibid.

(٩)

بأنه لا يميل إلى تصديق الإشاعة القائلة بأن الكثرين من رجال الدين البيزنطيين من الحصيان .

وقد كتب البابا أيضاً رسالة إلى بطرس بطريرك أنطاكية آملاً في كسب تأييده ضد كريولاريوس . ولهذا فإن ليو التاسع أخذ يتملّق بطريرك الأنطاكي ، ممتداً حساقته وعلمه ، ومذكراً إياه بأن بطرس الرسول كان أول أسقف لمدينة أنطاكية ، وعلى هذا طالبه البابا بالولاء للخلافة بطرس الرسول في روما . وتوجى هذه الرسالة بأن البابا أراد أن يجند بطرس الأنطاكي ضد بطريرك بيزنطة في هذا الصراع<sup>(١٠)</sup> .

وفي تلك المرحلة من الصراع وصل رسول من القسطنطينية يحمل رسالتين ، الأولى من توقيع الإمبراطور مونوماخوس ووجهة إلى البابا يطلب منه فيها تقوية أواصر الحلف السياسي بينهما في الحرب ضد النورمان . أما الثانية فهي من كريولاريوس ، ويطلب فيها من البابا العمل من أجل وحدة الكنيسة ، واعداً بإدراج اسم البابا في « أئماء الإمبراطورية » بشرط أن يدرج اسمه أولاً في كنيسة روما . غير أن كريولاريوس خاطب البابا على أنه « الأخ ليو » بدلاً من التسمية التقليدية « الأب الطوباوي » ، كما وقع الرسالة بصفته « البطريرك المسكوني »<sup>(١١)</sup> .

وقد قام الكرادلة القائمون بخدمة البابا بترجمة كلمة « أئماء الإمبراطورية » الواردة في رسالة البطريرك البيزنطي إلى « أئماء العالم أجمع » . ولهذا فقد غضب البابا غضباً شديداً إذ فسر هذا على أنه زعم لكريولاريوس في اتخاذ صفة « العالمية » ، كما أنه لم يقبل أن يخاطب « كأخ » بدلاً من « أب طوباوي » . وقد ساهم الكاردينال هبرت من سلطاً – كأنديدا في تهويل الأمر في نظر البابا ، مما أدى إلى تدهور العلاقات بين الطرفين . وللحظ أن كريولاريوس في رسالته هذه قد كان يخطب مودة البابا ، ولم

Ibid., cols. 769-73.

(١٠)

P.G., Vol. CXX, cols. 781 - 96.

(١١)

يقصد للإساءة إليه ، ولكن الكراهة الشديدة التي كان يضمها أعضاء الكيوريا لكنيسة بيزنطة جعلت البابا يتشدد في موقفه ، وقد زاد الأمور تعقيداً أن ساعت صحة البابا إلى حد اضطرره لأن يترك تدبير شؤون الكنيسة إلى صديقه المقرب الكاردينال همبرت الذي كان ذا طبع ناري ولا يقبل الموادة ، هذا إلى جانب احتقاره الشديد لكل ما هو بيزنطي وشرقي .

وعلى هذا فإن همبرت كتب رسالتين باسم البابا ، الأولى موجهة إلى الإمبراطور مونوماخوس<sup>١٢</sup> والثانية موجهة إلى كريولاريوس .

وقد تناول الكاردينال الفرنسي في رسالته الأولى شخص البطريرك البيزنطي بأقذع الشتم والاتهامات ، متهمًا إياه بالتحرش باستقلال بطريركيتي أنطاكية والإسكندرية ، مهدداً باتخاذ البابا قرارات تأديبية ضده<sup>١٣</sup> . وجاءت الرسالة الثانية لتوبيخ كريولاريوس لاتخاذه لقب «مسكوني» ، كما ألقى شكاً على قانونية انتخابه بطريركاً . وفي نفس الوقت اتهم بانهال حقوق بطريركيتي الإسكندرية وأنطاكية<sup>١٤</sup> .

قرر همبرت السفر بنفسه إلى القسطنطينية — على رأس بعثة بابوية — ليسلم الرسائلتين بيده . وكان في رفقته فردريلك اللوريوني ، المستشار البابوي ، وبطرس رئيس أساقفة آمالفي . عرج هؤلاء في طريقهم على القائد الومباردي أرجيروس الذي — بسبب العداء الشخصي بينه وبين البطريرك — نصّح لهم بتجاهل الأخير والتشاور مباشرة مع الإمبراطور مونوماخوس .

قبل أن تتابع مجري الأحداث التي أدت إلى الشقاق الفعلي بين الطرفين ، يجب دراسة رد الكاردينال همبرت على رسالة ليو من أونحریدا دراسة تحليلية لأنها تكشف عن مشاعره ونواياته تجاه الكنيسة البيزنطية<sup>١٥</sup> . يتهم الكاردينال كنيسة بيزنطة بالهرطقة والإمعان في الصلال ، « وإنه لمن العجرفة أن يطلق

P.L., Vol. CXLIII, cols., 777 - 81.

(١٢)

Ibid., cols. 773 - 77.

(١٣)

P.L., Vol. CXLIII, cols. 929 - 74, under the title "Humbertus Silvae Candidae adversus Grecorum Calumniae".

(١٤)

الهراطقة ألسنتهم ضد الكنيسة الفرنجية الوقورة وضد البابا الطوباوي ». إن هجوم اليونان ضد الخبز الحالى من الخميرة — قال الكاردينال — تجديد المهرطقة المانوية القائلة بأن الحماد له روح ، وأن الكلمة (آرتوس) الواردة في العهد الجديد تشير إلى الخبز الحالى من الخميرة والختمر على حد سواء . وعندما يقدم الكاتب على تفريغ قوله اليونان «إنما يشبه ملوك السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع »<sup>(١٥)</sup> ، يرد عليهم بالنص الإنجيلي «إذا نقوا منكم الخميرة العتيقة لكي تكونوا عجيناً جديداً كما أنتم فطير . إذاً لتعيد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث بيل بفطير الإخلاص والحق »<sup>(١٦)</sup> .

وعلى هذا فعل البيزنطيين أن يحتفظوا « بخبزهم العفن » لأنهم يحولون الحق أفسستينا ويلقون البر إلى الأرض » يقول السيد الرب<sup>(١٧)</sup> .

أما عن دفاعه عن صيام أيام السبت فهو يقول بأن هذا «اليوم يوم فرح عند اليهود ولكنها يوم حزن عند أتباع المسيح ، وهذا وجوب صيامه مشاركة لذكرى دفنه في القبر . ورداً على عبارة رئيس أساقفة بلغاريا التي شبه فيها اللاتين بالفهد المخطط الجلد ، فإن الكاردينال الفرنجى ، الذي لم تكن تخفي عليه بذاعة القدامى ، فقد كتب يقول « تمغض الجبل فرلد فأراً »<sup>(١٨)</sup> وينتقم هميرت كلامه بنص من نبوة أشعيا ، وجهه إلى أهل بيزنطة : « ويل للقائلين للشر خيراً وللخرين شرًا بالحاuleين الظلام نوراً والنور ظلاماً ، بالحاuleين المر حلاوة والحلو مرًا »<sup>(١٩)</sup> .

وصل هميرت ورفاقه إلى القسطنطينية ، ودخلوا على البطريرك كريزلاريوس الذي لم يحسن استقبالهم . وعلى هذا فقد ألتى الكاردينال بخطاب البابا إلى

Matthew, XIII, 33.

(١٥)

Gorin. V.8

(١٦)

Amos, V. 4 - I50.

(١٧)

Horatius Flaccus, De Arte Poet., A.P. 139.

(١٨).

Isaiah, V. 20.

(١٩).

البطريرك ؟ وتركه هو وصحابه دون تحية لكريولاريوس .

كان كريولاريوس محظياً بواقع الأمور في إيطاليا ، ولما كان البابا أخيراً في يد النورمان ، فإن البطريرك رفض الاعتراف بهمبرت وزملاءه مندوبين بابويين . وعزز من موقفه هذا أن وردت أخبار بعد بضعة أيام عن وفاة البابا ليو التاسع (١٩ أبريل ١٠٥٤) . ولا شك في أن هذا قد أضعف من موقف همبرت ، وبذا تبرير كريولاريوس لتشدده معه أمراً مقبولاً في نظر شعب القسطنطينية<sup>(٢٠)</sup> .

في تلك الأثناء وقع صدام بين همبرت وأحد رهبان دير ستوديوم واسميه نيكيتاس ، الذي هاجم الشعائر اللاتينية خاصة صيام أيام السبت واستخدام الخبز الحالى من الخميرة ، ومنع القسيسين من الزواج .. إلخ<sup>(٢١)</sup>

وبعد أن قرأ همبرت ترجمة لاتينية لما كتبه نيكيتاس راح يهاجم الكاتب في عنيف وقاحة ، إذ أنه أعلن أن هذا الراهب « لا ينحدر من أحد الأديرة وإنما من بيت دعارة »<sup>(٢٢)</sup> ، وبأنه « حشرة ثعبانية متسلكة » وبيان هجومه ضد الكنيسة الرومانية يهبط به إلى مستوى « الكلاب المسعورة » ، فله ولأتباعه « جهنم وبئس المصير » . وهنا يعرج همبرت في هجومه على البطريرك كريولاريوس وعلى صديقه رئيس أساقفة بلغاريا ليجرحهما . ثم يمضي ليهاجم الشعائر البيزنطية ؛ قائلاً بأن إضافة الماء إلى خمر التناول المقدس — الذي اعتاده البيزنطيون — يجعل خمر التناول دنساً كريه الراحة « يذكر الأنوف مثلما كانت الراحة المتفجرة من بطئ آريوس اللعين »<sup>(٢٣)</sup> .

See L. Bréhier, *Le Schisme Oriental du XIe Siècle*, Paris, 1899, p. 13; also (٢٠)

R. Mayne, east and West in 1054', in *The Cambridge Historical Journal*, Vol. XI. (1953 - 55), p. 145.

Nicetas of Staudium, 'Libellus Contra Latinos', in P.L., Vol., CXLIII, (٢١)  
cols. 973 - 84.

Humbertus Silvae Candidae. 'Contra Nicetam', in P.L., Vol. CXLIII, cols. 983 - 98.. (٢٢)

Ibid., Col. 993. (٢٣)

ويختتم همبرت كلامه قائلاً بأن كنيسة بيزنطة قد تعرضت منذ البداية للفساد والفسق والمهرطقة والانحراف على يد آريوس وماسيدوبيوس ونسطور ويوطاخيوس وغيرهم ، وأيضاً « على يدك يا نيكيتاس – أيها التعمس الحقر – وعلى يد هؤلاء الذين يشاركونك الرأى فيما تقول والعقيدة فيها تنادي به»<sup>(٢٤)</sup> . كان الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس يرى ضرورة تهدئة غضب الكاردينال همبرت ورفاقه ، إذ كان مهتماً في الدرجة الأولى بقوية أواصر حلفه السياسي مع البابوية ضد قوة النورمان .

وهذا فقد أجبر الراهب نيكيتاس على الخضور والاعتذار لمبرت وصحابه ، ثم أعلن تراجعه عما كتبه ضد الكنيسة اللاتينية . كان موقف مونوماخوس مشجعاً للكاردينال المتعمّر لأنّه يمضى في غيه وفي تحدي رجال الدين في القسطنطينية فبدأ يتحدث عن موضوع انبثاق الروح القدس « من ابن أيضًا » مما أدى إلى هياج الرأى العام في العاصمة ضد السفراء اللاتين وضد الإمبراطور ذاته . ورغم كل هذه الاستفزازات بقى البطريرك كريولاريوس محافظاً على هدوءه وترك المندوبين اللاتين يتخطبون .

غير أن همبرت ، بعد أن يئس من استفزاز كريولاريوس ، قرر الإقدام على أمر خطير . فقصد في يوم السبت ١٦ يوليو ١٠٥٤ إلى كنيسة أيا صوفيا ، ومعه رفيقه . ودخل اللاتين إلى المذبح المقدس ووضعوا عليه قراراً بلعنة وحرمان البطريرك كريولاريوس ، ورئيس أساقفة بلغاريا ، ثم ميخائيل قسطنطين المستشار البطريركي . وخرج الثلاثة من الكنيسة وهو ينفضون الغبار من أقدامهم ، وذلك على مشهد من جمهور المصلين .

التقط أحد الشاهامسة هذه الوثيقة وأسرع وراء السفراء البابويين يتسلل إليهم استردادها ، دون جدوى ، فرمى بها إلى عرض الطريق . وسرعان ما وقعت تلك الوثيقة في أيدي كريولاريوس فأمر بعمل ترجمة يونانية لها ، وصعب بطريرك أيا صوفيا لما ورد فيها :

تبدأ الوثيقة بذكر أسماء هبرت وبطرس من آمالني وفرديلث اللوريبي على أنهم رسول البابا الشرعيون والأبناء المخلصون للكنيسة روما وبابويتها، رأس الكنائس ورقيب قواة الإيمان في العالم أجمع.

وتحضى الوثيقة لتهم كريولاريوس بعدم استحقاق منصب البطريركية « بسبب سلوكه الوجه وتعاليه المغلوطة التي أدت إلى ظهور آراء مهرطقة من قبيل السيمونية والخسي وإعادة عmad اللاتين والسماح للقسيسين بالزواج وتعظيم النساء وهن في وقت الحيض ، وتحريف القوانين الموسوية ، وحذف عبارة « الروح القدس منبع من ابن أيضًا » من قانون الإيمان ، ثم استخدام الخبز المختمر فيتناول المقدس ». وتلى ذلك الشكوى من قيام كريولاريوس بإغلاق الكنائس اللاتينية في القدس ومن عجرفته وتلقيب نفسه بلقب « مسكوني ». وبعد ذلك تصب الوثيقة اللعنة والحرمان على كريولاريوس وليو من أخریدا والمستشار البطريركي ، مدمعة عقیدتهم بالهرطقة مثلهم في هذا مثل الأريوسيين والمانويين وسائر البدع الأخرى<sup>(٢٥)</sup>.

لا زالت جماعة المؤرخين تعتقد إلى وقتنا هذا أن هذا القرار بالحرمان قد انصب فقط على كريولاريوس وحزبه . ولكن يجب ملاحظة أن الوثيقة في أكثر من مكان تتعرض بالطعن واللعنة للكنيسة البيزنطية ككل ، ذلك لأن الشعائر المتبعه فيها قد وضعت في مجموعها بالمانوية . وأهم من هذا أن الإيمان « بانشقاق الروح القدس من الآب [ فقط ] » قد نعت بالتجديف . ولا كان هذا النص وتلك الشعائر ليست من ابتكار كريولاريوس ورفاقه ، وإنما هي أركان أساسية في تاريخ الأرثوذكسية صاحبة المجالس المسكونية السبعة ، فإن وثيقة الحرمان لا شك قد طعنت الكنيسة الشرقية ككل ، لا مجرد شخص البطريرك وحزبه .

أسرع البطريرك ومعه ترجمة يونانية للوثيقة ليعرض الأمر على الإمبراطور مونوماخوس ، غير أن الأخير لم يصدق عينيه وهو يقرأ النص ، فقد أكرم وفادة المندوبين البابويين حتى لحظة رحيلهم عن العاصمة . والواقع أن الإمبراطور كان يساوره شك في هذه الترجمة ، ولهذا فقد أرسل مندوباً إمبراطوريّاً ليتحقق بهم بررت وصيغته ويحصل منهم على نسخة أصلية للقرار . ولحق بهم الرسول عند سلمبريا وحصل على بغيته ، فعاد وسلمها إلى سيده ، ووجد الإمبراطور أن الترجمة التي قدمها كريولا里وس مطابقة تماماً لما جاء في النص اللاتيني . أرسل الإمبراطور رسولاً ثانياً يطلب من المندوبين البابويين العودة إلى القسطنطينية وتوضيح موقفهم أمام المجلس ، ولكن هم بررت لم يعر هذا الكلام التفاتاً ، واستمر ورفاقه في طريقهم إلى الغرب .

في أثناء ذلك دبر أتباع كريولاريوس مظاهرات صاحبة ضد اللاتين وضد سياسة الذين التي اتبعها الإمبراطور معهم . وخاف مونوماخوس فأصدر أمراً بإحراء الوثيقة اللاتينية وأمر بالقبض على أقارب إرجيريوس وعلى الذين ساعدوا اللاتين في الترجمة من اللاتينية إلى اليونانية . وفي ٢٤ يوليو ١٠٥٤ اجتمع مجلس القسطنطينية واستمع المؤمنون إلى كلمة كريولاريوس :

«إن عدو البشرية يقظ . فلم يكتف بأن أوقع بشراكه الإنسان في سقطه الأولى وإنما دأب على تعريضه للهلاك والضلال آلاف المرات قبل مجيء الكلمة . وبعد هذا بذر المروفة تلو الأخرى لينال من صلب الإيمان . غير أن الله قد شاء لتلك الفتنة أن تزهق ، واستراح الناس ظناً أن العدو لن يعود لإدخال خطأ آخر في التجربة . ولكن نفراً من أبناء الظلام – هم في الواقع من الغرب – حلوا في مدینتنا بقصد إفساد العقيدة الأرثوذكسية . ومضوا في ضلالهم وبغيتهم فوضعوا على مذبح الكنيسة الكبرى نصوص الحرمان ضد شخصنا وضد كافة الأرثوذكسيين ، لأننا لا نخلق لحانا ، ولأننا نقبل شركة التناول من قسيسين متزوجين ،

ولأننا لا نقول بانبعاث الروح القدس من الإبن .

إن الكتاب المقدس يطالب رجل الدين بإطلاق لحيته ، ولقد أقر مجلس آنسيرا ومجلس تروللو زواج القساوسة ، أما انبعاث الروح القدس من الإبن فهذا عصف صارخ بتعاليم وتراث المجالس المسكونية .

لقد تردى أهل الغرب في هرطقة ماسيدونيوس بأن أعطوا الصفات الخاصة بالابن لكافحة أقانيم الثالوث . على هذا المنوال من الفحاظة والتمجيد يات هؤلاء المستهرون يشيعون الضلال في العاصمة . لقد قدموا على الإمبراطور زاعمين بأنهم رسول البابا ، ولكنهم في حقيقة الأمر عمالء لأرجirوس . . . .

ويقيناً منا أن ضلال هذه الطغمة وفسادها لا بد وأن يسحق ، فقد كتبنا إلى الإمبراطور ، الذي بادر فأرسل رسولاً ليتحقق بهم . ولكنهم مضوا في طريقهم لا ييالون . وعليه فقد أوفد إلينا الإمبراطور الراهب ستيفن ، أمين خزائن الكنيسة الكبرى ؟ ويوحنا الماغيستروس ؟ وقسطنطين قنصل الفلاسفة ليسلموا إلينا رسالة تبين الخطوطات التي يجب اتخاذها ضد الذين كتبوا تلك الوثيقة ضد الدين شاركوهن في المؤامرة ، وكذا أوامر بأن نصدر ضدهم قرار اللعنة وبأن نشعل وثيقتهم بالنار . ولقد سجلت اللعنة عليهم في الميغاسكريتون في حضور رسول الإمبراطور وأعيد تسجيلها يوم الأحد الرابع والعشرين من الشهر عندما تليت نصوص قرارات المجلس المسكوفي الخامس . واحتفظ بوثيقة اللعن هذه في أرشيفات الشارتفيللاكس لتبقى دليلاً دامغاً على حرمانهم أبداً الآبدين . ولقد شارك في صب اللعنة عليهم سائر رؤساء الأساقفة والأساقفة الحاضرون في الرابع والعشرين من يوليو السابق الذكر ، وهم : ليو من أثينا ، ميخائيل من سيليا ، نيقولا من إيوهانيا ، ديمتريوس من كاريا وآخرون »<sup>(٢٦)</sup>.

هذا وهناك مصدر آخر يلقي ضوءاً على هذا الشقاق بين بيزنطة وروما نجده في المكاتبات التي تمت بين كريولاريوس وبطرس بطريرك أنطاكية، في إحدى الرسائل التي بعث بها كريولاريوس إلى بطرس نطالع أنه كان قد كتب مبكراً إلى البابا ليو التاسع يلفت نظره إلى الأخطاء التي تفشت في كنيسة الفرنجة والتي تهدد كيان قانون الإيمان . غير أن أرجirوس قبض على حامل الرسالة واستولى عليها وما كان معها من هدايا لإمبراطورية مقدمة إلى البابا . ثم قام أرجirوس بتزيف رسالة باسم البابا وأرسلها ردّاً على خطاب كريولاريوس مع ثلاثة سفراء مزيفين . ولقد وصل إلى علم كريولاريوس أن البطريرك الأنطاكي يذكر اسم البابا في صلوات القدس ، كما أن بطاقة الإسكندرية وأورشليم يفعلون نفس الشيء . غير أن كريولاريوس لم يصدق هذا القول لأنه لا يخفي على أحد أن اسم البابوات قد أُسقط من كنائس الشرق تماماً منذ عصر فيجييليوس الذي رفض المشاركة في المجلس المسكوني السادس<sup>(٢٧)</sup> . كما عبر كريولاريوس عن غضبه الشديد لأنه قد علم أن بطريركي أورشليم والإسكندرية قد سمحا بشركةتناول لللاتين ، وبأنهما قد قاما في بعض المناسبات باستخدام خبز غير مختمر في شركةتناول ، وطلب من بطرس تقصي الأمر بدقة .

هذا وقد تلقى كريولاريوس نسخة من خطاب بطرس إلى رئيس أساقفة جرادو ، الذي هاجم فيه بطرس الخبز الغير مختمر . ولكن كريولاريوس لم يكن مقتنعاً بما ورد في الخطاب ، لأن كاتبه لم يعدد بقية الانحرافات في الكنيسة اللاتينية ، وعلى هذا فهو يذكر بها صديقه بطرس كالآتي : استخدام الخبز الغير مختمر في التناول ، أكل المتنحنة ، حلق اللحى ، أكل اللحوم في أيام الأربعاء ، والبيض واللبن في أيام الجمعة ، صيام أيام السبت ،

In fact, probably since 1012, in the reign of the Patriarch Sergius II (٢٧)

(1001 - 1019). See M. Jugie, *Le Schisme Byzantin*, Paris, 1941, p. 266;

V. Grumel, op. cit., p. 241.

إضافة عبارة « الروح القدس منشق من الابن » إلى قانون الإيمان ، تبتل رجال الدين من القسيسين ، زواج أخرين من أختين ، مشاركة القساوسة في أعمال الحرب ، العمام بغضسة واحدة في العمودية بدلاً من ثلاث ، عدم الاعتراف بجرائم اللاهوتي وبازل ويوحنا كرايز وستوم ضمن القديسين . . .

ويسأل الكاتب بعد ذلك : « هل يمكن إذن اعتبار هؤلاء الناس أرثوذكسيين ؟ » — إن **لُكْن** يفعل هذا — اختتم كريولاريوس رسالته — يصبح شريكًا لهم في الإثم <sup>(٢٨)</sup> .

من الواضح أن هذه الرسالة قد كتبت قبل أن يقوم الكاردينال همبرت ب فعلته في كنيسة أيا صوفيا ، إذ لا نجد إشارة فيها إلى هذا الحادث ، كما أن رد بطرس الأنطاكي أيضاً يخلو من مجرد الإشارة إليه . ولكن يجب أن نلاحظ أن القصة التي نسجها كريولاريوس عن القائد اللومباردي أرجيروس تجذب الصواب في بعض تفصياتها ، وإن كان لا يمكن إنكار أن همبرت ورفاقه قد عرجوا عليه قبل سفرهم من الغرب إلى القسطنطينية ، وعلى الرغم من المودة ومشاعر الأخوة التي يبليها كريولاريوس في رسالته إلى بطرس الأنطاكي إلا أنه لم يخف غضبه الشديد من بطرس لأنه يذكر اسم البابا في صلاة القدس ، مثله في ذلك مثل بطلاقة الإسكندرية وأورشليم . ويلاحظ أيضاً أن كريولاريوس كان يرغب في التأكيد من تضامن كراسى أنطاكيه وأورشليم والإسكندرية معه في شقاوه الأكبر ضد روما والبابوية .

هناك رسالة أخرى موجهة من كريولاريوس إلى بطرس الأنطاكي في نهاية يونيو ١٠٥٤ ، جاء فيها وصف كامل لمساك الكاردينال همبرت ورفاقه في كنيسة أيا صوفيا . ثم يحدّر الكاتب مخاطبه من حييل روما ويُهيب به أن يشد العزم لحماية الأرثوذكسيّة من زيف المراطقة اللاتين <sup>(٢٩)</sup> .

P.G., Vol. CXX, cols. 781 - 96.

(٢٨)

P.G., Vol. CXX, col. 793; V. Grumel, op. cit., p. 9.

(٢٩)

وقد أرسل كريولا ريوس برسائل مماثلة إلى كل من بطريرك الإسكندرية وأورشليم.

ورد في بعض المصادر<sup>(٣٠)</sup> أن ميخائيل كريولا ريوس قد عقد مجلساً أدان فيه البابا ليو التاسع ثم أسقط اسمه من الذكر في صلاة القدس.

ويؤرخ الكاتب المعاصر Phrantzes هذا المجلس بالسنة الخامسة والستين من البداية الثانية ، بينما يضعه Anonymous of Allatius في السنة ٦٥٥٢ من البداية الثانية . والبداية الثانية المشار إليها هنا هي أول سبتمبر عام ١٠٥٧ ، ويافق هذا التاريخ وجود بطريرك أنطاكية الجديد – تيودوسيوس – في القسطنطينية ، كما أوضح المؤرخ المعاصر Job the Jesite . والواقع أن تيودوسيوس الأنطاكي كان بالفعل حاضراً في القسطنطينية في هذا العام حيث شهد الانقلاب الذي أطاح بالإمبراطور ميخائيل السادس عن العرش .

ويضيف نفس المصدر أن رئيس أساقفة بلغاريا وقرص كانوا أيضاً موجودين هناك وشاركاً في المجمع المسكوني المشار إليه .

ولأن كانت هذه الروايات غير صحيحة في قولها بأن كريولا ريوس أسقط اسم البابا من الكنيسة البيزنطية ؛ لأن هذا كان بالفعل متبعاً حتى قبل تولي كريولا ريوس منصب البطريركية ، إلا أنه من المحتمل أن كريولا ريوس قد عقد مجلساً في عام ١٠٥٧ وأشار في بطريرك أنطاكية الجديد وأخرين من الزعماء الدينيين الذين تصادف وجودهم هناك في ذلك الوقت ، بقصد تجديد إدانة عمل الكاردينال هبرت ورفاقه من ناحية ، ولكسب تأييد إخوانه الشرقيين له في صراعه ضد البابوية من ناحية أخرى .

\* \* \*

كان للشقاق الديني بين بيزنطة وروما في عام ١٠٥٤ دلالات ثم

---

Job the Jesite; George the Metochite; Phrantzes; Anonymous of Allatius: (٣٠)

Respectively : Hist. Dogm., I, 13, III, 70; Annales, in C.S.H.B. (ed.

Bekker), Bonn, 1879; De Concessione, 614.

آثار باللغة الخطورة بين الشرق والغرب . ذلك لأن قرار الحberman الذى وضعه همبرت ورفاقه على مذبح أيا صوفيا لم يكن موجهاً ضد شخص البطريرك كريولاريوس وإنما فيحقيقة الأمر ضد الكنيسة البيزنطية على إطلاقها . وهذا فقد رأى آباء أيا صوفيا في هذا المسلط من جانب اللاتين تحدياً صارخاً للإمبراطورية البيزنطية [ الرومانية ] ولكن يسراً المسكونية . وجاءت تفاصيل القرار « الهمبرى » لتؤكد الهوة السحيقة بين الأرثوذكس واللاتين في مجال العقيدة والشعائر الدينية .

أما في غرب أوربا اللاتيني فإن عاملين هامين قد زادا من الكراهية لبيزنطة وكنيستها : أولاً — جاعت حركة الإصلاح البابوى والكنسى لبشر الرأى العام في أوروبا بعالمية الكنيسة الرومانية وبالساطان المطلق للبابا على سائر الكنائس : ثانياً — لاقت شخصية الكاردينال همبرت إعجاباً متزايداً في الغرب ، وعلى هذا فإن العنف الذى أبداه في هجومه على الكنيسة الشرقية قوبلاً بالرضى ، وفسر المعاصرون فعلته في القدسية — في القول وبالفعل — على أنها انتصار ساحق للكنيسة الفرنجية على المهاطقة المشرقيين . ويتبين هنا أن همبرت قد ظل حتى وفاته في عام ١٠٦١ أبرز عضو في مجلس الكيوريا ، كما أن فلسفتة قد أثرت على عدة بابوات متعددين ، إذ أصبح أحد مرافقيه إلى القدسية في بعثة ١٠٥٤ — وهو فردريلك اللوريني — بابا باسم ستيفن التاسع ( ١٠٥٧ - ١٠٥٨ ) . وأهم من هذا أن أقرب الأصدقاء إليه كان هيلدبراند الذى أصبح فيما بعد البابا جريجورى السابع والذى نادى بأن كنيسة بيزنطة « المنشقة » تمثل خطراً جسيماً على كيان المسيحية أكثر من خطر الوثنية ذاتها .

هذا ولکى نتفهم طبيعة العلاقات بين روما وبيزنطة فيما تلى من تاريخ لا بد من أن نتعرض لدراسة الإصلاح الحمد براندى لكنيسة روما ثم علاقات بيزنطة بالنورمان . وهذه هي مهمة الفصل التالي .



### الفصل الثالث

## بيزنطة والبابوية وغرب أوروبا

من ١٠٥٤ إلى ١٠٩٥

أصبحت العلاقات بين بيزنطة وغرب أوروبا بعد شقاق ١٠٥٤ عرضية وملينة بالكراهية والخذل المتبادلين ، في عام ١٠٥٥/١٠٥٦ كان ليبرت أسقف كامبريا في طريقه إلى الحج في بيت المقدس ، ولكن السلطات الإمبراطورية البيزنطية لم تسمح له بعبور حدود الإمبراطورية ، وأمرت بترحيله إلى قبرص<sup>(١)</sup> . ويروى أحد كتاب الحوليات الألمان أنه في عام ١٠٥٦ قامت السلطات البيزنطية بطرد ٣٠٠ لاتينيا من بيت المقدس<sup>(٢)</sup> . وفي نفس العام كتب فكتور الثاني إلى الإمبراطورة تيودورة<sup>(٣)</sup> . يشكو إليها من تعنت موظفيها في ابتزاز الأموال والضرائب من الحجاج الغربيين الوفدين إلى بيت المقدس<sup>(٤)</sup> . وفي عام ١٠٥٩ وقع البابا نيكولا الثاني معاهدة ملني مع زعماء النورمان في جنوب إيطاليا ، معترفاً بهذا بتأييد البابوية الكامل لمشروعات النورمان ضد الممتلكات البيزنطية في الجنوب الإيطالي . وفي عام ١٠٦٢ فتح الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر باب المفاوضات مع آجنس الوصبة على العرش الألماني في محاولة ثنائية لتأييد كادالوس أسقف بارما ببابا منافساً للبابا الشرجي إسكندر الثاني (١٠٦١ - ١٠٧٣) ، غير أن

<sup>(١)</sup> 'Vita Lietherti,' XXXV, in D'Achéry, Spicilegium, IX, pp. 705-12.

<sup>(٢)</sup> 'Miracula Sancti Wolframni Senonensis'; in Acta Sanctorum Sancti Benedicti, ser. III, pt. I, pp. 381 - 82.

P. Riant, Inventaire Critique des Lettres Historiques des croisades, Archives de l'Orient Latin, Vol. I, Paris, 1881, ep. xvii.

P.L., Vol. CXLIX, cols. 961 - 62. <sup>(٤)</sup>

المحاولة لم تنجح وذلك بسبب قوة نفوذ إسكندر الثاني وحزبه . وفي عام ١٠٧٢ أرسل البابا إسكندر الثاني سفارة إلى القسطنطينية لتهنئة الإمبراطور البيزنطي الجديد ، ميخائيل السابع ، باعتلاءه العرش ، ومحاولة إحباط التحالف بين بيزنطة وألمانيا ضد البابوية . وكان بطرس أسقف أناجني على رأس هذه السفارة ، ولا وصل إلى العاصمة البيزنطية طرق موضوع « وحدة الكنيسة » غير أن بطريرك بيزنطة ، يوحنا أكزيفيلينوس ، وميخائيل بسللوس كاتم السر الإمبراطوري ، تدخلوا في المفاوضات وقررا غلق باب المناقشة في هذا الموضوع لأجل غير مسمى<sup>(٥)</sup> .

في عام ١٠٧٣ توفي البابا إسكندر الثاني ، وكان واضحاً للجميع أن خليفة على العرش البابوي هو هلبراند ، الذي كان أقوى شخصية في مجلس الكيوريا منذ خمسة وعشرين عاماً . ولقد ظهرت جماهير الشعب في روما بمجرد دفن جثمان البابا الراحل هاتقة باسم هلبراند عالياً في السماء ، وبالفعل اختير هلبراند وأعطي لقب البابا جريجوري السابع (١٠٨٥-١٠٧٣) . والصورة التي يعطيها لنا معاصروه عن أحواله الفيزيقية تقول بأنه كان قصير التائة قبيح المنظر ، غير أن الشر كان يتقد في عينيه بداهة وذكاءً . كما يذكرون مقدرته الفائقة في السيطرة على كافة سامعيه عند المحادثة .

ولما كانت تعاليم هلبراند وفلسفته الإصلاحية ونظريته في المنصب البابوي قد أوجدت تغييراً جذرياً في تفسير السلطان البابوي ، ولما كانت هذه الفلسفة أيضاً قد فرضت موقفاً معيناً تجاه بيزنطة وكنيستها ، فإن المبادئ الهلبراندية تستحق الدراسة التحليلية . كان هلبراند يخاطط للسيطرة على كافة كنائس العالم المسيحي ، شرقية وغربية ، وأيضاً على سائر الحكام

Bruno of Segni, 'Vita S. Petri Ananiensis,' in Acta Sanctorum Bollandiana, (٥)  
Antwerp - Paris - Rome - Brussels, 1643 - (in progress), 3 August,  
p. 230; S. Salaville, 'Jean Xiphilin,' in Vacant et Mangenot, Dictionnaire  
de Théologie Catholique, Vol. XV, 2, cols. 3618 - 20.

العلمانيين . وهذا الزعم كان في الواقع تطويراً لما كتبه الكاردينال هبرت من سلفاً — كانديدا تحت عنوان *Analogia* ، مبيناً فيه علاقة الروح بالجسد بقصد إبراز أولوية الروح وتفضيلها على الجسد<sup>(٦)</sup> . ولقد استخدم هلدبراند هذا المفهوم «المهبرى» كأساس لنظرية ثيوقراطية بحثة لم يكن هدفها لحراس توافق منسجم بين السلطتين الروحية والزمنية وإنما تركيز السلطان جمبيعه في المجالين الروحي والزمني في يد البابا وحده . وتنطق مكاتبات هلدبراند للملك غرب أوروبا بإصراره على قصر هذه الحقوق على البابوية : فعندما طرد الملائكة الفرنسي فيأيب الأول الأسقف جاء من أبوروشية بوقيه ، كتب هلدبراند إلى رئيس أساقفة وأساقفة فرنسا يعلمهما بأن هذا الملائكة لطخ حياته بسلوك شائن ، لا يحق له البقاء على العرش . وعلى هذا فقد أمر رجال الدين الفرنسيين كافة بالتمرد ضد ملكهم « الطاغية » ، واعداً إياهم بأنه مقدم على خلع « الشيطان » من على كرسى الملك<sup>(٧)</sup> وكتب هلدبراند إلى سقائين الثاني ملك الدنمارك يأمره بأن يحكم ملوكه طبقاً لقانون الله ، مذكراً إياه بأن البابا — بوصفه ممثلاً لله على الأرض — مسئول في يوم القيمة عن فقراء الناس وأمرائهم ، لأنه في يوم الدينونة لا فرق بين فقير وأمير<sup>(٨)</sup> .

وعندما تمكّن سليمان ملك الجبر من استعادة عرشه بمعونة الملك الألماني هنري الرابع ، في مقابل الاعتراف بالآخر سيداً إقطاعياً عليه ، أرسل إليه هلدبراند يذكره أن الجبر تتبع السيادة البابوية لا الملكية الألمانية . ثم هدده بالعزل عن العرش إن كان عاجزاً عن القيام بمسؤوليات الملك كما يحدّر به<sup>(٩)</sup> .

غير أن هلدبراند لم يكن قانعاً بفرض نفوذه على ملوك غرب أوروبا وإنما هدف إلى بسط سلطانه أيضاً على أمراء الشرق المسيحي الأرثوذكسي .

M.G., *Libelli de Lite*, I, p. 225.

(٦)

*Registrum* (ed Caspar), II, 5, p. 132.

(٧)

*Ibid.*, II, 51, p. 193.

(٨)

*Ibid.*, II, 13, pp. 144 - 46.

(٩)

فقد كتب إلى ديمتريوس أمير كييف الروسية يطلب منه الخضوع للقديس بطرس وخليفته ، وينصحه بأن يحسن استقبال المندوبين البابويين المؤذنين إلى بلاطه وأن يقبل ما يقترون عليه دون جدال<sup>(١٠)</sup>.

وإن كان هذا موقف هلبراند تجاه الحكام العلمانيين ، فإن سياسته تجاه رجال الدين كانت أشد تزمتاً وعنتاً . ولم يكن هذا البابا العنيد يعرف المواردة في أحكماته ، فعندما عارضه بعض كبار الأساقفة ، عقد مجلساً في عام ١٠٧٥ وفيه أوقف الأسقفيين ولم من باقياً وكونيرت من تورينو ؛ كما حرم وخلع كلاً من دينيس من بياتسنسزا وليمار من بربما . كما هدد ملك فرنسا بلعنة الحرمان ؛ وصدرت الأوامر إلى مستشاري الملك الألماني ، هنري الرابع ، بالمثلول بين يدي البابا في الحال . كذلك أصدر البابا قراراً يحرم على رجال الدين من مختلف الرتب تقبل إقطاع ديني من أيدي العلمانيين ، كائناً مما كانوا ، ذكوراً كانوا أو إناثاً<sup>(١١)</sup> . وفي نفس العام أصدر البابا المراسيم الشهيره باسم *Dictatus Papae* التي بلور فيها مزاعم كنيسة روما ، بل وأدخل عليها الشيء الكثير . وأهم ما ورد فيها الآتي :

(١) أن الله وحده هو مؤسس كنيسة روما

(٢) وأن بابا روما هو وحده الذي يلقب بلقب « عالمي »

(٣) وأن للبابا وحده حق تعين وخلع الأساقفة

(٤) وأن مندوب البابا – حتى ولو كان برتبة كنسية صغيرة – له

الحق في إصدار الأمر إلى من هم أعلى منه مرتبة في الكنيسة .

(٥) وأن من يحرمه البابا ، وجب على كافة الناس هجرانه  
والثورة ضده

(٦) وأن للبابا فقط حق سن القوانين الجديدة

Ibid., II, 74, pp. 236 - 37.

Ibid., p. 190.

هذا الكتاب  
ملك الأستاذ الدكتور  
رمزي زكي بطرس

(١٠)

(١١)

- (٧) وأن للبابا فقط حق استعمال العلامات والنياشين الإمبراطورية  
 (٨) وأن الأمراء والملوك يجب أن يقبلوا قدم البابا  
 (٩) وأن للبابا أيضاً حق خلع الملوك والأباطرة  
 (١٠) وأن للبابا أن يحكم بين الناس ، ولا يحق للخلق في الأرض  
 أن يحاكم البابا لأن هذا حق الله وحده  
 (١١) وأنه لا يحقر إنسان ما على أن يدين شخصاً يلتجأ إلى  
 حماية البابا  
 (١٢) وأن كنيسة روما لم تضل طريقة ، وبأنها لن تضله على  
 مدى السنين  
 (١٣) وأن للبابا الحق في إعفاء الرعايا من الخضوع لشخص  
 شرير<sup>(١٢)</sup> .

كان طبيعياً أن يختدم النزاع بين هيلدبراند والملك الألماني هنري الرابع بسبب هذه المذا侔 البابوية . وقد تدهورت العلاقات بين الطرفين إلى حد أن عقد هنري مجمعاً في مدينة Worms في ٢٤ يناير ١٠٧٦ ، حيث وقع الأساقفة المؤمنون قراراً بخلع جريجوري السابع من عرش البابوية « لأنه لا يجد بالكنيسة أن تبقى على ذئب ليحكمها<sup>(١٣)</sup> ». وردّاً على هذا فقد عقد البابا مجلساً (١٤ - ٢٢ فبراير ١٠٧٦) وفيه أُعلن حberman وخليع هنري الرابع بالصورة التالية :

« سيدى الطوباوي بطرس أمير الرسل ، أمل إلينا - أتوسل إليك - آذانك المقدسة ، واصفح إلى أنا خادمك الذي أرضعته منذ

---

Ibid., II, 55 A., pp. 202 - 7; Monumenta Gregoriana (ed. P. Jaffé), Berlin, (١٢)  
 1865, pp. 174 - 6. See Appendix.

Many churchmen and lay jurists refuted Hildebrand's teachings; such as : (١٣)  
 Sigebert of Gembloux, *Apologia contra eos qui calumniantur missas conjugatorum sacerdotum*, in *Libelli de Lite*, II, pp. 436 - 48; Petrus Creassus, *Defensio Heinrici IV Regis*, in *Libelli de Lite*, I, pp. 432 Seq., Lanfranc of Canterbury, in P.L., Vol. CL, cols. 548 - 49.

المهد ، والذى حفظت عليه حتى اليوم من كيد إبليس ، الذى مافتى  
يمقتنى وسيظل بسبب ولائى لك . إننى أشهدك أنت وسيدلى والدة الإله  
وأنجوك بولس الرسول من بين سائر القديسين على أننى دفعت إلى عرش  
كنيسة روما رغم إرادتى ، وعلى أننى ما كنت لحظة أسعى إليه بالعنف ،  
فإنه أبقى لضعف بشرى أن أمضى طيلة العمر حاجاً في رحاب الأرض  
المقدسة على أن أسعى وراء زيف دنيوى . ويقيني أنك بفضلك ونعمتك على  
وبرضاك وكلت إلى حكم شعبك المسيحى ، أحكمه فيطينى ،  
ويخضع لي ، فإننى وكيلك في السلطان الذى وهبه الله إلياك لترتبط وتخل  
في السماء والأرض . على ثقل هذا الإيمان ، وحفاظاً على شرف  
سلام كنيستك ، وباسم الله الكريم ، الأب والابن والروح القدس ،  
أخلع هنرى الملک ، ابن هنرى الإمبراطور ، الذى ثار ضد كنيستك  
عن حكم دولة الألمان وعن إيطاليا . وأعنى كافة المسيحيين من عهد  
الولاء له – وهأنذا ألقىه في أغلال اللعنة ؛ وما دمت ظهيرى فلأقينه  
حتى يستعين البشر بذلك أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة أقام ابن الإله  
الحق كنيسته ، وأن أبواب الجحيم لن تقوى عليها »<sup>(١٤)</sup> .

وبهذه الصيحة المليبراندية وبإذلال هنرى الرابع عند قلمة كانوسا  
أصبح السلطان البابوى في قمة مجده . وغدت تلك السابقة التاريخية سنداً  
لخلافة هليبراند يرتكرون على ثقلها في تبرير مزاعمهم البابوية في الخل  
والربط . ولم يقتصر الأمر على هذا الحد وإنما راح الحزب البابوى يؤكدون  
أن الكنيسة مثلها مثل الجسد البشري ، ولندا فليس لها سوى رأس واحد ،  
وأنه من البشاعة تصوّر كيان برأسين . واستغل هؤلاء ماورد في « هبة  
قسطنطين » المزيفة في إعلان أن للبابا الملك على الغرب وأيضاً إمارة  
الشرق . كما ادعى البابا تمثيل الله على الأرض بصفته كاهنه الأعظم ،  
ولندا صار شخصه فوق القانون .

كانت هذه النظرية البابوية تمثل تهديداً مباشراً لبيزنطة في ناحيتين : فقد جاءت تلك المزاعم الهدبراندية لتبتلع ما كان للأمبراطور البيزنطي من حقوق ومزايا برصده الخليفة الشرعي لقسطنطين العظيم . ثانياً : كان مطلب البابوية في السيطرة الكاملة على جسد الكنيسة العالمية يشكل تهديداً لبطريركية بيزنطة التي كانت في نظر روما كنيسة منشقة ومنحرفة ، بل ورأى بعض البابوات فيها تهديداً لكيان المسيحية أخطر من الوثنية ذاتها .

وتجدر باللحظة أن النظرية البابوية خصت أقلية كاثوليكية متمثلة في البابا والكيوريا باحتكار صواب العقيدة . أما الشرق الأرثوذكسي بسجله الطائل من أئمة وعمد في العقيدة والإيمان القوي، فقد استثنوا من دائرة « العقيدة التقية » . وهناك رسالة من البابا هيلبراند إلى صديقه هيرو ، مقدم دير كلوف ، تناول فيها الكنيسة البيزنطية باللوم والتقرير واتهمها باتباع مسلك الشيطان بانفصalam عن « عقيدة روما الكاثوليكية » وبتمزيقها جسد الكنيسة العالمية الواحدة<sup>(١٥)</sup> .

وطذا ليس يستغرب أن رسمت الأميرة المؤرخة آنا كومينينا صورة قائمة للبابا جريجوري السابع ، لا يختلف فيها عن أي « متبربر » آخر . فهو يدأب على تحقيق مكاسب دنيوية ويحيث بالعهد وأيضاً يسير إلى الحرب ، « وهو رجل سلام وخادم لسيد السلام » كما أنه قد أفسدته الرشوة مثله في هذا مثل سائر الحكام العلمانيين . وتضيف الكاتبة أن أنوثتها وحياءها يمنعها من أن تتعرض لفاظاة مسلك البابا وخشونته المتبربرة . ثم تمضي لتسخر من زعم اللاتين أن البابا رأس العالم أجمع ، مبينة بأنه عندما نقل قسطنطين العظيم عاصمته من روما إلى القسطنطينية « ملكة المدائن » انتقل أيضاً مجلس السيناتو والجهاز الإداري معهما وحق الأولوية والإمارة الدينية في العالم أجمع . ولا يفوّت الأميرة أن أن تذكروا بقرارات مجمع خلقدونية التي رفعت أسقف بيزنطة إلى أعلى المراتب الكنسية<sup>(١٦)</sup> .

P. Jaffé, *Monumenta Gregoriana* II, 49, p.p. 163 - 64.

(١٥)

Anha Comnena, *Alexiad*, (ed. B. Leib), 3 Vols., Paris, 1937 - 45, I, xiii,

(١٦)

1, p. 47, III, x, pp. 132 - 33.

فِي نَفْسِ الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ مَدْرَسَةُ الإِصْلَاحِ الْبَابِيَّيِّيَّةُ تَتَوَعَّدُ بِبِيزَنْطَةَ بَسْوَءِ الْمَصِيرِ بِسَبَبِ اِنْشِقَاقِ كَنِيسَتِهَا ، تَعْرَضُتْ آسِيَا الصَّغِيرَى لِخَطَرِ دَاهِمٍ عَلَى يَدِ الْأَتْرَاكِ السَّلاجِقَةِ . فِي عَامِ ١٠٧١ هَجَّمَتْ جَيْوشُ السُّلْطَانِ الْبَرِّ أَرْسَلَانَ عَلَى جَيْوشِ الْإِمْپَراَطُورِ رُومَانُوسِ الرَّابِعِ دَايْوِجِينِيُّسِ فِي مَانَزَكَرْتَ (مَلَادِكَرْد) وَهَزَّمَتْهَا هَزِيمَةً سَاحِقَةً ، كَمَا وَقَعَ الْإِمْپَراَطُورُ أَسِيرًا فِي يَدِ السُّلْطَانِ . طَلَبَ الْبَرِّ أَرْسَلَانُ مِنْ أَسِيرِهِ أَنْ يَدْفَعَ جُزِيَّةً سَنَوِيَّةً كَبِيرَةً ، وَأَنْ يَعْتَرِفَ لَهُ بِحَقِّ اِمْتِلَاكِ مَانَزَكَرْتَ وَأَرْغُشَ وَأَنْ يَعِيدَ لَهُ الرَّهَا وَأَنْطَاكِيَّةَ . وَبَعْدَ أَنْ وَافَقَ الْإِمْپَراَطُورُ عَلَى هَذِهِ الشُّرُوطِ أَطْلَقَ السُّلْطَانُ سَرَاحَهُ . غَيْرُ أَنَّ الْحَرْبَ الَّتِي نَشَبَتْ بَيْنَ رُومَانُوسِ دَايْوِجِينِيُّسِ وَبَيْنَ مِيَخَائِيلَ السَّابِعَ دُوكَاسَ (١٠٧١ - ١٠٧٨) الَّذِي اَغْتَصَبَ التَّاجَ أَثْنَاءِ أَسْرِ الْأَوَّلِ ، شَجَعَتْ السَّلاجِقَةُ ، عَلَى التَّوْسُعِ غَرْبًا وَجَنْوَبًا عَلَى حِسَابِ الْإِمْپَراَطُورِيَّةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ . وَهَكَذَا فَيَانِهِ فِي عَامِ ١٠٧٢ اَسْتَوَى الْأَتْرَاكُ السَّلاجِقَةُ عَلَى الْأَرْضِ الْبِيزَنْطِيَّةِ الْوَاقِعَةِ شَرْقِ كَبَادُوكِيَا<sup>(١٧)</sup> .

وَمِنْ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ اسْتَفَحَلَ خَطَرُ النُّورُمَانَ بَعْدَ أَنْ اسْتَولُوا عَلَى أَرْضِيِّ جَنْوَبِ إِيطَالِيَا . فِي ١٦ أَبْرِيلِ ١٠٧١ اَسْتَوَى الزَّعِيمُ النُّورُمَانِيُّ رُوبِرتُ جُويِسْكَارْدُ عَلَى مَدِينَةِ بَارِيَّ الْآخِرِ مَعْقَلَ هَامِ لِلْبِيزَنْطِيِّينَ فِي الْجَنْوَبِ الإِيطَالِيِّ<sup>(١٨)</sup> :

لَمَّا رَأَتِ الْبَابِيَّةُ أَنَّ النُّورُمَانَ قُوَّةٌ فَتِيَّةٌ مَتَهُوَرَةٌ لَا تَسْتَطِعُ بِبِيزَنْطَةَ مَقاوِمَةَ تَفُوقِهِمُ الْمُتَزاِيدِ ، وَلَا كَانَ النُّورُمَانُ أَعْضَاءً غَيْرِيْنَ فِي الْكَنِيَّسَةِ الْلَّاتِينِيَّةِ ، سَارَعَتْ إِلَى عَقْدِ سَلْفَ وَطِيدِ مَعْهُمْ وَاعْتَرَفَتْ بِكَيَانِهِمُ الْحَدِيدِ مُقَابِلَ اعْتِرَافِهِمُ بِالْبَابَا سَيِّدًا إِقْطَاعِيًّا لَهُمْ . وَهَذَا مَاتَمَّ بِالْفَعْلِ فِي مَجْلِسِ آمَانِيِّ (١٠٥٩) بَيْنَ الْبَابَا نِيكُولاَ الثَّانِي وَبَيْنَ رُوبِرتَ جُويِسْكَارْدَ .

بَعْدَ أَنْ اسْتَوَى جُويِسْكَارْدُ عَلَى الْمُمْتَلَكَاتِ الْبِيزَنْطِيَّةِ فِي جَنْوَبِ إِيطَالِيَا

See C. Cahen; La Première Pénétration Turque en Asie - Mineure; in (١٧)  
Byzantion, XVIII (1948), pp. 5 - 67.

O. Delarc, Les Normands en Italie, Paris, 1883, p. 455. (١٨)

راح يخطط للهجوم على بيزنطة ذاتها ، وليس من المستبعد أنه كان يطمح في الاستيلاء على عرش الإمبراطورية<sup>(١٩)</sup> . وفي عام ١٠٦٦ كانت قد راجت إشاعة في القسطنطينية أن جويسكارد كان يعد العدة للهجوم على العاصمة ، وكان هذا مبعث قلق شديد لدى السلطات البيزنطية<sup>(٢٠)</sup> . وهذا فإن الإمبراطور ميخائيل السابع عندما فتح باب المفاوضات مع البابا جريجوري السابع طلب منه المساعدة ضد الأتراك السلاجقة وكذلك وجاه أن يمنع جويسكارد من الهجوم على بيزنطة<sup>(٢١)</sup> .

وجد البابا جريجوري السابع في طلب ميخائيل السابع هذا فرصة نادرة لمحاولة فرض سلطان روما من جديد على الكنيسة اليونانية المنثورة ؛ لأن وحدة الكنيسة العالمية تحت إمرة البابا كانت المهد الأساسي من حركة الإصلاح الدهبراندي . وعلى هذا فقد كتب البابا إلى الإمبراطور في ٩ يوليو ١٠٧٣ يدعوه إلى بذلك قصارى الجهد لتوحيد الكائنات كما كانت الحال في القديم<sup>(٢٢)</sup> . وبعد ذلك أرسل البابا كتاباً دوريًا موجهاً إلى «سائر المسيحيين» في غرب أوروبا يدعوهم للتقطيع في حملة لمساعدة أهالي القسطنطينية «ضد هجمات العدو المتبربر ومن سيوف العزة القاسية»<sup>(٢٣)</sup> . وفي نفس العام أرسل البابا خطاباً ثانياً يبحث فيه أهالي الغرب اللاتيني «للهجوم على الشرق وإنقاذ إخوانهم المسيحيين الذين يهددهم العدو» . غير أنه هذه المرة أعلن أنه سيقوم ذاته بقيادة الحملة «لينقذ المسيحيين» في الشرق<sup>(٢٤)</sup> . وكان البابا يهدف من وراء قيادة الحملة بنفسه إلى أن

A. Buchon, Nouvelles Recherches Historiques Sur la Principauté Française (١٩)  
de Morée, 2 Vols., Paris, 1843 - 44, Vol. II, p. 360.

J. Zonaras, Annalium, XVIII, ix p. 254. (٢٠)

L. Duchesne, Liber Pontificalis, Vol. I, cols. 74 - 75. (٢١)

Ibid., P.L., Vol. CLXXXVIII, col. 519. (٢٢)

Ibid., col. 100. (٢٣)

Ibid., col 153. (٢٤)

روما وبيزنطة

يعقد مجلساً كنسياً في مدينة القدس، يقرر فيه إعادة «الكنيسة الضالة» إلى رحاب القديس بطرس الرسول.

غير أن انقلاباً سياسياً حدث في بيزنطة في عام ١٠٧٨، وخلع ميخائيل السابع وحل نظيره الثالث بوتانياتس مكانه على العرش. وأمام هذا أصدر البابا جريجوري السابع قراراً بالحرمان ضد بوتانياتس هذا في نوفمبر ١٠٧٩<sup>(٢٥)</sup>. وزيادة على ذلك طلب البابا من روبرت جويسكارد الزعيم النورماندي، الذي كان يعد حملته للهجوم على بيزنطة، أن يعمل على إعادة ميخائيل السابع إلى العرش. وجدير بالاهتمام هنا أن نلاحظ أنه في ١٩ يونيو ١٠٨٠ عقد تحالف وثيق بين البابا وبين جويسكارد، وأقسم الآخرين بذل الولاء للكنيسة روما وللكرسي الرسولي «أيضاً لك يا سيدى جريجوري البابا المسكونى»،<sup>(٢٦)</sup> كما تعهد الأمير النورماندي أن يدفع قيمة مالية سنوية للكرسي البابوى عن الأراضى التى يملكها والتى سوف يملكتها مستقبلاً بصفته «رجل القديس بطرس». ويعنى هذا أن جويسكارد أصبح فصلاً للبابا وفق التقاليد الإقطاعية. وفي مقابل ذلك أقطع البابا فصله هذا بالأراضى التى قد آلت إليه فى عهد البابوين السابقين نيقولا الثاني وإسكندر الثانى؛ كما بارك مهمة جويسكارد فى العمل من أجل شرف عرش القديس بطرس الرسول<sup>(٢٧)</sup>.

فى هذه الآونة ظهر بيزنطى يدعى ركتور فى مدينة سالرنو، وقدم نفسه على أنه الإمبراطور المخلوع ميخائيل السابع، زاعماً بأنه قد هرب من سجنه فى دير ستوديون<sup>(٢٨)</sup>. وقد توهם جويسكارد أن وجود هذا الرجل معه سراف يسهل له مهمة غزو بيزنطة، ظناً منه أن أتباع ميخائيل السابع

Mansi, Vol. XX, p. 808.

(٢٥)

P. Jaffé, Monumenta Gregoriana, p. 126.

(٢٦)

Ibid., P. 427.

(٢٧)

Anka Commena, Alexiad, I, xii, 1 , p. 44.

(٢٨)

سوف يهبون لمناصرته على المغتصب بوتانياتس . ولما علم البابا جريجوري السابع بوصول ميخائيل السابع «المزعوم» ، كتب في ٢٥ يوليو ١٠٨٠ إلى أساقفة أبوانيا وكلابريا يحثهم على تأييد حملة جويسكارد ضد القسطنطينية ، كما خوطهم الحق في منح الغفران لكافحة الجنديين يشاركون في هذه الحملة . وأكذ البابا للأساقفة أن انتصار جويسكارد على بيزنطة هو أيضاً انتصار لكنيسة روما . وعلى هذا يمكن القول بأن هذه الحملة اتخذت . طابع الحرب المقدسة<sup>(٢٩)</sup> .

غير أن انقلاباً حدث في القسطنطينية في عام ١٠٨١ وتمكن الكسيوس كومين ، بمعونة البطريرك كوزماس وبتأييد عائلة دوكاس ، من أن يصل إلى عرش الإمبراطورية<sup>(٣٠)</sup> . فما كان من البابا جريجوري السابع إلا أنه سارع فأصدر قراراً بالحرمان ضد الكسيوس كومين<sup>(٣١)</sup> .

لم يكن الإمبراطور الجديد قد اتخذ الاحتياطات الكافية لحماية المدوان النورماندي ، ولذا فقد بلأ إلى سلاح الدبلوماسية للمناورة ضد جويسكارد وسيده البابا جريجوري السابع . كان الإمبراطور الألماني هنري الرابع في ذلك الوقت قد فاق من هزائمه المتكررة ومن الإذلال الذي ألحقه به البابا جريجوري السابع عند قلعة كانوسا ، وفي ١٠٨١ قاد هنري حملة وهجم على إيطاليا ؛ وفي مايو من نفس العام وصل إلى مدينة روما . لم يكن هنري على وفاق مع روبرت جويسكارد ، كما أنه أراد أن يحطم التحالف . الذي تم بينه وبين عدوه اللدود جريجوري السابع . غير أن هنري كان يعاني من ضائقة مالية ؛ وكان الكسيوس كومين يعلم بذلك . ولذا فقد أرسل الإمبراطور البيزنطي سفارة لتقابل هنري الرابع في إيطاليا لفتح باب المفاوضات معه . واستجاب هنري لوقف الكسيوس فأرسل بعثة يرأسها

P. Jaffé, op. cit., p. 435.

(٢٩)

Alexiad, II, xii, 6, pp. 100 - 101.

(٣٠)

Mansi, Vol. XX, col. 508.

(٣١)

الكونت بيركهارد إلى القسطنطينية ، حيث اتفق الطرفان على عقد محالفه ثنائية ضد التورمان والبابا ، وأوفد الكسيوس من أجل هذا سفارة جديدة يرأسها قسطنطين كيوروسفاكتيس إلى هنري الرابع<sup>(٣٢)</sup> .

ويبدو أن تلك السفارة قد وصلت إلى إيطاليا بينما كان هنري يحاصر  
مدينة روما (يونيو ١٠٨١). هذا وطالعنا الأميرة المؤرخة آنا كومينينا  
بتفاصيل عن الهدايا التي حملها سفراء والدها إلى الإمبراطور الألماني :  
١٤٤ قطعة ذهب ؛ ١٠٠ قطعة من الخراير ؛ كما وعد الكسيوس  
أن يدفع هنري الرابع ٢٦٠٠٠ قطعة ذهب أخرى بعد قيامه بحملة ضد  
النورمان في أبوليا . كذلك فوض الكسيوس سفراءه في مناقشة عرض زواج  
بين العائلتين الإمبراطوريتين (٣٣) .

كان موقف الكسيوس كومين هذا رد فعل طبيعي لمواجهة العداون البابوي - النورماندي . وأهم من ذلك أن السلطات البيزنطية قد أمرت بغلق جميع الكنائس اللاتينية في القدس بطلبية .

وفي نفس الوقت أخذ الإمبراطور البيزنطي يتقارب إلى جمهورية البندقية التي دأبت في هجوم النورمان على شواطئ الليريا ودهرازو تهديداً مباشراً لمصالحها في الإدريatic . وعرض الكسيوس على دوج البندقية امتيازات تجارية هائلة في الإمبراطورية مقابل تأييد أسطوله لبيزنطة في صراعها ضد جويسكارد<sup>(٣٤)</sup> .

كان جويسكارد قد أرسل ابنه بوهمند على رأس بعض كتائب ليحتل آفلونا وكانتينا وهاريكو. وفي مايو ١٠٨١ لحق جويسكارد بابنه في آفلونا، وتقى بهما منها للزحف على جزيرة كورفو. وتم استيلاء النورمان على كورفو، وتقى بهما منها صوب دورازو<sup>٢٠</sup> عاصمة إقليم الليريا، والتي

Alexiad. III, x, 2 - 6, pp. 133 - 35.

(۳۲)

Whist

(۲۳)

*Ibid.* IV, ii, 2, p. 146.

(٣٤)

كانت بعثابة المفتاح الرئيسي صوب الغرب في نظر البيزنطيين . بدأت الحرب بين الطرفين أمام دورازو في ١٨ أكتوبر ١٠٨٢ ، وألحق النورمان هزيمة ساحقة ببي gioش بيزنطة ، وسقطت خيرة الضباط من حول الكسيوس كرمزين<sup>(٣٥)</sup> .

هرب الكسيوس إلى مدينة سالونيكا ، وأرسل من هناك إلى شقيقه إسحق وإلى أمه وزوجته يطلب النجدة والمعونة المالية . فجمعت الأم والزوجة كل ما كانتا تملكان من ثروة فأرسلتاها إلى دار السلk الإمبراطورية «أملتين بهذا أن تكونا مثلا يحتذى لدى خيرة القوم»<sup>(٣٦)</sup> . أما السيفي باستوكاتور إسحق فقد دعا مجلس القسطنطينية الكنيسي للجتماع ، وأوضح لأئمة الكنيسة هناك أن قانون الكنيسة يبيح تحويل كنوز الكنائس الذهبية والفضية وأيقوناتها إلى عمليات بغية استخدامها لسلام وأمن الإمبراطورية ولevity الأسرى من المحاربين ، ودارت في المجلس مناقشات حادة ، وفي نهاية الأمر تمكّن إسحق كومين من استئلة البطريرك يوستراتوس (١٠٨١ - ١٠٨٤) ورفاقه ، فوافق المجلس على إرسال خزانة الكنائس إلى دار السلk الإمبراطوري<sup>(٣٧)</sup> .

استطاع الكسيوس بهذا المال الوافد من العاصمة أن يستخدم عدداً وافراً من الجنود من منطقة سالونيكا ، غير أن حلول فصل الشتاء حال دون استمرار القتال بين الطرفين . وفي خلال ذلك أرسل الإمبراطور سفارة إلى هنري الرابع لترجوه بأن يقود حملة ضد أبوليا ليجبر جويسكارد على سحب بعض من جنوده إلى الجبهة الجديدة في الجنوب الإيطالي<sup>(٣٨)</sup> .

تجدد القتال بين الطرفين في شتاء ١٠٨٢ ، وفي ٢١ فبراير سقطت دورازو في يد النورمان ؛ وصار الطريق إلى القسطنطينية مفتوحاً أمام القاهر النورماندي<sup>(٣٩)</sup> .

Ibid, IV, iv, 7, p. 161.

(٣٥)

Ibid., IV, viii, 1, p. 10.

(٣٦)

Ibid, V, ii, 3, P. 11. V. Crumel, La Patriarchat Byzantin, 11, p. 33.

(٣٧)

Ibid., V, iii, 1, p.p. 13 - 14.

(٣٨)

Geoffroi Malaterra, Historia Sicula, in Muratori, R.I. SS., vol. V, p. 241.,

(٣٩)

Alexiad, V, i., 2, p. 7.

(٤٠)

باتت الإمبراطورية البيزنطية عاجزة تماماً تحت وطأة الغزو النورمانى ، وأصيب الخند وال العامة بربع شديد . وبانهيار الروح المعنوية على هذه الشاكلة بدأ الكثير من الضباط البيزنطيين فى الهروب من معسكتهم والانضمام إلى جويسكارد<sup>(٤٠)</sup> .

وفي تلك اللحظة الحرجة أتت دبلوماسية الكسيوس كومينن أكلها ؛ فقد تواترت الأنباء من إيطاليا عن قيام تمرد في مملكة جويسكارد ، كما أن هنرى الرابع كان قد بدأ في حصار البابا جريجورى السابع داخل مدينة روما . تلقى جويسكارد رسالة عاجلة من البابا الماخصر يذكره فيها بأن ما حققه من انتصارات إنما كان من حصاد نعم القديس بطرس وكنيسة روما عليه ؛ ورجاه أن يسرع لينقذه من أيدي « الطاغية » هنرى الرابع<sup>(٤١)</sup> . وتقول بعض المصادر المعاصرة بأن جريجورى السابع عرض التاج الإمبراطوري الروماني على حليفه جويسكارد في تلك اللحظة الخامسة من الصراع بين البابوية والإمبراطور الجرماني<sup>(٤٢)</sup> .

ترك جويسكارد ابنه بوهمند على رأس جيشه وأسرع عائداً إلى إيطاليا في أبريل ١٠٨٢ ليخمد ثورة المتمردين ولينقذ البابا من أيدي هنرى الرابع وبعد رحيل جويسكارد هاجم بوهمند جيوش الكسيوس وهزمها مرتين في يوانينا وارتا<sup>(٤٣)</sup> . غير أن الكسيوس بلأ إلى حيلة بارعة إذ أليس أحد قواده الذى الإمبراطوري وسيره على رأس جيش كبير قبلة معسكته بوهمند ، بينما تنكر الإمبراطور في زي جندي عادى وتسلل مع فريق من أعوانه من الوجهة الخلفية لمعسكر النورمان . تقدم بوهمند ورجاله نحو الجيش الإمبراطوري ، الذى أخذ يتقدّم إلى الوراء عن عمد ، وعندما بعد بوهمند

Alexiad, V, i, 4, p. 9; V. iv, 1, p. 17.

(٤٠)

P. Jaffé, op. cit., 5225.

(٤١)

William of Apulia, Gesta Roberti Wiscardi, in M.G.H.SS., Vol. IX, I, IV, 31 - 32, p. 280.

(٤٢)

Alexiad, V. iv, 4, p. 19; Malaterra, III, 39.

(٤٣) هنرى الرابع  
ملك الأستاند الدكشادو  
رمزي زكي بطرس

ورجاله عن معسكرهم مسافة كافية ، انقض الكسيوس وأتباعه على معسكر النورمان في لاريسا واستولوا على كل من مؤتمهم وعتادهم الحربي ؛ وبهذا انقلب ميزان القوى واضططر بوهمند — انقض عتاده — إلى أن يتقهقر إلى مدينة كاستوريما<sup>(٤٤)</sup> . وجد بوهمند نفسه في موقف حرج للغاية ، فلأجل جانب نقض المؤمن في معسكره لم يجد مالاً كافياً لدفع رواتب الجندي ومؤخرتهم . ولما بدأ الجندي في التذمر اندس بينهم عمالء الكسيوس كومينين يشجعونهم على على الثورة ويعرضون عليهم العطايا والمنح الوفيرة . وهنا اضطرر بوهمند لأن يعود إلى إيطاليا ليحصل على المال ، تاركاً اثنين من رجاله لقيادة الحملة : برين من كستوريما؛ وبطرس من بولوبس<sup>(٤٥)</sup> . هجم الكسيوس على كاستوريما واستولى عليها بمعونة بعض الخونة من جنده النورمان ، وعليه فقد قرر برين العودة إلى إيطاليا بعد أن أقسم أمام الكسيوس ألا يحمل سلاحاً ضده في المستقبل<sup>(٤٦)</sup> . وفي صيف ١٠٨٣ هجم الأسطولان البيزنطي والبسندي على مدينة دورازو وتم الاستيلاء عليها من يد النورمان .

غير أن روبرت جويسكارد كان لا يعرف معنى الهزيمة . وقد بلغت سلطنته من المكانة إلى حد أن مجرد ظهوره في جنوب إيطاليا أخرين كل المتمردين . وبعدها زحف شمالاً لينقذ البابا جريجوري السابع من أنبياء الإمبراطور البرماني . هجم جويسكارد على روما وأعمل رجاله سيفهم في رقاب أهلها الذين انضموا إلى هنري الرابع ، كما أشعل النار في كثير من أحياشها فحوظاً إلى كومات من الرماد . ثم انقض على كتائب هنري الرابع وأجبرها على التقهقر . ولما رأى هنري أنه لن يقوى على محاربة جويسكارد آثر الانسحاب من روما وأسرع عائداً إلى ألمانيا<sup>(٤٧)</sup> .

جن جنون جويسكارد — الذي أذل إمبراطور الغرب — حين علم بفشل

Alexiad, V, v, 7, p. 26; V, vi, 1, p. 28.

(٤٤)

Ibid., V, vii, 5, p. 32.

(٤٥)

Ibid., VI, i, 4, p. 43.

(٤٦)

Bernold, Chronicon, ad. an. 1084, in M.G. H. SS., Vol. V, p. 441.

(٤٧)

ابنه بوهمند في حربه ضد إمبراطور الشرق . وفي أكتوبر ١٠٨٤ أبحر الزعيم النورماندي ومعه أبناءه الأربعة (بوهمند وروجر وروبرت وجاي) في أسطول قوامه ١٥٠ سفينة حربية للقضاء على بيزنطة . وبينما كان الأسطول النورماني راسياً في ميناء كاسيوبى (في جزيرة كورفو) ، هجمت عليه سفن البندقية وأغرقت عدداً كبيراً من قطعه<sup>(٤٨)</sup> . غير أن جويسكارد لم يستسلم للهزيمة : إذ نجده هو وأولاده الأربعة كل على رأس خمس سفن حربية – وهي مجموع ما تبقى لديهم من أسطولهم الكبير – يقumen بجهد خارق ؛ إذ هجموا في عناد على أسطول البندقية وألحقوا به هزيمة ذكراء . وهكذا سقطت جزيرة كورفو من جديد في يد الزعيم النورماندي<sup>(٤٩)</sup> . وبات مصير بيزنطة مهدداً مرة أخرى . غير أن القدر لعب دوره في هذه اللحظة الحاسمة ؛ إذ انتشر وباء الطاعون في معسكر النورمان ، وهلك كثير من الجنود والقادة . ومرض بوهمند مرضياً شديداً ، فنقل إلى إيطاليا للعلاج . أما جويسكارد فقد أصيب بالمرض عند مدينة آثر ومات في ١٧ يوليو ١٠٨٥ بين يدي زوجته سجلجيتا والدة روجر<sup>(٥٠)</sup> .

يقص أحد كتابي الحوليات في القرن الثاني عشر أن جويسكارد كان يخطط لتوسيع ابنه بوهمند إمبراطوراً على بيزنطة ، وبأنه هو نفسه كان يطمع في تكوين إمبراطورية شاسعة في الشرق الإسلامي<sup>(٥١)</sup> .

اختنى بموت جويسكارد شيخ رهيب أقض مضاجع السلطات البيزنطية فيما بين ١٠٨١ ، ١٠٨٥ . وانشغل أبناء الزعيم الراحل في تقسيم أملاكه

Alexiad, VI, v, 5, p. 52. (٤٨)

Lupus Protopatarius, 'Chronicon' in M.G.H.SS., Vol. V, p. 61; Alexiad, VI, v, 7, p. 53. (٤٩)

William of Apulia, pp. 296 - 97; Anonymi Barenensis Chronicon, in Muratori, (٥٠)  
R. I. SS., Vol. v, p. 154; Alexiad, VI, vi, 3, p. 56; William of Malmesbury, De Gestis Regum Anglorum (ed. W. Stubbs), London, 1887 - 89  
II, pp. 321 - 22.

Richardus Pictavensis, Chronica, in M.G.H.SS., Vol. XXVI, p. 79. (٥١)

وفي النزاع حول الحكم ؛ واندلعت بذلك حرب أهلية في جنوب إيطاليا .  
وطذا تأجل ، إلى حين ، مشروع غزو القسطنطينية . غير أن جويسكارد  
هو الذي لفت أنظار أبناءه إلى الشرق الدافئ ، المليء بالكنوز والمعامرة  
والسلطان . وما من شك في أن الغزو النورماندي للأراضي البيزنطية ،  
بتأييد من البابوية ، قد هدد بانهيار كيان بيزنطة ، مما ترك مراة قاسية  
في نفوس البيزنطيين وضاعف من كراهيتهم لللاتين وللغرب اللاتيني . وكانت  
تلك الأحداث أيضاً برهاناً جديداً على عداوة كنسية روما للإمبراطورية  
البيزنطية ، كما أنها هي التي أوحت إلى آنا كومينينا لتمسك بيراعها وتخط  
صورة كريهة للبابا جريجوري السابع ولزعمه<sup>(٥٢)</sup> .

وما إن فاقت الإمبراطورية من كابوس جويسكارد حتى ابتليت بغزو  
عنصر متبر برآخر من قبائل البشناق ( Petchenegs ) فيما بين ١٠٨٦ ، ١٠٩١ .  
والبشناق من أصل تركي ، وقدتمكنوا من غزو المنطقة الواقعة بين البلقان  
والدانوب . وفي عام ١٠٩٠ عقدوا حلقاً مع السلاجقة الأتراك في آسيا  
الصغرى ضد بيزنطة<sup>(٥٣)</sup> . وفي أثناء تلك الفترة الرهيبة من تاريخ بيزنطة التي  
الكسيوس كومين باليوناني روبرت الأول من فلاندرز ، الذي كان عائدًا  
إلى غرب أوروبا من الأرض المقدسة في الشام عند مدينة بيرويا في  
عام ١٠٨٧ . وتزعم آنا كومينينا أن الكونت أقسم يمين الولاء والطاعة لوالدهما  
الإمبراطور . ولئن كان هذا القول مبالغًا فيه ، إلا أن هناك حقيقة  
ثابتة وهي أن روبرت الأول وعد بإرسال خمسة فارس لمساعدة  
الإمبراطور ضد أعداءه<sup>(٥٤)</sup> .

والواقع أن الكسيوس كومين كان قد هزم عدة مرات على يد قبائل  
البشناق وهلك أثناء هذا الصراع المرير خيرة رجاله المحاربين . ولما تحققت

Alexiad, I, x, 12, PP. 50 - 51.

(٥٢)

Alexiad, VIII, iii, 5, p. 153. See V. Vasilievsky, Byzantium and the

(٥٣)

Petchenegs, in the Journal of the Russian Ministry of Public Instruction, Vol. CLXIV (1872), pp. 279 seq.

Alexiad, VIII, vi, 1, p. 105.

(٥٤)

السلطات الإمبراطورية من أن هؤلاء البرابرة يخططون لهاجمة العاصمة ذاتها ، فقد بلأت إلى الغرب اللاتيني بقصد الاستعانة بجند مرتزقة للخدمة في جيروشالايم ، خاصة من مناطق إيطاليا . وكان الكسيوس يعلم تماماً أن السلطة الوحيدة التي يمكنها أن تعاونه في هذا الأمر هي كنيسة روما . وهذا هو التفسير الوحيد للتغير الذي طرأ في العلاقات بين بيزنطة والبابوية في ذلك الحين . وكانت الظروف في روما مواتية لهذا التقارب .

في عام ١٠٨٨ انتخب الأسقف أودو من لاجيري بابا باسم أوربان الثاني . وكان هذا دبلوماسياً حصيفاً ، وكان من رأيه أن المسألة البيزنطية قد عولحت في شيء من الخطأ<sup>(٥٥)</sup> . كان موقف البابا الجديد مشجعاً لأنكسيوس لأن يفتح باب المفاوضات معه من أجل طلب جند مرتزقة . وفي مقابل ذلك أبدى استعداداً لمناقشة موضوع وحدة الكنائس ؛ ولهذا فقد خط على بطريرك القدسنيونية نيقولا جراماتيكوس (١٠٨٤ - ١١١) وطلب منه الكتابة إلى البابا الجديد في روح من المودة . وكان البطريرك مدركاً للمخاطر التي تهدد الإمبراطورية على حدودها . وإنما كتب إلى بازيل الأسقف البيزنطي في كلابريا يطلب منه التوجه إلى المقر البابوي وفتح باب المفاوضات في موضوع وحدة الكنائس . كذلك أرسل البطريرك رسالة بنفس المعنى إلى رومانوس الأسقف البيزنطي في روزيانا<sup>(٥٦)</sup> .

استجاب أوربان الثاني لهذه المبادأة من جانب الكسيوس كومين ، فعقد مجلساً في مافي في عام ١٠٨٩ ؛ وفيه رفع قرار الحرمان (الذي أصدره جريجورى السابع) عن الإمبراطور البيزنطى . ثم أرسل الكاردينال رينيه ونيقولا مقدم دير جروتافراتا الإغريقى - إيطالى بخطاب العفو إلى القدسنيونية وليطلب من الكسيوس إعادة فتح الكنائس اللاتينية المغلقة في العاصمة ، والسماح لها بممارسة شعائرها الغربية .

S. Runciman, 'The Eastern Schism', p. 61.

(٥٥)

V. Grumel, op. cit., II, pp. 45 - 46.

(٥٦)



كذلك أصر الكسيوس على أن يكتب البطريرك جراماتيكوس إلى البابا أوربان الثاني . وعليه فقد كتب البطريرك إلى البابا في سبتمبر ١٠٨٩ يعلمه بوصول رسالته وباغبطة بحلوها . على أنه أشار إلى جهود بعض الأفراد الذين وشوا به في المقام البابوي وصوروه لديه على أنه كاره للكنيسة اللاتينية وعقيلتها وطقوسها . وراح البطريرك يؤكّد أنه طالما سمحت روما للكنائس البيزنطية في إيطاليا بعمارة شعائرها الدينية في حرية تامة ، فإنّه لن يتعرض للكنائس الاتينية في بيزنطة ، لأنّه من جانبـه « يسعى نحو السلام من عمق القلب ، ولو كان الوثام بين الكنيستين يتطلّب روحه لبنيها راضياً ». ثمّ أوضح جراماتيكوس للبابا أنه كان يحسن به أن يرسل خطاباً له عند توليه عرش البابوية ومعه إعلان إيمانه — كما جرت العادة — « حتى يتم الاتحاد بالروح بين الذين انفصلوا في الجسد ». واختتم الكاتب رسالته بأنه موفد إلى المقام البابوي بازلي من ترانى ورومأنوس من روزانو : الأول للنظر في إعادةه إلى إمبروشيته الشرعية : والثاني للتظلم من مسلك بعض اللاتين في دائرة أسقفيته<sup>(٥٨)</sup> .

والواقع أن الفقرة الأخيرة في هذه الرسالة لها أهمية بالغة ؛ لأن بازلي ورومأنوس كانوا قد أبلغا جراماتيكوس بتعسف السياسة التي اتخذها أوربان الثاني نحو الكنائس البيزنطية في إيطاليا ، وبإصراره على الاستيلاء على إقليم تسالونيكي وضمه لبطريركية روما . وكان هذان الأسقافان يتمثّلان علانية أن يؤيد الكسيوس كوميني البابا المنافر لأوربان وهو جيبرت . ولكن الكسيوس كان قد أدرك بثاقب بصره أن جيبرت يمثل الجحود الخاسر ، فألقي بثقله على حزب أوربان الثاني . كما أن جيبرت كان قد أغضب رجال الدين البيزنطيين في إيطاليا عندما أُعلن في مجلس عقده في روما بأن زواج القسيسين خطيئة كبرى<sup>(٥٩)</sup> .

V. Grumel, op. cit., p. 49.

(٥٨)

P. Jaffé, Regesta, I, p. 652.

(٥٩)

ولكي نتفهم موقف رجال الدين في بيزنطة تجاه أوربان الثاني يجب إلقاء الضوء على رسالة كتبها البطريرك جراماتيكوس إلى سمعان بطريرك أورشليم. في عام ١٠٨٩ ، وفيها حديث عن كنيسة روما . تناول الكاتب العبارة المضافة إلى قانون الإيمان في الغرب (الروح القدس المنبع من الإبن أيضاً) واستخدام خبر غير مختصر في شركة التناول ، وادعاءات البابوية في الإمارة على الكنيسة بالهجوم الشديد . ثم راح يبحث سمعان على محاربة هذه الانحرافات وفقاً لما يصدره إليه بصفته البطريرك الإمبراطوري « المسكوني »<sup>(٦٠)</sup>

هذا وهناك وثيقة أخرى اكتشفها العالم بافلوف وهي رسالة موجهة من أحد بطارقة بيزنطة إلى بطريرك أورشليم ، ولكنها لا تحمل تاريخاً ولا توقيعاً . وكل ما قاله بافلوف عنها هي أنها وثيقة هامة صادرة من القسطنطينية وموجهة إلى أورشليم ، وفيها هجوم شديد على انحرافات عقيدة الالatin ، وطبقوسمهم ، وعلى مزاعم البابوية في الإمارة على كنائس العالم أجمع<sup>(٦١)</sup> .. على أن الأدلة التي قام بها المؤرخ ف . جرومبل قد أوضحت بأن هذه الرسالة صدرت عن البطريرك نيكولاوس جراماتيكوس إلى سمعان بطريرك أورشليم . ولعل أهم ما ورد في هذه الرسالة الفقرة التالية :

« حقيقة أنه في قديم الزمن كان ينظر إلى البابا على أنه « أول » إخوته البطارقة الآخرين ، وذلك عندما كان يؤمن بنفس العقيدة القوية . ولكنه الآن وقد احتضن عقيدة « غريبة » عن عقيدتنا ، فكيف السبيل للاعتراف به « أولاً » علينا ؟ إن « الرأس » مطالب بتمثيل الإيمان القوي ؛ لا العنف والطغيان »<sup>(٦٢)</sup> .

V. Grumel, op. cit., p. 50.

(٦٠)

A. Pavlov, Kiticheskie opty po istorii drevnejchey greko-russkoj protiv latin-jam, Saint - Petersbourg, 1878, pp. 45, 158 - 169.

(٦١)

V. Grumel, Jerusalem entre Rome et Byzance, une lettre inconnue du Patriarche de Constantinople Nicholas III à son collègue de Jérusalem (vers 1089), in Echos d'Ornet, XXXVIII, (1939), pp. 104 - 117.

(٦٢)

ثم يمضي الكاتب ليؤكّد بأن الكنيسة الشرقية لاقررت استخدام الخبز الغير مختمر في شركة التناول ، وبأنها لن تخوض النظر عن بدعة « انبثاق الروح » القديس من ابن ». وفي نهاية الرسالة نجد جراماتيكوس يهيب بسمعان لأن يقف موقف حزم للدفاع عن الأرثوذكسيّة حتى ولو كلفه هذا بذلك النفس ، كي يتميّز الأخير عن « هؤلاء الذين أعمّاهم زخرف الدنيا ومتاع هذا العالم فألقووا بأرواحهم في فلك الضلال ، مسلمين أنفسهم بهذا إلى إبليس » (٦٣) .

وهنالك أيضاً في هذه الرسالة ما يوحى بأن بطريقك أورشليم كان قد أبدى شيئاً من الحيرة تجاه بعض المسائل الخاصة بالطقس اللاتيني ، فأرسل إلى بطريق القسطنطينية يطلب النصائح في هذا الأمر . وواقع الأمر أن بطريكية أورشليم أبدت شيئاً من التسامح فيما يتصل بالخبز المستخدم في شركة التناول ، وذلك لأن بيت المقدس كان يستقبل على الدوام أزواجاً من الحجاج الالاتين الذين يستخدمون الخبز الغير مختمر في التناول . وهذا الموقف كان قد أغضب ميخائيل كريولاريوس من قبل في عام ١٠٥٤ ، ثم جاء جراماتيكوس ليعبر أيضاً عن عدم رضاعه عن هذا التسامح مع الالاتين من جانب أورشليم .

أما النقطة التي أثارها جراماتيكوس في الحديث عن « طغيان » أوربان الثاني ، فلها ما يبررها من وجهة نظره . ذلك لأنه كان قد تلقى رسالة من بازل الأسقف البيزنطي في ريجيو باليطاليا يشكوك فيها من أنه رغم تعينه أسقفاً على أبووشيه منذ إحدى عشر عاماً على يد بطريق بيزنطة ، إلا أن أوريان الثاني قد أمره بالخصوص للبابوية إن أراد الاحتفاظ بمنصبه ، وعندما رفض هذا المطلب خلعه البابا وعين مكانه أسيقفاً من القرنجة . كذلك فرض أوريان الثاني نفس الشروط على أسقيفيتي سنت سيفيران وروزيانو اللتين كانتا تحت حكم بطريكية القسطنطينية .

وهكذا فإن الاعتقاد السائد بين المؤرخين بأن أوربان الثاني كان متسامحاً مع كنيسة بيزنطة ، اعتقاد خاطئ ويجب تصحيحه . ذلك لأن أوربان كان أول البابوات الذين تعسروا — كما سبق أن بينا — مع رجال الدين البيزنطيين في جنوب إيطاليا ، كما أنه كان من أنصار إجبار اليونانيين على اتباع الطقوس اللاتينية في كنائسهم . ومن هنا جاءت غضبة البطريرك نيقولاس الثالث جراماتيكوس ، فكتب إلى سمعان من بطريرك أورشليم يطلب منه المساعدة والمؤازرة دفاعاً عن الأرثوذكسية . ولم يكن غريباً بعد هذا أن أرسل سمعان بقابله وكتب مقالة هاجم فيها اللاتين لاستخدامهم الخنزير الغير مختمر في شركة التناول .

تشير الوثائق السابقة المذكورة إلى عدة حقائق باللغة الأهلية نوجزها فيما يلى :

أولاً : كان الدافع الأساسي وراء التقارب الذي تم بين الكسيوس كوميني والبابا أوربان الثاني دافعاً سياسياً بحثاً ، أملته حاجة الإمبراطورية إلى جند مرتفقة من إيطاليا . ثانياً : لم تكن كنيسة بيزنطة تساند الإمبراطور في مناقشه الودية مع البابوية : ثالثاً : كان هناك تيار معاد لأوربان الثاني في المجلس الذي عقده الكسيوس كوميني ليبحث موضوع وحدة الكنائس وتجلى بوجه خاص في إصرار بعض رجال الدين على مناقشة وإدانة الانحرافات العقائدية والطقوسية لدى اللاتين . رابعاً : أن مراسلات جراماتيكوس إلى أوربان الثاني ، وإن بدت ودية في ظاهرها ، إلا أنها تحمل عتاباً وتقريراً لسياسة البابا تجاه الكنائس البيزنطية في إيطاليا . خامساً : إن ما ورد في خطاب جراماتيكوس إلى سمعان الأوليسي تعبير صادق عن مشاعر كنيسته أيا صوفيا تجاه كنيسة روما .

غير أن الكسيوس كوميني كان في حاجة ملحة إلى جند مرتفقة من غرب أوروبا . ولاشك في أنه قد أيقن وجود هوة سحرية تفصل بين الكنسيتين ، ولهذا فإنه قد أوصى إلى بعض المخلصين من أتباعه بأن يكتبوا في موضوع وحدة الكنيسة وأن يقللوا من شأن الخلافات العقائدية والطقوسية القائمة بين

الطرفين . وخير من يمثل هذه الفتنة ثيوفيلاكت رئيس أساقفة بلغاريا الذى كان مقرباً إلى بلاط آل كومنин .

كتب ثيوفيلاكت مقالاً بعنوان « حديث عن أخطاء اللاتين » ووجهه إلى نيقولا أحد شمامسة كنيسة آيا صوفيا الذى أصبح فيما بعد أسقفاً في ملسيوفا . تناول الكاتب معاصريه بسخرية شديدة لأنهم إذا ما اختلفوا في الجدل راحوا يستمطرون بعضهم البعض بالأنثى وبوصمات المطرقة . ويتباكي رئيس الأساقفة هنا على ضياع التسامح والمحبة اللتين هما ميزة الأرثوذكسيّة الحقيقية . ثم يعدد — في سخرية بالغة — أخطاء اللاتين : من حلق الذقن إلى ارتداء الخواتم الذهبية والأردية الحريرية ؛ واستخدام الحبز الغير مختمر في التناول ؛ وصيام أيام السبت ؛ وتبيل القسيسين ؛ وأكل المخنقة . ويمضي الكاتب فيقول إن جل هذه الأمور اختلف تافه ولا يستحق حتى مجرد عناء البحث ، لأن الكنيسة لن تفيد كثيراً من محاولة تصحيحها . غير أن ثيوفيلاكت أوضح بأن اخلاف الوحيد الذى أخطأ فيه اللاتين هو إضافة لفظة « ومن ابن » عند الكلام عن انشاق الروح القدس في قانون الإيمان .

ويعلل الكاتب هذا الخطأ عند اللاتين بفقر وخشوونة لغتهم اللاتينية . كما تصدى الكاتب للنظرية البطرسية في هجوم شديد : « إن مثل هذا الكلام الذى نسمعه من البابوات على أنهم خلفاء بطرس الرسول وهم يشيحون في وجوهنا بمفتاح الفردوس إهانة باللغة للرسول ذاته <sup>(٦٤)</sup> .

من هذا يتضح أنه حتى بين القلة الراغبة في التفاهم مع كنيسة روما ، لم يكن هناك فرد واحد يقبل إضافة « ومن ابن » إلى قانون الإيمان أو يرضى بالمزاعم البابوية والنظرية البطرسية . وأغلب الظن أن أوربان الثاني لم يجرؤ على إرسال « إعلان إيمانه » إلى بيزنطة لأن هذا كان سيتضمن بالطبع مسألة « ومن ابن » .

و بما يلفت النظر هنا أن أحد المقربين إلى أوربان الثاني وهو القديس أنسلم رئيس أساقفة كنتربرى كتب مقالا يعدد فيه أخطاء البيزنطيين في العقيدة فهاجم استخدام كنيسة بيزنطة خبزاً مختمراً في شركة التناول مستشهدًا بنصوص من الإنجيل . ثم راح يتهم البيزنطيين بالانحراف العقidi لأن إصرارهم على عدم انبهان الروح القدس من الآبن يجعل الآبن في مرتبة أقل من الأب مما يهدد ركناً أساسياً من أركان الإيمان في الثالوث المقدس الواحد<sup>(٦٥)</sup> . وعلى هذا فإن الشرق والغرب كانوا على خلاف شديد في أمور بالغة الخطورة .

وما من شك في أن الكسيوس كوميني كان يدرك استحالة المصالحة بين الطرفين ، ولكن حاجته الملحة إلى جند مرتزقة من الغرب جعلته يتملّق البابا أوربان الثاني ومن ثم أخذ ينشد له أغنية الوحدة الكنيسية .

غير أن الموقف تغير تماماً في عام ١٠٩١ ، في ٢٩ إبريل من هذا العام هاجمت جيوش الكسيوس ومن ورائها حلفاء بيزنطة من قبائل بولوقزيس على جماعات البشناق على ضفتي نهر ليرنيون وعملت سيف الحلفاء في رقاب البشناق . ويقال إنه في تلك المعركة الرهيبة ذبحت أمة عن بكرة أبيها ، إذ من بعدها لم تقم لجامعة البشناق قائمة بين سائر شعوب الأرض وبهذه القسوة الوحشية تخاص الكسيوس كوميني من البشناق بصفة قاطعة<sup>(٦٦)</sup> .

وفي عام ١٠٩٢ توفي السلطان السلاجقوق ملك شاه . وبموته بدأت الحرب الأهلية في إمبراطوريته ، وشهدت آسيا الصغرى طرفاً هاماً من هذا الصراع . وكانت هذه فرصة الكسيوس كوميني ليسترد الأرضي التي استولى عليها السلاجقة من قبل . وبالفعل تم له استرداد أبولونياد وسينيريق . كما أن بعض الجند السلاجوقيين عرضوا أنفسهم للخدمة في جيش بيزنطة ، هروباً من الأمراء الذين دخلوا في سلسلة من النزاعات

St. Anselm of Canterbury, 'De Sacramentorum Diversitate, ead Walerannum (٦٥)  
Episcopum', in P.L., Vol. CLVIII, cols. 517 seq., Idem, 'Dogmatica, De  
Processione S. Spiritus'; ibid., cols. 291. seq.  
Alexiad, VIII, v, 8, p. 143.

(٦٦)

الشخصية العنية (٦٧) .

وبهذا يمكن القول أنه في عام ١٠٩٢ لم يكن هنالك خطر أبىته يهدى حدود بيزنطة من الشرق ولا من الغرب . حقيقة أن الأمير السلاجوق زاخاس صاحب سميرنا كان يغتر بين الحين والأخر على أراضي بيزنطة ، ولكنه لم يكن يمثل خطراً حقيقياً على حدود الإمبراطورية الشرقية . وفي عام ١٠٩٤ كان الكسيوس كومينن يعد حملة للهجوم على الأمير زاخاس

وهنا جاءته أنباء مزعجة من غرب أوروبا : إن جحافلا من أهل الغرب اللاتيني كانوا في طريقهم زاحفين نحو الشرق . لقد بدأت الحركة الصليبية .

## الفصل الرابع

### بيزنطة والحركة الصليبية.

بدأت الدراسة العلمية للحركة الصليبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وكان الألمان أول الرواد ممثلين في فون سيبيل<sup>(١)</sup> ، وكوجلر<sup>(٢)</sup> ، وهاجنمير<sup>(٣)</sup> ، وروهركت<sup>(٤)</sup> ، واردمان<sup>(٥)</sup> . وفي فرنسا ظهر الكونت ريان<sup>(٦)</sup> وزملاؤه في *الـ Revue de l'Orient Latin* ) في مجموعة *الـ Académie des Inscriptions et Belles Lettres* ( <sup>(٧)</sup> ؛ وشالاندون<sup>(٨)</sup> ، وبرييه<sup>(٩)</sup> ، وجروسيه<sup>(١٠)</sup> . وفي المدرستين الإنجليزية والأمريكية ظهرت كتابات ستيفنسون<sup>(١١)</sup> ، ومونرو<sup>(١٢)</sup> ، ورانسيان<sup>(١٣)</sup> ؛ ثم مطبوعات ستون وبولدوين<sup>(١٤)</sup> التي ساهم فيها كتاب أجانب .

- H. Von Sybel, Geschichte des ersten Kreuzzuges, Leipzig, 1881. (١)  
B. Kügler, Geschichte der Kreuzzuge, Berlin, 1891. (٢)  
H. Hagenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren (1088 - 1100), Innsbruck, 1902. (٣)  
R. Rohricht, Geschichte des ersten Kreuzzuges, Innsbruck, 1901. (٤)  
C. Erdmann, Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens, Stuttgart, 1935. (٥)  
P. Riant, Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades, Archives de l'Orient Latin, Vol. I, Paris, 1881. (٦)  
Recueil des Historiens des Croisades, Paris, 1841 - 1905. (٧)  
F. Chalandon, Histoire de la Première Croisade, Paris, 1925. (٨)  
L. Bréhier, L'Eglise et l'Orient au Moyen Age : Les Croisades, Paris, 1928. (٩)  
R. Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, 3 Vols., Paris, 1934 - 36. (١٠)  
W. Stevenson, The crusaders in the East, Cambridge, 1907. (١١)  
D. Munro The Kingdom of the Crusaders, New York, 1936. (١٢)  
S. Runciman, A. History of the Crusades, 3 Vols., Cambridge, 1951-54. (١٣)  
K. Setton and Baldwin, A History of the Crusades, Philadelphia, 1955-62. (١٤)

وقد اهتم اردمان بالصلبيّة على أنها حرب مقدسة وشاركته في هذا الرأي برييه . أما الكاتب كاملت فقد رأى في حملات الحجاج المسلحة في القرن الحادى عشر نوعاً من الصلبيّات<sup>(١٥)</sup> . ويعتقد الكاتب هاتم أن الصليبيّة من عمل وإعداد دير كلوني « العقل المدبر للحركة الصليبيّة<sup>(١٦)</sup> » ؛ فقد كان أوربان الثاني وباسكار الثاني ويوجين الثالث من أبناء دير كلوني . أما فايئن ، وثيلى ، وجروسيه ، وشالاندون ، فقد نادوا بأن الصليبيّة من تدبير البابوية<sup>(١٧)</sup> .

ولقد اعتقد الكثيرون أن جهود الأسرة المقدونية ( البيزنطية ) في استرداد آسيا الصغرى وسوريا ضرب من الصلبيّات ؛ فطن رينيه جروسيه أن صيحة نقوص فوكاس وهو يخطب للجماهير في الميدان « إن انتصارنا انتصار الله على أبناء هاجر » لاختلف عن صيحة أوربان الثاني ( Deus Vult ) في مؤتمر كليرمونت<sup>(١٨)</sup> .

كذلك فسر البعض حرب الاسترداد في إسبانيا على أنها حركة صليبيّة ، ورأوا في شخص فرديناند الأول ملك قشتالة ( ١٠٣٥ - ١٠٦٥ ) فارساً صليبيّاً .

وطبق هؤلاء نفس النظرية على الغزو النورماندي لجزيرة صقلية من أيدي العرب .

ويرى السير ستيفن رانسيمان في الصليبيّة « أعنف المغامرات المسيحية وأخر غزوات المتنبرين ... حقيقة محورية في تاريخ العصور الوسطى ... قصة الجدل للعالم أجمع<sup>(١٩)</sup> »

J. Calmette, Le Monde Féodal; Vol. IV of the Collection Clio, Introduction ( ١٥ )  
aux Etudes Historiques, p. 382.

A. Hatem, Les Poèmes Epiques des Croisades, Paris, 1932, p. 72. ( ١٦ )  
See Bibliography. ( ١٧ )

R. Grousset, op. cit., pp. 10 - 11. ( ١٨ )  
S. Runciman, op. cit, Preface, p. XI. ( ١٩ )

وهكذا فإن الآراء والنظريات جد وفيرة عند الحديث عن الحركة الصليبية . غير أنه يتحتم علينا أن نحاول تحديد مفهوم الصليبية دون أن نتأثر بنظرية معينة وذلك حتى نخلص بأيديولوجية موضوعية لها :

الصلبيّة في ظاهرها حملات حربية لها ميزان تعارفت بمامنة المؤمنين عليهم : غفران كنسى ، ثم شارة صليب قماشى أحمر يتزين بها المحاربون . ولا يمكن أن ننكر أن هذه الحركة قد ورثت بعض السمات عن الحروب المقدسة ، غير أنها كانت شيئاً جديداً تماماً : فهى أول حركة جماعية لغرب أوربا اللاتيني تتسلح وتزحف نحو الشرق تحت إشراف وقيادة كنيسة روما . هذه الحركة لم تكن موجهة ضد الإسلام فحسب وإنما ضد مجتمعات مسيحية غير مرغوب فيها من وجهة النظر البابوية . وما إن قامت هذه الحركة إلى حيز الوجود الفعلى حتى حمل لواءها البارونات الإقطاعيون ، والفرسان المغليسون واليايسون من الدهماء — كل يبغى من وراءها قصداً ذاتياً . كما كانت البابوية تعقد آمالاً عرضاً من وزراء الصليبيّات في إرجاع الكنائس الشرقيّة إلى السلطان الروماني ؛ فعندما أعلن أوربان الثاني بداية الحركة في كيليرمونت (١٠٩٥) ، بات مفهوماً لدى الجميع أن البابا قد اضططلع بهمة حامي الكنيسة العالمية في الغرب وفي الشرق ، وغدا خليفة القديس بطرس القائد الأعلى ، فتضاعل بذلك شأن الإمبراطور البحرياني وكيان الإمبراطور البيزنطي .

هذا ولا يمكن أن تؤى أيدلوجية الصليبية حقها دون أن تدرس عقلية الذين شاركوا فيها وموافقهم واتجاهاتهم وثقافتهم والظروف التي دفعت بهم إلى الإنخراط فيها . سواء كانوا من العلمانيين العوام أو الكهنوت أو النساء .

لماذا انضم الفرد العادى إلى الصليبية ، وماذا كانت فكرته عنها ، وهل

كان يعلم قبالتها ، وكيف سلك عندما جاءه شعوبًا لم يسمع عن وجودها من قبل ، وكيف كان رد فعله حينذاك ؟

إن كلمة « صليبية » ليس لها مرادف في اللغة اللاتينية ، فنادرًا ما نصادف في الأصول لفظة *Crucesignati* ، إذ يشير إليها المعاصرون على أنها <sup>(٢٠)</sup> *Via Sepulcri Domini* أو <sup>(٢١)</sup> *peregrinatio* أو <sup>(٢٢)</sup> *Hierosolimitanum*. ومرد ذلك أن جل كتاب هذه الحوليات كانوا من رجال الكهنوت ، كما أنهم يستخدمون ما ألف <sup>من</sup> ألف لفظ لدى جماعة حجاج القرن الحادى عشر في الإشارة إلى الصليبيات . وإذا فحصنا العقود التي أمضاها هؤلاء الذين حملوا الصليب عشية قيام الحملات وجدنا ما ورد بها غالباً بعبارات التوبة والتکفير عن الذنب . فالذى يقوم ببيع عقاره أو يعهد به إلى وصى لحظة رحيله إلى « أورشليم » يتصرف وينطق وكأنه واحد من الحجاج <sup>(٢٣)</sup> .

غير أن كتاب الحوليات يخلطون هذه العبارات الروحية بأخرى علمانية والعكس صحيح ، إذ نجدهم يقولون :

*Via Dei, expeditio Dei; Sancta via; and iter sanctum.*

ولكن هؤلاء « الحجاج » ما إن ارتطموا في مسيرتهم بالعقبات الطبيعية أو البشرية

Anonymi *Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum* (ed. L. Bréhier) (٢٠)

as *Histoire Anonyme de la Première croisade*, Paris, 1924, pp.20, 52.

Baudri of Dol, *Historia Hierosolymitana*, in R.H.C. Oœc., Vol. IV, p. 730. (٢١)

Guibert of Nogent : 'Gesta Dei per Francos,' in R.H.C.Oœc; Vol. IV, (٢٢)  
p. 243.

*Cartulaire de l'Abbaye de Saint-Père de Chartres*, (ed. R. Guéard), Paris, (٢٣)

1840, p. 268; *Cartulaire de l'Abbaye de Saint - Victor de Marseilles*,

(ed. B. Guéard, Marion et Delisle), Paris, 1857, p. 167. Respectively :

*peregrinandi desiderio corruptus*?, "peregrinacionis gratia".

حتى صاروا يتلقبرون بـ «المحاربين» أو بـ «جيش الله». وهنا تمتزج السمات الدينية بالمفاهيم العسكرية ويصبح الصليبيون «حجاجاً مددجين بالسلاح»؛ فهم على ذلك :

milites Christi; athletae Christi; Fideles Christi;  
coadjutores Dei; gens sancta.

والصليبية ميزة أخرى هامة، فهي «إرادة الله» التي أعلنها أوربان الثاني في مؤتمر كليرومنت فصارت «صيحة المعركة» لمحاربين. وعلى هذا فقد فهم هؤلاء «الحجاج» المسلمين أن الله ذاته هو الذي استنصرهم للقتال حتى أورشليم<sup>(٢٤)</sup>. ويؤكد فوشيه دى شارترز أن المسيح ذاته قد أمر أوربان الثاني بأن يبشر بالصليبية في كليرومنت<sup>(٢٥)</sup>. وكان الفرسان يؤمنون ، وفي ثقل ، بهذه الرسالة.

كان لشارة الصليب مدلولاً خاصاً في أذهان الذين حملوه ، إذ آمنوا بأنه يجلب لهم الحماية من مغبة الشرور وأهوال الطريق . وأصدق الأدلة على هذا الاعتقاد المثل الذي ضربه بوهند الزعيم النورماندي : فعندما عان بوصول جحافل من الصليبيين إلى جنوب إيطاليا وهم في طريقهم إلى أورشليم ، سُأله عن الشارة التي يرتديها ، فلما أعلم بمدلولها قرر الانضمام للحركة فوراً ، بل ومزق معطفه إلى شرائط على شاكلة الصليبيان ووزعها على رجال المقربين<sup>(٢٦)</sup>. ويدركنا إكثاره من أورا بقصة «رؤيه» قسطنطين العظيم ( بعلامة الصليب التي تراها ساطعة أمامك في السماء تتصر ) ليدلل على القيمة التي كان يكتنها «الحجاج» هذه العلامة<sup>(٢٧)</sup> . ولم تكن الشارة في حد ذاتها بكافية لتحقيق

Robert the Monk, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. Occ., Vol. III, (٢٤)

p. 723 : "Hoc enim non sicut humanum opus, sed divinum;" Baudri of Dol, op. cit., p. 9.; Orderic Vitalis, Historia Ecclesiastica, (ed. Le Prevost & L. Dclisle), 5 Vols., Paris, 1838 - 55, I, 9, iii, p. 469.

Foucher de chartres; Gesta Francorum Hierusalem Peregrinantium; in (٢٥)  
R.H.C.OCC., Vol. III, p. 324 : "Christus autem imperat".

Anonymi, p. 18. (٢٦)  
Ekkehard of Aura; Chronicon Universale,in M.G.H.SS., Vol. VI, p. 213. (٢٧)

الغرض المنشود منها ، وبحدثنا جيبرت من نوجنت كيف أن رجال الكهنوت أمروا برفع صليب خشبي وقت معركة إنطاكيية الخامسة<sup>(٢٨)</sup> .

وهناك رسالة من قسس Lucca يصوروون فيها المندوب البابوي أدهيار — حاملا الصليب والحربة « المقدسة » على رأس رجال الدين المشاركون في الحملة<sup>(٢٩)</sup> .

وتتفق جميع الحوليات المعاصرة على أن هدف الصليبية أورشليم ، أم الكنائس<sup>(٣٠)</sup> .

غير أن الذين حملوا الصليب ما كانوا يحاربون من أجل أورشليم الأرضية فحسب وإنما أيضاً من أجل أورشليم السمائية<sup>(٣١)</sup> . وكان « القبر المقدس » لل المسيح هو غاية كل صليبي<sup>(٣٢)</sup> ، وبعد أن قام الصليبيون بمنابع وحشية عقب الاستيلاء على بيت المقدس ، يسموا وأيديهم مخضبة بالدماء شطر القبر « وعيونهم تسيل دمها » .

والصليبي — مهما كان سلوكه — كان يؤمن أن الله في صفقه ، بل إنه يحارب معه في الميدان ، ونجد أدهيار يستفز المقاتلين قبل المعركة بقوله : Jam enim hodie pro vobis pugnabit Deus<sup>(٣٤)</sup> . ويحدثنا جيبرت من نوجنت بأن الملوك لم يشتركوا في الصليبية الأولى لأن الله ذاته كان قائدها<sup>(٣٥)</sup> .

Guibert, p. 205. (٢٨)

Hagenmeyer, p. 167. (٢٩)

Guibert, p.23 : "Has o' beata captione civitas, (٣٠)

Hinc promicerens ut imperare debeas

Ad teque regna christiana contrahas."

Gilon, De Via Hierosolymitana', in R.H.COCC., Vol, v, p. 798. (٣٢)

Anonymi, p. 18. (٣٣)

Albert of Aix, Liber Christianae Expeditionis pro Erectione, Emundatione (٣٤)

et Restitutione Sanctae Hierosolymitanæ Ecclesiae, in R.H.C. Occ.,

Vol. IV, p. 350.

Guibert, pp. 123, 250. (٣٥)

وللصلبيّة — كما فسرها المعاصرُون — مظاهر فوق طبیعی ؟ فقد أبْرقت بمولدها عدَّة ظواهر غریبة : فی حولية القديس اندرُو نجَدَ أنَّ حرکات سمائیة أشارت إلَى هذا الحدث الخطير<sup>(٣٦)</sup> ، ونجَدَ نفس الشیء في حولية بوهيميا<sup>(٣٧)</sup> . وهكذا فإنَّ تحرکات النجوم وسقوط الشهب والنیازک كانت كلَّها تشير إلَى الاتجاه نحو الأرض المقدسة . وفي عام ١٠٩٤ تنبأَ المنجم جزلبرت<sup>،</sup> أَسقف دیزیبیه ، بأنَّ جموعاً من غرب أوربا سوف تهاجر عنـها<sup>(٣٨)</sup> .

هذه الظواهر الطبیعیة قد لقيت من يفسرها في قالب دینی بحث في مجتمع القرن الحادی عشر الذي كان يألف الرؤی والتجلی وحدوث أمور خارقة للعقل ؛ والحوليات الصلبيّة غاصة بهذه المعانی ؛ فلقد ظهر القديس بطرس لبطرس بارتيلمیو ، وتجلى الله للصلبيّين يرشدهم في الاستیلاء على عدة معاقل<sup>(٣٩)</sup> . كما ظهر القديس مرقص لأحد «الحجاج» ينبوه بأنَّ المسيح وحواريه في انتظار الفرنجية عند أنطاكیة<sup>(٤٠)</sup> .

ومع أنَّ كلَّ الحوليّات دون استثناء قد بالغت في وصف العنصر الغیبی إلا أنَّ أكثرها وضوحاً في هذا الصعيد حواية رایموند من اجوی ، الذي أطّلب في وصف أحداث اكتشاف «الحریة المقدسة» في أنطاكیة والدور الذي لعبته في انتصار الصلبيّين حينذاك . ولم يقتصر الأمر على هذا ، في وقت الجماعة يرسل الله القوت للصلبيّين ؛ كما أنه يسخر الطبیعة من أجل خدمتهم<sup>(٤١)</sup> . من قبيل ذلك أنَّ الله يرسل مطرًا غزيرًا لينعش الفرنجية وليعکر على «عسكر العدو»<sup>(٤٢)</sup> .

Chronicle of St. Andrew', in M.G.H. SS, Vol. VII, p. 545. (٣٦)

Cosma Pragensis, Chronicae Bohemorum', in M.G. H.SS., Vol. IX, p. 103. (٣٧)

Orderic Vitalis, p. 462. (٣٨)

Raymond of Aguilars, Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem, in R.H.C. Occ., Vol. III, pp. 257, 269 - 70. (٣٩)

Narratio Floriacensis, in R.H.C. Occ., Vol. V, p. 357. (٤٠)

Raymond of Aguilars, p. 261. (٤١)

Ibid. (٤٢)

كذلك نص على أن « القديسين المحاربين » هبطوا من السماء ليعاونوا الفرنجة في القتال ، وعلى رأس هؤلاء القديسون ديمتريوس وميركيريوس وجرجس<sup>(٤٣)</sup> .

وللصليبيية ظهر آخر : فقد بشر بها أوربان الثاني على أنها « الخروج » الجديد إلى كنعان . ومن ثم فقد اعتبر الصليبيون أنفسهم « شعباً مختاراً » ، قادهم الله نحو القبر المقدس بأورشليم مثلما فعل مع العبرانيين في « العهد القديم »<sup>(٤٤)</sup> . وعندما هزم الصليبيون علوا ذلك بأنهم لا بد وقد « أغضبوا الله » مثلما كان يتعلّق العبرانيون من قبل<sup>(٤٥)</sup> . كما شبه الصليب الذي حملوه « بقوس العهد » العبراني<sup>(٤٦)</sup> .

والصلبييون ورثة العبرانيين ، وعلى هذا ما وعده الله لبني إسرائيل جدده للاتين<sup>(٤٧)</sup> .

ومثلما دار العبرانيون حول جيريوكوس سبع مرات ، قام الصليبيون بتنظيم موكيتهم حول أورشليم سبع مرات أيضاً<sup>(٤٨)</sup> . كما شبه الصليبيون أدهيار ، مندوب البابا ، بموسى ؛ فهو يدبر أمور الحلة ويشرع لهم مثلما فعل النبي موسى مع بنى إسرائيل<sup>(٤٩)</sup> . وحتى جيوفري من كالارد ، كاتب سيرة البابا أوربان الثاني — شبه سيده بقائد بنى إسرائيل<sup>(٥٠)</sup> .

Anonymi, p. 145; Chanson d'Antioche Provençale et la Grande Conquista (٤٣)

de Ultramar, (ed. G. Paris), II, p. 165.

(٤٤)

Robert the Monk, p. 747.

(٤٥)

Orderic Vitalis, p. 574

(٤٦)

Foucher, p. 446.

(٤٧)

Foucher, p. 554.

(٤٨)

Guibert, p. 226.

(٤٩)

Robert the Monk, p. 731, Baudri, p. 16; Orderic, p. 469.

Vita B. Gausfridi, (in the Mémoire de la Société des Sciences de la Creuse, 1862), p. 93. (٥٠)

وحتى داود النبي صاحب المزامير — قد تغنى في أشعاره بالصلبيين<sup>(٥١)</sup>. والصلبية — عند أصحابها — أداة الله يستخدمها في تحقيق نبوة أشعيا : « إن الجزائر تتظرني وسفن ترسيش في الأول لتأتي ببنيك من بعيد وفضتهم وذهبهم معهم لاسم الرب إلهك وقدوس إسرائيل لأنه قد سجد لك »<sup>(٥٢)</sup>.

وعندما تم للفرنجية الاستيلاء على أورشليم راحوا ينشدون : هذا هو اليوم الذي صنعه رب ، فلنفرح ونتملل فيه<sup>(٥٣)</sup>. ولا اختيار جودفري دي بويون « ملكاً » على أورشليم ، كان هذا على طراز ملك داود<sup>(٥٤)</sup>. وصلوات الصليبيين تجليد لتضرعات العبرانيين :

« استمع يا رب ... لا تحجب وجهك عنّي . لا تخيب بسخط عبديك . قد كنت عرضي . فلا ترفضني ولا تتركني يا إله خلاصي »<sup>(٥٥)</sup>.

غير أن للصلبية أيضاً اشتقاقة الإنجيلي : فقد طلب أوربان الثاني من جمهوره في كيليرمنت الاقتداء بسيرة المسيح عندما قال :

« من أحب أباً أو أمّا أكثر مني فلا يستحقني . ومن أحب ابنًا أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني . ومن لا يأخذ صليبه ويتبغى فلا يستحقني »<sup>(٥٦)</sup>.

إن حمل الصليب اقتداء لسيرة المسيح الذي حمل صليبه راضياً من أجل الفداء<sup>(٥٧)</sup> . وقد نادى أدهمار بأن الصلبية « رسالة » سداها التضحية ولحمة الاستشهاد<sup>(٥٨)</sup> :

- 
- |   |      |
|---|------|
| Foucher, p. 320.  | (٥١) |
| Robert, p. 882. (Isaiah, 60 : 9 - 10)   | (٥٢) |
| Raymond, p. 300. (Psalm 117, 24).   | (٥٣) |
| Orderic, p. 612.  | (٥٤) |
| Raymond, p. 248, (Psalm 43 : 26); Robert, p. 828, (Psalm 27 : 9).                             | (٥٥) |
| Robert, p. 730, (Luke, 14 : 27; Matthew, 10 : 38).  | (٥٦) |
| Foucher p. 328; Ekkehard, Hierosolymita', in R. H.C. Occ., Vol. V,<br>p. 159; Robert, p. 728. | (٥٧) |
| Chanson d'Antioche, I, p. 113.  | (٥٨) |

ولما كانت الصليبية من خلق البابوية ، فإن أي انتصار تحرزه انتصار لكنيسة روما<sup>(٥٩)</sup> ، كما أن رسالة الصليبيين نشر لواء الكاثوليكية أينما حلوا<sup>(٦٠)</sup> . والصلبيون على هناد يجددون الأعمال البطولية لشارلaman وأبنائه ، الذين حطموا الوثنية بخند السييف ونشروا الكاثوليكية وراء الراين .

والوثائق المعاصرة تؤيد هذه النظرية ، فقد طلب أوربان الثاني من الصليبيين «أن يمحطموا الوثنية ويرفعوا من مجلد كنيستهم الأم — كنيسة روما»<sup>(٦١)</sup> . وفي رأي البابا أن العقيدة المسيحية الصحيحة في هذا العالم هي عقيدة «كنيسة الفرنجية» . ولهذا لم يكن غريباً أن جاعت رسالة قادة الصليبية الأولى من أنطاكية إلى أوربان الثاني تؤكد هذا المعنى :

«لقد هزمنا الترك والكافر ، ولكننا لم نستطع تحطيم إثم الهرطقة من يونانيين وأرمي وسوريين ويعقوبيين . ولهذا فنحن نطلب من قداستكم — يا أبانا — حيث إنكم الأب والرأس ، أن تخضروا إلى إمارة وليكم بطرس لأنكم خليفته ؛ وستجدنا لك أبناء مطيعين . . .

ويإذنك وبأمرك سوف تنقض على هؤلاء الهرطقة جميعاً فند مرهم ونستحصل شأفتهم<sup>(٦٢)</sup> .

وإذا ما فحصنا المسميات التي أشار بها الصليبيون إلى «العدو» من أتراء وغيرهم نجدها كالتالي : Infideles, Gentiles, Agarini, Persae, Barbari . . . ويلى هذه الألفاظ نعوت من قبيل : «الجنس الوثني الشرير» ؛ «الترك المدنسون للمقدسات» ؛ «الجنس الممقوت لدى الله» «أعداء الله وأعداؤنا» ؛ والترك فوق هذا أتباع للشيطان ، عنصر دني ، خدم لإبليس ، وأتباع للمسيحي الجدال<sup>(٦٣)</sup> .

Ibid.

(٥٩)

Robert, p. 758; Letter of the Crusade leaders addressed to the Pope, at (٦٠)

Lattakiah , in 1099, in Hagenmeyer, op. cit., p. 171.

Robert, loc. cit.

(٦١)

H. Hagenmeyer, op. cit., p. 164.

(٦٢)

Robert, p. 776; Foucher, p. 324; Orderic, p. 495.

(٦٣)

على أنه يجب أن نلاحظ أن هذه العبارات والمعنوت بعینها قد استخدمها الصليبيون ضد اليونان واليهود والهراطقة والمسلمين<sup>(٦٤)</sup>.

ومن سمات الصليبية أيضاً وضوح فكرة الانتقام : فلقد طلب أوربان الثاني من الصليبيين أن « يذبحوا » أعداء المسيحية . كما ظهر الله لبطرس الراهب — قائد الحملة الشعبية الأولى — وطلب منه استئثار المسيحيين لأن<sup>(٦٥)</sup> « alassent vengier ».

وكان أدهيمار — المندوب البابوي — يخاطب الفرسان في الحملة بنفس الروح<sup>(٦٦)</sup> .

ولقد لبى الصليبيون النداء البابوي عندما استولوا على أورشليم في عام ١٠٩٩ . فالصورة التي تعطيها لنا المصادر الفرنسية والعربية عن المذابح التي تمت هناك بشعة للغاية وتنطق بحب الانتقام . ويحدثنا رaimond من آجوى أنه عندما تزوجه صباح اليوم التالي للغزو اللاتيني لأورشليم لزيارة منطقة معبد سليمان كان عليه أن يبحث لقدميه عن ممر وسط جثث ودماء وصلت حتى ركبتين<sup>(٦٧)</sup> . ويروى فوشيه دي شارترز بأنه حتى الأطفال لم ينجوا من هذه المذبحة . ويمضي ليقول بأن النساء ، وإن كن قد نجoron من الأذى الخلقي ، إلا أنهن قد تعرضن للطعن في بطونهن بحراب الصليبيين .<sup>(٦٨)</sup> ويقدم لنا ألبرت من إكس صورة بشعة أخرى : إذ نزع الصليبيون الغلامان الصغار من صدور أمهاطهم وعلقوهم على أسوار البيوت بحرابهم<sup>(٦٩)</sup> . كما حرق

Orderic p. 495.

(٦٤)

Chanson d'Antioche, I, p. 6.

(٦٥)

Ibid.

(٦٦)

Raymond, p. 300, cf., Anonymi, pp. 204 - 206; Letter of Diambert of<sup>(٦٧)</sup>.

Pisa, in in Hagenmeyer, p. 171; Abu'l Feda, Moslem Annals' in R.H.C.

Or., Vol. I, p.p. 198 - 99. Sir Steven Runciman, op. cit., I, p. 287, comments saying that "this was a bloodthirsty proof of christian fanaticism".

Foucher, pp. 349 - 50.

(٦٨)

Albert, p. 479,

(٦٩)

اللاتين جثت الموتى بحثاً عن الذهب والجواهر المدفونة مع أصحابها المتوفين<sup>(٧٠)</sup> . ويصف روبرت الراهب كيف أن رفاقه قطعوا رؤوس الضحايا من أهالي أورشليم وجروها من خلفهم إلى معسكرهم ليحصلوا عددها . <sup>(٧١)</sup> كما أرسل تانكرد – القائد النورماندي – سبعين رأساً إلى آديهيار للتسليل على بطولته الصليبية<sup>(٧٢)</sup> . وأمر آديهيار بأن تكبس هذه الرؤوس الحبيزة بجوار أسوار أنطاكية ليدخل الرعب على قلوب أهلها<sup>(٧٣)</sup> . وأغلبظن أن الصليبيين قد أقدموا وقتها على أكل لحوم البشر<sup>(٧٤)</sup> .

هذا الثالث مصدر آخر يعيننا على تفهم مسلك الصليبيين ، كما يلى أصواتاً على ثقافتهم وعاداتهم وآرائهم الدينية ، مما يعطينا صورة صادقة عن أحوال المجتمع الغربي في القرن الحادى عشر . وهذا المصدر يتمثل في الأناشيد والأغاني التي كانت جماعة الصليبيين ترددتها أثناء مسيرة نحو الشرق . ولقد كتب ج . بارس بأن الصليبية ما كانت لتقوم لو لا ظهور «أشودة رولاند»<sup>(٧٥)</sup> . ومع أن هذا القول مبالغ فيه ، إلا أنه له دلالته . الواقع أن الفترة ما بين ١١٥٠، ١١٥٠ قد شهدت ظهور عدد وافر من الملائمة التي هيأت الجو الملائم للحرب المقدسة والصلبية . ويرجح أن جل كتاب الـ Chansons des Gestes كانوا صليبيين<sup>(٧٦)</sup> . ولقد أشعل أوربان الثاني بمشروعه الصليبي خيال كتاب الملائمة والأغاني الحربية قبل وبعد كليرمونت<sup>(٧٧)</sup> . وأنشودة رولاند هي المثل الصادق لروح الحرب الصليبية ، وكانت بمثابة

Foucher, p. 359. (٧٠)

Robert, p. 788; Anonymi, p. 96; Guibert, p. 181. (٧١)

Radulph of Caen; Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione (٧٢)

Hierosolymitana", in R.H.C. O.C., Vol. III, p. 644.

Guibert, p. 242. (٧٣)

Albert, p. 450; cf. Orderic, p. 582; Radulph, p. 675. (٧٤)

G. Paris, in Romania, Vol. XXXI, (1902), p. 410. (٧٥)

A. Hatem, Les Poèmes Epiques des Croisades, Genése, Historicité, Localisation, Paris, 1932, 32. (٧٦)

Ibid. (٧٧)

« الاستنفار » للحرب التي بشر بها البابا ودير كلوفى<sup>(٧٨)</sup>. ويمكن تقسيم الأشعار التي عالجت موضوع « الحروب المقدسة » إلى فئتين أساسيتين: الأعمال البطولية لشارلماן؛ ثم الأعمال البطولية لحارن. وتضم الأولى ما يلى:

Chanson de Roland, Fierbras, Gui de Bourgogne, Aspremont;  
أما الثانية فتشمل : Chanson de Guillaume, Couronnement de Louis, Covenant Vivien, Aliscans, La Mort Aymeri de Narbonne.. Charroi de Nimes

وهذه الأشعار جمیعاً تصور شارلمان وفرسانه أبطالاً وشهداء في حرب صليبية لا نهاية لها ضد السراكنة. ولعل أهم المعانى التي وردت في هذه الملاحم: وجذ الله في صف رجال المخاربين؛ مشاركة القديسين الفرسان في هذه الحرب؛ مع إبراز قيمة الأيقونات المقدسة في الحفاظ على المخاربين من الهلاك. كل هذا بغية رفع شأن المسيحية الكاثوليكية في العالم، وتحجيم إكيليل الشهادة.

وهناك إصرار في هذه الملاحم على ضرورة مساندة الله وقديسيه لهؤلاء « الصليبيين »: فنجده البابا يخاطب القديس بطرس قائلاً بأنه إن لم يساند رجال الكنيسة الرومانية في الحرب، فإن البابا سرف يحتجم عن إقامة صلاة القدس في كنيسة القديس بطرس<sup>(٧٩)</sup>.

ويتمثل رولاند روح الفروسيّة الفرنسية للقرن الحادى عشر؛ فهو ليس برجل عادى وإنما هو أشبه ما يكون برمز لفكرة سائدة في عصره. أما شارلمان فهو إمبراطور الله الذى وكلت إليه مهمة إعلان شأن كنيسة وعقيدة الفرنجية. ويقوم وليم البارون بدور رجل الإمبراطور وفصله الأمين المتفانى في خدمة سيده الإقطاعى.

H. Grégoire; La Chanson de Roland et Byzance, in *Byzantion*, XIV (٧٨) (1939), p. 301. See P. Boissonade, *Du Nouveau sur la chanson de Roland*, Paris, 1923, pp. 276 seq.

Couronnement de Louis, (ed. E. Langlois), *Les Classiques Français du Moyen Age*, 22, Paris, 1920, p. 34.

وواقع الأمر أن هذه الملاحن جميمًا كانت بمثابة الصحافة ودور الإذاعة ل المجتمع القرنين الحادى والثانى عشر .

كانت الإمبراطورية البيزنطية تعانى الأمرىن من ضربات جبارتها السلاجقة الأتراك وال بشانقة فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر . ولقد بلغت الخطة ذروتها فيما بين ١٠٩٠ و ١٠٩١ ، ولهذا فإن الإمبراطور الكسيوس كومنيوس ( ١٠٨١ - ١١١٨ ) فتح باب المفاوضات مع البابا أوربان الثانى يطلب منه المساعدة بإرسال جند مرتزقة من إيطاليا لمساعدة بيزنطة ضد أعداءها على الحدود الشرقية والغربية . والثابت أن بيزنطة كانت تستخدم منذ فترة مبكرة الجند المرتزقة الوفدىن من غرب أوروبا اللاتيني : من فرمان وفرنجية وإنجليز ، وهؤلاء كانوا يخدمون الإمبراطورية جنبًا إلى جنب مع المرتزقة من ترك وبشانقة وروس .

غير أنه فى عام ١٠٩٠ تمكنت القائد البيزنطى قسطنطين دالاسينوس من أن يهزم الأمير السلجوقي زاخاوس ويضطره إلى الفرار إلى سيرنا<sup>(٨٠)</sup> . ولما تمرد الأميران الصربيان بودن وبولكان ضد بيزنطة ، وجه إليهما الإمبراطور القائد يوحنا دوكاس ، الذى أوقع بهما هزيمة نكراء فى عام ١٠٩١<sup>(٨١)</sup> . وفي ٢٩ أبريل لعام ١٠٩١ ، وعلى ضفاف نهر Leburnion انقضت الجيوش الإمبراطورية ، تهاندها قبائل البولوفيتزى المتبربرة ، على جماعات البشناق وأبيدت هذه الجماعات عن آخرها فى مذبحة رهيبة . ولقد روى البولوفيتزى من هول هذه المجزرة البشرية إلى حد أنهم لاذوا بالفرار بعد النصر ، دون أن يطالعوا بيزنطة بنصيبيهم من الأغنام ، خشية أن يحمل بهم المصير الأنكى الذى وقع بال بشانقة أمام عيونهم<sup>(٨٢)</sup> .

هذه الحقائق تقطع فى يقين أن مجنة بيزنطة قد انتهت فى أبريل ١٠٩١ ؛ وعلى هذا فإنه لم تكن هنالك حاجة على الإطلاق بعد ذلك

Alexiad, VII, viii, 10, p. 116.

(٨٠)

Ibid., VII, viii, 9, p. 116.

(٨١)

Ibid., VIII, v, 8, p. 143.

(٨٢)

بأربعة أعوام (١٠٩٥) لأن تلجم السلطات الإمبراطورية البيزنطية إلى البابوية لطلب العون.

ورغم هذا فقد دأبت جماعة المؤرخين على المبالغة في تصوير حالة اليأس والفرز السائدتين في بيزنطة في عام ١٠٩٥. وهذا خطأ يستوجب التصحيح. فالمعروف أن سفراء الكسيوس في غرب أوروبا الذين كانوا يستأجرنون جنداً مرتزقة، كما جرت العادة من قديم، قد قصدوا إلى مؤتمر Piacenza الذي عقده البابا أوربان الثاني من أول مارس ١٠٩٥ حتى سابعه. ولعل الأمر الذي دعا الكثيرين إلى المغالاة في أهمية هذا الحدث ما كتبه الكاردينال Bernold في «حوليته» بأن البابا أوربان الثاني «قد عقد هذا المؤتمر ليبحث المؤمنين المشاركون فيه على المساعدة لتقديم العون للكسيوس كومينين ضد الكفار<sup>(٨٣)</sup>». على أنه يجب ملاحظة أن هذا الكاتب ذاته قد أكد في «حوليته» بأن هذا المجلس قد تم انعقاده «من أجل اتخاذ إجراءات ضد الانفصاليين وضد أعدائهم»؛ وهو يقصد بالطبع «ضد البابا المنافس جيبرت وحليفه الإمبراطور الألماني هنري الرابع<sup>(٨٤)</sup>». وهناك شاهد آخر على أن المجلس كان مهتماً في الدرجة الأولى بموضوع الشفاق البابوي والانفصاليين؛ وهو أوردوريلث فيتالس<sup>(٨٥)</sup>. وعليه فإن مجلس بياتسنيزا هذا كان مهتماً بالأمور المتعلقة بتنظيم الكنيسة ووحدتها تحت رعاية البابا الشرعي وبإدانة السيمونية (شراء الرتب الكنسية بمال)، وكذا النظر في قضية طلاق براكسيديز، زوجة الإمبراطور هنري الرابع الروسية الأصل، بعد أن قصت على البابا فصائح زوجها<sup>(٨٦)</sup>. أما طلب العون لبيزنطة من المؤرخين، فإن واقع الأمور يؤكد أنه لم تكن هناك حاجة قائمة من أجل ذلك بعد هزيمة زاخارس الأمير السلجوقي وبعد مذبحة روما وبيزنطة.

Bernold, Chronicon, in M.G.H.SS., Vol., V, p. 42.

(٨٣)

Ibid.

(٨٤)

Orderic Vitalis, Historia Ecclesiastica, I, 9, iii, p. 461.

(٨٥)

Mansi, op. cit., loc. cit.

(٨٦)

روما وبيزنطة.

البشائقة ، ثم بعد أن توفي السلطان ملك شاه ( ١٠٩٢ ) وقامت حرب أهلية بين الأمراء السلجوقية خاصة في آسيا الصغرى . على أنه يمكن تفسير ما تم في بياسنزا على الوجه الآتي : حدث أن نما إلى سمع سفراء الكسيوس الذين كانوا يتجولون في إيطاليا بحثاً عن جند المرتزقة نباً انعقد مجلس هام بحضوره مندوبون من دول الغرب في مدينة بياسنزا ؛ فأسرع هؤلاء السفراء لاستغلال هذه الفرصة ليطربوا رغبتهم أمام المؤمنين تسهيلاً لهمتهم في جمع عدد وافر من الجند المرتزقة للخدمة في الجيوش البيزنطية . ويبدو أنهم قد بالغوا في عرض طلباتهم وفي تصوير أحوال الحدود الشرقية والغربية للإمبراطورية ، كسباً لعطف الأمراء والأساقفة الواقفين من عبر الألب . على أن هذا لم يكن متماشياً مع مطلب الكسيوس كومين ، ولم يخطر بباله . فإننا لا نجد من بين شاهدي العيان الذين كتبوا عن الصليبية الأولى واحداً يذكر شيئاً عن مطلب الكسيوس في الصيغة التي نادى بها الكثيرون من الحذين . أما الذين كتبوا عن تلك الفترة في وقت متاخر ، من شاكلة روبرت الراهب وجيرت من نوجنت ، فإن هؤلاء فقط هم الذين بالغوا في تصوير أهمية بلوغ الكسيوس إلى البابا من أجل العون . ويجب معالجة ما كتبه هؤلاء المتأخرن في كثير من الحذر .

\* \* \*

وفي صيف ١٠٩٥ رحل البابا أوربان الثاني عن إيطاليا قاصداً فرنسا ، موطنه الأصلي ، وهناك توقف عند بيوتات الديريانيين إخوانه من أتباع كلوفن حيث ناقش خططه الكنسية مع أساتذته ورفاقه القدامي . وقد توقف بوجه خاص عند مدينة Lepuy وعند St. Gilles حيث قابل كلاً من أدريهار من سانت ماريال ، أسقف الأولى ثم رaimond الرابع من سان جيل ، كونت نواوز ، وكسب صداقهما وعطفهم على مشروعاته <sup>(٨٧)</sup> .  
وفي ١٨ نوفمبر ١٠٩٥ انعقد المجلس في كليرمونت بإقليم Auvergne ،

حيث حضر النبلاء والأعيان ووجهاء القوم من علمانيين وكهنوت . كذلك حضر إلى المؤتمر بعض رجال الدين الإسبان ، وكان من بينهم دالماس . أسقف كومبوستلا . استعرض البابا وأعوانه بعض المشاكل الكنسية أمام المجلس وأقر لدخول بعض النظم والإصلاحات فيها ، ثم أعلنت بداية « هدنة الله » Turga Dei ؛ و « سلام الله » Pax Dei في غرب أوروبا اللاتيني .. ومن بين الثلاثة وثلاثين قانوناً إلى أصدرها مجلس كليرمونت يهمنا القانون الشافى منها النبي عالج موضوع الصليبية<sup>(٨٨)</sup> . وهذا يمنع « غفراناً تاماً من الخطايا والذنب لكل من يتعهد المسير إلى أورشليم بغية تخلص كنيسة القبر المقدس من أيدي الكفار<sup>(٨٩)</sup> » .

هذا وقد ألقى البابا أوربان الثاني — أثناء انعقاد مؤتمر كليرمونت — خطاباً في جمهور الكهنة والعلمانيين خارج قاعة المؤتمر (٢٧ نوفمبر ١٠٩٥) ، غير أننا لا نملك النص الأصلى لما بشر به البابا في ذلك الحين . ولا يمكن قبول ما ورد في كتابات بودري دى دول ؛ وروبرت الراهب ؛ وفوشيه دى شارت؛ وجيبرت دى نوجنت على حدا فيه . وقد اعتقدت الكاتبة الأمريكية D. C. Munro بأن المسائل التي اتفق عليها الكتاب الأربع يجب أن تقبل . على أنها صحيحة في خطاب أوربان هذا<sup>(٩٠)</sup> . على أنه ينبغي ملاحظة أن كلام من هؤلاء الكتاب يعكس وجهة نظره الشخصية في كلام أوربان ؛ وهذا يشكل صعوبة في محاولة الاستدلال على ما بشر به أوربان بالضبط .. ويرى المؤرخ الفرنسي F. Chalandon أن هؤلاء الكتاب المعاصرین إنما يعكسون في كتاباتهم الرأى السائد لدى معاصريهم عن الصليبية ؛ وهذا لا يمثل ما قاله البابا بالفعل ، أو ما كان يضمونه لمشروعه الصليبي<sup>(٩١)</sup> .

Lambert of Arras; Canons of the Council of clermont', in Mansi, Vol. XX. (٨٨)  
Ibid., p. 816. (٨٩)

D. Munro; The Speech of Pope Urban II at Clermont', in American Historical Review, Vol. XI (New York, 1906).

F. Chalandon, Histoire de la Première Croisade jusqu'à l'Election de Godefroi de Bouillon, Paris, 1935, p. 38. (٩١)

على أية حال ، لعل الدراسة التحليلية والمقارنة لما ورد في كتابات هؤلاء الأربعة تساهم في إعطاء فكرة عامة عن خطاب البابا وموضوعه . فلا يمكن تصور أنهم قد اخترعوا كل ما أوردوه نسبة إلى البابا ، إذا لابد من وجود بعض الحقائق بين سطور هذه الحواليات .

يتفق هؤلاء الكتاب على أن أوربان بدأ خطابه بحث . مستمعيه من الإكليروس على السلوك الحسن وفق قانون الله حتى يكونوا باستحقاق رعاة للشعب ، « فأنت ملح الأرض فإن فسد الملح فيماذا يملح ؟ ». ولا كانت جرائم الشر قد انتشرت في المجتمع اللاتيني فإن البابا طلب من الجماهير الالتزام بقانون الكنيسة وبهدنة وسلام الله ، كما نصحهم بأكتناف طاقاتهم الحربية للاحملة الصليبية التي يبشر بها البابا « ad quoddam aliud Dei negotium et vestrum »<sup>(٩٢)</sup> . ولقد ببر البابا قيام هذه الحركة . بما أسماه الأحوال التسعة التي تردد فيها الكنائس الشرقية تحت نير الفرس [الأتراك]<sup>(٩٣)</sup> . ووجه التعasse هنا هو أن الترك قد حولوا الكنائس الشرقية إلى استعبادات تحيف لهم<sup>(٩٤)</sup> . أما كرسى الكرامة البطرسية في أنطاكية فقد بات يئن من شعائر الشعوذة التركية التي حلّت محل الطقوس الكنيسية<sup>(٩٥)</sup> . وإن الترك بفعلهم هذا يعرضون ممáكة السماوات للرجس والخطر<sup>(٩٦)</sup> . وأن الدم المهرّق في المشرق ليستصرخ مسيحيي غرب أوروبا ليهروا لنجلدة إخوانهم التعساء من سيف العدو<sup>(٩٧)</sup> ؛ والويل لمن يستطيع العطاء والنجلدة ثم ينكص عن الإغاثة<sup>(٩٨)</sup> .

ولم يكن أوربان الثاني هو الذي يبشر بالصليبية ، وإنما كانت الإرادة العلوية هي التي تستنصر المسيحيين لحمل شارة الصليب ، والزحف نحو الشرق<sup>(٩٩)</sup> .

---

Foucher, p. 323.	(٩٢)
Robert the Monk, p. 727.	(٩٣)
Baudri, p. 13.	(٩٤)
Ibid.	(٩٥)
Foucher, p. 324.	(٩٦)
Baudri, pp. 12 - 13.	(٩٧)
Foucher, loc. cit.	(٩٨)
Ibid.	(٩٩)

على أن البابا هنا عرج على مسألة أخرى هامة مستهدفاً إيجاد حل معقول بجرائم الإقطاع من قتل وسرقة ونهب، وذلك بأن طلب من فرسان غرب أو، با استنفاد طاقاتهم العدوانية في مقاتلة الترك<sup>(١٠٠)</sup>. ونبعد البابا يعد بجمهوره آفات المجتمع الغربي الإقطاعي فيوضح لهم أن رقعة الأرض لم تعد بكافية لاستيعابهم؛ فاتحاً أمام المفسدين من البارونات والفرسان جنات خضر في الشرق الدافئ لا يعودو ثمنها مغامرة صليبية<sup>(١٠١)</sup>. ونبعد أصحاب المخوليات المعاصرين يؤكدون لنا أن « مجرى الأمس أضحكوا اليوم جنداً لل المسيح »<sup>(١٠٢)</sup>.

وعنصر الإلهام الذى ارتكزت عليه خطبة أوربان هو الفريح المقدس لل المسيح في بيت المقدس، مدينة الله . إذ راح البابا يقص على الناس ملحمة أورشليم ، محور العالم ، أم الكنائس ، والجنة الأرضية ، التي شهدت الميلاد العجيب والرسالة الكبرى ثم طريق الآلام الفادى ؛ فالقيامة . إن هذه المدينة قد أمست في أغلال الأسر ، وعلى الرجال تخليصها من العبودية والطوان<sup>(١٠٣)</sup>. وعلى هذا فن يحمل صليبه يصبح جندياً للمسيح مع بقية جيشه من « خاصة الله » ومن « الشعب الختار »<sup>(١٠٤)</sup> .

وهنالك ميزات أخرى يجتنبها الصليبي : فإن آثامه تغفر لحظة مسيرته نحو المشرق ، وإذا قتل فهو شهيد تحظنه ملائكة السهامات<sup>(١٠٥)</sup> . وأما الذين يستولون على القدس فإن أمامهم أنهار من « جنات كنعان حيث يفيض العسل واللبن »<sup>(١٠٦)</sup> .

ومثلما فعل موسى عندما انطلق العبرانيون لقتال العملاقة ، رفع أوربان

- 
- |                                  |       |
|----------------------------------|-------|
| Baudris p. 14.                   | (١٠٠) |
| Robert, p. 728; Foucher, p. 324. | (١٠١) |
| Foucher, loc. cit.               | (١٠٢) |
| Robert, p. 729.                  | (١٠٣) |
| Ibid., p. 727.                   | (١٠٤) |
| Baudri, p. 15; Robert, p. 729.   | (١٠٥) |
| Robert, p. 728.                  | (١٠٦) |

الثاني يديه نحو السماء ابتهلاً لله بأن ينصر «جنس الفرنجية» على الترك (١٠٧) .

\* \* \*

ولقد التقى الكرسي البابوى الفرصة التى طلب فيها الإمبراطور البيزنطى، الكسيوس كونين العون من الغرب فى عام ١٠٩١ ، وعمدت بعض الدوائر الكنسية المجهولة إلى تزييف خطاب أدعوا فيه بأنه موجه من إمبراطور بيزنطة الغرب المسيحي ، بقصد إثارة حماس الفرسان اللاتين للحرب المقدسة فى الشرق . وفي هذه الرسالة المزيفة نجد الكسيوس يتضىء إلى الكونت روبرت الأول من فلاندرز ورجاله وسائر المؤمنين فى الغرب بأن يهبو لنجلة لخوازم المسيحيين فى الشرق من العدو (١٠٨) .

ويحذير باللحظة أن لهجة الرسالة التى نحن بصددها لا يمكن أن تكون قد صدرت على لسان الكسيوس أو سفراوه ، لأنه ليس يعقل أن تنحط الكراهة البيزنطية ، خاصة عند مخاطبة الفرنجية ، إلى هذا الدرك من التوسل والاستجداء . وأهم من هذا أن الصورة الواردة فى الخطاب عن مسلك الترك تجاه مسيحي الشرق تم عن خيال لاتيني خصيب لا يمت الواقع التاريخ بظل

Baudri, p. 15.

(١٠٧)

The date of this letter is controversial. P. Riant maintained that the Epis- (١٠٨)

tula had been fabricated at some time between June 1098, and July 1099. G. Paris placed it in 1090. H. Hagenmeyer contented that the document was prepared in 1088, at the instance of Alexius' envoys and the Count of Flanders. In the opinion of C. Kohler it was an *excitatorium* to the First crusade. E. Jornanson argued that it had been prepared at the request of Bohemond, in Italy in 1105.

It should be pointed out that there is much in the *Epistula* which could not have been derived from an authentic letter. Moreover, the *Epistula* in the form that is known suggests that it was composed at the time the First crusade was being preached, and that it was intended to prepare the Westerners to conquer for themselves former Byzantine provinces and to lay hands on at least two of the Eastern patriarchates, let alone the relics and the treasures of gold at Constantinople.

من الواقع<sup>(١٠٩)</sup>؛ ذلك لأن الوثائق المعاصرة التي سجلها المؤرخون الشرقيون من المسيحيين تتحدث في تفصيل عن التسامح العظيم الذي أبداه السلطان ملك شاه تجاه الرعايا المسيحيين في إمبراطوريته. ويكتفي أن نشير هنا إلى شهادة متى من الراها الذي أوضح أن المسيحيين عند وفاة ملك شاه بكوا بكاء مريراً<sup>(١١٠)</sup>.

هذا وتأتي الفقرة الخاصة بالأساقفة الشرقيين وما حل بهم على أيدي الترك لتوكلد بدورها زيف الوثيقة. وينسحب نفس الشيء على المائتى سفينة بيزنطية التي راحت الوثيقة تصف سقوطها في أيدي «العدو»<sup>(١١١)</sup>. على أن أهم ما ورد في الوثيقة المزيفة ما يلى: «حيث أن الحال على هذا القدر من البؤس والسوء، ولما كانت القسطنطينية قد باتت مهددة بالغزو التركي، فإنه خوفاً على آثار المدينة المقدسة وكنزها من الوقوع في أيدي الكفار، فليقبل أبناء الفرنجة الإنقاذ المدينة من السقوط؛ ولتكون من نصيبيهم هذه الكنوز الطائلة».

ونجد في هذه الرسالة قائمة شاملة بالآثار المسيحية المقدسة من قبيل صليب الصليوبوت، السوط الذي ألهب به ظهر المسيح، إكليل الشوك، الحرابة المقدسة، المسامير التي سمر بها الجسد إلى الخشبة، رداء الكتان الذي قُمط به الجسد بعد الصليب، السلال التي وضع بها ما تبقى من السمكتين والخمسة خبزات بعد إطعام الجموع الغفيرة، خصلات من لحية المسيح، لحية يوحنا المدعمن... إلخ. هذه المقدسات باتت مهددة بخطر التدليس، وعلى الفرنجة أن يهربوا الإنقاذه. أما الكنوز من ذهب وفضة في الخزائن الإمبراطورية، فهي أيضاً تتنتظر اللاتين الشجعان ليأتوا لنقلها إلى الغرب قبل أن تصيبها يد الترك.

ولقد كان هذا المعنى الأخير الوارد الرسالة المزيفة عاملاً هاماً من

H. Hagenmeyer, Epistulae et chartae, p. 130 “

(١٠٩)

Matthew of Edessa, Chronique, (ed. Dalaurier), p. 203.

(١١٠)

H. Hagenmeyer, loc. cit.

(١١١)

عوامل إشعال الحماس غرب أوربا اللاتيني للحركة الصليبية ، فالذين كانوا حقيقة من أهل التى وجدوا أمامهم هذه المقدسات التي كان لها سحر خاص على عقلية حجاج القرن الحادى عشر . أما أولئك الفرسان والنبلاع والعامنة الذين كانوا في ضائقه اقتصادية فقد باتت قصة الذهب والفضة تراود خيالهم وتسلل لعابهم . وفي ذلك العصر الذى كانت الكنيسة فيه هي كل شيء ، كان ما تنشره من معلومات يقبل على علاقته على أنه فعل وأصيل . والتفاصيل الواردة في هذه الوثيقة المزيفة لا شك في أنها قد ألهبت خيال أهل غرب أوربا فزاداد الحماس من أجل حمل الصليب<sup>(١١٢)</sup> .

بقيام الحركة الصليبية غدت الحرب أمراً مقدساً ومشروعاً عند كنيسة روما ، وحتى رجال الدين قد سمح لهم أيضاً بحمل السيف والقاتلة .

غير أن هذا كان بدعة لا تقرها كنيسة بيزنطة : فلقد أكد القديس بازيل من قيسارية في كتاباته بأن الحرب - أية حرب - لا يمكن أن تكون أمراً مقدساً ، حتى ولو كان نشوتها يمثل ضرورة وحتمية<sup>(١١٣)</sup> . والحق أن المسيحيين في الشرق قد فزعوا عندما شاهدوا بين أفواج الصليبيين أساقة ورهبان وقسسين مدججين بالسلاح . ولقد عبرت الأميرة آنا كومينينا عن مشاعر معاصرتها عندما انتقدت في مرارة بالغة مسلك رجل الدين اللاتيني الذي ما إن ينهي صلاة القداس حتى يمسك بسلاحه ليشارك في أعمال القتل وسفك الدماء<sup>(١١٤)</sup> . ونجد نفس المعانى فيها كتبه ثيو فيلاكت رئيس أساقة بلغاريا عن مشاهداته لأفواج الصليبيين وعن الأحوال التي أحلوها - كهنة كانوا أم علمانيين - بالأراضى التي كانوا يعبرونها أثناء رحلتهم<sup>(١١٥)</sup> .

Ibid.

(١١٢)

St. Basil of Caesarea, Letter no. 188, in P.G., Vol. XXXII, col. 681. (١١٣)

Alexiad, X, viii, 2, p. 218. (١١٤)

Theophylact of Ochrida, Letter no. XI, in. P.G., Vol. CXXVI, (١١٥)  
cols. 324-25.

كان أول من وصل إلى أسوار القسطنطينية من الصليبيين جمهور من إيطاليا، انضم إليهم والتر المفلس وجماعته .

وقد كانت هذه الحملة غير منتظمة ولذا فقد أقدمت على الكثير من أعمال العنف والشغب . ولهذا فقد اضطر الصربي والبلغار إلى مهاجمتهم ، فقتل عدد كبير منهم . وعند مدينة نيش وجدوا حاكم المدينة في استقبالهم ، وقد رافقهم إلى أدريانوبول ، ومنها واصلوا سيرهم حتى وصلوا العاصمة البيزنطية في ٢٠ يوليو ١٠٩٦ م .

أصدر الإمبراطور الكسيوس كومينيوس أوامره بالساحل لهؤلاء الصليبيين بالبقاء عند القسطنطينية حتى تصل حملة بطرس الراهب ، كما أمر بتقديم الزاد لهم جميعاً<sup>(١)</sup> . وبعد عشرة أيام لحقت بهم حملة بطرس الراهب .

وال المصادر التي أفادت في وصف حملة بطرس هو ألبرت من إكس . تحرك الراهب ورجاله من مدينة كولون في أبريل ١٠٩٦ ، وعند نهاية يونيو من نفس العام وصلوا حدود الدولة البيزنطية . وفي مدينة مالا فللا (سيلين) علم الراهب بأن Gnuzh ، فصل كولومان ملك هنغاريا ، وكذا نيكيتاس حاكم بلغاريا قد قاما بمعاهدة والتر ورجاله .

ولذلك فقد عقد بطرس النية على الانتقام لوالتر ، فقام هو ورجاله بمحصار مدينة سيلين ثم استولوا عليها .

فر نيكيتاس حاكم المدينة وبلائي إلى مدينة نيش ، ومنها فتح باب المفاوضات مع الراهب . اتفق الطرفان على أن يقدم الراهب بعض الرهائن في مقابل فتح الأسواق للصليبيين . غير أن بطرس ورجاله بعد أن أنهوا مدة إقامتهم بالمدينة قاموا بإشعال النيران في طواحيتها وبيوتها دون مبرر مقبول . وعليه فقد أمر نيكيتاس كتائب البشناق - الذين كانوا في خدمة بيزنطية

بمهاجمة مؤخرة الحملة الصليبية ، ووقع الكثيرون منهم في الأسر . أرسل نيكيتاس رسلاً إلى العاصمة ليبلغ الإمبراطور بسوء مسلك بطرس ورجاله ، فأرسل الكسيوس سفراً له مقابلة الراهب : تقابل السفراء مع الراهب على مقرّبة من مدينة صوفيا ، وهناك طلبوا منه باسم الإمبراطور ألا يطيل مقامه ورجاله في بقعة واحدة على ثلاثة أيام . كما أعلموه بأن الأوامر قد صدرت لإعداد الأسواق الالزمة للحملة . وزيادة على هذا أبلغه السفراء أن الإمبراطور ، وإن كان قد علم بالضرر البالغ الذي ألحقه الصليبيون بنيكيتاس ومدينته ، إلا أنه قد قرر العفو عنهم . وعنده مدينة أدريانوبيل ظهر سفراء جدد من قبل الإمبراطور وطلبوا من الراهب أن يسرع في سيره لأن الإمبراطور كان شديد الرغبة في مقابلته<sup>(١١٧)</sup> .

وفي ٣٠ يوليو ١٠٩٦ ظهر الراهب ورجاله أمام مدينة القدس ، وسمحت لهم السلطات بإقامة معسكراً لهم خارج أسوار العاصمة . ولقد استقبل الإمبراطور زعيم الحملة بالحفاوة والترحاب ، غير أنه لم يخف دهشه بأنه يجد راهباً على رأس هذه الحملة .

أيقن الكسيوس أن جماعة الراهب لم تكن لتسطيع مواجهة الآتراك بمفردها ، ولهذا نصحهم بالانتظار حتى تصل الجماعات الصليبية الأخرى لينضموا إليها . غير أن هذا العطف من جانب الإمبراطور قبل بالإساعة ؛ إذ سرعان ما انقض جيش الراهب على القرى المجاورة لمعسكرهم فنهبوا وحرقوا دورها وكنائسها .

وبسبب هذا المسلك الفظ اضطر الكسيوس إلى أن يأمرهم بعبور البوسفور إلى آسيا الصغرى<sup>(١١٨)</sup> .

ويصف كل من رايمند دي أجوى والكاتب المجهول الاسم « لأعمال الفرنجة » هذه المرحلة بقولهما : إن الكسيوس قد دبر نقل حملة بطرس الراهب

Ibid., p. 282.

(١١٧)

Anonymous, p. 6.

(١١٨)

إلى آسيا الصغرى حتى يتمكن الأتراك من القتل بكافة أفرادها<sup>(١١٩)</sup>. غير أن هذا الرعم مزدود؛ لأن الإمبراطور كان قد نصح بطرس وجماعته بالبقاء حول العاصمة حتى وصول الجيوش الصليبية الأخرى. ومع أنه قد اضطر لنقلهم إلى آسيا الصغرى أمام ظاظة مسلكيهم، إلا أنه رغم هذا قد نصّحهم بـألا يبرحوا قلعة كثيروت التي سمح لهم بالإقامة فيها في منجاة من ضربات السلاجقة. غير أن أحداً لم يكن على استعداد لقبول النصح، إذ اختلف القواد في الرأي، وراحت عصاباتهم في نهب القرى والمدن المجاورة، ودارت رؤوسهم كبيرة فتحرّكوا شرقاً بطريقه عشوائية حيث وقعوا في فخ الأتراك فقضوا عليهم قضاء مبرماً<sup>(١٢٠)</sup>.

ويؤكد هذا القول شهادة البرت من أكس إذ يوضح أن الإمبراطور أرسل سفارة إلى زعماء الصليبيّة الشعبيّة لتحذيرهم من الزحف شرقاً ضدّ الأتراك، غير أنّهم لم يتعلّموا بالنصائح، وساروا حتى نيقيا وكسيريجوردون<sup>(١٢١)</sup>. وعند بلدة دراكون هجم عليهم الأتراك وقضوا عليهم تماماً. وبعد هذه المهزيمة الساحقة تقدم الأتراك حتى قلعة كثيروت التي لجأ إليها الذين فروا من المذبحة، ولم ينقذهم من سيوف الترك سوى الأسطول البيزنطي الذي كان قد أسرع بقيادة قسطنطين يوفور بينوس لحماية كثيروت ومن لا ذوا بداخلها.

ورغم كلّ هذا نجد كاتب «أعمال الفرنجة» يضع اللوم كله على «الإمبراطور اليوناني الحائز»<sup>(١٢٢)</sup>. ويكتُب هذا القول شهادة البرت من أكس الذي يؤكّد أن الكارثة التي حلّت ببني جلدته كان مردها سوء سلوكهم واختلاف قادتهم في الرأي<sup>(١٢٣)</sup>.

Raymond, III, p. 240; Anonymous, p. 12.

(١١٩)

Albert of Aix, I, xv, p. 284.

(١٢٠)

Albert of Aix, loc. cit.

(١٢١)

Anonymous, pp. 10 - 12.

(١٢٢)

Albert, I, x, p. 36.

(١٢٣)

كان الأسقف أدهيار - المندوب البابوي - قد حدد نقطة تجمع الجيوش الصليبية المتعددة عند مدينة القسطنطينية . وقد علمت حملة بطرس الراهب الشعبية الإمبراطور البيزنطي وحكومته درساً هاماً في ضرورة اتخاذ احتياطات كافية وعاجلة لحماية القرى والمدن البيزنطية من الأفواج الصليبية الزاحفة من الغرب صوب العاصمة البيزنطية . ولهذا فقد أرسل الكسيوس سفراً له لمقابلة قادة الحملات الصليبية ولتسهيل مهمتهم في الحصول على ما يلزمهم من طعام من الأسواق البيزنطية . على أنه في نفس الوقت صدرت الأوامر إلى الكتابة الإمبراطورية بتعقب الصليبيين عن بعد لحماية الأهالي في حالة نهب أو اعتداء صليبي .

كان أول من وصل إلى بيزنطة من قادة الحملات الصليبية المنظمة هيولي مين (Hugh le Maine) كونت فرماندوا وهو شقيق فيليب الأول ملك فرنسا . وكان هيول قد أبحر من إيطاليا بعد أن أرسل رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي يعلمه فيها بوصوله (١٢٤) .

كما كان القائد البيزنطي نيكولا مافروكاتاكالون على رأس أسطوله يراقب شواطئ بيزنطة لمنع الصليبيين الواصلين بحراً من التسلل خفية إلى الأراضي البيزنطية . ولا كان هيول شخصاً متجرفاً ومحباً للتظاهر فقد أرسل سفاراة قوامها أربعة وعشرون فارساً إلى حاكم مدينة دورازو لإعلان وصول السيد الكونت ! غير أن عاصفة عبشت بسفنه هيول مما اضطره للرسو في بقعة ما بين Cape Palli ومدينة دورازو ، حيث استقبله أحد خفر السواحل ، الذي اقتاده إلى مدينة دورازو .

ولقد قابله حاكم المدينة - يوحنا كومينيوس - مقابلة حسنة ، ولكنه احتجزه في المدينة ثلاثة أيام إلى أن أرسل الإمبراطور سفيره بوترميتس لاصطحابه إلى العاصمة (١٢٥) . ويرجح أن الكسيوس احتجز هذا الصيف الصليبي الطام

Alexiad, X, vii, 1, p. 213.

(١٢٤)

Ibid., X, vii, 3, p. 214.

(١٢٥)

كرهينة في يديه ليساوم بها بقية القادة اللاتين الوافدين من الغرب<sup>(١٢٦)</sup>. ولكن الكسيوس أكرم وفادة الكونت الفرنسي وقدم له هبة ضخمة من المال ، وبعدها أقسم هيوين الولاء والطاعة ( حسب التقاليد الإقطاعية الغربية ) للإمبراطور البيزنطي ؛ وكان ذاك في أكتوبر ١٠٩٦ م<sup>(١٢٧)</sup>.

وفي نهاية عام ١٠٩٦ م وصل جودفري دى بويون على رأس جيش كبير إلى مدينة القدسية . وكان جردن قد قابل سفراء الإمبراطور بمجرد دخول جيشه الأرضي البيزنطي ، وقد عاونوه معاونة صادقة في فتح الأسواق الازمة للجند وخيوthem . وفي نفس الوقت طلب السفراء من القائد الصليبي أن ينبع على جنوده بعدم نهب المواطنين الآمنين في القرى التي يعبرونها في مسيرتهم . ولم تحدث اضطرابات في المسافة ما بين نيش وفيليبوبولس ، غير أن أنباءً وصلت إلى جودفري عند المدينة الأخيرة تفيد بأن الإمبراطور قد احتجز هيو كونت فرماندوا رهينة في يده . وعلى التو أرسل جودفري سفاراة إلى العاصمة تطلب من الكسيوس الإفراج عن سجينه النبيل . وعند مدينة سيليمبريا جاءت الأنباء تفيد بأن الكسيوس قد رفض الإفراج عن الكونت الفرنسي . وكان هنا مدعاه لأن يهجم جودفري وفرسانه على المدينة فنهبواها<sup>(١٢٨)</sup> .

أرسل الكسيوس سفراً إلى جودفري يطلبون منه الكف عن أعمال السلب ضد المواطنين الآمنين . واستجاب جودفري لهذا المطلب وواصل مسيرته حتى وصل العاصمة في ٢٣ ديسمبر ١٠٩٦ م<sup>(١٢٩)</sup> . وهناك قابل الكونت هيو ثم استقبل مندوب الكسيوس ، الذين وجهوا له الدعوة لمقابلة الإمبراطور في قصره ؛ ولكن جودفري رفض الدعوة<sup>(١٣٠)</sup> .

ومن البديهي باللحظة أن المؤرخ المعاصر البرت من إكس يرسم لنا

Ibid., Foucher, p. 327.

(١٢٦)

Alexiad, X, vii, 3, p. 215.

(١٢٧)

Albert of Aix, pp. 304 - 5.

(١٢٨)

Anonymous, p. 123.

(١٢٩)

Albert, p. 305.

(١٣٠)

صورة براقة لسيده جودفري في تلك المرحلة المبكرة من الصليبية الأولى ، فهو يؤكد في حديثه أنه الرجل الأول والمسئول عن سلامة قادة الحملات المتعددة ، كما أنه يبرر سلب مدينة فيليبوبولس على أنه عمل انتقامي كان الغرض منه إجبار الإمبراطور اليوناني على إطلاق سراح الكونت هيو . وتنم نغمة البرت عن أنه كان يمهد لإعطاء سيده دور الزعيم الأول للحركة الصليبية الأولى .

أقام جودفري ورجاله خيامهم خارج أسوار القدسية ، وزودهم الإمبراطور بمستلزماتهم من مئون وخلافه . ولما كان الكسيوس راغباً في تجنب تجمع الحملات جميعاً حول أسوار القدسية خوفاً من الجشوع الصليبي ، فإنه أرسل الكونت هيو إلى خيمة جودفري ليحاول إقناعه بقبول دعوة الإمبراطور إلى القصر ، ولكن الدوق العنيد رفض الدعوة مرة أخرى في تحد وكبراء بالغين . وكانت النتيجة أن قلل الإمبراطور من كميات المؤمن المتدايقه من داخل العاصمة إلى معسكرات جودفري ؛ مما سهل ببلدوين ، شقيق جودفري ، إلى أن يهجم على المناطق المجاورة للمعسكر الصليبي حيث استولى عنوة على كل ما وجده فيها<sup>(١٣١)</sup> . وهنا اضطرر الكسيوس إلى إرسال المؤمن كسابق العهد ، وقبل جودفري أن ينقل معسكره إلى بيرا<sup>(١٣٢)</sup> .

وأغلب الظن أن جودفري كان مصرأً على البقاء عند العاصمة حتى وصول بوهمند قائد الحملة النورماندية – العدو التقليدي لبيزنطة – ليتمكنوا سوياً من إدخال الرعب في قلب الإمبراطور والحصول منه على مطالبه تحت التهديد . ولكن الكسيوس كان داهية عصره : فإنه أرسل كتابه لترقب الطريق الممتد من إرتريا حتى فيليا ؛ بغية قطع سبل الاتصال بين جودفري وبوهمند القادم هو وفرسانه من جنوب إيطاليا . وفي نفس الوقت أحاطت فرق بيزنطية أخرى بمعسكرات جودفري من بعد كاف<sup>(١٣٣)</sup> .

Ibid., p. 306.

(١٣١)

Ibid.

(١٣٢)

Ibid.

(١٣٣)

ظل جودفري على عناده طيلة فصل الشتاء رافضاً كل دعوة يوجهها إليه الإمبراطور لمقابلته. وفي مارس ١٠٩٧ علم الكسيوس بأن بوهمند في طريقه إلى العاصمة ، ولهذا فتح باب المفاوضات من جديد مع جودفري ، غير أن الأخير أعلن أنه لن يتفاوض مع بيزنطة إلى أن يصل زميله بوهمند<sup>(١٣٤)</sup> . ولهذا قرر الكسيوس أن يتخد موقفاً حاسماً تجاه هذا الدوق العنيد ؛ فأرسل بعثة متقدة من خيرة رجاله للترحيب ببوهمند وإظهار دلائل المودة والعطف نحوه وضباطه ، وفي نفس الوقت قطع المؤن عن معسكر جودفري<sup>(١٣٥)</sup> .

يقول المؤرخ اللاتيني البرت من أكشن أن البيزنطيين تحشروا بين جملته أثناء عودتهم من السوق ؛ بينما تؤكد آنا كومينينا أن جودفري كان قد توهם أن الإمبراطور قد احتجز سفراه داخل القصر ولهذا هاجم العاصمة . والواقع أن صداماً حدث بين الفريقين ، وهجم الصليبيون على أسوار المدينة وأشعلوا النيران في بوابات قصر بلا شرذى وأضطر البيزنطيون إلى التقهقر . ومع أن البرت يتحدث عن نصر لاتيني مظفر ، يؤيده في هذا كاتب « أعمال الفرنجة » الجبهول ، ورغم إفاضة آنا كومينينا في وصف انتصار قوات اللورين على الصليبيين ، إلا أن واقع الأمور يؤكد أن الصدام بين الطرفين لم يكن بالعنف الذي صوره هؤلاء الكتاب الثلاثة<sup>(١٣٦)</sup> .

بعد وقوع تلك المناوشات ، أرسل الكسيوس كونت فرماندا لمحاولة استئالة جودفري لقبول المفاوضات ، ولكن الأخير رفض الدعوة في عناد ووجه التوبيخ إلى الكونت الفرنسي على موقفه . وهنا أدرك الكسيوس أن دوق اللورين كان يضمmer شرّاً للعاصمة ، فقرر إخضاعه بقوة السيف . وبالفعل نشببت معركة بين الطرفين ، وهزم فيها جودفري هزيمة كاملة .

وكان من نتيجة هذا الانتصار أن اضطر دوق اللورين إلى أداء يمين

Ibid.

(١٣٤)

Alexiad, X, ix, 1-11 pp. 220-26.

(١٣٥)

Respectively : Albert, p. 308; Anonymous, pp. 14 - 18; cf. Alexiad, x, ix, 10 - 11, p.p. 225 - 6.

(١٣٦)

الولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطي ؛ ثم نصحه الكسيوس بأن يعبر هو وجنوده  
البسفور إلى آسيا الصغرى<sup>(١٣٧)</sup> .

غير أن الكسيوس كان دبلوماسيًا عاقلاً ، فلكي يزيل المراة من نفس  
الدوق اللوريبي أقام له مأدبة فاخرة وأجلسه إلى جماره على المائدة وقدم له هدايا  
ثمينة القيمة . وفي مقابل هذه الحفاوة الإمبراطورية تعهد جوفري بأن يعيد  
للإمبراطورية البيزنطية كافة الأراضي التي كانت في حوزتها قبل الغزو التركي  
 لها . وبعد ذلك استقر جوفري وجنوده في معسكراً لهم الجديد في آسيا  
 الصغرى عند بلکانم<sup>(١٣٨)</sup> .

هذا ويظهر جوفري دي بويون في أساطير غرب أوروبا اللاتينية المتأخرة على  
 أنه « الفارس المسيحي الأمثل » ، البطل الذي لا ند له في « ملحمة » الصليبيات .  
 غير أن الدراسة الواقعية للتاريخ تكشف عن خطأ هذا الحكم : فجوفري لم  
 يكن حاكماً صالحاً في بويون ، كما أن إدارته لمنطقة اللوريين كانت تتصرف  
 بالتعنت . ولقد جمع جوفري الأموال الازمة لإعداد حملته الصليبية الضخمة  
 عن طريق الابتزاز والتهديد والتشهير ببعض التجار ، وأيضاً لأن أطلق غوغاء  
 الصليبيين على بعض الموسرين ثم عرض وساطته لإنقاذهم من أيديهم لأنهم دفعوا  
 مبلغًا معيناً من المال إليه . وكان يلدويون شقيقه رجلًا مفلساً ، فانضم إلى حملة أخيه  
 بعد أن قرر المقامرة بطالعه في الشرق الدافئ بحثاً عن إقطاع دسم ، لأنه لم يكن  
 في نيته العودة إلى غرب أوروبا<sup>(١٣٩)</sup> .

بعد رحيل جوفري دي بويون إلى آسيا الصغرى بحرين ، وصل بوهمند قائد  
 الحملة الصليبية النورماندية إلى مدينة القدسية . بعد وفاة والده روبرت  
 جويسكارد ( ١٠٨٥ ) ، وبعد أن اعترف أوصال النورمان بروجر خلفاً لأبيه  
 على الحكم ، لم يعد هناك مجال يتسع لطموح بوهمند في جنوب إيطاليا . ولما بدأ  
 التبشير بالصليبية الأولى في غرب أوروبا ، تلقى بوهمند أنباءها ببالغ السرور

Alexiad, loc. cit.

( ١٣٧ )

Ibid.

( ١٣٨ )

See S. Runciman, op. cit., p. 147.

( ١٣٩ )

والحmas . ولقد كان بوهمند وثيق العلاقة بالبابا أوربان الثاني شخصياً ، ففي صيف عام ١٠٨٩ قام البابا بزيارة في جنوب إيطاليا وفي أول أغسطس من نفس العام كان أوربان في مدينة كابوا وجه إليه بوهمند الدعوة لزيارة عاصمته باري . ثم عقد البابا مجلساً في مدينة ملفي في سبتمبر ١٠٨٩ حيث وفد روجر وبوهمند وأدوار أبوليا وكلايريا<sup>(١٤٠)</sup> . وهناك وجه بوهمند الدعوة مرة أخرى للبابا لزيارة مدينة باري والإشراف على نقل رفات القديس ثفولا إلى ضريح لائق بمقامه ، وكذا لسن رئيس أساقفتها الياس . ولقد قبل البابا الدعوة وأقام في باري حتى السابع من أكتوبر ١٠٨٩<sup>(١٤١)</sup> . ويرجح أن بوهمند كان في رفقة البابا في زيارته لكل من ترانى ويرنزي<sup>(١٤٢)</sup> .

وفي أغسطس ١٠٩٠ سافر بوهمند إلى تارانتو حيث ألقى وصية والده بمنح بعض الخصصيات لدير مونت كاسينو . وفي ٢٠ نوفمبر ١٠٩٢ كان بوهمند وتابعه ولم كرنت أبوليا في خدمة البابا عند زيارة لمدينة آنجلونا ؛ وفي ٢٤ نوفمبر كان البابا في مدينة تارانتو ، تلبية لدعوة بوهمند<sup>(١٤٣)</sup> . وفي أغسطس ١٠٩٣ كان بوهمند في رفقة البابا أربان في مونت كاسينو حيث طلب منه أن يكرس دير القديس بانزى<sup>(١٤٤)</sup> .

كان التبشير بالحملة الصليبية الأولى الفرصة الذهبية لبوهمند ، التي عقد عليها آمالا عرضاً في المغامرة والغمم . ولقد كتب في هذا المجال ولم من مالزيرى أن الصليبية الأولى كانت من فعل بوهمند ، وبأنه كان يقصد من وراءها تحقيق أطماعه في الإمبراطورية البيزنطية<sup>(١٤٥)</sup> . وتقصص علينا آنا كومينينا أن بوهمند قد شارك في الحملة الصليبية من أجل مواصلة عدوان

Mansi, Vol. XX, cols. 721 - 28

(١٤٠)

P. Jaffé, Regesta, 5413

(١٤١)

Ibid.

(١٤٢)

Mansi, Vol. XX, col. 684.

(١٤٣)

Ibid., cols. 643 - 44.

(١٤٤)

William of Malmesbury, op. cit., p. 390 — This statement was taken for (١٤٥).

granted by Sir Francis Palgrave (*The History of Normandy and England*, London, 1851-64, IV, pp. 509-14, 521-22) who claimed that the Greek envoys at Piacenza were disguised agents of Bohemond, that Bohemond was the Forger of the so-called "Epistula Spuria" of Alexius, and that Peter the Hermit was his tool.

والده ضد الإمبراطورية البيزنطية<sup>(١٤٦)</sup>.

وطبقاً لرواية الكاتب المجهول « لأعمال الفرنجية » ، فإن بوهمند علم بالصلبية فقط أثناء حصاره لمدينة ملني (يوليو - أغسطس ١٠٩٦) ، حيث شاهد جموعاً من الناس يحملون شارة الصليب ميميين شطر بيت المقدس ، فقرر على الفور قيادة حملة إلى الشرق<sup>(١٤٧)</sup> . وقد تبع بوهمند في حملته خيرة ضباطه وأفصاله ؛ ومن بينهم تانكرد ابن أخيه ؛ الأخوان ريتشارد وراینولف أبنا عم بوهمند ؛ روبرت كونستبل بوهمند ؛ بطرس أسقف آناجني وغيرهم كثيرون من علمانيين وكنسين<sup>(١٤٨)</sup> . ويؤكد المؤرخ المعاصر مالاترا أن الذين حملوا شارة الصليب مع بوهمند كانوا من خيرة الشباب « الذين كانوا يتطلعون إلى مغامرات عنيفة وجديدة ، كما هو طبيعي لمن هم مثلهم في مقتبل العمر »<sup>(١٤٩)</sup> .

ويقدر البرت من إكس عدد جيش بوهمند بعشرة آلاف من الفرسان ، إلى جانب أعداد وافرة من المشاة<sup>(١٥٠)</sup> . أما آنا كومينينا فقد أعطت رقمين مختلفين عن حجم جيش بوهمند ، مما يقلل من قيمة دليلها في هذه المسألة الحسابية<sup>(١٥١)</sup> . على أن المركز المرموق الذي تمنع به بوهمند بين أقرانه قواد الحملات الصليبية الأخرى ، مع أن هذا يرجع إلى قوة شخصيته وشجاعته التي فاقت كل وصف ، إلا أن هذا قد يدلل أيضاً على أنه كان على رأس قوة عددية يخشى بأسها.

عبر بوهمند ورجاله بحر الأدریاتیک في صيف ١٠٩٦<sup>(١٥٢)</sup> . ورسى الأسطول النورماندي في آفلونا حيث وجد الجندي مؤناً وفيرة في انتظارهم . وقد كان بوهمند داهية من الطراز الأول ؛ فلكلی يكسب حسن ظن الإمبراطور الكسيوس وبغية تبديد مخاوف السلطات البيزنطية من شخصه وزواجه أمر رجاله

Alexiad, X, xi, 7, pp. 233 - 34.

(١٤٦)

Anonymous, pp. 18 - 20.

(١٤٧)

Rodulp of Caen, p. 606.

(١٤٨)

Malaterra, op. cit., p. 599.

(١٤٩)

Albert, p. 312

(١٥٠)

Alexiad, X, viii, 1, p. 215; cf., x, xi, 1, p. 230.

(١٥١)

Ibid., X, viii, 2, p. 216.

(١٥٢)

ألا يوقعوا ضيراً بالأراضي الإمبراطورية «إذ أنها ملك لأخوان مسيحيين»<sup>(١٥٣)</sup>. وزحف جند بوهمند من آفلونا إلى كاستوريا ، حيث أمضوا عيد الميلاد ؛ ومنها يعموا شطر بيلاجونيا . غير أنهم في طريقهم هجموا على قرية تسكتها غالبية من المانويين ونهبواها<sup>(١٥٤)</sup> . وهنا تدخلت كتائب البشتق والترك الذين كانوا في خدمة الكسيوس وهاجموا النورمان على ضفاف نهر الفاردار . غير أن تانكرد تصدى لهم وهزمهم وأسر منهم عدداً كبيراً ؛ ولكن بوهمند أمره بأن يطلق سراحهم<sup>(١٥٥)</sup> .

وكان سكان المناطق البيزنطية التي عبرها النورمان في هلم زائد منهم لم يصدقوا ما قيل لهم «حجاج» (صليبيون) ، وإنما ظنوا أنهم قد قدموا لتحطيم كيانهم وكيان إمبراطوريتهم مثلما فعل من قبل روبرت جويسكارد في عام ١٠٨١<sup>(١٥٦)</sup> .

جاء سفراء الكسيوس للترحيب بقدوم بوهمند ولتسهيل مهمة تزويد رجاله وخيوطهم بما يلزمهم من مئون . غير أن تانكرد لم يكن مرتاحاً لسياسة المؤدة المداعة التي تظاهر بها عمّه بوهمند أمام سفراء الإمبراطور . وكان بوهمند في واقع الأمر غاية في الدهاء والدبلوماسية ، فقد أضمر لنفسه مخططاً لم يطلع عليه أحداً ، وأخذ يتعدد لألكسيوس كومينيوس وسفراءه . ولكن ابن أخيه تانكرد – يؤيده جمهور الفرسان النورمان – كان يفكر جاداً منذ البداية في سلب ونبـب كافة المدن البيزنطية التي تصادفه في طريقه ولكن بوهمند تدخل ومنعه من إنفاذ خطته<sup>(١٥٧)</sup> .

وعند مدينة روزا ترك بوهمند قيادة الحملة لتانكرد وأسرع إلى القسطنطينية ليقابل الإمبراطور الكسيوس . وما أن برح بوهمند المدينة حتى هجم تانكرد

Anonymous, pp. 20 - 22.

(١٥٣)

Ibid., p. 22.

(١٥٤)

Ibid.

(١٥٥)

Ibid., p. 28.

(١٥٦)

Ibid., pp. 24 - 26.

(١٥٧).

ورجاله على البقاع المجاورة لها ينهبونها ويخربونها<sup>(١٥٨)</sup>.

رحب الإمبراطور الكسيوس كومينيوس بضيوفه المرموق في حرارة وحفاوة. ورغم هذا فإن المطالع لروايات آنا كومينا - وهي شاهدة عيان - يخلص بأن القائد النورماندي كان شديد الريبة في نوايا الإمبراطور تجاه شخصه: فعندما أرسل الكسيوس كمية من اللحوم إلى الجناح الذي نزل به بوهمند، طلب الأخير من خدمه أن يأكلوها ، وفي صباح اليوم التالي راح يستفسر في قلق واضح عن أحوالهم الصحبية<sup>(١٥٩)</sup>. وبصفة عامة فإن بوهمند قد نجح في طمأنة بال الإمبراطور البيزنطي وطلب منه أن يحسن الظن به وأن ينسى ذكريات الماضي المريءة عن والده جويسكارد . وكان هذا كافياً لأن ينال بوهمند من الكسيوس هبة ضخمة من المال في مقابل أداء يمين الولاء والطاعة للإمبراطور<sup>(١٦٠)</sup>. وقد طلب بوهمند من الكسيوس أن يسبغ عليه منصب « كبير خدام الإمبراطورية » في أقاليمها الشرقية ؛ غير أن الإمبراطور ، الذي دهش لهذا المطلب ، رد عليه ردًا غامضًا.

أما النص الوارد في كتاب *Gesta Francorum* عن وعد الكسيوس بمنح أنطاكية لبوهمند ، فأغلب الظن أنه مدسوس بيد بوهمند على هذا الكتاب في عام ١١٠٤ عندما ساقت علاقاته مع بيزنطة ، وهو في طريق عودته إلى غرب أوروبا ليبشر بصلبيبة ضد الكسيوس وبيزنطة . ولأهمية هذه الفقرة نورد النص الكامل لهذا الجزء من الكتاب :

Forsitan adhuc a nostris majoribus sepe delusi crimus; ad ultimum  
quid facturi erunt? Dicent quoniam, necessitate compulsi, volentes  
nolentes humiliaverunt se ad nequissimi imperatoris voluntatem.  
*Fortissimo autem viro Boamundo, quem valde timebat, quia eum sepe cum suo  
exercitu ejecerat de campo, dixit quoniam, si libenter ei juraet, XV dies eudni*

Ibid., p. 28.

(١٥٨)

Alexiad, X, xi, 4, p. 232.

(١٥٩)

Ibid., X, xi, 5, pp. 232 - 33.

(١٦٠)

*terre in extensione ab Antiochia retro daret et viii in latitudine; eique tali modo juravit ut, si ille fideliter teneret illud sacramentum, iste suum nunquam preteriret. Tam fortis et tem duri milites, cur hoc secerunt. Propterea igitur quia multi coacti erant necessitate* <sup>(١٦١)</sup>

إن الفقرة التي تختها خط هي الجزء المدسوس على النص للأسباب الآتية :

- إن بقية النص تتحدث عن قادة الصليبية جمِيعاً في صيغة الجمع ؛ بينما تختص الفقرة التي تختها خط بشخص مفرد هو بوهمند .
- في حين أن النص الذي في صيغة الجمِيع يعدد الأضرار التي ألحقتها بهم الكسيوس ؛ تنفرد فقرة بوهمند بامتيازات طائلة لشخص بوهمند .
- إنه من المعروف جيداً أن نقاشاً حاداً قد دار بين قادة الصليبية الأولى أثناء حصار مدينة أنطاكية وكذلك بعد الاستيلاء عليها . والغريب في الأمر أن كاتب *الـGesta* لم يشر إطلاقاً إلى تلك المنحة « المزعومة » (أنطاكية) من الكسيوس إلى بوهمند .
- ولعل الحقيقة الأشد غرابة أن *الـGesta* هي المصدر الرجيد الذي نعلم منه تفصيلاً عن السفارة التي أوفد فيها هيو العظيم وبلدوين من هيبرولت إلى الكسيوس كومينيوس « للحضور لتسليم مدينة أنطاكية » من القادة الصليبيين <sup>(١٦٢)</sup> . وكان بوهمند ذاته من بين أعضاء المجلس ، ومن الواضح أنه قد وافق على إرسال هذه السفارة إلى الكسيوس . فإن كان صحيحاً ما تزعمه تلك الفقرة عن منحة الكسيوس له لم يكن من الممكن أن يوافق على إرسال هذه السفارة بتلك الرسالة للإمبراطور البيزنطي .
- هذا وهناك صمت تام ، في صدد حديث *الـGesta* عن هذه السفارة ، عن هبة الكسيوس لبوهمند - أذاكية - مما يجعل هذه الفقرة غير

Anonymous, pp. 28 - 30.

(١٦١)

Anonymous, p. 160.

(١٦٢)

متواقة مع واقع الأمر ، لأنه هنا كانت المناسبة الحتمية للذكر أمر هذه المنحة إن كان صحيحاً أنه كانت هناك منحة على الإطلاق .

- إن بوهمند لم يجرؤ في أى من المناسبات ، حتى وقت أن وبخه أقرانه لهجومه على البيزنطيين في اللاذقية ، أن يذكر صراحة أن الإمبراطور كان قد وعده بمدينة أنطاكية .

- إن الأمر قد يزداد وضوحاً إذا ما أشرنا إلى *ال Hierosolymita* التي كتبها أكيهارد من أورا . وطبقاً لبرهان المؤرخ هاجيناير – الذي أصبح مقبولاً لدى الجميع – فإن *ال Libellus* الذي أطلع عليه أكيهارد في مدينة أورشليم في عام ١١٠٢ والذي اتخذه مرجعاً للمعلومات التي أوردها في مؤلفه عن الصليبية الأولى هو *ال Gesta Francorum* <sup>(١٦٣)</sup> . وقد كتب أكيهارد عن نتائج المفاوضات التي دارت بين القادة اللاتين وبين الكسيوس ، ولكنه لم يذكر شيئاً عن تلك المنحة « السرية » من الإمبراطور بوهمند . وتردد عبارته في هذا الصدد واضحة بمؤدى أن قادة الصليبية تعهدوا بإعادة الأرضي التي كانت ملكاً للإمبراطورية إلى الكسيوس <sup>(١٦٤)</sup> .

كان الجيش الثاني القادم من أوربا بقيادة الكونت رايمند من سان جيل والقاصد البابوى الأسقف ادھيمار . عبر هذا الجيش البروفنسالى دلماشيا في مشقة زائدة بسبب وعورة المنطقة الطبيعية . وفي مدينة دورازو تلقى الكونت رسائل من الكسيوس ترحب بعمقه وتفيض في الحديث عن المودة <sup>(١٦٥)</sup> . غير أن جيش رايمند هاجم مدينة روزا وقام بنها دون مبرر واضح .

H. Hagenmeyer; Das Verhältniss der *Gesta Francorum* zu dem *Hierosolymita* ( ١٦٣ )

Ekkchards von Aura, in *Forschungen zur deutschen Geschichte*,  
XV, 19 - 42.

Ekkhard of Aura, *Chronicon Universale*, in *M.G.M.SS.*, Vol. VI, p. 216. ( ١٦٤ )

Raymond of Aguilars, p. 236. ( ١٦٥ )

وعند مدينة رودستو تلقى الكونت رسالة من الإمبراطور يحيثه فيها بالإسراع إلى القسطنطينية حيث كان بقية أفرانه من القادة الصليبيين في انتظار وصوله لإبرام معاهدة مع بيزنطة ؛ وهذا فقد ترك الكونت جيشه وأسرع إلى العاصمة حيث وصل في ٢١ أبريل ١٠٩٧.

وأثناء وجود راي蒙د في القسطنطينية جاءته أنباء بأن الكتائب البيزنطية قد هاجمت جيشه عند مدينة رودستو وهزمته هزيمة ساحقة<sup>(١٦٦)</sup> . ولعل هذا يفسر المراة التي أبدتها راي蒙د أول الأمر في علاقاته مع الكسيوس كومنيوس ؛ إذ أنه رفض في إصرار شديد أداءيمين الولاء والطاعة له مثلاً فعل بقية أفرانه . ولما احتمم النقاش بين الكسيوس و Raimond ، استغل بوهمند الموقف وتدخل في النزاع وأعلن جهاراً أنه إن اصطدم رايوند بالإمبراطور ، فإنه شخصياً سوف يدافع عن « شرف وحياة الإمبراطور »<sup>(١٦٧)</sup> وفي النهاية وافق رايوند أن يتبعه بالقسم على الحفاظة على حياة وشرف الكسيوس<sup>(١٦٨)</sup> . أما عن تأنكرب ، ابن أخي بوهمند ، فقد رفض أداء اليمين وانسل سراً هو وبعض فرسانه إلى آسيا الصغرى<sup>(١٦٩)</sup> .

وفي أوائل مايو ١٠٩٧ وصلت إلى القسطنطينية جيوش ستيفن من بلوا ، وروبرت من نورماندي ، وروبرت الثاني من فلاندرز ، ووافق هؤلاء القادة دون نزاع ، على أداءيمين الولاء والتبعية للإمبراطور البيزنطي . ومن أجل هذا فقد بالغ الكسيوس في إكرامهم وإسباغ شئ النعم والهدايا عليهم جميعاً .

وبعد مفاوضات طويلة أبرمت معاهدة بين قادة الحملة الصليبية الأولى وبين الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنيوس : وعد الإمبراطور أن يحمل

Ibid., pp. 237 - 38.

(١٦٦)

Anonymous, pp. 30 - 32.

(١٦٧)

Ibid.

(١٦٨)

Ibid., pp. 32 - 34.

(١٦٩)

الصليب ويقود اللاتين عبر آسيا الصغرى ، وأن يؤمن لهم مسالك عبورهم في الأراضي الإمبراطورية ، وأن يزودهم بفرقة من فرسانه لمساعدتهم ضد الأتراك . وفي مقابل هذا وعد الصليبيون أن يردوا للإمبراطور ، أو من يمثله ، الأراضي التي يستولون عليها والتي كانت ضمن ممتلكات بيزنطة قبل الغزو التركي . وقد أبرمت هذه المعاهدة الماءمة في مايو ١٠٩٧ ؛ وتعرف بمعاهدة القدسية (١٧٠) .

هذا وتفصيل ألكسياد ( ملحمة آنا كومينينا في سيرة والدها العظيم الكسيوس كومينيوس ) بأغرب القصص الممدوحة عن غلظة وسوء مسلك الصليبيين أثناء إقامتهم ضيوفاً في العاصمة البيزنطية . فلم يكف اللاتين عن الإلحاد - فجشع - طلباً للذهب والفضة من الإمبراطور . ولقد تزاحموا على القصور الإمبراطورية في غير كياسة وكانوا يرثون وينهبون في ردهات القصور وأجنحتها وقاعاتها الفاخرة في غير لياقة . ورغم هذا فقد قابل الكسيوس هذا السلوك « المتبرّر » بابتسامته المعتادة ، ولم يشتبط غضباً حتى حينما جلس أحد الفرسان الحموي على العرش الإمبراطوري ذاته متخدلاً منه أريكة (١٧١) .

ولقد عبر عن فظاظة الصليبيين في أحسن أسلوب السير ستيفن رانسيان فقال :

« إن القدسية ، تلك المدينة الروحية الأنفة ، بكل ما فيها من ثروة ونشاط للأهلين من تجار وحرفيين ، ومن نبلاء البلاط في أرديتهم الوسيمة ، ومن سيدات يرتدين فاخر الثياب ويتحلّين بما يظهر مفاتنهن (١) ، ومن ورائهن حاشية من الحصيان والعبيد ، قد أثارت في اللاتين شعوراً بالضيق والإحساس عميقاً بالدونية . فإنهم ما كانوا بفهمن لغة البلاد

(١٧٠) Ekkehard of Aura, op. cit., loc. cit.

Alexiad, X, ix, 5, p. 226; X,x, 6 - 7, pp. 229 - 30.

(١٧١)

(١٧١)

ولا تقاليدها . وحتى الشعائر الكنسية بدت لهم بعيدةً بعد كله عما عهدوه في كنائسهم » (١٧٢) .

ورغم العداء الشديد الذي يبدو في كتابات أصحاب الحوليات الصليبية ضد الإمبراطور الكسيوس كومينيوس وضد اليونانيين جميعاً ، إلا أن قلة ضئيلة كان لديها شيء من الانصاف والعرفان بالمعروف . ومن بين هؤلاء القلائل ستيفن كونت بلوا ، الذي تأثر بالغ التأثير بحاتمية الإمبراطور وشفقتة على فقراء الحملة الصليبية ، وقد أتت هذه المعانى في الرسائل التي كان يرسلها ستيفن من معسكر القتال إلى زوجته أديلا . فقد كتب إليها من مدينة نيفيا يقول بأنه « لا يوجد على البسيطة كلها رجل على خلق وحاتمية الكسيوس كومينيوس ، الذي بدل في سخاء لنا جميعاً من أمير إلى فقير» (١٧٣) .

\* \* \*

في ليلة ١٩ يونيو ١٠٩٧ بات واضحًا أن الحامية التركية لمدينة نيقية لم تعد قادرة على الصمود أمام الحصار الذي ضربه الصليبيون وحليفهم الإمبراطور البيزنطي على المدينة ؛ وهذا قرروا — بعد مفاوضات سرية — تسليم المدينة للإمبراطور مقابل تأمين الأهلين على أرواحهم . ولقد وافق الكسيوس على طلب الأتراك واحترام الاتفاق الذي أبرمه معهم . غير أن الصليبيين رأوا أن في مسلك الكسيوس خيانة لهم . وواقع الأمر أن الإمبراطور كان رجلاً ذكيًا ودبلوماسيًا ، وكان يعلم أثر أدب معاملة عدو قوى قد انهزم . وهذا فقد عامل الأسرى الأتراك في وفق بالغ . ولكن الصليبيين جنوا غصباً من موقف الكسيوس الذي فوت عليهم فرصة النهب والسلب وسفك دماء الأهلين ؛ وهذا نجد الكاتب المجهول « لأعمال الفرنجة » يزعم

S. Runciman, op. cit., I, p. 170.

(١٧٢)

H. Hagenmeyer, Epistulae et chartae, p.p. 138 - 40 : "Epistula i Stephani" (١٧٣)

comitis caronotensis ad Adelam uxorem suam (scripta e castris prope

Nicaeam, an. 1097. ca. 24 diem mensis Junii) .

بأن الكسيوس قد أحسن معاملة الأتراك ونجاهم من سيف الفرنجية ليدخلون  
للهجوم على الصليبيين فيما بعد (١٧٤) .

ولقد وزع الكسيوس كل الغنائم التي جمعت من نيقايا على الصليبيين :  
فترك للجندي ما غنم من مئون ، وكان للفرسان أنصي لهم من ذهب وفضة ،  
وتلقى القادة مبالغ ضخمة من الذهب والمدaiya الممينة . وبعدها دعا الإمبراطور  
قادة الحملة للاجتماع به في معسكره في مدينة بلکانم . كان بوهمند أول  
من لي الدعوة « بهدف الحصول على المزيد من الذهب » ، كما تعرف  
ذلك جيداً الأميرة آنا كومينينا (١٧٥) كذلك ، عاد بوهمند يتسلل للإمبراطور  
أن يعهد إليه بمنصب « رئيس خدام المشرق البيزنطي » ؛ ولكن طلبه  
قوبل بالرفض . أما عن تانكرد فقد رفض أداء عيمين الولاء والطاعة  
للإمبراطور إلا إذا وهب إليه الإمبراطور خيمته مليئة إلى وأسها بالذهب .  
وعندما انبرى القائد البيزنطي جورج بالايولوغوس يوبخ تانكرد على  
« وقارته » ، دار تانكرد على عقبه لينقض عليه لمصارعته . وهنا وقف  
الإمبراطور لرفض هذا الصدام ، واضطر بوهمند إلى أن يوبخ ابن أخيه  
على مسمع من الجميع لسوء مسلكه . وفي نهاية الأمر وافق تانكرد على  
أداء اليمين المطلوب (١٧٦) .

أما عن ستيفن من بلووا وراموند من تولوز ، اللذان كانا قد ظلا  
في مدينة نيقايا لحراستها ، فقد قصدا بدورهما إلى بلکانم حيث قابلا الإمبراطور .  
ولم يصدق ستيفن عينيه عندما وجد أن نصيبيه من الغنائم كان يقرب من  
من جبل من الذهب (١٧٧) .

Anonymous, p.p. 40 - 42.

(١٧٤)

Alexiad, XI, iiiii, 1, p. 16.

(١٧٥)

Ibid. XI, iii, 2, p. 17. Radulph of Caen (pp. 619 - 20) gives the opposite (١٧٦)  
version of the story. F. Chalandon (p. 194) rejects Anna's story;  
Runciman(p. 182) believes that Tancred paid homage. I follow, here,  
the evidence of Runciman.

H. Hagenmeyer, p. 139; Alexiad, XI, iii, 1, p. 16.

(١٧٧)

بعد الاستيلاء على نيقية زحف الصليبيون على دوريلايوم حيث أوقعوا بالأئراك المهزيمة . وفي الطريق إلى أنطاكية بدأت المطامع الشخصية لدى القادة تبدو سافرة . فلقد عبر كل من تانكرد وبلدوين إلى كيليكيا حيث اشتباكا في مدينة طرسوس ، في حين أن الجيش الأساسي للحملة شق طريقه عبر الجبال الأرمينية الوعرة ماراً بقيصرية وماراش . ونجده تفصيلا للصدام الذي وقع بين تانكرد وبلدوين بعد انفصالهما عن أقرانهما في كتاب «أعمال الفرنجة» : عندما احتمم النزاع بين القائدين عرض بلدوين على غريمه أن ينقضها سوياً على طرسوس لاقتسام غنائمها فيما بينهما ولكنهما لم يتتفقا (١٧٨) . وبعد هذا النزاع أدرك بلدوين أن كيليكيا لن تكون لتحقيق أطماعه الخاصة في الشرق ؛ وهذا اتجهت أنظاره نحو أرمينيا والأرمن . والواقع أن بلدوين كان قد وثق صداقته بأمير أرميني اسمه باجرات الذي كان في خدمة الكسيوس كومينيوس وقت حصار الصليبيين لمدينة نيقية . وكان باجرات لهذا شقيقاً لكونج فازل أمير رابان وقيسون (١٧٩) وعندما التحق باجرات بخدمة بولدوين ، ازداد اهتمام الأخير بالمسألة الأرمينية .

وكان الأرمن قد طلبوا المعونة من غرب أوروبا اللاتيني لحمايةهم من الغزو التركي ؛ كما أن أسلفها أرمينيا . كان قد أوفد إلى روما عندما علم الأرمن بمشروع البابا جريجوري السابع لقيادة حملة لحماية الشرق المسيحي (١٨٠) .

وعلى هذا فإن بلدوين عند انفصاله عن الحملة الصليبية عند مدينة ماراش ، يضم شطر الفرات . ولقد رحب الأرمن بمقولمه ترحيباً بالغآ ، وتشجع الأهلون فانقضوا على الحاميات التركية في مدنهم وقتلوا أفرادها .

Anonymous, p. 58.

(١٧٨)

Matthew of Edessa, Chronique (ed. E. Dulaquier), Paris, 1858, pp. 201 - 2. (١٧٩)

P. Jaffé, Monumenta Gregoriana, II, pp. 423 - 24.

(١٨٠)

وفي تلك المرحلة انضم فير ونيكوزوس الزعيمان الأرمنيان إلى البدوين . وفي شتاء ١٠٩٧ استولى البدوين ورجاله على قلعتين هامتين في رافندل وتربيسل ، فأقطع صديقه باجرات بالأولى بوتين فير حاكماً للثانية<sup>(١٨١)</sup> وأثناء إقامته في تربيسن تلقى البدوين رسالة من ثوروس أمير أذاسا الأرمني يطلب منه المساعدة ضد تهديدات كربوقة أمير الموصل . وكان ثوروس هذا موظفاً في خدمة الإمبراطورية البيزنطية ، كما أنه كان عضواً في الكنيسة البيزنطية . وعلى هذا فإن أذاسا كانت جزءاً من الممتلكات الإمبراطورية في إقليم الفرات . ولقد عرض ثوروس ، الذي كان كهلاً غير منجب ، أن يتبنى البدوين وأن يجعله وريثاً له في إمارة أذاسا<sup>(١٨٢)</sup> .

غير أن خطة ثوروس أزعجت الأخرين باجرات وفازل . وجاء فر ليشى بهما الذي سيده البدوين زاعماً بأنهما على اتصال مرتب بالأترراك . ولهذا قبض البدوين على باجرات وأمر بتعذيبه حتى يعترف بذنبه وب媿أمراته . وواقع الأمر أن باجرات لم يكن لديه ما يعترف به لأنه لم يكن على اتصال بالأترراك<sup>(١٨٣)</sup> . وللذى فقد آثر الهروب من طغيان البدوين وانتخب في قلب الجبال .

في العشرين من فبراير ١٠٩٨ دخل البدوين مدينة أذاسا ، حيث قابله ثوروس بالترحاب<sup>(١٨٤)</sup> . وبعدها أقيمت المراسيم الخاصة التي بموجبها أصبح البدوين أبناء « متبنى » لثوروس<sup>(١٨٥)</sup> ويروى متى الأذاسي ، وهو مصدر موثوق بقوله في هذا الصدد ، كيف أن البدوين أخذ يتأمر سراً مع أهالي المدينة ضد ثوروس . وترجع كراهية الأهلين لحاكمهم إلى أنه كان في خدمة

Albert of Aix, pp. 350 - 51.

(١٨١)

Matthew of Edessa, pp. 218-20; Albert of Aix, p. 352; Foucher, p. 210. (١٨٢)

Matthew of Edessa, p. 221.

(١٨٣)

H. Hagenmeyer, Chronologic, p. 129. (١٨٤)

Albert of Aix, pp. 352 - 54. (١٨٥)

الإمبراطورية البيزنطية الكريمة لدى الأرمن وإلى أنه كان عضواً في كنيسة القدسية التي كانت على عداء دفين مع كنيسة أرمينيا.

هجم غوغاء أذاسا على سيدهم ، الذي سارع يطلب النجدة من «ابنه» بلدوين . غير أن القائد الصليبي نصح «أباه» بأن يسلم نفسه للشعب . وعندما طلب ثوروس بأن يسمح له وزوجه بأن ينصرفا في سلام إلى ممتلكات حميته في ميلتين ، رفض طلبه . ولا خطط الرجل الكهمل للهروب من سجنه سراً قبض عليه ومزق لرباً . وعلى التو نودى بابته المتبنى — بلدوين — لأن يصطليع بحكم أذاسا (١٠ مارس ١٠٩٨) <sup>(١٨٦)</sup> .

لما علم الصليبيون بنجاح بلدوين في الراها ، سارع الكثيرون منهم إلى بلاطه بحثاً عن المغامرة والثروة . وكان من بين الفرسان الذين تواجدوا عليه في الإمارة الجديدة دروجو من نيزل ؛ رايولك من تول ؛ وجاستون من بيارن . وقد أكرم بلدوين وقادتهم وعيщهم في أعلى مناصب الإمارة . على أن أهالي أرمينيا جزعوا من خطة الأمير الصليبي الذي استبعدهم من الوظائف الهامة ووضع مكانهم أفضاله من اللاتين . ولعل مما زاد في حنقهم ذلك الازدراء الذي كان يحمله ويبديه فرسان الفرنجة للأرمن عمامة . ولا تستشعر هؤلاء ذلك التعسف الصليبي ثاروا ضد بلدوين ؛ غير أنه قمع ثورتهم في وحشية بالغة <sup>(١٨٧)</sup> .

كانت سياسة بلدوين الصليبي إذن تحدياً صارخاً وخرقاً للمعاهدة التي كان زعماء الحملة جميعاً قد أبرموها مع الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كوميني ؛ ذلك لأن الراها كانت ضمن ممتلكات بيزنطة قبل الغزو التركى ؛ فكانت بهذا من حق الإمبراطورية . هذا إلى جانب أن الغدر الذي عامل به بلدوين الأمير ثوروس كان لطمة للعاهر <sup>البيزنطي</sup> ، فثوروس كان

Matthew of Edessa, p. 221.

Ibid., Albert of Aix, pp. 442 - 43.

(١٨٦)

(١٨٧)

موظفًا في خدمة الإمبراطور ، كما أنه كان عضواً في الكنيسة الأرثوذكسيّة البيزنطيّة .

على أنّ بلدوين لم يكن بالزعيم الصليبي الوحيد الذي رمى بمعاهدة ١٠٩٧ عرض الحائط ؛ إذ كان مخطط بوهمند تجاه أنطاكية حلقة ثانية. في سلسلة الغدر الصليبي بحقوق البيزنطيه . ظهر القادة الصليبيون أمام أسوار أنطاكية في ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧ . وكان في رفقهم البرويكير يوس تانيكيوس . مندوب الإمبراطور البيزنطي ، على رأس الكتائب الإمبراطورية<sup>(١٨٨)</sup> .

كانت أنطاكية ، العاصمة السورية ، الكرسي الأسقفي القديم لأمير الرسل بطرس ؟ كما أنها كانت من أمنع القلاع التي وقعت في يد الأتراك . وكان حاكمها ياغي زيان يتوقع هجوماً مباشراً على أسوار مدنته من جانب الصليبيين ؟ غير أن المشاجنة التي وقعت بين بوهمند ورياموند من من سان جيل حالت دون هذا ، ولذلك فقد ضرب الصليبيون معسكراً لهم خارج أسوار المدينة . وقربة عيد الميلاد من نفس العام ( ١٠٩٧ ) كانت مؤن الصليبيين قد نفذت ، وكانت القرى المجاورة خالية من الطعام ، وسرعان ما حللت الجماعة في المعسكر الصليبي . ويقال إن واحداً من سكّل سبعة منهم قد هلك جوعاً آنذاك . أما ياغي زيان فكان آمناً برجاته وراء أسوار أنطاكية ؛ كما أنه كان قد زود رجاله بمئون تكفيهم مدة طويلة أثناء الحصار<sup>(١٨٩)</sup> . ولما اشتتدت وطأة الجوع في المعسكر الصليبي دب اليأس في قلوب الجندي والقادة ، فبدأ البعض في التسلل سراً والهروب ؛ وكان من بين الفارين وليم النجار وبطرس الراهب (يناير ١٠٩٨) . غير أن تانكرد تعقبهما وقبض عليهما ثم أعادهما ذليلين إلى المعسكر<sup>(١٩٠)</sup> . ولكن الفزع

Alexiad, XI, iii, 4, p. 18.

(188)

Kemal ad - Din, Chronicle of Aleppo, in R.H.C.O.R., Vol. III,

( 189 )

P.P. 578 - 79.

Anonymous, pp. 76 - 78.

(190)

عاود يساور أفراد الحملة جميعاً عندما تواترت الأنباء عن قرب وصول جيش كبير إلى أنطاكية بقيادة كريوغا أمير الموصل.

بينما وقع قادة الصليبيية فريسة للعجز والقلق ، راح واحد منهم يضع خططاً لاستخدام هذه المخيبة لتحقيق مطامعه الشخصية ؛ وكان هذا الانهزامي الكبير بوهمند ذاته . بعد واقعة ٣١ ديسمبر ١٠٩٧ التي هزم فيها الصليبيون هزيمة ساحقة ، أعلن بوهمند أنه عازم على العودة إلى غرب أوروبا بحججة أن الحرب كلفته كل ثروته . على أنه أوضاعه لزملائه أنه قد يقبل البقاء معهم إذا وعدوه بتسلیم أنطاكية إليه في حالة فتحها من يد الترك (١٩١) . وكانت غالبية الزعماء ، باستثناء الكونت رaimond من سان جيل ، على استعداد لإعطاء بوهمند هذا الوعد ؛ على شريطة أن تكون كتابة بوهمند أول الكتاب في دخول المدينة وقت الفتح .

بعد هذا راح بوهمند يعمل في دباء لتحقيق هذا الحلم الذي راوده منذ دخل آسيا الصغرى . وكان يدرك أن رايمند من سان جيل سوف يقف في طريقه ، ولكن هذا الكونت لم يكن يمثل العقبة الكبرى أمام القائد النورماندي . وإنما رأى بوهمند بشاقب نظره أن الخطورة الكبرى التي تهدد أطماعه كانت تتمثل في الفرقة البيزنطية المرافقة للحملة وفي زعيمها تاتيكيوس . ومن هنا راح بوهمند يعمل ما في جده لطرد تاتيكيوس من المسرح ليخلو له الجو تماماً لإنفاذ سياساته . وليس من قبيل الصدفة أن نجد *Gesta Francorum* ، لسان حال الحملة النورماندية ، تشير إلى تاتيكيوس في هذه المرحلة من الأحداث على أنه *Inimicus* ثم *Mendax* (١٩٢)! وتروي آنا كومينينا أن بوهمند استدعي تاتيكيوس إلى خيمته وأعلمته أن أفراد الحملة جميعاً يرتابون في نوايا الإمبراطور البيزنطي ، وأن الأصابع تشير إليه بالخيانة الكبرى لأنه هو الذي حرض كريوغا التركي

Raymond of Aguilars, pp. 245 - 46.

(١٩١)

Anonymous, pp. 78 - 80.

(١٩٢)

على الرمح على أنطاكية لإبادة أفراد الحملة جمِيعاً ، وراح بوهمند — كما قتول آنا — يوضح للقائد البيزنطي أن الصليبيين قد عقدوا العزم على الانتقام من خيانة الإمبراطور في شخص مثله ؛ أى تاتيكيوس ذاته . وهنا أدرك تاتيكيوس خطورة الموقف فسارع في اتحال الأذار وانشق من المعسكر ، بعد أن وعد بالعودة محملاً بالمؤن الازمة (فبراير ١٠٩٨) <sup>(١٩٣)</sup> .

هذه القصة التي ترويها آنا كومينينا تبدو متساوية مع سير الأحداث ، ولهذا فهي مقبولة تاريخياً ، وليس هناك من أسباب تدعوا إلى رفضها . وهنالك ما يؤيد هذه الرواية فيها كتاب راي蒙د آجوي في حولته ؛ فهو يروي كيف أن تاتيكيوس اقترح على قادة الصليبية تشدید قبضة الحصار على مدينة أنطاكية غير أن اقتراحته قد رفض . كما يضيف قائلاً بأن تاتيكيوس كان قبل أن يهرب من المعسكر الصليبي قد تخلى عن مداين مامسترا وطرسوس وأدنة إلى بوهمند <sup>(١٩٤)</sup> .

ومع أن ما يقوله رايوند عن تخلي القائد البيزنطي لبوهمند عن هذه المداين أمر مستبعد ، إلا أن الحقيقة الثابتة هي أن بوهمند كان قد استدعي تاتيكيوس إلى اجتماع في خيمته ، وبعدها قرر تاتيكيوس الفرار <sup>(١٩٥)</sup> .

وصلت الأنباء قرابة نهاية عام ١٠٩٨ بأن كربوغا قد رفع حصاره عن مدينة الرها ، وبأنه في طريقه إلى أنطاكية . وكانت هذه الأنباء كافية لأن تثير الذعر في قلوب الصليبيين ، وفي الثاني من يونيو هرب القائد الشمير ستيفن من بلوا من المعسكر <sup>(١٩٦)</sup> ! وفي تلك الأثناء كان بوهمند قد وثق علاقات

Alexiad, XI, iv, 3, pp. 20 - 21.

(١٩٣)

Raymond of Aguilars, pp. 254 - 56.

(١٩٤)

The "Gesta Francorum" (pp. 78 - 80) pretends that Taticius had fled (١٩٥)

from cowardice, pretending to arrange for better provisioning of the army. But this story is not convincing, as Taticius left most of his staff behind with the army.

Anonymous, p. 140.

(١٩٦)

الصداقة مع ضباط أرمني اسمه فيروز ، الذي كان في خدمة ياغى زيان حاكم أنطاكية . وكان فيروز لهذا حافداً على سيده التركي ، ويقال إنه قد استشاط غضباً عندما اكتشف أن أحد الضباط الترك قد اعتدى على عفة زوجته . وعليه فقد عرض فيروز على بوهمند أن يفتح له البرج المعروف ببرج الأخرين الذي كان تحت حراسته وذلك الجزع من سور المدينة الذي كان تانكرد يعسكر أمامه .

كان بوهمند بهذا واثقاً من فتح المدينة ، ولكنه راح يعلن لزملائه اللاتين أن الأمور قد ازدادت سوءاً . وكان هدفه من وراء هذه السياسة الماكراً أن يجعل فتح المدينة على يديه — كما اتفق سراً مع فيروز — نصراً مؤزراً يقرن باسمه هو فحسب . ولذلك عندما أومأ بأنه قد يتمكن من غزو المدينة ، سارع أقرانه يدعونه بفتح حكمها ، وذلك إذا فشل الكسيوس كومين في تحقيق وعده بالجيء بجيشه لمساعدة الصليبيين ضد الأتراك<sup>(١٩٧)</sup> .

على أنه بعد رحيل تاتيكيوس ، نتيجة للحيل التي اتبعها بوهمند تجاهه ، لم يعد ممكناً أن يثق الإمبراطور الكسيوس كومين بالقيادة الصليبية أبعد من هذا . ذلك لأن الإمبراطور كان قد فقد الأمل في نوايا الصليبيين ، وكانت شكوكه فيهم وفي مقاصدهم على حق . ولم تكن مأساة الرها بكافية لتقديره البرهان على غدر الصليبيين بوعودهم لبيزنطة ، وإنما جاءت أحداث أنطاكية لتوكيد سوء النية واللحشـع لدى الصليبيين ، وعلى رأسهم فريق النورمان بزعامة بوهمند وتانكرد .

كانت خيانة الضباط الأرمني فيروز خير سهم في يد بوهمند . فلقد سقطت أنطاكية بفعل هذه الخيانة في يد الصليبيين في ٣ يونيو ١٠٩٨<sup>(١٩٨)</sup> . ولم يفقد بوهمند لحظة من الوقت ، فسارع يرفع رايته على أعلى أبراج أنطاكية<sup>(١٩٩)</sup> .

Ibid., pp. 100 - 102.

(١٩٧)

H. Hagenmeyer, Chronologie, pp. 149 - 50.

(١٩٨)

Anonymous, p. 108.

(١٩٩)

روما وبيزنطة

بعد سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين بثلاثة أيام وصل كربوغا على رأس جيشه وبدأ في حصار المدينة . وشن أمير الموصل هجوماً على المدينة ولكنه رد متكتلاً خسائر فادحة . وعلى هذا فقد تقرر تشديد قبضة الحصار على أسوار المدينة مدة طويلة إلى أن تحمل الجماعة بالصليبيين ، وعندما يقوم بهمهاجمتهم . ولقد كانت هذه اللحظة آية في العبرية والدهاء . فسرعان ما نفذت المؤن عند الصليبيين داخل المدينة واحت مجاعة قاسية بهم ، هلك يسيبها الكثيرون . وهنا هرب الكثيرون سراً من المعسكر ؛ وكان من بينهم بوليم ؛ وأوبرى من جرانت مانسل ؛ ولامبرت كونت كليرونت (٢٠٠) . وفي لحظة اليأس هذه بدا للصليبيين أن الخلاص الأوحد من الكارثة الختامية لن يتأتى إلا إذا زحف الإمبراطور الكسيوس كومينس بجيوشه ليهاجم أمير الموصل الذي كان قد أُثقل عليهم في محنتهم بهذه الحصار العنيف الطويل .

على أن الكسيوس في تلك الأثناء لم يكن خاملاً ؛ فinden أن سقطت نيقايا في يده ، بمعاونة الصليبيين ، راح يعد العدة لتأديب خصميه الأكبر زاخاس أمير سميرنا السلاجوق . وهذه سير حملة بقيادة يوحنا دوكاس ، يعضدها أسطول تحت إدارة كاسباس ، لهاجمة هذا الأمير . ولقد أرسل الإمبراطور في رفقة القائد دوكاس زوجة الأمير قلعة أرسلان والتي كانت ابنة زاخاس ، التي وقعت أسيرة يوم سقوط نيقايا ، أردها إلى والدها وتسهيل مهمته الحملة البيزنطية (٢٠١) .

وعند وصول الكتاب الإمبراطورية إلى سميرنا ، سارع زاخاس يطاب الأمان له ولنؤيه مقابل تسليم المدينة لدوكاس . وقبلت هذه الشروط ، وعين كاسباس حاكماً على سميرنا ؛ غير أن أحد مواطنى سوريا هجم على الحكم البيزنطى واغتاله (٢٠٢) . ترك دوكاس أسطوله ليحمى سميرنا ، ثم تقدم

Ibid., p. 126.

(٢٠٠)

Alexiad, XI, v. 2, p. 24.

(٢٠١)

Ibid., XI, v. 4, p. 25.

(٢٠٢)

لمهاجمة افيسوس ؟ التي استولى عليها من حاكها تنجريرين . وفي هذه الواقعة قبض دوكاس على عديد من الأسرى ، ثم قام بترحيلهم ، وفقاً لأوامر الإمبراطور ، إلى منطقة البخزير<sup>(٢٠٣)</sup> . ولقد شجعت هذه الانتصارات المتلاحقة دوكاس على أن يتقدم إلى وادي نهر المياندر ، حيث شن هجوماً على كل من فيلادلفيا ولامبيا وبوليبيوتوس<sup>(٢٠٤)</sup> .

وقد تمت هذه العمليات العسكرية في ربيع ١٠٩٨ ، وكان القصد منها تمهيد الطريق لحملة ضخمة يقودها الإمبراطور ذاته بغية مساعدة الصليبيين في سوريا . وبالفعل في بداية يونيو ١٠٩٨ قاد الكسيوس حملته ميمماً شطر أنطاكية لمؤازرة الصليبيين ضد الأتراك . وعند مدينة فيلوميليوم التق الإمبراطور بكل من ستيفن من بلاوا (فر من المعسكر الصليبي في ٢ يونيو) ووليم من جرانت مانسل (هرب في ١١ يونيو)<sup>(٢٠٥)</sup> . ولكن يبرر هذان الفاران فعلهما ، وتغطية لعار الجبن ، أعطيا الإمبراطور صورة قاتمة تماماً عن الموقف في أنطاكية ، فراح يؤكدان أن الصليبيين لا بد وأنهم قد هلكوا جميعاً بسيوف كربوغا أمير الموصل ورجاله<sup>(٢٠٦)</sup> . ثم انبرى وليم يحدث الإمبراطور بأن بوهمند كان قد أقسم علانية بأنه سوف يدق عنق الإمبراطور إن اجترأ على الاقتراب من أنطاكية<sup>(٢٠٧)</sup> .

هنا توقف الكسيوس ليتدبر الأمر مليئاً . لم يكن هناك من الأسباب ما يجعله يكذب روايات ستيفن ووليم . وبناء على ذلك فإن أنطاكية لا بد وأنها قد وقعت في قبضة كربوغا ، وهذا كان كفيلاً بأن يشحد هم سلاجقة قونية ليهبوا من جديد للانتقام من إذلال نيقها في شخص الإمبراطور وتخومه في آسيا الصغرى . ولما كانت الأولويات في نظر العاهل البيزنطي تتطلب

Ibid., XI, v, p. 26. (٢٠٣)

Ibid., XI, v, 6, pp. 26 - 27. (٢٠٤)

Anonymous, p. 140; Alexiad, XI, vi, 1, p. 27. (٢٠٥)

Anonymous, pp. 140 - 46. (٢٠٦)

Bibliothèque de l'Escurial, DIII, II; L. Brehier, op. cit., n. 9, p. 149. (٢٠٧)

منه المحافظة على سلامه وأمن دولته ، فإنه رأى في مواصلة الزحف شطر أنطاكية ضرباً من الحمق بل الجنون السياسي . ولهذا فقد آثر التقهقر بقواته إلى عاصمته . وأثناء تقهقره أمر بتخريب المسالك لكي يعطل على الأتراك استخدامها في هجومهم المرتقب ضد الأرضي البيزنطية .

كل هذا ورجال الصليبية الأولى كانوا من وراء أسور أنطاكية يمنون أنفسهم بأمل وصول الإمبراطور بقواته الحرارة لفك حصار كربوغا الذي كان قد أماتهم جوعاً وإعياء . ولهذا عندما تما إلى سمعهم خبر تقهقر الإمبراطور وأصحابه عن التقدم لإتفاذه من مخنثهم الكبرى ، نظروا إليه على أنه الخائن الأكبر لقضائهم المصيرية . كما رأوا في هذه السياسة خرقاً لاتفاق القدسية التي البرم في عام ١٠٩٧ بينه وبينهم . وبطبيعة الحال لم يدر بخلد زعماء الصليبية أن الحرص الأول والأخير لدى الإمبراطور هو الحفاظ على رعاياته وعاصمته قبل كل شيء . وكانت هذه الفرصة الذهبية لبوهمند والعناصر المعادية للبيزنطيين في الحملة ؛ فراحوا يندون بالكسيوس وخياناته وجنبه ، كما نعموا ببيزنطة بكل ما هو قميء ورذيل .

على أن الأمور في أنطاكية سارت على خلاف ما توهם ستيفن ورفيقه وليم . فقد دافع بوهمند دفاع الأبطال عن المدينة ؛ وسرعان ما دب الخلاف بين كربوغا وضباطه مما فت في عصب حملته . ولعل أحدهم من هذا وذلك أن أحد الرهبان من پروقنسال زعم أنه قد بشر في رؤيه بموضع الحرية المقدسة ( التي طعن بها المسيح في جنبه وقت الصليب ) . وبالفعل تم اكتشاف الحرية على مشهد من جميع قادة الحملة والمندوب البابوى . وبعدتها أعلن رجال الدين في الحملة تبشير النصر ، مما شحد المهم من جديد . ودارت رحى الحرب بينهم وبين كربوغا ، وكان أن دحرت قوات أمير الموصل بفعل الدعاية الدينية لهذه الحرية<sup>(٢٠٨)</sup> .

باعت حملة كربوغا بالفشل ؛ في حين أن نجم بوهمند أخذ في الصعود إلى القمة . على أن بوهمند وجد في شخص الكونت رaimond من سان جيل منافساً عنيداً وخطيراً يبغى تعويق وإحباط خططاته للانفراد بحكم مدينة أنطاكية . والغريب في الأمر أن رaimond كان الأوحد من قادة الصليبيين الذي رفض أداءيمين الولاء والطاعة لـاللوكسيوس كومين ، كما سبق أن بينا ، غير أنه الآن راح يتبنى قضية الإمبراطور ويدافع عن حقه في مدينة أنطاكية . ويمكن تفسير هذا الموقف من جانب الكونت بغيرته الشديدة من النجاح الساحق الذي حققه بوهمند في المعارك السابقة ، مما قلل من شأن رaimond كقائد عام للحملة الأولى . ولما احتمم النزاع بين القائدين ، تقرر عقد اجتماع لزعماء الحملة جميعاً لمطارحة موضوع أنطاكية . وهناك وقف رaimond يذكر زملاؤه بأن بوهمند هو الذي كان قد ألح عليه في عام ١٠٩٧ بأن يقسم على احترام شرف وحياة الإمبراطور البيزنطي أمامهم ، ثم أخذ يوبخ بوهمند في حنوثه بعده بمحاولته الاستيلاء على أنطاكية ، التي هي من حق الإمبراطور البيزنطي . وبعد نقاش طويل اتفق الجميع على إيفاد كل من هيو لي مينيه وبولدوين من موئز إلى القسطنطينية ليطلبوا من الإمبراطور الحضور إلى أنطاكية ليسلمها من القادة الصليبيين ؛ تنفيذاً لما اتفق عليه في معاهدة ١٠٩٧ بينه وبينهم<sup>(٢٠٩)</sup> . على أن الأتراك هاجموا هذين الرسلتين وهم بعد في آسيا الصغرى ؛ واحتقى يلدؤين في حين أن هيو لاذ بالفرار إلى القسطنطينية ، ومنها سارع للعودة إلى فرنسا .

\* \* \*

وهنا يجب أن نقف قليلاً للبحث في موقف المندوب البابوى - أدهيمار - تجاه الكنائس الشرقية . كان أدهيمار دبلوماسياً رائعًا : فما أن فتح الصليبيون خطوط المواصلات بين سوريا وجزيرة قبرص ، حتى سارع إلى الاتصال بسمعان الثاني ، بطريرك أورشليم الأسبق ، والذي كان قد اعتزل منصبه ولجأ إلى جزيرة قبرص . والمعروف أن سمعان هذا كان قد كتب مقالاً يهاجم فيه

الطقوس اللاتينية للكنيسة الرومانية ؛ غير أن حصافة أدهيار كانت كفيلة بأن تكسب ود سمعان وعطفه على الصليبية الأولى . ولذا نجد أنه في أكتوبر ١٠٩٧ اشترك سمعان مع أدهيار في كتابة رسالة إلى مواطني شمال أوروبا يعلنان فيها انتصار الصليبية في نيقيا ، ويحثان « المؤمنين » على حمل علامة الصليب والسارعة لمساعدة إخوانهم في الحملة الأولى ضد الأتراك<sup>(٢١٠)</sup> . ولا نفتد المؤمن من المعسكر الصليبي ، أرسل سمعان كميات اضخمة من الطعام والأبنية من خيرات قبرص إليهم<sup>(٢١١)</sup> .

وفي يناير ١٠٩٨ أرسل سمعان باسمه وباسم رجال الدين البيزنطيين والأساقفة اللاتين المراقبين للصليبية الأولى إلى البابوية ، يعلنون فيها انتصار الحملة على الأتراك في موقعتين صغيرتين ، ويحثون الكنيسة الغربية على بذل قصارى الجهد لإنجاح الحملة . وللمدهش في هذه الرسالة أن سمعان يخاطب « مؤمني غرب أوروبا » بصفته « زعيم الإكليرicos الشرقيين والغربيين أيضاً » ؛ كما أنه يلقب نفسه « بالأسقف الرسولي » ؛ وأهم من هذا وذلك أنه يهدد بإنزال لعنة الحberman على أي غربي يحيث في وعده يحمل شارة الصليب<sup>(٢١٢)</sup> .

وعندما استولى الصليبيون على مدينة انطاكية ، اتخذ الأسقف أدهيار الخطوات اللازمة لإعادة فتح الكنائس التي كان الأتراك قد عبثوا بها . ثم حرر البطريرك يوحنا من سجنه الذي وضعه فيه ياغي زيان . والحق أن يوحنا هذا كان قد قاسى الأهوال وقت حصار الصليبيين لأنطاكية ، إذ أمر ياغي زيان بوضعه في قفص وتعليقه على أسوار المدينة على مرأى من الصليبيين .

على أن يوحنا الأنطاكي كان كارها للكنيسة الرومانية ، وكان يعيّب عليها طقوسها وتحريفيها لقانون الإيمان النيقى . ورغم هذا فإنه كان لا يزال معترفاً بأسقف روما . وما من شك في أن أدهيار قد صادف صعوبات عند إعادة

H. Hagenmeyer, Chronologie, p. 106.

(٢١٠)

Albert of Aix, p. 489.

(٢١١)

H. Hagenmeyer, op. cit., pp. 120 - 21.

(٢١٢)

يوحنا إلى منصبه في أنطاكية . ولكن بوهمند والحزب المعادي لبيزنطة امتهنوا من سياسة أدهيمار هذه ؛ إذ رأوا في وجود يوحنا بأنطاكية عقبة كثيرة أمام مخططهم للاستيلاء على المدينة كلية من يد البيزنطيين<sup>(٢١٣)</sup> .

ترى أدهيمار في أول أغسطس ١٠٩٨ ، ودفن في أنطاكية<sup>(٢١٤)</sup> . ولقد بكاه الصليبيون بكاء مرّاً . غير أن واحداً بعينه شعر بارتياح شديد لوفاة القاصد الرسولي ، وكان هذا بطرس بارييليميو ؛ الذي اكتشف « الحربة المقدسة » . الواقع أن بطرس هذا لم يغفر لأدهيمار ما قاله بأن هذه الحربة مزيفة وليس بالحربة الحقيقية . ومن المرجح أن المندوب البابوي كان قد شاهد بعينيه الحربة الحقيقية أثناء مروره بمدينة القدس<sup>(٢١٥)</sup> ؛ ومن هنا راح يكذب روایات بارييليميو .

ومهما كانت الأحوال ، فإن بارييليميو الآن غدا يبشر بأن القديس أندراؤس يتعدد عليه في منامه . وفي هذه المرة بالذات كان أدهيمار برفقة القديس أندراؤس . أعلن أدهيمار لبارييليميو أنه قد أسقط في الجحيم لبعض ساعات بسبب ما سبق أن أبداه من شك في موضوع الحربة المقدسة ؛ ولكن صلوات وتضرعات بوهمند الخلصية قد شفعت له فرفع من جهنم إلى النعيم . وراح أدهيمار يوجه رسالة خاصة إلى الكونت رaimond من تولوز بأن « حذار من مضايقة بوهمند ؛ ولتسسلم إليه مدينة أنطاكية ». كما أصر القاصد البابوي على ضرورة تنصيب بطريرك لاتيني لكرسي مدينة أنطاكية بدلاً من يوحنا البيزنطي<sup>(٢١٦)</sup> .

كان هذا بمثابة إعلان هام عن إرادة الله . وعلى هذا أصبح بوهمند حق امتلاك أنطاكية بمحض من السماء ؛ وباتت نعمة الصليبيين تنبعث بيزنطة وكنيستها ، وكلها سائر الطوائف المسيحية الشرقية بالهرطقة والانحراف .

Albert of Aix, p. 433.

(٢١٢)

Raymond of Aguilars, p. 262; Anonymous, p. 160.

(٢١٤)

Raymond of Aguilars, pp. 262 - 64.

(٢١٥)

ولأنصافاً للواقع التاريخي ينبغي إلقاء الضوء على ثلاث وثائق معاصرة توضح في جلاء مواقف كل من الكسيوس كومين، تجاه الصليبيين، والعكس. كتبت اثنان من هذه الوثائق قبيل استيلاء الحملة على أنطاكية؛ في حين خرجت الثالثة بعد سقوط المدينة.

في رسالته الثانية إلى أوديريزيوس، مقدم دير مونت كاسينو، عدد. ألكسيوس الخدمات التي قدمها إلى جموع الصليبيين من مال ومؤن وعتاد ونصح؛ أملا في نقاوة نيتهم وحسن ظنهم واحترامهم للعهد والميثاق<sup>(٢١٦)</sup>.

الوثيقة الثانية هي رسالة موجهة من قادة الصليبية الأولى من معسكرهم خارج أسوار أنطاكية إلى «سائر المؤمنين» في الغرب اللاتيني. وفيها يفصل أمراء الحملة نصوص المعاهد المبرمة بينهم وبين الكسيوس كومين: «لقد ضمن لنا الإمبراطور سلامة عبور أراضيه وتعهد بإمدادنا بالمرشدين وببعض الكتائب والرهائن؛ وتعهدنا من جانبنا بأن نعيد للإمبراطورية الأرضى التي نغزوها من الترك»<sup>(٢١٧)</sup>.

وتجدر باللحظة أن نغمة المودة الواردة في هذه الرسالة عند الحديث عن بيزنطة وإمبراطورها، كانت دون شك من إملاء القاصد الرسولي أدريهار الذي اتصف بالحصافة والدبلوماسية في معاملاته مع الإمبراطورية الشرقية وكتائسها.

وعندما سقطت أنطاكية في يد الصليبيين (أوائل يونيو ١٠٩٨) تغيرت الأحوال. كشف بوهمند صراحة عن عزمه في الاستيلاء على أنطاكية لنفسه؛ بعد أن تخلص من تاتيكيوس مثل الإمبراطور البيزنطي. وجاءت رؤى باريليميو لتنفذ كراهية «سماوية» ضد البيزنطيين وكنيستهم؛ أغلب الظن بتدير من بوهمند وعميله الراهب الحالم. وبموت أدريهار في أول أغسطس ١٠٩٨

H. Hagenmeyer, *Epistulae et Chartae*, p. 152. The letter is dated June (٢١٦)  
1098.

*Ibid.*, p. 153. (٢١٧)

خلال البحوث تماماً لبوهمند والحزب المعادى لبيزنطة كى يسروا الأمور حسماً يبغون . وكانت غالبية جماهير الحملة تشارك بوهمند سياساته العدائية تجاه القسطنطينية . وأصدق برهان على هذا تلك الرسالة التى كتبها قادة الحملة فى سبتمبر ١٠٩٨ إلى البابا أوربان الثانى ، والتى أملت - أغلب الظن - بواسطة بوهمند ؛ منتهزاً فرصة موت أدريهار ليقوم بدور المتحدث الرشنى للصلبيين جميعها . والأسباب التى تدعونا إلى افتراض أن بوهمند هو الذى أمل صيغة هذه الرسالة هى الآتى :

- ١ - يطل اسم بوهمند فى عرض تلك الرسالة فى تأكيد غير عادى أكثر من مرة ؛ كما يصور فيها على أنه البطل الأوحد فى واقعة أنطاكية (٢١٨) .
- ٢ - يلاحظ أن قصة « الحربة المقدسة » التى اكتشفها بارتيلميو قد أعطيت تفصيلاً فى هذه الرسالة ؛ مع أن أدريهار - المندوب البابوى الراحل - كان قد كذب هذه الرواية .
- ٣ - يرد اسم بوهمند مرة أخرى فى الرسالة فى صورة ، « رجل الله » ، محطم الترك ، ومعيد كرسى القديس بطرس الرسول إلى خلفائه البابوات حفاظ الإيمان الواحد الوحيد . ولا يخفى هنا مقصد الزعيم النورماندى ؛ فهو يداعب أحلام البابوية فى إظهاره العزم على إعطاء كرسى أنطاكية لبطريرك لاتينى - لا يونانى - وفي تأكيداته بأن عقيدة كنيسة روما هي وحدها العقيدة القوية كأن بوهمند - بحق - يعرف من أين تؤكل الكتف (٢١٩) .

- ٤ - وهناك فى سطور هذه الرسالة عبارات تفيض كراهية وبغضنا للبيزنطيين بصفة خاصة وللطوائف المسيحية الشرقية بوجه عام : فالصلبيين يدعون البابا إلى القدوم إلى الشرق ليقود « رجال القديس بطرس » ، وعندما ينقضون على أهل الصلال والهرطقة لإبادتهم . وبعدها يتربع البابا على عرش وليه بطرس فى مدينته أنطاكية . ولا تخفى هنا رغبة كاتب الرسالة فى إزاحة

Ibid., pp. 161-62.

Ibid.

(٢١٨)

(٢١٩)

البطريرك البيزنطي الشرعي عن كرسيه ، وفي تحويل كنيسة أنطاكية إلى بطريركية لاتينية تخضع لروما مباشرة . وقد جاءت العبارة الأولى في هذا النص لتأكيد أن الصليبية لم تكن لتهدم فقط إلى تحطيم قوة الترك ؛ وإنما أيضاً إلى إبادة الطوائف المسيحية الشرقية ؛ التي كانت في نظر الغرب اللاتيني « مهرطقة » وضالة<sup>(٢٢٠)</sup> .

٥ - وفي نهاية الرسالة تشير أصابع الاتهام في صراحة إلى الكسيوس كونين على أنه قد نجان قضية الصليبية وعرض جندها إلى التهاكة والأهوال<sup>(٢٢١)</sup> .

ولعله جدير باللحظة أن البابا أوربان الثاني قد عقد مؤتمراً في مدينة باري في أكتوبر ١٠٩٨ ، حيث حضر بعض رجال الدين البيزنطيين ودخلوا في جدل ديني مع اللاتين في أمر انبثاق الروح القدس . وقد كان القديس انسلم رئيس أساقفة كانتربري حاضراً في هذا الجناس ، فطلب منه البابا أن يقف ليدافع عن كنيسة روما « سيدة الكنائس » ضد أغلاط البيزنطيين . ويقول مانسى إن البيزنطيين قد أذلو وهزمو في هذا الجدل الذي دار حول الروح القدس<sup>(٢٢٢)</sup> .

\* \* \*

لما علم الكسيوس بما تم في أمر أنطاكية شعر بأن الصليبيين قد غدروا به ، وبأن المنح والأموال الطائلة التي قدمها لهم قد قوبلت من جانب أمراء الصليبية بالجحود والتحدى الصارخ . وهذا رأى ضرورة اتخاذ خطوات حاسمة لاسترداد حقوق إمبراطوريته المغتصبة .

كانت بيزنطة على علاقات مودة مع الخلافة الفاطمية . وكان الكسيوس قد نصح الصليبيين بفتح المفاوضات مع القاهرة عند وصولهم سوريا . وبالفعل

Ibid.

(٢٢٠)

Ibid.

(٢٢١)

Mansi, Vol. XX, cols. 448-19.

(٢٢٢)

وصلت سفارة من البلاط الفاطمي إلى معسكر الصليبيين أثناء حصارهم لأنطاكية . وعاد مبعوثوا الخليفة وبرفقهم سفارة لاتينية<sup>(٢٢٣)</sup> .

ويبدو أن الأفضل ، الوزير الفاطمي ، قد رأى في الصليبيين مجرد جند مرتزقة في خدمة الإمبراطورية البيزنطية . ولكن في أغسطس ١٠٩٨ فتح الفاطميون فلسطين ، الواقع أن الكسيوس كومين قد ارتاح لسيطرة الفاطميين على فلسطين ؛ ذلك لأنه كان يؤمن أن الرعايا المسيحيين هناك ، سوف يكونون في حال أفضل مما لو وقعوا تحت نير الصليبيين . وحدث أن وقعت بعض رسائل وافية من الكسيوس إلى الخليفة الفاطمي في يد الصليبيين ، وفسرها هؤلاء على أنها دليل دامغ على غدر وخيانة الإمبراطور البيزنطي لقضية الصليبية<sup>(٢٢٤)</sup> . وراحوا يدعون أن الكسيوس قد حرض الخليفة الفاطمي على أسر أعضاء السفارة اللاتينية في القاهرة .

وفى أبريل ١٠٩٩ وصلت رسالة من الكسيوس إلى قادة الصليبية ردًا على الرسالة التي حملها إليه هيومن فرماندو . ولا يرد ذكر هذه الرسالة إلا في سحولة رaimond من آجوى ، التي نقلها عنه فيما بعد willim الصوري<sup>(٢٢٥)</sup> . أعلن الإمبراطور فى هذه الرسالة أنه قادم إلى أنطاكية فى يوم عيد القديس يوحنا ، متعهدًا بمعاونة الصليبيين إنهم أعادوا إليه مدينة أنطاكية .

كان الكونت رايمند من سان جيل الشخص الأوحد الذى رأى قبول عرض الإمبراطور ، غير أن رأيه قد أغفل ، وقررت الغالبية العظمى إهمال بيزنطة وإمبراطورها ؛ والعمل على فتح بيت المقدس دون تدخل من جانب البيزنطيين .

تم العزو الصليبي المتبر بر لمدينة القدس فى ١٥ يوليو ١٠٩٩ . وعملت

Historia Belli Sacri, in R.H.C. Occ., Vol. III, p. 181;

(٢٢٣)

Raymond of Aguikrs, p. 247.

Ibid., p. 277; Historia Belli Sacri, p. 189.

(٢٢٤)

Raymond, P.278; William of Tyre, Historia Rerum

(٢٢٥)

in Partibus Transmariniae Gestarum, in R.H.C.Occ., I, p. 307.

سيوف الفرنجة في رقاب الأهلين ، دون مراعاة لسن أو جنس ؛ وحتى الأطفال الرضع لم ينجوا من وحشيتهم ! ثم اختار الغزاة جودفري دى بويون ملكاً على بيت المقدس بلقب "Advocatus Sancti Sepulchri".

بعد واقعة عسقلان بين الصليبيين والجيش الفاطمي ، قرر عدد كبير من الصليبيين العودة إلى غرب أوروبا ، وصحبهم رaimond من سان جيل ، الذي كان قد أقسم أن يقضى بقية عمره في الأرض المقدسة ، حتى ميناء اللاذقية . وعند مدينة جبلة علم رaimond بأن بوهمند قد ضرب حصاراً حول مدينة اللاذقية ، التي كانت تحت سيطرة البيزنطيين . ولما كان رaimond كارهاً لبوهمند وأطماعه فقد عمل على معارضته وعرقلة مشروعه . وجدير بالملامحة أن الذي شجع بوهمند على هجومه على أملاك بيزنطة وصول مندوب بابوي جديد هو دامبرت رئيس أساقفة بيزا ؛ الذي كان عدواً لدوداً لبيزنطة ، والذي كان قد عقد العزم على السيطرة الروحية والزمنية على الحركة الصليبية . وبوصول هذا القاصد البابوي الجديد ، بدأت صحفة جديدة من العدوان الصليبي على ممتلكات وحقوق بيزنطة في الشرق .

هذا الكتاب  
سلك الأستاذ الدكتور  
رمزي زكي بطرس

## الفصل الخامس

### البابوية تبشر بحملة صليبية

### ضد بيروزطة

(١١٠٧)

وضحت نية كثملكة كنيسة سوريا مذ لحظة وفاة أدهيمار القاصد الرسولي ، فعندما استولى رايموند من تولوز على مدينة البارا ، جنوبي شرق أنطاكية ، رسم لها كاهناً لاتينياً هو بطرس من ناربون لمنصب الأسقفية . ومع أن بطرس هذا قد تمت سيامته على يد يوحنا بطيريك أنطاكية البيزنطي ؛ إلا أن تنصيبه أسفقاً يدلل على بداية إرساء كنيسة لاتينية دائمة في سوريا : كما أن هذا قد شجع الكثيرين من رجال الصليبية ، الذين كانوا يشاطرون بطرس بارتيلميو آراءه ، على المناداة بهماً بطرد الأكابر وس الشرقيين من أورشاليتهم وأسقفياتهم وإحلال لاتين بدلاً منهم .

وعندما اختير أرنولف من روز بطريركاً لأورشليم ، افتتح عهده بطرد القساوسة الشرقيين ، الذين كانوا يمارسون شعائرهم كل مع طائفته على متربع خاص بهم ، من كنيسة القبر المقدس . وكان هؤلاء يمثلون فئات عدة من أغارقة أرثوذكس ، وجورجيين وأرمانيين ، إلى يعقوبة ونساطرة وقبط .

وكان حاكم بيت المقدس الفاطمى افتخار الدولة قد طرد المسيحيين كافة من مدينة أو رشليم قبيل الغزو الصليبي لها . وبعد الغزو عاد هؤلاء المسيحيون آمليين في حرية ممارسة شعائرهم ؟ غير أن ظنهم قد خاب عندما صادفوا تعصباً وقسوة من جانب اللاتين وعلى رأسهم البطريرك آرنولف . وهنا بات مواطنو القدس من النصارى يتذمرون على عهد الفاطميين وحكمهم لهم في تسامح زائد . وكان بعض هؤلاء النصارى قد حملوا معهم وقت طردهم على يد افتخار الدولة أعز أثر مسيحي

تملكه كنيسة أورشليم : خشبة صليب الصليبيوت . وكان طبيعياً أن يرفض هؤلاء تسليم هذا الأثر المقدس إلى البطريرك اللاتيني المغتصب الذي ابتلع كافة حقوقهم الشرعية في موطنهم الأصلي . على أن آرنولف عمد إلى تعذيب زعمائهم حتى اضطربوا لأن يكشفوا عن مخبأ صليب الصليبيوت<sup>(١)</sup> .

شعرت بيزنطة أن كرامتها وحقوق رعاياها قد أحينت وأهدرت في كل من الرها وأنطاكية وبيت المقدس . وجاء القاصد البابوي الجديد دامبرت البيزى ليذير بيزنطة مكائد أخرى . فلقد هاجم أسطول بيزا ، بقيادة دامبرت بناته ، جزائر سنت ماورا ، والهبتانيز ، وكيفالونيا ، وكورفو ، ولوكاس ، وزانق ، كما أمر القائد بنها جميعاً .

أرسل الكسيوس كومين كلا من تاتيكوس ولاندلب لمواجهة هذا العدون الصليبي الجديد . ولحق الأسطول البيزنتي بأسطول بيزا ما بين رودس وباتراس ؛ غير أن عاصفة فيجاثية حالت دون التحام الأسطولين في معركة فاصلة . وبعدها أبحر الأسطول البيزى إلى جزيرة قبرص ، حيث هرع حاكها يوماثيوس فيلوكلاس يصد هذا الهجوم<sup>(٢)</sup> . كان تاتيكوس مسرعاً بأسطوله ليطارد هؤلاء القرادنة ، ولكن الأسطول البيزى شق طريقه حتى وصل الساحل السورى .

في أثناء ذلك أرسل الكسيوس سفيره بوتوميتس إلى بوهمند في أنطاكية لتفاوضته . غير أن الأمير النورمانى طرد السفير البيزنتى في وقاحة زائدة ، متسبماً إياه بالتجسس على الإمارات اللاتينية . ولما وصل المندوب البابوى الجديد إلى الشاطئ السورى ، طلب منه بوهمند معاونته بالأسطول البيزى في حصار ميناء اللاذقية البيزنتى لقطع خطوط اتصال المدينة بجزيرة قبرص . وما أن بدأ الأسطول البيزى في تنفيذ الخطة ، حتى وصل رايموند من تولوز إلى اللاذقية في رفقة جماعة الصليبيين الذين قرروا العودة إلى غرب أوروبا بعد إتمام فتح

Foucher of Chartres, op.cit., pp. 309-10; William of Tyre, op. cit., (١)  
p. 369.

Alexiad, XI, x, 4, p. 43. Anna wrongfully dates the incident with the  
year 1103 instead of 1099. (٢).

بيت المقدس . ولما كان رaimond لا يقر بohennd على سياسته العدائية تجاه حقوق بيزنطة ، فإنه استدعى دامبرت إلى اجتماع في مدينة جبلة حيث عتفه لتعاونه مع النورمان ضد اللاذقية . غير أن المندوب البابوي راح يعتذر لنفسه معلناً أن أمير أنطاكية — بوهمند — قد أفهمه بأن البيزنطيين هم الأعداء الحقيقيون للصلبيين <sup>(٣)</sup> . وعندما اضطر المندوب البابوي إلى أن يرفع الحصار عن اللاذقية ولما أن يتخلّى عن معاونة بوهمند في مخططه ضد المدينة .

وفي عيد ميلاد ١٠٩٩ قصد كل من بوهمند ودامبرت إلى بيت المقدس . وكان بوهمند يوقن أن حجه إلى بيت المقدس أمر حتى من أجل إعلان شأنه وهيبته بين أقرانه في الشرق اللاتيني ، وأيضاً في الدوائر الدينية في غرب أوروبا اللاتيني . وفي مطلع ١١٠٠ عاد الأمير النورماندي إلى إماراته أنطاكية ، ماريا باللاذقية ، حيث كان رaimond من تولوز قد نصب معيشه بمعرفة السلطات البيزنطية وتأييدها . ولما طلب بوهمند من رaimond تزويده ببعض المؤن الازمة لرجاله وحاشيته رفض الأخير تلبية طلبه متذرراً بـ بنقض المؤمن المطلوبة في المدينة <sup>(٤)</sup> وبعد ذلك شرع رaimond في حصار مدينة طرابلس بمعونة القوات البيزنطية .

\* \* \*

لا شك في أن قلب الكسيوس كومين بات يفيض مرارة بسبب الخذلان الذي أوقعه به جماعة الصليبيين ، بعد أن جاد بكل ما في استطاعته من مال ومؤن للحملة فقوبل بنكران الجميل . والواقع أن الرسالة التي كان البابا أوربان الثاني قد بعث بها إلى الإمبراطور البيزنطى يوصيه فيها خيراً بأمراء الحملة الصليبية كانت قد بددت بعضها من مخاوفه في عام ١٠٩٥ ؛ ولكن بدلت عبارات البابا عن « تقوى وورع وشهمة » بوهمند الآن مداعنة للغيط والكراهية في بلاد القسطنطينية <sup>(٥)</sup> فإن ذلك الرجل الذي امتدح البابا غيرته الدينية وخلقها الحسن الأحسن أصبح ينقض الآن على ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية علانية . ولم يكن

Albert of Aix, op. cit., p. 520.

(٣)

Foucher, pp. 309 - 10.

(٤)

The Pop's letter is in Mansi, Vol. XX, col. 660.

(٥)

قائعاً بالاستيلاء – دون وجه شرع – على إمارة أنطاكية ؛ وإنما راح يهجم على المدائن البيزنطية والتركية على حد سواء .

فأطلق كتائبه لتخرب آباميا ، وحلب ، وماراش <sup>(٦)</sup> وكانت ماراش قد سلمت للسلطات البيزنطية في أكتوبر ١٠٩٧ ، فعين الكسيوس كوميني أميراً أرمنياً يدعى ثاتول حكمها كتابع للإمبراطورية البيزنطية <sup>(٧)</sup> . وبينما كان بوهمند يضرب حصاره حول مدينة ماراش ، علم بأن ملك غازى محمد، الذى تسمى به الحوليات اللاتينية جوموشتيكين ، كان يزحف في طريقه صوب مليتين ؛ التي كانت تحت إمرة جبرائيل الأمير الأرمني . طلب جبرائيل النجدة من بوهمند ، واعداً بتسليم مدينة له مقابل العون ضد جوموشتيكين .

وقبيل رحيل بوهمند عن أنطاكية لعاونة جبرائيل هذا ، نخلع البطريرك البيزنطى يوحنا الرابع عن عرشه المشروع ، وعين بدلاً منه كنسياً لاتينياً يدعى برنارد من فالنس ، الذى كان في خدمة القاصد الرسول الراحل أدھيار ، والذى كان بوهمند قد اصطبغ به معه في وحلته إلى أورشليم حيث كرس أسقفًا على يد البطريرك اللاتيني الجديد للمدينة المقدسة . بلأ البطريرك البيزنطى الطريد إلى مدينة القدس طرد يوحنا الأنطاكي من كرسيه الشرعي يقف علامه مميزة لبداية قطعية فعلية بين كنيسة أنطاكية الأرثوذكسية وبين كنيسة روما الغازية <sup>(٨)</sup> .

هزم بوهمند في معركة مع الأمير غازى محمد ووقع أسرياً في يوليو ١١٠٠ <sup>(٩)</sup>  
وقد استتبع هذا أن حدث تقارب بين الكوفة رايمند من تولوز والإمبراطور

Mathew Matthew of Edessa, op. cit., pp. 229-30; Ibn al-Athir, op. cit., p.204 (٦)

Matthew loc. cit. (٧)

Radulph af Caen, p. 704; v Grumel, "Les Patriarches d'Antioche an nom de Jean", in Echos d'Orient, XXXII, p. 298. (٨)

Ibn Khaldoun, p. 54; Ibn al-Athir, p. 203; Mathew of Edessa, p. 231; Ekkehard of Aura, Chronicon Universale, p. 330. (٩)

البيزنطي ، كلٌّ يسعى إلى تحقيق أغراضه الخاصة أثناء غياب الزعيم النورماندي في الأسر التركي . ولما جاءت الأنباء بوفاة ملك بيت المقدس اللاتيني جودفري دي بويون ، في ٨ يوليو ١١٠٠ ، أبدى رايمنوند رغبته الملحة في أن يخلفه في الحكم بلقب *Advocatus Sancti Sepulchri*<sup>(١٠)</sup> .

غير أن الأمور سارت على غير ما قصد إليه الكسيوس وحليفه رايمنوند : فلقد سارع بلدوين أمير الراها ، شقيق جودفري الراحل ، إلى أورشليم حيث تمكن عن طريق الرشوة من أن يضع تاج مملكة بيت المقدس فوق رأسه وذلك في ٢٥ ديسمبر ١١٠٠<sup>(١١)</sup> . وفي نفس الوقت عمد القاصد البابوي الجديدي ، الكاردينال موريس ، إلى استدعاء تانكرد ، ابن أخي بوهمند ، ليحكم إمارة أنطاكية بدلاً من عمه الأسير<sup>(١٢)</sup> . وكان تانكرد أشد عداوة من عمه في سياسته مع الإمبراطورية البيزنطية ؛ إذ افتتح عهده بالهجوم على مدائن طرسوسة وأدنه وماسترا ؛ وبعد أن استولى عليها جميعها من السلطات البيزنطية تقدم ليحاصر ميناء اللاذقية .

أمام هذا العداء السافرقرر الكسيوس كومين ضرورة قيادة حملة عسكرية لمواجهة الأطماع الصليبية في سوريا . غير أن أخباراً وردت إلى العاصمة عن قرب وصول زحوف صليبية جديدة قادمة من غرب أوروبا .

كانت الأنباء التي وصلت الغرب عن النجاح الذي أحرزته الصليبية الأولى في الشرق ، بالإضافة إلى رسائل قادة الحملة المتتابعة للدواائر الكنسية اللاتينية طلباً في المزيد من التعزيزات العسكرية ، إلى جانب الروايات الأسطورية التي راح الحجاج العائدون من الصليبية الأولى يقصونها على العامة والخاصة عن الأرض المقدسة والشرق الدافع ... كانت كل هذه العوامل متضافةً مهماً جديداً في العمل على جذب الكثيرين من أبناء غرب أوروبا لحمل علامة الصليب والزحف نحو الشرق.

Alexiad, XI, viii, 1, p. 36.

(١٠)

Matthew of Edessa, p. 231.

(١١)

H. Hagenmeyer, Chronologie, pp. 319 - 20.

(١٢).

وكانت أسطيل جنوة وبيزه قد وصلت بالفعل إلى ميناء بيريه ، فتصدى لها حاكم المدينة عندما سمع ربانها يتناولون بيزنطة والإمبراطورها بأقدع الشتائم والاتهامات . وعمد حاكم بيريه إلى تعطيل إبحارهم صوب الشاطئ السوري ، ولكن الإمبراطور أرسل إليه أمراً بعدم عرقلة خط مسيرهم . وإلى جانب هذه الحملات البحرية التي اتجهت نحو سوريا ، كان جيش صليبي كبير يزحف برأس قبالة القسطنطينية في طريقه إلى آسيا الصغرى . في الشهور الأخيرة من عام ١١٠٠ بدأ اللومبارديون زحفهم صوب الشرق . ثم أمضوا شتاء العام في بلغاريا . وأرسل قادتهم إلى القسطنطينية يطلبون الإذن بعبور الأراضي البيزنطية ، فوافق الكسيوس على مطلبهم ، راجياً منهم عدم إيداع الأهالي في المدن التي يعبرونها . ورغم هذا انقضى اللومبارديون — دون مبرر واضح — على كل من رودوستو وديموتيكا وساليريا وأدريانوبول وفيليوبولس ونهبوا عن آخرها ؛ تماماً مثلما فعل من قبلهم فرسان صليبية . ١٠٩٦ .

وصل هؤلاء المقاتلون الصليبيون إلى مدينة القسطنطينية في مارس ١١٠١ . وكان الكونت ريموند من تولوز موجوداً بالعاصمة آنذاك ؛ مما سهل مهمة التفاوض بين زعماء الحملة الجديدة والإمبراطور البيزنطي <sup>(١٣)</sup>. غير أن رجال الحملة سرعان ما انقضوا على تخوم العاصمة فنهبوا ؛ مما اضطر السلطات الإمبراطورية إلى أن تمنع تزويدهم بالمؤن الازمة ؛ خاصة وأنهم رفضوا نصيحة الإمبراطور بعبور البسفور إلى آسيا الصغرى . هجم الصليبيون على مدينة القسطنطينية ، وأولاً تدخل وساطة كونت بلاندرات وأسقف ميلان لمتادى الصليبيون في تحقيق غرضهم <sup>(١٤)</sup> وفي نهاية الأمر اقتنع القادة بضرورة العبور إلى آسيا الصغرى .

تبع هذا وصول حملة جديدة بقيادة ستيفن من بلاوا . وستيفن هذا هو الذي كان قد فر من معسكر أنطاكية وعاد سرّاً إلى غرب أوروبا . غير أن زوجه أديلا احتقرته لهذا المسلك الذي ونصحته بضرورة العودة إلى الشرق لإنقاذ سمعة العائلة النبيية التي ينتهي إليها <sup>(١٥)</sup> . وكان في رفقة ستيفن هذه المرة كل من

Albert of Aix, p. 562.

(١٣)

Ibid .

(١٤)

Orderic vitalis, p. 118.

(١٥)

ـ هيو من جراندبرا ، وهيو من بروي ، وهيو من بيرفوند ، وأسقف سواسون ، وأخوان لكونت بلاندرات<sup>(١٦)</sup> . كذلك قدم لهم كونراد ، كونستابل الملك الألماني هنري الرابع<sup>(١٧)</sup> .

اقترح الكسيوس على زعماء الصليبيية الجديدة أن يتركوا أمر قيادتهم وتوجيههم إلى الكونت رايمند من سان جل الذي كان قد اكتسب خبرة واسعة عن جغرافية وأحوال آسيا الصغرى . كما وعد بإمدادهم بفرقة من الجنود التركوبول تحت قيادة تزيتانس . ويروي أورديريك فيتاليس كيف أن الكونت رايمند رفض في بداية الأمر الانضمام بمهمة القيادة فهاج الصليبيون وانقضوا على أسوار مدينة القدسية ، مما اضطر الكسيوس لأن يواجه هذا التحدى مستعيناً على حد قول نفس المصدر ببعض الأسود والثور في الدفاع عن مدنه<sup>(١٨)</sup> . وعرض ستيفن من بلوا أن يتبع الصليبيون نفس الطريق الذي اتبعه حملة ١٠٩٧ ، ووافق الكسيوس على هذا الرأي غير أن الصليبيين رفضوا هذا الرأي وقرروا الزحف شرقاً نحو خراسان<sup>(١٩)</sup> بغية تحرير بوهمند من الأسر التركي . وفي نهاية الأمر وافق رايمند على أن يقود الحملة .

تحرك الصليبيون من نيقوميديا في مطلع يونيو ١١٠١ متبعين الطريق الحربي المؤدى إلى آنسيرا<sup>(٢٠)</sup> . وكان عليهم عبور منطقة بافلاجونيا الجبلية . ولقد وصلوا إلى آنسيرا في الثالث والعشرين ، ومنها تقدموا إلى جانب ريزم إلى كاستاموني شمالاً . وكان عليهم أيضاً عبور نهر قزل إرمق للوصول إلى آمازيا .

لما وصلت أنباء قدوم حملة صليبية جديدة إلى الشرق نقض الأمراء الأتراك خلافاتهم الشخصية جانباً وتضافروا جميعاً لمقاتلة هذا العدوان الغربي الجديد .

Ekkehard, p. 225.

(١٦).

Albert of Aix, pp. 562 - 63.

(١٧).

Orderic Vitalis, p. 120; Albert of Aix, loc. cit.

(١٨).

For Khorasan was believed by the Westerners to be the home of the Seljuk

(١٩).

Turks. When Pope Urban II preached the Crusade at Clermont he spoke of the Turks as Persians.

Alexiad, XI, viii, 2, p. 37; Orderic Vitalis, p. 126.

(٢٠).

وهذا فإن قوات كل من ملك غازى محمد ، وقلج أرسلان ، والأمير رضوان حاكم حلب تجمعت تحت راية واحدة فيما بين آمازيا وسيوة . ومن هناك انقضوا على العدو الصليبي وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة . فزع الصليبيون من هذا الهجوم المفاجئ ففرت غالبيتهم صوب سينوب التي كانت في يد السلطات البيزنطية . أما عن قادتهم رaimوند من سان جيل فقد هرب إلى بافيارا على البحر الأسود<sup>(٢١)</sup> . ولم يتمكن الهارون من سيفالر크 الوصول إلى بيزنطة حتى نهاية عام ١١٠١<sup>(٢٢)</sup> . ويتهم أوردريل فيتالس الكونت رايمند بالخيانة العظمى طبقاً لخطط مدبر بينه وبين الكسيوس<sup>(٢٣)</sup> .

بعد ذلك وصل جيشان صليبيان آخران من الغرب : الأول بقيادة وليم كونت نيفيرز ، والثاني بقيادة كل من وليم التاسع الأقطانى ، وولف الرابع دوق بافاريا . وكان الجيش الأول منظماً إذ لم يقدم جنده على أعمال الفوضى والنهب للأراضى البيزنطية ، وهذا فقد أكرم الكسيوس وقاده القائد وليم ، وأمده ببعض الجنود البيزنطيين<sup>(٢٤)</sup> . ترك وليم مدينة القدس في ٢٣ يونيو آملاً في اللحاق بالجيوش التي سبقته إلى آسيا الصغرى . وعند آنسيرا اكتشف أنه ليس بمقدوره اللحاق بهم فيهم هو ورجاله شطر قونية . غير أن الأتراك هجموا عليه بقيادة قلچ أرسلان وملك غازى عند هرقلية . وكانت المعركة تامة ؛ ففر الكونت إلى جرمانكوبولس<sup>(٢٥)</sup> . وتعقبه الأتراك وألحقوا به هزيمة أخرى عند حصن القديس أندراوس ، وبعدها انسل الكونت إلى أنطاكية<sup>(٢٦)</sup> .

أما الجيش الثاني الذي كان بقيادة وليم الأقطانى وولف الرابع ، فمعلوماتنا عنه أكثر وضوحاً بفضل ما كتبه عن الحملة أحد الذين شاركوا فيها ، وهو ليكهارد من أورا . وكما حدث من قبل اتخذت السلطات الإمبراطورية كافة

Albert of Aix, p. 568.

(٢١)

Alexiad, XI, viii, 5, p. 38.

(٢٢)

Orderic Vitalis, loc. cit.

(٢٣)

Albert of Aix, pp. 574 - 78.

(٢٤)

Ibid.

(٢٥)

Ibid., p. 579.

(٢٦)

احتياطاتها بأن أوفدت السفراء لملاقاة القادة الصليبيين والإقناع بهم بضرورة مراعاة النظام أثناء عبورهم لأراضي الإمبراطورية . وفي نفس الوقت صدرت الأوامر إلى كتائب البشناق لمراقبة سلوك الجيش الصليبي . ورغم هذا فقد هجم الصليبيون على مدينة أدريانوبول للاستيلاء عليها ونهبها<sup>(٢٧)</sup> .

على أن إيكهارد ينافق نفسه في حوليته عند الكلام عن بيزنطة وإمبراطورها : فهو إذ يطلق لسانه ضد البيزنطيين وسيدهم ، يشير في أكثر من مكان إلى غلظة وعجرفة أهالي أقطانيا ؛ التي كانت — دون نزاع — سبباً في التوتر الذي ساد بين الطرفين . يضاف إلى هذا أن الكاتب بذلك يعترض بأن الكسيوس عامل قادة الحملة وكأنهم أبناء له ؟ ويمضي نفس المصدر ليؤكد أن الكسيوس أُجبر رجال الحملة على العبور إلى آسيا الصغرى كارهين ؛ وأن المفاوضات بين الطرفين كانت تتسم بالغموض والتويه بسبب الالتواء المعهود في الخلائق البيزنطي<sup>(٢٨)</sup> .

ويروى إيكهارد أيضاً أنه في تلك المرحلة بالذات راجت اشاعات مفادها أن الكسيوس — الذي كان يفضل عنصر الترك على بنى الفرنجية — قد اتفق سرّاً مع الأتراك على إبادة الصليبيين في آسيا الصغرى . ويضيف بأن العقلية البيزنطية كانت ترى في الصليبيين والترك « مجرد كلاب مسورة » ينهش الواحد منهم في لحم الآخر . ومن مزاعم نفس المصدر أيضاً أن الإمبراطور البيزنطي كان قد عقد النية على حمل « الحجاج » (الصليبيين) على ظهر بعض سفنه ثم الإلقاء بهم في قاع اليم<sup>(٢٩)</sup> .

ورواية إيكهارد هذه حلقة من حلقات العداء اللاتيني والدعائية الفرنجية ضد بيزنطة وإمبراطورها ؛ وتعتبر تردیداً لما ورد في رسالة بوهمند إلى البابا أوربان التي تحدثنا عنها سالفاً . ولم يكن إيكهارد بهذا بعيداً عن تصوير مشاعر الدوائر الكنسية والعلمانية في غرب أوروبا تجاه الدولة البيزنطية ؛ فبنفس العقلية والاتجاه افتتح الرسول البابوي دامبرت عهده في سوريا . والحقيقة أن بيزنطة قد

Ekkehard, op. cit., pp. 219-20.

(٢٧)

Ibid.

(٢٨)

Ekkehard, loc. cit.

(٢٩)

فجعت لما شاهدته ولسته من لاجرام صليبي ضد أهالى الإمبراطورية وأيضاً ضد جيرانها المسلمين . كما أن أحداث الرها وأنطاكية وبيت المقدس واللاذقية أعادت للبيزنطيين التذكريات القديمة لهجمات الهرمان المتبربرين على الإمبراطورية . ولم تنطل شعارات الصليبية على رجل من طراز الكسيوس كومينين ولا على الرأى العام في الإمبراطورية الشرقية ؟ وأيقن الجميع في الشرق أن هؤلاء المقاتلين الذين يحملون شارة الصليب أبعد ما يكون عن الخلق المسيحى الصحيح وعن الرسالة المسيحية الحقة . ومن هنا اتسمت العلاقات بالتوتر بين الطرفين ، إذ لم تسمح السلطات البيزنطية لنفسها أن تتعاون مع هؤلاء « البرابرة » في مشروعاتهم التوسعية وفي اضطهادهم المتعنت للإسلاميين وأيضاً للطوائف المسيحية الشرقية التي نعمتها الصليبيون بالمرطة والانحراف .

على أية حال حل بدو قسطنطانيا ورجاله ما سبق أن حل بهن سبقوهم في آسيا الصغرى ؛ إذ انقض عليهم ملك غازى محمد وأمير حوران عند إرجلي وفرقوا شملهم . وبعدها نجح الدوق وليم في الفرار إلى لونجشادا ، ومنها إلى مدينة أنطاكية<sup>(٣٠)</sup> .

على أن أمواج الصليبيين الواصلة من الغرب لم تقف عند حد . ففي عام ١١٠٢ قدم جيش إسكندنافي بقيادة الملك إلارك الطيب . والمعلومات التي لدينا عن هذه الحملة أقرب ما تكون إلى الأساطير . ومن الصفحات القلائل التي كتبها المؤرخ Riant عن هذه الصليبية نعلم أن أزمة ما قد نشبت بين الزعيم الإسكندنافي والإمبراطور البيزنطي ، أغلبظن بسبب الشكوك التي ساوىت الكسيوس بأن ضيفه المرموق كان يحاول سرًا أن يحضر أفراد الحرس الإمبراطوري من المرتزقة الغربيين ضد بيزنطة<sup>(٣١)</sup> .

\* \* \*

Albert of Aix, pp. 581 - 82.

(٣٠)

P. Riant, Expéditions et Pèlerinages des Scandinaves en Terre Sainte au Temps des Croisades, Paris, 1865, pp. 159 - 61.

(٣١)

لما علم تانكرد – حاكم أنطاكية – بعلاقات المودة بين الكسيوس ورایموند من سان جيل ، قرر الانتقام من الأخير وتقطيع أظافره . وعند عودة رایموند من القسطنطينية بحراً ، رسى في ميناء سانت سيميون ؛ وهناك وقع في يد شخص يدعى برنارد الغريب الذي أسلمه إلى تانكرد . وزوج به تانكرد في السجن على رغم أنه قد قام باتصالات مرية مع العدو البيزنطي<sup>(٣٢)</sup> . غير أن رجال الدين اللاتين توسيطوا في الأمر ، وأطلق تانكرد سراح أسيره بعد أن تعهد له بعدم المساس بأمور إمارة أنطاكية مستقبلاً<sup>(٣٣)</sup> .

غير أن هذه الحادثة المهمة قد ضاعفت من كراهية رایموند لتانكرد ولعمه يوهمند ، الذي كان لا يزال في الأسر التركي . وهذا ما تمكن رایموند من إعادة تنظيم رجاله حتى زحف إلى تارتوز ليستولي عليها . وبمعونة أسطول جنوة تمكن رایموند بالفعل من الاستيلاء على المدينة ، التي كانت النواة الأولى لإمارة طرابلس اللاتينية<sup>(٣٤)</sup> . بعد ذلك استولى الكونت على أنتاراس وحصن الأكراد ، وذلك في سبتمبر ١١٠٢ . ثم بدأ في حصار طرابلس ، كما نجح في احتلال حمص عند موت أميرها شفاء الدولة . والواقع أن ذلك النجاح الذي أحرزه رایموند في سوريا يرجع في الدرجة الأولى إلى المعونة الصادقة التي أمنه بها الكسيوس كومين ، خاصة ما قام به الأسطول البيزنطي بجزيرة قبرص من تزويده بالإمدادات الالزمة عن طريق البحر<sup>(٣٥)</sup> .

وعندما تقدم تانكرد لحصار اللاذقية هرع رایموند من معسكره حول طرابلس لمساندة السلطات البيزنطية في المدينة ضد الحصار التورماندي ؛ غير أن المدينة سقطت في يد تانكرد في النصف الثاني من عام ١١٠٢ . والحق أن نفوذ تانكرد كان آخذاً في الأزيدية بصورة مذهلة في سوريا ، فيلي جانب الثراء الذي تميزت به إمارته الإنطاكية نجح في توسيع سلطانه حتى امتد إلى

Albert of Aix, p. 582.

(٣٢)

Ibid.

(٣٣)

Ibn-Khaldoun. op. cit., p. 60.

(٣٤)

Alexiad, XI, 6, p. 35; Ekkehard, p. 238.

(٣٥)

حلب ، ذلك لأن أميرها رضوان قد اضطر إلى دفع ٧٠٠٠ قطعة ذهبية للأمير النورماندي بغية تجنب هجوم على مدنته<sup>(٣٦)</sup> . وبسقوط اللاذقية في يد تانكرد ضمن إمارته سهلة الاتصال بحراً بغرب أوروبا .

بات النفوذ النورماني الصليبي في إمارة إنطاكية يهدد حقوق ومصالح الإمبراطورية البيزنطية بشكل مباشر . ولم تجد المفاوضات الودية التي أجراها الكسيوس مع الأمراء النورمان ، بل تبين له من خلالها أن سياسة كل من بوهمند وتانكرد قبلة بيزنطة كانت ماضيا صريحاً في سياسة روبرت جويسكارد العدوانية ضد المصالح البيزنطية بل والكيان الإمبراطوري ذاته . ولهذا فقد فتح الكسيوس كومين بباب المفاوضات مع الأمير ملك غازي محمد مستهدفاً الحصول على شخص بوهمند من الأسر ليصبح لديه رهينة هامة تعينه على تسوية المسألة الأنطاكية . غير أن الأميرالأرمني كوج فازل قام بافتداء بوهمند من الأسر وأطلق سراحه في صيف عام ١١٠٣ . وجدير باللحظة أن تانكرد لم يكن قد فكر في افتداء عمه من الأسر ؛ بل المرجح أنه كان يشعر بالامتعاض وهو يسلم مقاليد أنطاكية والقشوطات الجديدة إلى بوهمند . ولقد تصادف إطلاق سراح بوهمند مع ضمحي الفتح النورماندي لمدينة اللاذقية البيزنطية<sup>(٣٧)</sup> .

أرسل الكسيوس رسالة إلى بوهمند يذكره فيها باليمين الذي كان قد أقسمه له ويطالبه برد الأرضي البيزنطية التي استولى عليها هو وتانكرد<sup>(٣٨)</sup> . غير أن بوهمند رد عليه بالرفض الرسمى متهمًا بيزنطة وإمبراطورها بخرق إتفاقية ١٠٩٧ ، وأيضاً بالخيانة والبخين<sup>(٣٩)</sup> . من أجل هذا أرسل الإمبراطور حملة بقيادة بوتوميتس وموناستراس لهاجمة كيليكيا . وقد نجح القائدان البيزنطيان في تأسيس عدة مواقع دفاعية وهجومية في إقليم ماراش ، وبعدها عادا إلى العاصمة

Kémal ed-Din Extraits de l'Histoire d'Alep - in Desremery's Mélanges (٣٦)  
d'Histoire Orientale, Paris, 1849, p. 50.

Alexiad, XI, ix, 1, p. 39.

Ibid.

Ibid.

(٣٧)

(٣٨)

(٣٩)

(٤٠) (١١٠٣). غير أن مطلع عام ١١٠٤ شهد سقوط ماراش في يد جوسلين حاكم قل بشير<sup>(٤١)</sup>. وقد حدث في نفس الوقت أن هزمت القوات التركية الجيوش الصليبية المتحالفة في واقعة حران<sup>(٤٢)</sup>. وتبع هذا أن حضن الترك شعوب سوريا وكيليكيا على الثورة ضد الحكم الصليبي. وما أن اندلعت الثورة في كيليكيا حتى سارعت الجيوش البيزنطية فاحتلت طرسوس وأذنة ومامسترا. وفي نفس الوقت تقدمت الجيوش التركية حتى مشارف آرتوس، مما بات يهدد أنطاكية ذاتها. كذلك الحق الترك هزيمة ساحقة بحاكم الرها بلدوين وقع أسيراً في يدهم. ولا تولى تانكرد حكم الرها، هجم عليه الترك مرة أخرى فاضطر إلى طلب المعونة من عمّه بوهمند. وما تقدم بوهمند لمساعدة ابن أخيه في الدفاع عن الرها، زحف البيزنطيون للاستيلاء على اللاذقية، يساعدون في ذلك الكونت رaimond من سان جيل. على أن الزعيم النورماندي انقض ببرجاله على البيزنطية ورایموند واستعاد اللاذقية بقوة السيف<sup>(٤٣)</sup>.

ورغم هذا فقد أدرك بوهمند أنه ليس نداً لخصميه قويين: الأتراك من جانب والبيزنطيين من جانب آخر. ولذا فقد قرر العودة إلى غرب أوروبا، تاركاً تانكرد وصيّاً على إمارة أنطاكية، بقصد التبشير بصلبيّة جديدة. على أن هذه الصليبيّة التي كان يخطط لها بوهمند كان المدف الأول والأخير لها تدمير القسطنطينية وخليع إمبراطورها «الخائن»؛ وذلك حسماً للأوضاع المعقّدة في الشرق الالاتي. وبهذا المشروع الضخم في فكره أبهر بوهمند في الشهور الأخيرة من عام ١١٠٤ فوصل أبو lia في يناير عام ١١٠٥.

هبت أوربا الالاتيّة عن بكرة أبيها لاستقبال البطل الأول للصليبيّة الأولى. وكانت سيرة بوهمند وأعماله البطولية وشبه الأسطوريّة قد سبقته إلى

Ibid, XI, ix, 4, p. 41.

(٤٠)

Matthew of Edessa, p. 257.

(٤١)

Abu' l Feda, p. 343; Ibn al-Athir, p p. 221 - 23.

(٤٢)

Alexiad, XI, xi, 6, p. 48.

(٤٣)

عواصم الغرب اللاتيني وراح الناس يرددونها في كل مكان . وكان الزعيم النورماندي غاية في الدهاء ، فكان قد أهدى إلى كنيسة القديس نيقولا في مدينة باري خيمة الأمير التركي كربوغا التي وقعت في يده (٤٤) .

والآن عاد بوهمند محلاً بالوفير من آثار الأرض المقدسة وأيقوناتها ايهديها إلى الدوائر الكنسية والعلمانية المرموقة صاحبة الكلمة في غرب أوروبا . ويقال إنه قدم إلى كنيسة القديس سabinوس في كانوسا شوكتين من إكليل الشوك الذي توج به اليهود المسيح وقت صلبه ، تحملان آثار دم القادي العظيم (٤٥) ويقول صاحب كتاب *Historia Belli Sacri* بأن الجماهير قد تواجدت لتحملن في وجه بوهمند « ولકأنهم يرزن بأبصرهم قبلة المسيح ذاته » (٤٦) .

أمضى بوهمند بعضًا من عام ١١٠٥ في الإشراف على بناء أسطول قوي . ثم أوفد سفراً إلى بلاط إنجلترا للتمهيد لزيارة كان يزمع القيام بها إليها . على أن الملك هنري الأول لم يشجع إتمام هذه الزيارة خوفاً من مساعدة العديد من الفرسان الإنجليز للانضمام إلى صليبية بوهمند ، ولذا فقد اقترح مقابلته في فرنسا (٤٧) . وفي سبتمبر ١١٠٥ قام بوهمند وصديقه دامبرت — المنذوب البابوي — بمقابلة البابا الجديد باسكال الثاني . (٤٨) وكان باسكال من التحمسين للغاية للحركة الصليبية ، ففيجده في رسالة مؤرخة بدسمبر ١٠٩٩ يخوض رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدمي الأديرة في فرنسا على استئثار الجماهير لحمل شارة الصليب والزحف نحو الشرق لمساعدة مملكة بيت المقدس الصليبية . أما هؤلاء النفر الذين قد هربوا من معسكر أنطاكية فإن البابا هددتهم بلعنة الحberman الكنسى ما لم يبادروا بالعودة إلى سوريا الإنقاذ

*Historia Belli Sacri*, p. 206.

(٤٤)

*Angelus Andrea Tortora, Relatio status S. Primatialis Ecclesiae Canusinac seu Historia, Rome, 1768*, p. 180.

*Historia Belli Sacri*, p. 228.

(٤٦)

*Orderic Vitalis*, p. 210.

(٤٧)

*Historia Belli Sacri*, p. 228.

(٤٨)

سمعتهم<sup>(٤٩)</sup>. وتلبية لرغبة البابا أرسل مانايسيس رئيس أساقفة ريمز رسالة إلى لامبرت أسقف آراس يأمره بفرض الصيام على رعاياه وجمع التبرعات من أسقفيته لخدمة قضية الكنيسة ضد العدو وضد زيف وأباطيل الطوائف المسيحية المهرطقة في الأرض المقدسة<sup>(٥٠)</sup>.

وفى أبريل ١١٠١ كتب البابا باسكال الثاني إلى الصليبيين فى الشرق يخاطبهم على أنهم «أبطال آسيا». ونجده فى هذه المكاتبة يعين موريس كاردينال بورتو فاصلداً بابويًا جديداً، له سلطان على أمراء الحملة وأساقفها وسائل المؤمنين المشاركون فيها. وكانت من مهام القاصد البابوى الجديد تنظيم شئون الكنيسة التى حررها «الأبطال الفرنجية» من أغلال العدو<sup>(٥١)</sup>.

كان موقف باسكال الثاني تجاه بيزنطة يتسم بالكراهية والمعاداة، ففضلاً عن نظرته إلى بطريركية القدسية على أنها منشقة ومنحرفة، فإنه رحب بالأنباء والإشاعات المروجة عن خيانة بيزنطة وإمبراطورها للقضية الحركة الصليبية. ولقد زاد من هذا الشعور لدى البابا وكراحته ما ورد من ضغائن واتهامات ضد بيزنطة في كتاب *Gesta Francorum* الذى حمله بوهمند معه في رحلته إلى غرب أوروبا. كذلك راحت الدوائر الكنسية والعلمانية في الغرب تؤكد أن المذبحية التي حلّت بصلبيّة ١١٠١ في آسيا الصغرى كانت من تدبير الخليانة البيزنطية. ولم يكن لهذا الشعور قاصراً على عواصم غرب أوروبا، بل إننا نجد أن بلدوين ملك بيت المقدس يرسل سفارة إلى القدسية يحمل بها الكسيوس من العمل على تدمير الفرنجية ومن خلق العقبات أمامهم خاصة في استرداد ما فقدوا من أراض للأتراء<sup>(٥٢)</sup>. وحدث أن زار مانايسيس أسقف بارزينونا<sup>(٥٣)</sup> الكسيوس كوميني في عاصمة، وطلب الإمبراطور من

H. Hagenmeyer, *Epistulae et Chartae*, pp. 174 - 75

(٤٩)

Ibid., p. 175.

(٥٠)

Ibid, pp. 178 - 79.

(٥١)

Albert of Aix, pp. 582 - 85.

(٥٢)

Ibid.

(٥٣)

الأسقف اللاتيني مقابلة البابا لإقناعه ببراءة بيزنطة من الاتهامات المنسوبة إليها فيها يتصل بفشل صليبية ١١٥١ ، غير أن الأسقف نكس بوعده وراح يقص على مجمع عقده البابا في بینيفنتو ( ١١٥٢ ) روايات خيالية عما أسماه « خيانة البيزنطيين » وجرمهم (٥٥) .

باتت سمعة الكسيوس كوميني وإمبراطوريته تنتهي في غرب أوروبا ، لا علىأسنة حزب بوهمند فحسب ، وإنما بفعل الدعاية العدائية للدواائر الكنسية اللاتينية في الشرق والغرب . والواقع أن الفرنجة بصفة عامة كانوا ينظرون في ازدراء شديد إلى البيزنطيين من قبل قيام الحركة الصليبية ، فكان الرأى السائد عند اللاتين أن هذا الجنس جبان ومحاتل وأيضاً محنت . وظلت هذه الفكرة سائدة حتى إننا نجد أسقفاً من طراز وليم الصورى ، الذي قضى وقتاً طويلاً في الشرق والذي تلقى كرماً وهدايا بالغة من البلاط البيزنطي ، راح هو أيضاً ينعت البيزنطيين بالمداورة والمحاتلة والتضليل في معاملاتهم الدبلوماسية مع الغرب (٥٦) .

على أنه إنصافاً ل الواقع التاريخي ينبغي أن نقر أن المصادر الغربية على مختلف مشاربها قد جابت الحق ، فالكسيوس كوميني هو الذي أرسل سفارة إلى الخليفة الفاطمي تعرض عليه افتداء الأسرى اللاتين في القاهرة (٥٧) . كما أن الإمبراطور الألماني هنري الرابع طلب منه افتداء كونستابله كونراد . ولقد رفض الخليفة الفاطمي قبول المال من العاهل البيزنطي وأرسل إليه جل الأسرى الصليبيين ليتصرف فيما شاء . واستقبل الكسيوس هؤلاء الأسرى بالترحاب والإكرام ووزع عليهم الصدقات والكسوة وأرسلهم إلى مواطنهم في الغرب لعلهم يقدمون الدليل على نوایاه الطيبة . ولكن الذي

Annales Beneventani, in M.G.H.SS., Vol. III, p. 183.

(٥٤)

William of Tyre, op. cit., p. 587.

(٥٥)

Alexiad, XII, 3, p. 54.

(٥٦)

حدث أن قوبل هذا العطف بشكران الجميل وبحملة من التشهير والافتراء على الإمبراطورية الشرقية.

كان بوهمند عازماً على تحطيم بيزنطة بصلبيّته الجديدة . وجاء التأييد البابوي لهذه الحملة ليُسْبِغَ عليها صفة الحرب المقدسة اللاتينية ضد الإمبراطورية البيزنطية . وهذا فقد قدم باسكال الثاني راية القديس بطرس إلى بوهمند عشية تبشيره بالحملة الجديدة ، كما أرسل برفقته الكاردينال برونو أسقف سيجني ، الذي كان من حزب أوربان الثاني ، مندويا بابوياً . وصدرت الأوامر البابوية بالتبشير بالصلبيّة الجديدة فيسائر أرجاء غرب أوروبا<sup>(٥٧)</sup> . وكان بوهمند قد قابل في روما بطرس الثاني أسقف بواتييه الذي وضع كافة إمكانيات مدینته رهن إشارة أمير أنطاكيّة الصليبي<sup>(٥٨)</sup> . وعلى هذا فإن حملة بوهمند هذه تعد صلبيّة مكملة لما سبقها من صلبيّات .

قرر بوهمند زيارة فرنسا لتجنيد فرسانها لحملته ، وأيضاً بقصد إثمام زواجه من كوتستانز ابنة فيليب ملك فرنسا ، وكذلك للبحث عن أميرة فرنسيّة أخرى زوجاً لابن أخيه تانكرد . ويحدثنا أوردوريك فيتالز بأن بوهمند كان قد أوفد أحد رجاله ويدعى ريتشاود ، وذلك عقب إطلاق سراحه من الأسر ، ليهدّ هذا الزواج في البلاط الفرنسي<sup>(٥٩)</sup> .

دخل بوهمند فرنسا في أواخر فبراير ١١٠٦ . وقدّم أول الأمر إلى ضريح القديس ليونارد في مدينة نوبلات في الليموزين ، حيث قدم ثلثاً كان قد وعد بتوفيقه وقت الإسار التركي : وهو ما يعادل من الفضة الحالصة وزن الأغلال التي قيد بها على يد الأمير ملك غازي محمد<sup>(٦٠)</sup> . بعد هذا قام بزيارة للملك الفرنسي في بلاطه وأتم مفاوضاته بشأن مشروع الزواج<sup>(٦١)</sup> .

Chronica Monasterii Casinensis, in M.G.H. SS., Vol. VII, p. 77; A. Richard, (٥٧)  
Histoire des Comtes de Poitou, Vol. I, p. 448.

A. Richard, loc. cit.

(٥٨)

Orderic Vitalis, op. cit., p. 156.

(٥٩).

Ibid., p. 212.

(٦٠)

Ibid., p. 213.

(٦١)

ترك بوهمند بعضاً من متاعه وحاشيته في مدينة شاتررز وقام برحالة شاملة لكافه الأقاليم الفرنسيه . وقبيل الفارس الصليبي بالترحاب والإكرام أينما حل ؛ ففتحت له الأديرة أبوابها ، وهرع النبلاء يلقونه على اعتاب قلاعهم ، وراح يقص عليهم مغامراته البطولية في الشرق ويعرض أمامهم الخلفات المقدسة التي كان قد حملها معه من الشام<sup>(٦٢)</sup> . وبلغ إعجاب نبلاء فرنسا بوهمند حدّاً بالغاً فاستقدموا أطفالهم الصغار ليطلبوا منه أن يكون لهم أمّاً أشبينيّاً . « وهكذا » ، يحدثنا أوردوريلك ، « بعد أن كان اسم بوهمند غير مألف في الغرب صار شائعاً في غالٍة »<sup>(٦٣)</sup> . واستغل بوهمند فرصة إقامته في فرنسا استغلالاً حسناً ، فراح يبشر بحملته للجماهير التي توقفت لقياه ، وأكّد لهم أن إمبراطور بيزنطة « زندين مارق » ، وبأنه العدد الحقيقي للصلبيين<sup>(٦٤)</sup> . كما أوضح لسامعيه أن فشل صليبيي ١١٠١ و ١١٠٢ كان من فعل الخليانة البيزنطية . وكان بصحبته في هذه الجولة نفر من النبلاء البيزنطيين المأجورين ، من بينهم واحد راح يدعى بأنه الابن الشرعي للإمبراطور رومانوس دايوجينيز صاحب الحق في التاج البيزنطي<sup>(٦٥)</sup> . ومن المرجح أن بوهمند وصل في رحلته هذه إلى فلاندرز ، إذ نعلم من المصادر المعاصرة أنه كان قد حل في سانت أومير في ٣٠ مارس<sup>(٦٦)</sup> . ويبدو أيضاً أنه قد رافق المندوب البابوي بروفو في رحلاته إلى موتز<sup>(٦٧)</sup> . وفي أبريل تمت المقابلة بين بوهمند والقادس البابوي من جانب وبين أنسالم رئيس أساقفة كانتربرى ووليم رئيس أساقفة روين من جانب آخر وذلك في ضيافة وليم ؛ حيث نوقش المشروع الصليبي الجديد . وفي أثناء هذا المؤتمر أهدى أحد أتباع بوهمند ويدعى الجيروس بعضاً من خصلة شعر للسيدة العذراء إلى أنسالم ، وكان هذا النورماندي قد حصل على

Ibid.

(٦٢)

Ibid., p. 213.

(٦٣)

Ibid; p. 212; Alexiad, XII, i, 5, p. 56.

(٦٤)

Orderic, p. 213.

(٦٥)

Iambertus Andomariensis, Chronica, in M.G.H.SS., Vol. V, p. 66.

(٦٦)

Johannes Longus de Ipra, Chronica Monasterii Sancti, Bertini, in

(٦٧)

M.G.H. SS., Vol. XXV, p. 787.

هذا الأثر المقدس من بطريرك أنطاكية<sup>(٦٨)</sup> .

تم زواج بوهمند من كونستانتز ابنة ملك فرنسا في مدينة شارترز ؛ حيث كانت أديلا ، أرملة الصليبي ستيفن من بلووا ، قد أعدت حفلًا رائعاً للمناسبة<sup>(٦٩)</sup> . وقد حضر إلى هذا الحفل ملك فرنسا ولده لويس السمين ، وعديد من وجهاء القوم والساسة<sup>(٧٠)</sup> . وبعد إتمام مراسيم الزواج اعتنى بوهمند منصة الكنيسة ومخاطب الجماهير والخاصية : فراح يقص عليهم عن حروبه وأسره في الشرق ، وحثّهم على السير معه ضد بيزنطة ، واعداً إياهم حصونا وأراضي تفيف عسلا ولبنان جراء حملهم الصليب والسير وراءه<sup>(٧١)</sup> .

وفي السادس والعشرين من يونيو ١١٠٦ دعا برونو المندوب البابوي إلى مجمع عقد في مدينة بواتييه . وكان شوجر راهب سانت دينيس حاضراً لهذا المجمع ، وكان وقتها قد أتم دراساته . ولقد ترك لنا شوجر تفاصيل هامة عن المجمع . ناقش المؤمنون هناك بعض المسائل الخليلية ، ولكن الغاية الأساسية أمامهم كانت الصليبية الجديدة . ثم وقف المندوب البابوي ومن بعده بوهمند يبشران بالحملة ضد الكسيوس كومين ، وصادفت كلماتهما استجابة طيبة وحماساً بالغاً لدى فرسان أقطانيا<sup>(٧٢)</sup> .

ولقد أوضح مانسي (Mansi) أن بواتييه قد اختيرت لعقد هذا المجمع بالذات حيث إنها كانت قلب المقاطعة التي أرسلت بفرسانها في الصليبية «المشتومة» لعام ١١٠١ ، ومن ثم فإن العداء ضد بيزنطة كان موجوداً بوجه خاص في هذه المنطقة<sup>(٧٣)</sup> . ونطالع في الحولية المعروفة باسم Chronicon sancti Maxentii

Breve Chronicon Gemmeticense, in M. Bouquet, R.H.G., Paris, 1838-76, (٦٨)

Vol. XII p. 775; Eadmerus, Historia Novorum in Anglia, (ed. M. Rule), London, 1884 (Rolls Series), pp. 79-80.

Orderic, p. 213.

(٦٩)

Suger of St. Denis, Vita Ludovici Grossi, in P.L., Vol. CLII, col. 1266.

(٧٠)

Orderic, loc. cit.

(٧١)

Suger of St. Denis, op. cit., col. 1267; Chronicon Sancti Maxentii Pictavensis

(٧٢)

in P. Marchegay and Mabille, Chronique des Eglises d'Anjou, Paris 1869, p. 432

Mansi, Vol., XX, cols. 1205. - 7.

(٧٣)

عقد مجمعاً في إيطاليا في تلك الفترة لاستئثار الشعب للمشاركة في صليبية بوهمند هذه<sup>(٧٤)</sup>. وبعد الانتهاء من مجمع بواتييه قصد بوهمند إلى آنجو بحثاً عن أنصار آخرين من هذه المقاطعة، ويرجع أنه قد اتصل بالدوق جودفري مارتل الذي كان تفوذه ضالعاً في تلك المنطقة من غالطة<sup>(٧٥)</sup>. كذلك رافق بوهمند المندوب البابوي برزنو إلى الأجزاء البحتورية القريبة من فرنسا. وطبقاً لرواية إيكهارد فإن بوهمند قد واصل رحلته حتى أسبانيا<sup>(٧٦)</sup>. كذلك قام بزيارة جنوة، وبعدها عاد إلى أبو lia ، حيث أشرف على إتمام بناء الأسطول اللازم لنقل الحملة.

كانت حملة بوهمند ضد بيزنطة صليبية حقيقة، إذ بشر بها البابا ومندوبه برزنو تماماً مثلما فعل أوربان الثاني من قبل. وبقيام هذه الحملة إلى حيز الوجود يصبح للصليبية مفهوم آخر: إذ لم تعد الصليبية قاصرة على مهاجمة الجماعات الغير مسيحية، وإنما بات في الإمكان التبشير بالحركة ذاتها ضد مجتمعات مسيحية غير مرغوب فيها.

تقدر قوات بوهمند بحوالي ٣٤,٠٠٠ رجل<sup>(٧٧)</sup>. وفي سبتمبر ١١٠٧ حضر الأمير النورماندي صلاة القدس في كنيسة القديس نيقولا في مدينة باري، وبعدها يهم هو ورجاله نحو برندizi التي أήجروا منها قبلة الشواطئ الألبانية في ٩ أكتوبر من نفس العام. وكان جيش بوهمند يتألف أساساً من فرسان غالطة وإيطاليا، هذا إلى جانب ما تذكرة آناكومينينا عن المغاربة الإنجليز والحرمان والأسبان في الحملة<sup>(٧٨)</sup>. ويبدو أن رواية آناكومينينا صادقة على صورة الأسفار التي قام بها بوهمند في غرب أوروبا للدعائية لمشروعه الصليبي . . .

رسى بوهمند ورجاله عند مدينة آفلونا في ٩ أكتوبر ١١٠٧، ومنها

Chronicon Sancti Maxentii Pictavensis, loc. cit.

(٧٤)

A. Richard, op. cit., loc. cit.

(٧٥)

Ekkehard of Aura, Chronicon Universale, p. 233.

(٧٦)

Annales Barenses, in M.G.H.SS., Vol. V, p. 155.

(٧٧)

Alexiad, XII, ix, 2, p. 82.

(٧٨)

زحفوا على بترولا وميلوس واحتلوهما<sup>(٧٩)</sup>. وفي نفس الوقت هجم جائى ، آخر بوهمند ، على جيوش يوستاسيوس كامتيزس القائد البيزنطى وهزمها هزيمة ساحقة عند آربانوم<sup>(٨٠)</sup>. غير أن القائد كانتاكيوزينوس ، الذى كان قد استدعاى من اللادقية لمواجهة العدون الصليبي الجديد ، هجم على معسكر جائى. وأوقع به الهزيمة على مقربة من ميلوم<sup>(٨١)</sup>. وكانت هزيمة الصليبيين فى هذه الواقعة تامة ، إذ قتل فيها عدد كبير كما وقع عدد آخر منهم فى الأسر<sup>(٨٢)</sup>. ومن بين هؤلاء الأخيرين هيو وشقيقه ريتشارد والكونت باجان<sup>(٨٣)</sup>.

كان الأسطول البيزنطى ، أثناء الحرب تحت قيادة ماريانوس مافروكاتا وكالون ، الذى نجح فى قطع سبل الاتصال بين بوهمند وإيطاليا ، وذلك بسبب سيطرته اليقظة على بحر الأدریاتيك<sup>(٨٤)</sup>. لما وجد بوهمند نفسه محاصراً من البر والبحر ، ولما كانت أمون جيشه قد أوشكت على النفاد ، أرسل قوة قوامها ٦٠٠٠ محارب لنهب المناطق المجاورة لمدن آفلونا ، وهابريكو وكانيينا ، غير أن القائد كانتاكيوزينوس أوقع بهم الهزيمة على صفة نهر بوز<sup>(٨٤)</sup>.

وهنا فضل بعض البحنـد الصليبيـن الهـروب إلـى المعـسـكـرـ الـبيـزنـطـىـ بـعـدـ أـنـ تـبـيـنـواـ أـنـ فـشـلـ الحـمـلـةـ مـحـقـقـ<sup>(٨٥)</sup>. وـفـيـ تـلـكـ المـرـحـلـةـ مـنـ الصـرـاعـ حـاـوـلـ بـعـضـ النـبـلـاءـ الـمـشـارـكـينـ فـيـ الـحـمـلـةـ ، لـمـ تـبـيـنـواـ فـشـلـهـاـ ، إـقـنـاعـ بـوـهـمـنـدـ بـضـرـورـةـ فـتـحـ بـابـ الـمـفاـوضـاتـ مـعـ الـكـسـيـوسـ كـوـمـنـيـنـ ، الـذـىـ كـانـ قـدـ أـقـامـ مـرـكـزـ قـيـادـةـ جـيـوشـهـ فـيـ مـدـيـنـةـ دـيـاـبـولـسـ . وـلـمـ عـلـمـ الـكـسـيـوسـ بـهـذـاـ أـرـسـلـ إـلـىـ بوـهـمـنـدـ يـطـلـبـ مـنـهـ الـقـدـومـ لـمـقـابـلـتـهـ فـيـ مـعـسـكـرـهـ<sup>(٨٦)</sup>.

Tbid., XIII, ii, 1, p. 93. (٧٩)

Ibid., XIII, V, 2, p. 105; Albert of Aix, p. 651. (٨٠)

Alexiad, XIII, vi, 2, pp. 108-9. (٨١)

Ibid. (٨٢)

Ibid., XIII, vii, 5, p. 113. (٨٣)

Ibid., XIII, vi, 6, p. 110. (٨٤)

Ibid., XIII, viii, 6, p. 116. (٨٥)

Ibid., XIII, viii, 7, p. 117. (٨٦)

بعد مناقشات ومفاوضات مشحونة بغليان المشاعر تم الاتفاق بين الطرفين على توقيع معاهدة تعرف بمعاهدة ديارلوس ١١٠٨<sup>(٨٧)</sup>. وضمنت تفاصيل هذه الاتفاقية في وثقتين ، إحداهما من توقيع بوهمند والثانية صادرة من الكسيوس ليتبادلها . ولقد احتفظت لنا آنا كومينينا في مؤلفها الكسياد بوثيقة بوهمند في حين أن وثيقة والدها المعطاة لبوهمند قد فقدت ، غير أنه في الإمكان تلمس ما ورد فيها على ضوء ما جاء في رواية آنا وأيضاً في كتابات المصادر الغربية المعاصرة .

أعلن بوهمند بط LAN مفعول معاهدة القسطنطينية التي أبرمت بين الصليبيين وبيزنطة في عام ١٠٩٧ . وتعهد بأن يقيم من ذاته « رجلاً ملخصاً » لألكسيوس ولوالده ؛ وألا يحمل سلاحاً ضدّهما بل يقدم لنصرتهما على رأس كافة كنائصه إذا طلب منه ذلك ؛ ألا يحتفظ بأراضٍ تخص الإمبراطورية إلا ما يمنحه الإمبراطور منها . كما وافق بوهمند على الاحتفاظ بالأراضي التي قام بالاستيلاء عليها ، ولم تكن ملكاً لبيزنطة ، كقطع إمبراطوري له . تعهد القائد النورماندي كذلك بضمان تأدية سائر أفضاله في الحملة بمين الولاء والتبعية للإمبراطور الكسيوس قبل السماح لهم بالعودة إلى الغرب . وطلب منه أيضاً تطبيق نفس القاعدة على أفضاله في الشرق اللاتيني . صار لزاماً على بوهمند أن يعامل ابن أخيه تانكرد كعدو له حتى يرد لبيزنطة كل ما يخصها من أملاك في سوريا وكيليسكيا . وتعهد بوهمند أيضاً ألا يتعرض للمسلمين الذين يقطنون الأراضي الإمبراطورية بأى تهديد أو مضائق . أما عن كرسى البطريركية في أنطاكية فهو من حق كنيسة بيزنطة ، ولذا وجوب تنحية اللاتين عنه كليّة ليعين الإمبراطور له واحداً من إكليلروس أياصوفيا .

وفي مقابل هذا منح الإمبراطور « لرجله » بوهمند المداين والأراضي الآتية : أنطاكية وما حوطها ؛ ميناء سانت سيميرن ؛ دوكس وأعمالها ، لولوس ؛ فيريزيا وأعمالها ، سانت إيلياتس وما جاورها ؛ المناطق المتاخمة

لشيزار ؛ آرتھ ؛ جرمانيكابا ومدائنها ، جبل ماوروس وقلاعه والسهل المجاور عدا الأراضي التابعة للأميرين الأرميين ليو وتيدور . وكان على بوهمند أن يملك هذه الأرضي طيلة حياته للاستفادة بدخولها ، ولكن عند وفاته تؤول هذه الأرضي إلى الإمبراطورية البيزنطية . كذلك نص على استبعاد بعض المدائن والمناطق من إمارة أنطاكية وهي : بونداندم ، طرسوسة ، أدنة ، مامسترا ، وعينربا ، اللاذقية ، جبلة ، فالانيا ، ومارقلينا .

على أن الملحق التي أضيفت إلى هذه الوثيقة نتيجة لتوسلات بوهمند وبعض النبلاء من أتباعه نصت على تعويض بوهمند بإقليم كازلوتس الذي يشمل حلب وأراضيها ، إقليم لا بارا ومدائنها ؛ قونيوس ، رومانيا ، أراميزوس ، عاميره ، ساربانوس وعدة مناطق أخرى . وبالإضافة إلى هذه الإقطاعات . وعد الكسيوس بدفع ٢٠٠ رطل من عملة Michaels له . كذلك عدل النص . الخاص بإقطاع هذه الأرضي لبوهمند لدى الحياة فأعطى حق تعيين خليفته عليها .

وتحتتم الوثيقة بقسم بوهمند على خشبة الصليب وإكليل الشوك والمسامير المقدسة والحربة الإلهية على أنه سوف يوفى كافة التزاماته للإمبراطورية . وكان ذلك في حضور وشهادة موروس أسقف آمالفي ، الذي أرسله البابا نيابة عنه لحضور هذه المناقشات ، ورينارد أسقف تارانتو وبعض كبار رجال الدين المرافقين للحملة . كذلك كان شاهداً على هذه المعاهدة الخان بطرس والخان سمعان اللذان كانوا قد قدما نيابة عن ملك المجر الذي كانت ابنته قد زفت من قبل إلى يوحنا ابن الكسيوس كرمنين .<sup>(٨٨)</sup>

أما عن الوثيقة التي سلمها الكسيوس إلى بوهمند فتعدد الإقطاعات من الأرضي التي منحها الإمبراطور إلى الزعيم扭omanid . وفيها أيضاً ضمان وعهد من جانب الكسيوس لضمان أمن وحرية «الصلبيين والحجاج» الذين يعبرون

الأراضي البيزنطية .<sup>(٨٩)</sup> ولا شك في أن بوهمند كان قد تشدد في النص على هذه الفقرة في الاتفاقية لكي يبرر الأسباب التي من أجلها كان قد قدم لهاجمة بيزنطة . كذلك أنعم الإمبراطور على هذا الأمير المهزوم بلقب سباستوس<sup>(٩٠)</sup> .

ترك بوهمند جيشه في أيدي الوسطاء البيزنطيين وأبحر عائداً إلى أورانتو (سبتمبر ١١٠٨) . وطبقاً لرواية البرت من إكس ، فإن الصليبيين قد شعروا بشيء من الخذلان عندما انسل قائهم عائداً وتركهم دون جزاء كاف على خدماتهم العسكرية .<sup>(٩١)</sup> تفرقت الحملة بعد ذلك فقرر فريق منهم العودة كل إلى موطنها ، بينما أصرت الغالبية على مواصلة السير حتى أورشليم<sup>(٩٢)</sup> .

توفي بوهمند بعد فترة قصيرة من نهاية حملته الفاشلة ، وأغلب الظن أنه مرض فات في ٧ مارس ١١١١ وهو يعد لحملة جديدة للشرق ، لا يستبعد أنه كان من بين أهدافها الانتقام من بيزنطة<sup>(٩٣)</sup> .

كانت معاهدة ديارليس انتصاراً حاسماً لـالكسوس كوميني على بوهمند وحملته الصليبية . ولكن بوهمند لم يعش ليقوم بتنفيذ ما نص فيها من التزامات نحو بيزنطة ، وألت الأمور في أنطاكية إلى تانكرد ، ولذا بقيت الاتفاقية حبراً على ورق . والواقع أن هيبة تانكرد ونفوذه كانا قد وضعوا بشكل مرموق في الشرق اللاتيني : فقد انتصر على رضوان أمير حلب ، وضم آرتا واحتل آباما ما بين عامي ١١٠٤ ، ١١٠٦<sup>(٩٤)</sup> . وفي عام ١١٠٨ ، وبتأييد من أسطول بيزا ، استولى على مدينة اللاذقية . وفي نفس الوقت

Narratio Floriacensis p. 362; Albert of Aix p. 652.

(٨٩)

Alexiad, XIV, i, p. 141.

(٩٠)

Albert of Aix loc. cit. Orderic Vitalis, p. 242.

(٩١)

Alexiad, loc. cit., Orderic, p. 242.

(٩٢)

Bohemond was buried in the chapel adjoining the Cathedral of St. Sabinus at Canossa.

(٩٣)

Kemal ed - Din op. cit., p. 53.

(٩٤)

انقضى على مامسترا وعدة مدائن أخرى في إقليم كيليكيا<sup>(٩٥)</sup>.

كان الكسيوس كومين عازماً على قيادة حملة لاجبار تانكرد على احترام الاتفاق الذي أبرم بينه وبين بوهمند. ولكن الرأى العام في القسطنطينية كان معارضًا لفكرة الحرب آنذاك؛ ذلك لأن الشعب والجندي كانوا قد أنهكوا بسبب الحروب التي قام بها الإمبراطور منذ توليه العرش منذ عام ١٠٨١.

ولذا أشار عليه أعضاء السناتو والقادة بأن يلجأ إلى سلاح الدبلوماسية في مواجهة تانكرد بدلاً من اللجوء إلى القتال. وعليه قرر الإمبراطور فتح باب المفاوضات مع البدوين الأول ملك بيت المقدس؛ فأرسل تعليمات إلى يوماثيوس فيلوكايس - دوق قبرص - يطلب منه إعداد السفن والملاج اللازم لبعثة السفير بوتوميتس إلى أورشليم؛ «ذلك لأنه بدون مال وغير لا يمكن الحصول على شيء من جماعة اللاتين»، حسبما تروى الأميرة آنا كومينينا<sup>(٩٦)</sup>.

تسليم السفير البيزنطي الأموال الالزمة من حاكم قبرص وأبحر على رأس اثنى عشرة سفينه فوصل إلى طرابلس. كان برتراند حاكم إمارة طرابلس على خلاف مع تانكرد<sup>(٩٧)</sup> وهذا الخلاف بين خليفة رايوند سان جيل وبين الأمراء النورمان في أنطاكية كان أمراً طبيعياً. ومن المعروف، زيادة على ذلك، أن برتراند كان قد قام بأداءيمين الولاء والطاعة للإمبراطور الكسيوس عن الأرضى التي كانت تحت يده<sup>(٩٨)</sup>. ولذا كان برتراند على استعداد لمعاونة بوتوميتس في مهمته ضد تانكرد. سلم السفير البيزنطي مبلغاً ضخماً من المال إلى أسقف طرابلس لحين عودته من زيارته للبدوين ملك بيت المقدس.

ولقد أمضى القائد البيزنطي جزءاً من عام ١١١٢ في صحبة الملك اللاتيني، ساعده خلالها في معاركه ضد أعدائه<sup>(٩٩)</sup>. غير أن السفير البيزنطي أخبر

Alexiad, XII, ii, 2, p. 57.

(٩٥)

Ibid. XIV, ii, 12 - 13, pp. 152 - 53.

(٩٦)

Ibid. XIV, ii, 6, p. 149.

(٩٧)

Ibid.

(٩٨)

بلدوين بأن الإمبراطور كان في طريقه إلى أنطاكية ، على رأس حملة وصلت بالفعل إلى سلاوقية . ولسوء حظ السفير وصلت فجأة سفينة بيزنطية كشف ربانها لبلدوين أن روایة السفير لا أساس لها من الصحة . ونتج عن هذا أن غضب الملك الصليبي من السفير البيزنطي وأعلن أنه لم يعد يثق في وعود بيزنطة .

أسرع بوتوميتس عائداً إلى طرابلس حيث وجد أن برتراند قد مات وأن خلفه بونس رفض رد المال الموعود لدى أسقف المدينة إليه. ومع أنه هدد بقطع المuron من قبرص إلى طرابلس ، إلا أن الأسقف وسيده الجديد لم يكتفى بهذا التهديد ، وضاعت الأموال على الخزانة البيزنطية .

توفي تانكيرد في ١٢ ديسمبر ١١١٢ ، وبموته زالت عقبة كؤود من طريق بيزنطة ، غير أن الكسيوس كومين لم يكن في موقف يساعد له على القيام بحملة عسكرية على سوريا . ولذا فقد لجأ إلى أسلوب الدبلوماسية ؛ هذه المرة مع البابوية . وهذا الاتجاه الجديد في السياسة البيزنطية الخارجية كان يهدف إلى نفي ما تواتر من إشاعات ضد بيزنطة في غرب أوروبا ، وفي نفس الوقت إلى عقد معاهدات ودية مع جمهورية بيزا صاحبة الأسطول الضخم في البحر الأبيض المتوسط .

و الواقع أن جمهورية بيزا لعبت دوراً كبيراً في الحركة الصليبية، وأيضاً في النشاط العدائي ضد الإمبراطورية البيزنطية . ولعل أشهر ما حدث في هذا الصدد ما أقدم عليه دامبرت – رئيس أساقفة بيزا – عندما أوفد مندوباً بابويًا للشرق ؛ إذ قدم معونة أسطوله لبوهمند في حصاره لمدينة اللاذقية التي كانت تحت حكم بيزنطة . وفي أواخر عام ١١١١ أغساد الأسطولان [البيزنطي والجنوبي ضد شواطئ الأرضي] البيزنطية <sup>(١٩)</sup> .

في أكتوبر ١١١ وقع اتفاق بين جمهورية بيزا وبيزنطة ، تعهدت بمقتضاهما الجمهورية أن تويد بيزنطة ضد أعدائها . وفي مقابل ذلك وعده

الإمبراطور بتسهيل مهمة بيزا في نشاطها البحري تجاه سوريا ، كما تعهد بحماية البيزantين في إمبراطوريته من أي ظلم قد يحل بهم . وبرهانًا على حسن نيته وعد بتقديم هبة من الفضة والحرائر إلى رئيس أساقفة وكاتدرائية الجمهورية . كما شخص مرسى خاصًا في ميناء القسطنطينية لنشاط السفن البيزنطية . كذلك وعد بتخصيص حي بأكمله لإقامة البالية البيزنطية في العاصمة البيزنطية . كما سمح لهم بركن خاص في كنيسة أيا صوفيا لأداء شعائرهم الدينية في حرية تامة . كذلك خصص لهم مقاعد خاصة في الميدروم . كما تعهد الإمبراطور بإنصاف كل مواطن بيزنطي يحل به لحجاف ما في إمبراطوريته<sup>(١٠٠)</sup> .

ويجب تفسير سياسة المودة التي نهجتها الإمبراطورية البيزنطية تجاه جمهورية بيزا على أنها حلقة في سلسلة اتجاه ودى جديد في العلاقات مع البابوية . ولقد ساعدت الظروف في غرب أوروبا ألكسيوس في محاولته التقرب من روما . ذلك أن البابا باسكال الثاني كان قد سجن على يد الإمبراطور الألماني هنري الخامس في ١٢ فبراير ١١١١ ، وفي ١٣ أبريل من نفس العام أجبر البابا على تقويمه إمبراطوراً . <sup>(١٠١)</sup>تابع الكسيوس تلك الأحداث باهتمام زائد ، وشجعه على المضي في التقارب من باسكال الثاني وفاة بوهمند وروجر بورسا في عام ١١١١ ، مما ترك جنوب إيطاليا دون سيد مرموق . وكان الإمبراطور ، مثله مثل أسلافه من أباطرة بيزنطة ، ينظر بحسنة إلى الأقاليم الجنوبية الإيطالية الضائعة التي انتزعها النورمان من الإمبراطورية ؛ ويتنمى أن تناح له الفرصة لاسترجاعها . وفي يناير ١١١٢ كتب ألكسيوس إلى جيرارد من مارزيين ، مقدم دير مونت كاسينو ، وألح في رسالته إلى سجن البابا ، معبرًا عن أسفه ومواساته لهذا الحادث المروع<sup>(١٠٢)</sup> . وكان سفراء الإمبراطور الذين سلموا هذه الرسالة لمقدم

W. Heyd, *Histoire du Commerce dans le Levant* (French trans. by Furcy (١٠٠)  
Rayroud), 2 Vols., Leipzig 1885 (2nd reimp. 1936) I pp. 193 - 4.

Gotifredi Viterbiensis "Pantheon" in M.G.H.SS. Vol. XXII p. 220. (١٠١)  
Riant, *Inventaire Critique* p. 246. (١٠٢)

الدير يحملون رسالة أخرى موجهة إلى شعب روما<sup>(١٠٣)</sup>. عبر ألكسيوس في رسالته إلى شعب روما عنأسفه الشديد لما أزّله الإمبراطور الألماني من هوان وإذلال بالبابا باسكال الثاني. كما امتدح الشعب الروماني لصلابة مقاومتهم لحملة هنري الخامس. وقد أعرب ألكسيوس في ختام رسالته عن رغبته واستعداده لقبول التاج الغربي لنفسه أو لا بنه؟ وذلك إذا أيد الرومان هذا المطلب. وقد أرسل ألكسيوس أيضاً رسالة إلى البابا باسكال الثاني تحمل نفس المعنى. ويرجع أن هذه الرسالة هي التي حدث بالبابا إلى أن يعلن زدمه على استكانته وخضوعه لهنري الخامس كما استنكر على نفسه أن أقدم على تتوبيه إمبراطوراً<sup>(١٠٤)</sup>.

وفي مايو ١١١٢ أرسل أهل روما سفارة إلى ألكسيوس لمناقشته مقترحاته بقصد التاج. ويبدو أن الإمبراطور وعد بالقدوم إلى روما في صيف ١١١٢ بهدف الوصول إلى اتفاق نهائى مع الشعب الروماني؛ غير أن مرضًا مفاجئاً ألم به حال دون وجيده إلى روما. ولهذا فقد أرسل معبراً عن اعتذاره في خطاب إلى البابا باسكال الثاني<sup>(١٠٥)</sup>.

واصل باسكال الثاني المفاوضات مع بيزنطة لا من أجل توحيد الإمبراطورية أو الإنعام بالتاج الروماني على ألكسيوس، وإنما تلبية للرغبة التي كان الإمبراطور قد أبدأها في السعي نحو توحيد الكنائس. وإنصافاً للحق يجب التأكيد هنا بأن الكسيوس حاول استغلال مسألة وحدة الكنائس من أجل تحقيق الأحلام التي كانت تداعب خياله في أمر التاج الروماني. والدليل على ذلك أن هابرياركية أيها صوفيا ما كانوا يعطفون على مشروع الكسيوس الكنسى لأن الكنيستين البيزنطية والرومانية كانتا قد قطعتا شوطاً كبيراً في تعميق الفجوة التي كانت تفصل بينهما منذ شقاق ١٠٥٤. ويجب أن

Peter the Deacon, Chronica Monasterii Casinensis p. 785.

(١٠٣)

Gotifredi Pantheon p. 275; see also P. Jaffé, Regesta Ponificum

(١٠٤)

Romanorum, 6310.

Riant, op. cit., p. 136.

(١٠٥)

نلاحظ أيضاً أن مجلس الكرادلة الروماني كان ينظر إلى أحالم الكسيوس في شيء من السخرية ، ذلك لأنه كان يطالب بالمستحيل . وهذا عندما كتب البابا باسكال الثاني إلى الكسيوس في عام ١١١٥ جاءت رسالته حالية من أية إشارة إلى مشروع الكسيوس السياسي وإنما انصب الكلام كله على وحدة الكنيستين . أوضح البابا في خطابه أنه يدرك الصعوبة التي تحول دون الوحدة الكنائية وذلك بسبب الخلاف بين اليونانيين واللاتين ، والتي يعزو البابا السبب في نشوئها إلى عناد وتمرد بطاقة بيزنطة . ولذا فقد أكد أن السبيل الأوحد لتحقيق تلك الغاية الفالية على البابا لن يتأنى إلا إذا اعترف بطريق القسطنطينية بإمارة البابا — خليفة بطرس الرسول — على سائر الكنائس الأخرى . وواضح من كلام البابا أنه يصر — تماماً مثلما فعل آسلافه من قبل — على خضوع كنيسة بيزنطة للسلطان البابوي<sup>(١٠٦)</sup> .

إن حجة باسكال الثاني وزاعمه القاعدة على النظرية البطرسية وعلى هبة قسطنطين العظيم المزيفة توضح أن السبيل إلى الوحدة بات أمراً مستحيلاً ؛ ذلك لأن بطريكته بيزنطة لم تكن لتقر هذه المزاعم الرومانية . كما أن كلاً من الطرفين كان ينظر إلى الآخر على أنه قد انحرف عن العقيدة القوية . وقد حدث في عام ١١١٦ أن عرج بطرس كريزولان ، رئيس أساقفة ميلان ، أثناء سفره من بيت المقدس إلى غرب أوروبا ، على مدينة القسطنطينية . وهناك أذاع مقالة كتبها عما أسماه « خطاء اليونان في العقيدة »<sup>(١٠٧)</sup> . فانبرى له يسحاتيوس أسقف نيقيا ففند مزاعمه وهاجم عقيدة روما وطقوسها<sup>(١٠٨)</sup> .

في هذه المرحلة توقفت المفاوضات بين بيزنطة وروما ، وأدرك الكسيوس

P.L. Vol. CLXIII cols. 388 - 9.

(١٠٦)

P.G. Vol. CXXVII col. 911.

(١٠٧)

Bibliotheca Graeca, XI, pp. 622 seq.

(١٠٨).

كومينين عبّث محاولته وجهوده لصالحة اللاتين سواء على المستوى السياسي أو على الصعيد الكنسي . والواقع أن غرب أوربا اللاتيني – مدفوعاً بدوافع الكراهية الدفينة لكل ما هو ي Bizantin – كان قد قام بمحاولات منذ بداية الصليبية الأولى للهجوم والهجوم على الإمبراطورية الشرقية . ولو لا تلك الدبلوماسية والمهارة العسكرية التي تفرد بها الكسيوس كومينين لكان ممكناً أن تدمر القسطنطينية في عام ١١٠٧ ، إن لم يكن قبل ذلك بعشرين عاماً .

## الفصل السادس

### علاقات بيزنطية باللاتين في عهد يوحنا كومنين

( ١١٤٣ - ١١١٨ )

أولاً : الموقف تجاه الإمارات الصليبية

ثانياً : العلاقات مع دولات إيطاليا

ثالثاً : البلاط البيزنطي والبلاط الألماني

رابعاً : يوحنا كومنين والبابوية

توفى الكسيوس كومنين في عام ١١١٨ فخلفه على العرش ولده يوحنا الذي كان يبلغ الثلاثين من العمر . ولقد أطلق المعاصرون على يوحنا كنية « المراكشي » بسبب سواد عينيه وسمة بشرته وشعره . وكان البازيليوس الجديد على خلق جميل ، كما وأنه أجبر رجال بلاطه على التخلص عن حياة الرغد والفساد التي اعتادوها .<sup>(١)</sup> ولقد كان يوحنا جندياً ممتازاً فقد جيشه من نصر إلى نصر ودخل العاصمة في مواكب الظافرين .

تزوج يوحنا من الأميرة بيريسكا ابنة لادلاس ملك المجر عندما كان في العشرين من عمره ؛ غير أنها توفيت في عام ١١٣٤ تاركة له ثمانية أطفال : أربعة أولاد وأربع بنات : الكسيوس ، وأندرونيكوس ، وإسحق ، وعمانويل ثم ماريا ، وأنا ، وثيودورة ، ويدكيا . وفي عام ١١٢٢ أشرك يوحنا ابنه الأكبر الكسيوس معه في الحكم ، ولكن هذا توفي قبل والده بعام ( ١١٤٢ ) . كان يوحنا محاطاً بجماعة من المخلصين لشخصه ، وعلى رأس هؤلاء كان أوكروش ، وإسحق كومنين ، وجريجوري تارونيتس ، واللوغوثيت

Nicetas Choniates, Historia "Of John Comnenus" (Bonn ed. 1835), II, (١)  
pp. 8 - 9.

جريجوري كاماتيروس . وكان أوكرزوس أهم هؤلاء الأعوان ، وهو تركي الأصل ، وكان قد وقع أسرآ في يد الصليبيين عند سقوط نيقايا فأسلموه هدية لـألكسيوس كومين ، الذي تعهد بالرعاية ورباه مع ولده يوحنا . ومن هنا نشأت الصداقة المتنية بين الاثنين ، وعندما انتهى يوحنا الحكم عين صديقه المخلص هذا « كبيرا للأعون » وهو من أعلى المناصب الحكومية في الإمبراطورية البيزنطية .

تميز عهد يوحنا كومين بالطابع العسكري ، إذا كان الجيش شاغله الأكبر . وكان يقضى جل وقته بين أفراد قواته المسلحة يدرّبهم ويلقّهم فنون الحرب والنظام . وقد أوضح المؤرخ البيزنطي نيكيتاس كونياتس أن الجيش في عهد يوحنا قد قسم إلى فرق متعددة ، تضم كل منها أبناء جنس معين دون غيرهم ، فهناك الفرقة المقدونية ؛ والكلتية ، والبشتق ؛ والترك .

#### أولاً : موقف بيزنطة تجاه الإمارات الصليبية :

كان يوحنا كومين مصرًاً منذ بداية حكمه على استرجاع الأرضى التي احتضنها الأمراء الصليبيون من الإمبراطورية البيزنطية ؛ ولذا فإن قصارى جهوده قد انصبت على إمارة أنطاكية . ذلك لأنه وفق معاهدة دبابولس (١١٠٨) التي أبرمت بين بوهمند والكسيوس كومين قد اتفق على تبعية أنطاكية لبيزنطة على أن يقطعها الإمبراطور البيزنطى للأمير النورمانى . غير أن بوهمند مات في عام ١١١١ ، ورفض ابن أخيه تانكرد احترام المواثيق التي وقعتها عمه مع الإمبراطور البيزنطى . وفي عام ١١١٢ توفي تانكرد فخلفه الأمير روجر حاكماً على الإمارة . وفي عام ١١١٩ أرسل يوحنا كومين سفيره رافائيلوس إلى بلاط روجر لطلب يد ابنته للزواج من أحد الأمراء من الأسرة الحاكمة في القسطنطينية . وقد رافق السفير البيزنطى الأمير النورمانى في سربه ضد الأمير الغازى صاحب ماردين ، ولكن روجر قتل في المعركة ، بينما وقع

السفير أسيرا<sup>(٢)</sup> . وبعد أن افتدى رافندينوس من الأسر قصد إلى أنطاكية من جديد لمواصلة مباحثاته التي أوفد من أجلها من قبل الإمبراطور . غير أنه وبعد الأمور قد تبدلت تماماً في الإمارة : فبعد وفاة روجر آلت الولاية إلى وصاية بولدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي كان يسعى إلى تزويج ابنته من الأمير النورماندي القاصر بوهمند الثاني .

لذلك سارع رافندينوس إلى أورشليم ليطلب يد ابنة الملك الصليبي للزواج من أحد الأمراء من آل كومين . رحب الملك بهذا العرض ، وعاد السفير إلى القسطنطينية ليفضي بنتائج بعثته ، ولكن هذا الزواج لم يتم . ولا نكاد نعرف السبب الحقيقي وراء ذلك ؟ اللهم إلا ما ورد عبراً في حولية الكاتب السوري أبوالفرج الذي يروى أنه في عام ١١٢١ عرض يوحنا كومين على الأمير الغازى تزويده بقوة من ٣٠,٠٠٠ رجل لمقاتلة الفرنجة في سوريا<sup>(٣)</sup> . ولن صح هذا فلا بد وأن هذا التقارب بين الإمبراطور البيزنطي والأمير المسلم قد صدر الدوائر الصليبية في بلاط بيت المقدس ، مما أدى ببلدوين الثاني إلى أن يغض النظر عن مشروع الزواج هذا .

على أية حال تزوج الأمير الأنطاكي بوهمند الثاني من أليس ابنة الملك الصليبي بلدوين الثاني ، ولكن حدث في عام ١١٣٠ أن قتل الأمير الشاب في حربه ضد الأمير الغازى . راحت الأرملة الشابة أليس تسعى بعد مقتل زوجها إلى السيطرة الكاملة على شئون الحكم خاصة النظر عن الحقوق الشرعية لطفليهما كونستانتن . غير أن والدها – بلدوين الثاني – وقف في وجهها ، ولكن بعد وفاته ( ٣١ أغسطس ١١٣١ ) واصلت أليس السعي لتحقيق آمالها . ولكن الملك الجديد لبيت المقدس – فرulk – تدخل في الأمر وأجبرها على الهروب إلى اللاذقية . ثم خطب كونستانتن إلى رايموند من بواتييه الذي

Kemal ed - Din op. cit., p. 622.

(٢)

Abu'l Faradj, Syrian Chronicle, (ed. Bruns and Kirsch), II, p. 307.

(٣)

كان وقتها في بلاط هنري الأول ملك إنجلترا<sup>(٤)</sup>. ومع هذا لم تيأس أليس فعادت إلى أنطاكية وفتحت باب المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطي، ثم عرضت يد ابنتها - كونستانتز - لزواج من عمانويل ابن يوحنا كوميني. ولكن وصول رaimond إلى أنطاكية والتأييد الذي لقيه من جانب بطريركها رأول من دومفرونت، سهل عليه مهمة الزواج من الأميرة الصغيرة كونستانتز؛ وهذا اضطررت الأرملة المهزومة إلى أن تهرب ثانية إلى اللاذقية<sup>(٥)</sup>.

قويل زواج رaimond من كونستانتز الأنطاكية بشعور من الغضب شديد في البلاط البيزنطي. واعتبر البازيليوس هذا الفعل تحدياً صارخاً من بارونات أنطاكية لشخصه؛ إذ أنه وفق معااهدة ديابولس (١١٠٨)، كان لزاماً على البارونات مشاورته سيدهم الإقطاعي - الإمبراطور البيزنطي - في أمر على هذه الدرجة من الخطورة في مستقبل الإمارة ذاتها. ومن هنا راح يوحنا كوميني يتحين الفرصة المواتية لتقليل أظافر هؤلاء الخارجيين على طاعته وحقوقه المشروعة.

\*\*\*

في هذه المرحلة كان نجم الأمير عماد الدين زنكى حاكم الموصل آخذًا في الصعود. ولقد وهب هذا القائد نفسه لمقاتلة الصليبيين في سوريا، يؤيده في هذا السلطان السلجوقي محمود وال الخليفة العباسي المسترشد بالله في بغداد. والتلف الأماء المسلمين حول هذا الزعيم في الحرب المقدسة ضد الفرنجية: فانضم إليه في الكفاح شرف الدين سوار صاحب حلب والأماء شمس الملك إسماعيل وشهاب الدين محمود. كانت العصبة الإسلامية جادة العزم في هذه الجولة على إحرار النصر على الإمارات اللاتينية في الشام: في عام ١١٣٦ دمرت اللاذقية؛ وفي ١١٣٧ اشتد الهجوم على طرابلس. وهكذا باتت الإمارات الصليبية مهددة بالانهيار.

كان هذا الموقف مشجعاً للإمبراطور يوحنا كوميني لأن يتدخل لاسترجاع

William of Tyre, XIII, xxvii, p. 599.

(٤)

p.Ibi

(٥)

إمارة أنطاكية إلى حوزة إمبراطوريته . وبينما كان يعد العدة لحملته على سوريا جاءت الأنباء بأن فولك الملك الصليبي لبيت المقدس قد لقي هزيمة بالغة على يد الأمير زنكي . ولقد فر ملك بيت المقدس وفلول قواته بعد الهزيمة ، ولما طارده الأمير أرسن يستتجد بريموند حاكم أنطاكية . على أن أخبار تحركات يوحنا كوميني صوب أنطاكية وضعت رaimond في موقف حرج للغاية . فمن ناحية لم يكن يود أن يبرح إمارته في تلك اللحظة فيتمكن عدوه البيزنطي من الاستيلاء عليها ، ومن جانب آخر كان عليه أن يلبي نداء ملك بيت المقدس واستنجاده به . ولذا فقد وكل إلى بلدوين حاكم ماراش وإلى جوسلين الثاني . حاكم الرها مهمة حماية إمارته ، وأسرع ليقدم العون لملك بيت المقدس . على أن عماد الدين زنكي أمام هذه التعزيزات القادمة من أنطاكية آثر التفاوض مع فولك ؛ ومن ثم تمكّن رaimond من العودة إلى إمارته .

لما رجع Raimond علم أن يوحنا كوميني قد قدم على رأس حملة ضخمة وأقام معسكراً على مقربة من أنطاكية ، ولذا فقد أيقن خطورة موقفه فأثار التفاوض معه . قصد Raimond إلى مقر قيادة الحملة البيزنطية وهناك أقسام يمين الولاء والطاعة للإمبراطور ، كما وافق على تنصيب بطريرك بيزنطى في أنطاكية بدلاً من اللاتيني الذي كان يجلس وقهاً على كرسى البطريركية . وبعد ذلك رفع العلم البيزنطى على قلعة مدينة أنطاكية . وفي مقابل هذا وعد يوحنا كوميني معاونة Raimond ضد أعدائه .

على أن المؤرخ العربي كمال الدين يروى أن الإمبراطور البيزنطى ، أثناء عودته من أنطاكية ، فتح باب المفاوضات مع عماد الدين زنكي ، وبأنهما تبادلاً أهدافاً ، وبأن يوحنا أحاطه علماً بمشروعه في إعداد حملة ضد الأمير ليو الأرميني <sup>(٦)</sup> .

وفي أواخر عام ١١٣٧ هاجم كوميني عدوه الأرميني وأخضعه لسلطانه .

وبعدها انضم بجيشه إلى فرق الفرنجة في سوريا تحقيقاً لوعده لرايموند حاكم أنطاكية . وتمكنـت الجيوش البيزنطية اللاتينية من الاستيلاء على مدينة بيزاو والأثارب ، ثم هاجمت معرة النعمان وكفرتاب . وبعد هذه الانتصارات المتتالية زحفت الجيوش المتحالفـة قبلة وادي الأورونـيز لحصار مدينة شيزار ، ولكن المدينة قاومـت وأضطررتـ العدو إلى فك هذا الحصار . عاود الصليبيـون وحلفاؤـهم حصارـ المدينة مـرة ثانية ، ولكن الإمبراطور قـرر فجأة رفعـ الحصار . والتـقهـر بـرجاله ؛ الأمر الذي أثـار غضـب القـادة الـلاتـين .

اختـلـفت تـفسـيرـات المؤـرـخـين المـعاـصرـين فـي تـعلـيل مـوقـف يـرـحـنا هـذـا :

فـابـنـ الأـثيرـ يـتـحدـثـ عن قـدـومـ عـمـادـ الدـينـ زـنـكـىـ عـلـىـ رـأـسـ حـمـلةـ لـإنـقـاذـ شـيـزارـ ،ـ إـلـىـ جـانـبـ جـهـودـهـ فـيـ بـثـ الفـرـقةـ بـيـنـ الإـمـبرـاطـورـ الـبيـزـنـطـيـ وـالـأـمـرـاءـ الـصـلـيـبـيـيـنـ (٧)ـ .ـ

وـيـشـيرـ كـمـالـ الدـينـ إـلـىـ الـأـنـبـاءـ الـتـيـ وـرـدتـ عـنـ قـدـومـ حـمـلةـ ضـخـمةـ تـحـتـ إـمـرـةـ

ـقـرـهـ أـرـسـلـانـ بـنـ دـاـوـدـ بـنـ سـقـمانـ بـنـ أـرـطـقـ ،ـ أـمـيرـ حـصـنـ كـيـفـاـ ،ـ وـيـقـدرـ نـفـسـ

ـالـمـصـدـرـ عـدـدـ رـجـالـ الـحـمـلةـ الـتـيـ عـبـرـ الـفـرـاتـ بـخـمـسـيـنـ أـلـفـاـ (٨)ـ .ـ أـمـاـ مـيـخـائـيلـ

ـالـسـوـرـيـ فـيـعـلـمـنـاـ أـنـ رـسـالـةـ وـصـلـتـ إـلـىـ الإـمـبرـاطـورـ الـبـيـزـنـطـيـ تـحـذرـهـ مـنـ مـخـطـطـ

ـمـسـعـودـ سـلـطـانـ قـوـيـةـ الـدـىـ هـاجـمـ أـدـنـةـ فـيـ إـقـلـيمـ كـيـلـيـكـياـ (٩)ـ .ـ أـمـاـ المـؤـرـخـ

ـوـلـيمـ الصـورـيـ فـيـروـىـ أـنـ إـبـانـ الـحـربـ كـانـ الإـمـبرـاطـورـ الـبـيـزـنـطـيـ يـقـاتـلـ بـيـسـالـةـ

ـفـيـ حـيـنـ أـنـ حـلـيفـهـ رـاـيمـونـدـ وـجـوـسـلـيـنـ كـانـاـ مـتـقـاعـسـيـنـ بـلـ وـرـاحـاـ يـضـيـانـ الـلـيـلـ

ـوـالـنـهـارـ فـيـ لـعـبـ الـمـيـسـرـ .ـ وـيـضـيـ المـؤـرـخـ فـيـقـولـ بـأـنـهـ رـغـمـ تـحـذـيرـاتـ يـوـحـنـاـ

ـالـمـتـكـرـةـ لـهـمـاـ فـيـهـمـاـ لـمـ يـقـلـعـاـ عـنـ هـذـاـ السـلـوكـ الـمـشـينـ (١٠)ـ .ـ وـيـتـضـحـ مـنـ روـاـيـةـ

ـوـلـيمـ الصـورـيـ أـنـ الإـمـبرـاطـورـ الـبـيـزـنـطـيـ رـأـىـ بـشـاقـبـ نـظـرـهـ أـنـ حـلـيفـهـ الـصـلـيـبـيـيـنـ :

ـكـانـاـ يـدـبـرـانـ إـلـقـاءـ عـبـءـ الـحـربـ عـلـيـهـ وـعـلـىـ رـجـالـ الـبـيـزـنـطـيـيـنـ ،ـ وـمـنـ ثـمـ فـقـدـ

Ibn al-Athir op. cit., pp. 427 - 28.

(٧)

Kemal ed-Din, p. 678.

(٨)

Michael the Syrian, III, p. 245.

(٩)

William of Tyre, XV, ii, p. 657.

(١٠)

هـ طرأ تغيير كبير في سياسته تجاههما . والواقع أن مباحثات سرية كانت تدور بين البحانيين البيزنطي والإسلامي ، وافق أمير شيزار على دفع مبلغ كبير من المال ليوحنا كوميني كأهداه ببعض خيول عربية وأقمصة حريرية ومايده مطعمة بالصدق ، وأهم من هذا رد إلية الصليب المطعم بالياقوت الذي كان الآتراك قد استولوا عليه من أسيرهم الإمبراطور رومانوس دايووجينيس في واقعة ملاذ كرد عام ١٠٧١<sup>١١</sup> .

بعد هذا يم يوحنا كومين صوب مدينة أنطاكية في زيارة رسمية لها ، فقوبل على أبوابها بجماعة أكليروس المدينة وعلى رأسهم بطريركها البيزنطي . ولقد وزع الإمبراطور المدايا والصدقات على فقراء المدينة . وبعد أن استقر وحاشيته في القصر الخصص لمقامه أرسل يستدعى رaimondus وجوسelin وجهاء اللاتين في الإمارة مقابلته . ثم طلب من رaimondus تسليميه قلعة المدينة والسماح لكتائب البيزنطية بدخول المدينة والخروج منها دون عقبات . كذلك طلب منه يوحنا أن يوفيه حقه كتابع إقطاعي يدين له بالولاء<sup>(12)</sup> . على أن طحة كومين و موقفه المتشدد أزعجت السلطات الصليبية في أنطاكية ، ولكنهم لم يكونوا يستطعون رد طلب له في تلك الآونة . ولكن جوسelin تدخل وطلب من البازيليوس لإمهال Raimondus للتشاور مع أقصائه في الأمر . ووافق يوحنا على هذا المطلب على ألا يبرح رaimondus القصر الإمبراطوري<sup>(13)</sup> . وبينما وقع Raimondus في المصيدة كان صديقه جوسelin يدبّر مؤامرة لخداع العاهم البيزنطي .

أسرع جوسلين ينشر في ربوغ المدينة « تلك الشروط المهينة والمتغيرة » التي أملأها كومين على ريموند : وراح أعنانه يدقون طبول الحرب ؛ وتسلح غوغاء الصليبيين وزحفت جماهير غفيرة منهم صوب قصر الإمبراطور تطالب

Kinnamos, op. cit., I, viii, pp. 19 - 20.

14

William of Tyre, pp. 659 - 660.

(14)

*Ibid.*, p. 661 : "Principe in paleis permanentem etiam in aliis." — *ibid.*

1

بالانتقام لشرف الالاتين المهيض . وهنا اندفع جوسلين إلى حضرة الإمبراطور في غرفته الخاصة دون مراعاة لقواعد البروتوكول المتبعة وألقي بنفسه عند قدميه يقص عليه كيف أن الجماهير باتت تشير إليه بأصابع الاتهام دامغين إيماه بالحقيقة لأنه مزمع على بيع إمارة أنطاكية للإمبراطور البيزنطي . وراح هذا الممثل البارع يقص على الإمبراطور أن الغوغاء في هتافاتهم طالبوا بقتل جوسلين ذاته . ولقد بلغ الدهاء بهذا الأمير الصليبي إلى حد أنه كان قد دبر أيضاً مسيرة غاضبة من أتباعه الذين انقضوا على عسكر البيزنطيين المقيمين داخل المدينة وقتلوا عدداً منهم ، كما تعقب هؤلاء ذلك النفر منهم الذين لاذوا بالفرار حتى بوابات القصر الإمبراطوري في المدينة<sup>(١٤)</sup> .

أدرك يوحنا كوميني أنه أمام عدو ماكر وأنه ورجاله محاطون بغوغاء لا يرحم . ولذا فقد استدعى رaimond إلى مقامه وأعرب له عن قراره في التخلص عن كافة طلباته السابقة منه وحثه على أن يهدى الجماهير المتظاهرة في شوارع المدينة وأمام القصر . كما أعلن له عن عزمه على مغادرة أنطاكية في اليوم التالي مباشرة . وسمح يوحنا للعاصفة بأن تمر في هدوء ولكنه كان موقناً أن الزمرة الصليبية الأنطاكية قد تآمرت ضده هذه المرة ، ومن ثم فقد ترك هذا في قلبه مراارة لم ينسها . حقيقة أن رaimond وجوسلين وبعض البارونات الفرنجية قاماً بزيارة معسكر الإمبراطور خارج أسوار المدينة بعد ذلك ، وأن الإمبراطور صرخ لهم بوعود غامضة لمساعدتهم في حملة ضد حلب ، ولكن في حقيقة الأمر كان يتربّط الاحظة المناسبة لعقاب هذين الأميرين بسبب مؤامرتهم الدنئية ضده ورجاله .

\* \* \*

كانت حملة يوحنا كوميني سنة ١١٣٧ على سوريا فاشلة تماماً ، ولذا فقد قرر عدم التدخل في الصراع الذي احتدم بين الفرنجية وعماد الدين زنكي ، وترك الأمير المسلم ليقلم أظافرهم . في ٢٦ سبتمبر ١١٣٨ فتح زنكي مدينة

بيزاو وف العاشر من أكتوبر استولى على الأتارب ؛ وف أبريل ١١٤٢ قام أمير حلب بهجوم شامل على الجيوش الصليبية على ضفاف الأورونتس وألحق بها هزيمة ساحقة . وفي نفس الوقت انقض أهالى عسقلون على كتائب الملك فولك وهزموها هزيمة نكراء . وبذل بات كيان الإمارات الصليبية في الشام مهددا بخطر داهم . وهنا توجه جوسلين وراموند بتوسلاهما إلى يوحنا كومينين يطلبان منه النجدة . وفي صدد الحديث عن أحداث تلك الفترة يطالعنا المؤرخ البيزنطى يوحنا كناموس أن الإمبراطور كان ينوى إنفاذ مشروع جديد مؤداه بناء دولة جديدة تضم أناضوليا وأنطاكية وجزيرة قبرص يوكل أمر حكمها لابنه الأصغر عمانيويل كومينين<sup>(١٥)</sup> . وكان هذا يعني سلخ إمارة أنطاكية من حوزة اللاتين لتكون اللبنة الكبرى للدولة عمانوييل المزعوم لإنشاؤها . كذلك يتحدث نفس المصدر عن نية الإمبراطور في مد نفوذه حتى الفرات بغية عزل سلاجقة آسيا الصغرى عن حلفائهم في ميزوبوتاميا<sup>(١٦)</sup> .

وفي عام ١١٤٢ كان يوحنا كومينين على أبهة الاستعداد لقيادة حملته إلى الشام ؛ وبينما يزعم المؤرخ البيزنطى نيكيتاس كونياتس أن البازيليوس كان قد أعلم أمير أنطاكية الصليبي بنباً قدومه<sup>(١٧)</sup> ؛ نجد وليم الصورى يؤكد أن الإمبراطور البيزنطى تكتم أخبار حملته بقصد مفاجأة الأمير الأنطاكي . ورواية الأسقف الصورى تبدو أكثر معقولية وقبولاً عن قصة كونياتس ، لأنها تتواافق وخطط كومينين<sup>(١٨)</sup> .

ضرب كومينين معسكره عند مدينة طربيسيل ، ومنها أرسل إلى جوسلين كونت الرها يطلب منه إرسال رهائن للدلالة على تبعيته وإخلاصه . واضطر

Kinnamos, I, X, p. 23.

(١٥)

Ibid. pp. 25, 56.

(١٦)

Ibid., p. 52.

(١٧)

William of Tyre, XV, xiX, p. 689.

(١٨)

أمير الراها — كارها — إلى أن يرسل ابنته إيزابيل رهينة لدى الإمبراطور البيزنطي<sup>(١٩)</sup>. وبعد ذلك هجم يوحنا على قلعة الرهبان الحاربين من طائفة الداوية عند جاستن واستولى عليها منهم (٢٥ سبتمبر ١١٤٢)<sup>(٢٠)</sup>. ومن هذه القلعة وجه الإمبراطور أوامره إلى رaimوند أمير أنطاكية بأن يسلم إليه قلعة أنطاكية والمدينة ذاتها.

استدعي رaimوند باروناته ورجال الدين يطلب منهم المشورة . وفي المجلس أعلن المؤمنون أن التسلیم بشرط كومينين يعني ضياع كرامة اللاتين وخراب كنيستهم . وصرح البارونات بأنه حتى وإن أجاز Raimond ذاته مطلب الإمبراطور فإنهم سيعارضونه لأنّه قد تلقى الإمارة لاعن وراثة وأما عن طريق زواجه بالأميرة كونستانتز ابنة بوهمند الثاني . كذلك أُعلن هؤلاء أن الأميرة ذاتها لاتملك حق تسليم إمارتها لکائن ما دون موافقهم لأن هذا يتضمن تبعيّتهم — دون مشاورتهم — لسيد إقطاعي جديد ؛ كما هددوا Raimond وزوجته بأنّهم نافضون عن كواهلهم حقوقهما إن أقدما على خرق التقليد الإقطاعي في آية صورة<sup>(٢١)</sup> . ولقد وكل المؤمنون مهمة إبلاغ قرارات مجلسهم الصعبة للإمبراطور إلى أسقف جبلة وبصعّة باروزيات مرموقين . وما وصل هؤلاء السفراء إلى مقام يوحنا كومينين تقدم منه الأسقف اللاتيني وخاطبه « باسم القديس بطرس وباسم الإمبراطور الألماني » معلناً إصرار مجلسهم علىبقاء أنطاكية إمارة لاتينية مع التنبيه عليه باستنكارهم الشديد للمطالب البيزنطية والمطامع في إمارتهم<sup>(٢٢)</sup> .

أمام هذا الإصرار العنيف من جانب الأكليروس والبارونات اللاتين ، وأمام فاجعة وفاة ولده الأكبر ألكسيوس المفاجئة ، آثر يوحنا كومينين عدم

Ibid.

(١٩)

Ibid.

(٢٠)

William of Tyre, loc. cit.

(٢١)

Ibid., Otto of Freising, Chronica' in M.G.H.SS. Vol. XX, p. 263.

(٢٢)

التشدد مرة أخرى حتى تستحق له فرصة أفضل ؟ ومن ثم فقد قرر قضاء موسم الشتاء في كيليكيا . على أنه قبل أن يبرح الأراضي السورية أطلق كتائبه لتدمر المدن والقرى المجاورة لأنطاكية ، ويقال إن الرهبان اللاتين القاطنين في تلك المنطقة صادفو عذاباً شديداً على يد رجال يوحنا كومين (٢٣) .

أمضى الإمبراطور البيزنطي فصل شتاء سنة ١١٤٣/١١٤٢ في السهل الواقع ما بين عنزرب ومويسوستا . ومن هناك وجه رسالة إلى فولك ملك أورشليم يعبر فيها عن رغبته في القدوم بجيشه إلى أورشليم لمعاونته ضد أعدائه . غير أن فولك رفض مساعدة يوحنا كومين وأرسل أنس لمسلم أسقف بيت لحم إليه في رفقة روارد حارس قلعة أورشليم ، وجودفري رئيس دير السيد المسيح ، الذي كان يجيد اللسان اليوناني ، ليبلغوا العاهل البيزنطي بأن سلطات بيت المقدس الصليبية لن تسمح له بالاقتراب من المملكة على رأس جيشه ؛ على أنه إن رغب ذاته في الحج إلى بيت المقدس فإنه سينزل أهلاً ويلقى سهلاً . وكان في هذا إعلان صريح من جانب فولك أنه لن يسمح لبيزنطة بالتدخل في شؤون مملكته الصليبية (٢٤) .

وهكذا فإن علاقات يوحنا كومين بالإمارات الصليبية اتسمت بالماراة والشك المتبادل ، ولم ينجح يوحنا في إملاء شروطه على إمارة أنطاكية ، أى أن ما اتفق عليه بين بوهمند والكسيوس في عام ١١٠٨ قد ظل حبراً على ورق .

### ثانية : علاقات يوحنا كومين بدويلات إيطاليا :

كان الكسيوس كومين قد منح جمهورية البندقية امتيازات تجارية طائلة في الإمبراطورية البيزنطية مقابل معاونتها له في صراعه الممرين ضد روبرت جويسكارد وولده بوهمند . ومن ثم فقد ازدهرت أحوال مستعمرة البناية في القسطنطينية

Otto of Freising, loc. cit.

(٢٣)

William of Tyre, XV, xxi, pp. 591 - 92.

(٢٤)

إلى حد بات يوغر صدور الأهلين حقداً ضد هؤلاء «الأجانب» الموسرين . وبما زاد الأمور سوعاً سلوك البنادقة المتعجرف في مخالاتهم مع الشعب وبذاعة لسانهم ضد فقراء القوم وأعیانهم في العاصمة . كان هذا الشعور بالسيطرة مدعاة لأن يرفض يوحنا كوميني تجديد الامتيازات التي منحها والده الراحل للبنادقة ولذا فشلت مهمة سفراء الدوق دومينيكو ميخائيل الدين قدموا إلى العاصمة للتفاوض مع البازيليوس الجديد .

كان الدوق قد أعد حملة صليبية إلى بيت المقدس ، ولا علم بموقف يوحنا كوميني من سفارته ، قاد صليبيته المؤلفة من ٣٠٠ سفينة و ١٥٠٠٠ رجل لمحصار جزيرة كورفو البيزنطية في عام ١١٢٢ . على أن رسالة وصلته من السلطات الصليبية في أورشليم تحثه على المساعدة برجاته وسفنه لشدة الحاجة إليهم . ومن ثم فقد رفع دومينيكو حصاره عن كورفو وأبحر قبلة الأرض المقدسة . ولقد انتقضت الحملة في مسيرتها على جزائر مودون ورودس وقبرص بقصد النهب والسلب انتقاماً من الإمبراطور البيزنطي .

بعد قضاء بعض الوقت في الأرض المقدسة تلبية لرغبة أمرائها اللاتين ، أبحر أسطول البنادقة من هناك بغية استئناف أعمال القرصنة ضد أمراء بيزنطة <sup>(٢٣)</sup> وبالفعل انقض البنادقة على جزيرة روتس مرة أخرى ونهبوها <sup>(٢٤)</sup> . وتعرضت له جزر خيوس وساموس ولزبوس وأندروس لنفس المصير الذي تعرضت له روتس (١١٢٤ - ١١٢٥) . كذلك قاست مودون وشواطئ دلماشيا من قرصنة الدوق ورجاله . وفي ١١٢٦ قامت حملة أخرى بهجوم على جزيرة سيفالون .

لم يكن أسطول بيزنطة نداً للقوة البحرية لجمهورية سان مارك . ولذا فقد آثر يوحنا كوميني فتح باب المفاوضات مع البنادقة . وفي خريف سنة ١١٢٦ عقدت معاهدتا بين الطرفين تقرّ للبنادقة كافة الحقوق والامتيازات التي سبق

<sup>(٢٣)</sup> 'Historia Ducum Veneticorum' in M.G.H.SS. Vol. XIV, pp. 74 seq.

أن منحها الكسيوس كومينين لهم من قبل<sup>(٢٦)</sup>.

كذلك رأى يوحنا كومينين ضرورة عقد معاهدة ودية مع جمهورية بيزا. وطالعنا « حوليات مدينة بيزا » أنه في عام ١١٣٧ أوفد البازيليوس يوحنا سفارة إلى بيزا تحمل الهدايا المؤلفة من ٢٠٠ پالى وبعثرتين ذهبيتين<sup>(٢٧)</sup>. الواقع أن الإمبراطور قصد بهذه المعاهدة ضمان تحالف بيزا معه في صراعه ضد روجر الثاني ملك صقلية وأبوليا . وللذى شجع يوحنا على التقرب من سلطات بيزا أنها عضدت الأمير روبرت صاحب كاپوا في تمرده ضد سيده روجر الثاني .

عادت سفارة يوحنا كومينين يصحبها السفير البيزى يوحن دودى الذى وكل إليه مهمة توقيع المعاهدة مع البازيليوس وكذا الإشراف على مصالح حالية البيزية في العاصمة البيزنطية .

\* \* \*

أما عن علاقات يوحنا كومينين مع جنوة ، فلم يحدث تقارب بين الطرفين حتى قرب نهاية عهد الإمبراطور ، وذلك أثناء قيامه بحملته على سوريا عام ١١٤٢ . فلقد قدم إلى معسكر الإمبراطور في سوريا السفيران أويرتو ديللا توري ، وجيجيليمو ديللا بارتشا<sup>(٢٨)</sup> . ويبدو أن سلطات جنوة توقعت أن يحرز يوحنا كومينين نجاحاً مرموقاً ضد الفرنج في الشام ، ولذا فقد سارعوا للتفاوض معه بغية تأمين مصالحهم التجارية في سوريا والأرض المقدسة وكان هذا هو الدافع الكامن وراء بعثة السفيرين سالفي الذكر .

**ثالثاً : البلاط البيزنطي والبلاط الألماني في عهد يوحنا كومينين :**

لانكاد نعلم شيئاً عن علاقات يوحنا كومينين بأباطرة الغرب قبل عام ١١٣٥ .

Ibid.

(٢٦)

“Annales Pisani”, in M.G.H.SS. Vol. XX, p. 240.

(٢٧)

“Cafari Annales” in M.G.H.SS. Vol. XVIII, p. 20.

(٢٨)

في ذلك العام بعث البازيليوس بأحد أساوره وأحد أدواقه سفيرين إلى الإمبراطور لوثير في مدينة مرزبورج . وقد صادف وصيفها إلى مقام الإمبراطور الألماني قدوم رسول من قبل دوق البندقية إلى هناك<sup>(٢٩)</sup> .

تم هذا التقارب بين الإمبراطورين الشرق والغربي نتيجة للتحديات التي أقدم عليها روجر الثاني ملك صقلية :

في ٢٥ ديسمبر عام ١١٣٠ تمكن هنا الزعيم النورمانى من الحصول على لقب «ملك» من البابا المعترض آنا كليتوس الثاني . وبازدياد نفوذ روجر الثاني في إيطاليا تناقض سلطان الإمبراطوريين البيزنطي والألماني فيها تباعاً . ولقد فجع الرأى العام في بيزنطة عندما وردت الأنباء بسقوط مدينة نابلي - آخر المدن الإيطالية التي كانت تؤرخ حوليتها وفق مدة حكم الأباطرة البيزنطيين - في يد العاهل الص资料 . وهكذا بات نجاح روجر يوماً بعد يوم مبعث حزن وضيق في القسطنطينية على مجد تلك في الجنوب الإيطالي .

ولما كان<sup>٤</sup> يوحنا كوميني في تلك الفترة منصرفاً كلياً لمقاتلة الترك والمنغار والصرب ، لم يكن بمقدوره الاضطلاع بخطوات إيجابية للحد من أطماع ملك صقلية ، على أنه استقبل بترحاب بالغ البارونات النورمان الذين شقوا عصوا الطاعة ضد سيدهم في عاصمتهم .

أرسل روجر الثاني أسطوله لنهب شواطئ الأرضي البيزنطية وجمهوريّة البندقية أيضاً . الواقع أن روجر كان يخطط للسيطرة على شرق وغربي حوض البحر الأبيض المتوسط لنشاط مملكته التجارى . كما أنه لم يخف أطماعه في الشرق الاتيني : فقد قيل إن زواج أدلىد أرمالة روجر الأول من بيلدوين الأول، ملك أورشليم (في عام ١١٣٣) كان زواجاً دبلوماسياً قصد روجر الثاني من ورائه وضع تاج تمامة بيت المقدس على رأسه إن لم ينجم عن هذا

الزواج وريث للعرش . كذلك بعد أن توفي بوهمند الثاني أمير أنطاكية (في عام ١١٣٠) راح روجر الثاني يطالب بهذه الإمارة لنفسه<sup>(٣٠)</sup> . ولذا فقد اتخذ إجراءات لمنع رايموند من بواتيه من الإبحار إلى سوريا والزواج من كونستانتس ، وريثة بوهمند الثاني . ولم يفلت رايموند من هذا الحصار إلا بعد أن تنكر وأخفى شخصيته عن عيون الملك الصقلبي .

رأى يوحنا كومينين في أطماء روجر الثاني تهديداً مباشراً لمصالح بيزنطة في الشرق والغرب . وهذا يفسر ذاك التقارب الودي الذي تم بين البلاطين البيزنطي والألماني بهدف إبرام حلف ثنائي ضد ملك صقلية . وفي عام ١١٣٧ وصلت سفارة بيزنطية جديدة إلى لا جوبيزول لتقدم إلى لوثير مبلغاً من المال<sup>(٣١)</sup> .

رحب الإمبراطور الألماني لوثير بعرض يوحنا كومينين لأنّه من جانبه كان يرى ضرورة معاقبة الزعيم النورماندي الذي كانت مكاسبه في جنوب إيطاليا على حساب هيبة الإمبراطور الألماني ، وهو الذي كان يرى في نفسه الخليفة الشرعي للأباطرة الرومان . ولذا فقد قاد لوثير حملة إلى إيطاليا وهاجم مدينة باري واستولى عليها ؛ غير أن روجر الثاني سرعان ما انقض ورجاله على المدينة واستعادها لسلطانه . وبعدها قلم روجر أظافر المتمردين ضده وقضى على ثورتهم تماماً .

وفي عام ١١٤٠ عندما كان يوحنا كومينين يعد لحملته على سوريا ، أوفد سفراه للإمبراطور الألماني الجديد كونراد الثالث ، يطلب منه تجديد المعاهدة التي سبق أن أبرمها مع سلفه لوثير الراحل . كذلك كانت لدى السفراء البيزنطيين تعليمات من سيدهم بطلب يد أميرة من البيت الحاكم الألماني للزواج من عمانويل أصغر أبناء يوحنا كومينين<sup>(٣٢)</sup> .

William of Tyre, XV, xii, p. 677.

(٣٠)

"Chronica Monasterii Casinensis", in M.G.H.SS. Vol. VII, p. 833.

(٣١)

Otto of Freising, "Gesta Friderici I Imperatoris" in M.G.H.SS. Vol. XX p. 363.

(٣٢)

رحب كونراد الثالث بمطلب يوحنا كوميني وأرسل كاهنه الخاص ألبرت والكونت إسكتندر صاحب جرافيها ، الذي كان قد تمرد على روجر الثاني ، لمواصلة المفاوضات مع العاهل البيزنطي في عاصمته . كذلك كان من مهام هذه السفارة عرض يد برنا — شقيقة زوج كونراد — للزواج من عمانويل كوميني .

وفي عام ١١٤٢ جاءت سفارة بيزنطية أخرى لחת كونراد الثالث على مهاجمة ليطاليا والانتقام من روجر الثاني ، الذي راح يجدد عدوانه ضد الأرضي البيزنطية . وردّاً على هذا المطلب أوفد كونراد الثالث ألبرت السالف الذكر برفقة روبرت صاحب كادوا ، الذي كان روجر قد طرده من إمارته ، للتتفاوض مع الإمبراطور البيزنطي في تفصيات الحلف المزعزع عقده بين الطرفين . كذلك أرسل كونراد رسالة إلى يوحنا كوميني ، من راتسيون ، يرجح فيها بالتعاون سوياً ضد العدو المشترك ، روجر الصقلي ، فيما اسماه « حلفاً دفاعياً هجومياً » . كما أوضح فيه أن الأحوال الداخلية في ألمانيا آنذاك كانت مواتية لقيادة حملة ضد النورمان . كذلك أوصى كونراد — في رسالته هذه — خيراً بالألمان القاطنين في الإمبراطورية البيزنطية وبخاصة بهؤلاء الذين كانوا يخدمون في جيشه . كما طلب الإمبراطور الألماني من حليفه البيزنطي رقعة من الأرض في العاصمة تبني عليها كنيسة . وفي نهاية الرسالة طلب الكاتب أيضاً أن يلقي التجار الألمان الذين هوجموا على يد جماعة من الروثينيين إنصافاً وعدالة من جانب السلطات البيزنطية<sup>(٣٣)</sup> . وفي نفس العام سافرت سفارة بيزنطية إلى البلاط الألماني لتكون في رفقة الأميرة الألمانية — برثامن سالز باخ — في رحلتها إلى القسطنطينية .

أمام هذا الحلف الوثيق بين الإمبراطوريين الشرقي والغربي وجذ روجر الثاني نفسه مهدداً بقوتين كبيرتين ، لم يكن هو ندّاً لهما مجتمعين . ولذ فقد

طرق باب التفاوض مع البلاط البيزنطي . وبالفعل قدمت سفارة نورماندية إلى العاصمة البيزنطية ، ولكنها أتت متأخرة لأن يوحنا كومين كان وقراها على فراش الموت ( ١١٤٣ ) .

#### رابعاً : علاقات بيزنطة بالبابوية أثناء حكم يوحنا كومين :

شهد القرن الثاني عشر قيام نظام ديراني جديد عرف بجماعة Cistercians ؛ الذين طارت شرطهم في أرجاء غرب أوروبا بفضل زعيمهم الشهير القديس برنارد ده كليرفون الذي يطل في القرن الثاني عشر كأهم شخصية دينية وأبرز رجل سياسة في الغرب اللاتيني على الإطلاق . وفي نفس الوقت ترأس دير كلوفن العريق زعيم آخر لا يقل شأناً و Shaw عن برنارد ؛ وهو بطرس الوقور . ويمثل الرجالان ثقافة الصفوة الغربية آئتها ، كما أن كتاباتهما كانت البوق الحقيقى للكرسى البابوى . كما أن لكل منهما وجهة نظره قبلة الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها ؛ مما يعطى أهمية خاصة لمحاولة تفسير كتاباتهما في هذا الصدد .

في رسالة إلى يوحنا كومين يخاطبه بطرس الوقور على أنه إمبراطور كافة المسيحيين وأميرهم ؛ وكذا حامى كنيسة الأرض كلها سواء في الشرق أو الغرب ( ٣٤ ) . وعلى هذا فيبحنا وأسلافه هم « الأباطرة الرومان » كما أن القدسية قد شيدت على يد إمبراطور رومانى مسيحى قديس ، هو قسطنطين العظيم ؛ في حين أن روما قد أقيمت على يد روميلوس الوثنى . وامتدح الزعيم الكلوفن جهود أباطرة بيزنطة لخدمة قضية المسيحية ضد الترك ؛ وشخص بالميديع والد يوحنا - الكسيوس طيب الذكر - الذى قدم العون للصلبيين والذى منح الرهبان الكلوبيين ديراً في مدينة كيفيتوت ( ٣٥ ) . وفي نهاية الرسالة يشيد بطرس وجماعة ديره بخلق يوحنا وتدينه وسامحته .

Peter the Venerable, ep. XXXIX, in P.L. Vol. CLXXXIX, cols. 260 - 62. ( ٣٤ )

Ibid.

( ٣٥ )

وفي رسالة موجهة إلى بطريرك القدسية تحدث مقدم دير كلوفن - بطرس الوقور - عن الإله الواحد والإيمان الواحد والمحبة الوحيدة التي تربطه بأخيه في الرب ، رغم تباين اللسان وبعد المسافة بينهما . كما أشاد الكاتب بالمدينة الحالدة المقدسة - القدسية - منبع الإيمان وبكرسيها الرسولي مزار القديسين والإنجيليين والشهداء<sup>(٣٦)</sup> .

الجماعة الثانية من الديريين ذوى النفوذ العميق على غرب أوربا في تلك الفترة كانت منظمة السستيرشيان بزعامة القديس برنارد ده كليرفوه . كان برنارد من المتحمسين للحركة الصليبية ؛ على أن اهتمامه الخاص كان بجماعة فرسان المعبد (الداوية) التي أسسها هيومن پاين (١٠٧٠ - ١١٣٦) تحت اسم « الفرسان الفقراء للسيد المسيح ولعبد سليمان » . وفي عام ١١٢٨ قصد هيو وخمسة من رفاقه من أورشليم إلى فرنسا للبحث عن متقطعين لجماعتهم ، وقد حضروا المجلس الذى عقد فى هذا العام فى مدينة تروى . وكان القديس برنارد مشاركاً فى هذا المجلس ، ولا شك فى أنه قد عاونهم فى الحصول على التأييد لمنظمتهم من السلطات الكنسية فى الغرب . هذا وقد أتى مقاله De Laude Novae Militiae يبشر القديس بحرب مقدسة من صنف جدید يتسلح فيها الصليبي لا بالسيف فحسب وإنما أيضاً بدروع الله . وللعمدان - في رأى برنارد - لم يمنع الجند الرومان من أداء خدماتهم العسكرية ، بل وافق عليها ضممتنا عندما حثّهم على القناعة بأجوائهم . والرجال - ابتغاء مرضاه النساء الساوى - وجب عليهم القتال : ألم يقاتل السيد المسيح ذاته - بسوطه لابسيفه - لينظف المعبد من خربى الضيائى والمنافقين وتجار السوء من اليهود ؟

على أن برنارد عاب على الجماعات الصليبية سوء المسلوك والغوضى والجشع والنهى والسلب والقرصنة وركوب الجياد المظهمة المزدادة بالحرائر ونفيسيس الجواهر

والافتتان بزخرف العالم وسفك الدماء بغير حق ؛ مما أدى به إلى المجاهرة بأن جند المسيح أمسوا مكرراً للشيطان<sup>(٣٧)</sup> .

ولى جانب هذا فللمقدس برنارد وجهة نظره في البابوية وحقوقها . ولقد رأى في البابا جريجوري السابع الأنموذج الأفضل للبابوات ، كما تأثر كثيراً بكتاباته ونظريته الأوتوقراطية وكذا بكتابات القديس أغسطينوس والبابا جريجوري العظيم . فهو يرى في الحالين على عرش القديس بطرس الكاهن الأعظم ؛ أمير الأساقفة ؛ وريث الرسل ؛ صنو هابيل في حق البكورية ، ونوح في الفلك ، وإبراهيم في البطريقية ، وملكيصادق في الحاللة ، وهارون في الوقار ، وموسى في السلطان ، وصموئيل في التشريع ، وبطرس في حق الربط والحل . هو حامل مفاتيح الجنة والراعي الصالح ورأس المؤمنين قاطبة وراعي رعاتهم وقسيس الله المفضل الممسوح بزيارة الرباني<sup>(٣٨)</sup> .

فالبابا على هذا رأس كافة الرعاة (البطارقة) لأنه خليفة بطرس أمير الرسل صاحب حق الحل والربط على الأرض وفي السماء . ومن يقاوم سلطانه يغضب الله ذاته ، ولذا وجب عقابه مهما كان مركبه ؛ علمانياً كان أم روحيًا ، فهو القاضي الأوحد للمسكونة . الواقع أن هذا الكلام تأكيد جديد للنظرية الهملبراندية ؛ ذلك لأن القديس برنارد كان معجبًا بالإعجاب كله بالبابا جريجوري السابع .

ونجد الرئيس الديوراني نفسه يتحدث عن الكنيسة البيزنطية فيشير إليها بأصابع الاتهام معيلاً عليها القطيعة والانشقاق عن الكرسي الرسولي ، منها إلى ما شابها من هرطقات قديمة . وهو على هذا يستنفر البابا لتقديم هذا الاعوجاج البيزنطي بكل قوّة لينقاد العقيدة المسيحية من خطر الانحراف

St. Bernard de Clairvaux, De Laude Novae Militiae', V, 9, col. 1256 in (٣٧)

J. Mabillon's Opera Omnia, 2 Vols. Paris, 1839.

St. Bernard', De Consideratione' lib. II, cap. viii, 15, col. 1032, in Opera (٣٨)  
Omnia.

والملائكة . وللحديـر بالـلاحظـة أن بـنـارـد يـضـعـ البيـزنـطـيـنـ جـنـبـاً إـلـىـ جـنـبـاًـ فيـ صـلـدـ التـقـرـيـعـ معـ الـكـفـارـ وـالـوثـنيـنـ وـالـيهـودـ ،ـ مـشـهـاًـ إـيـاهـمـ «ـ بـكـلـابـ الصـلـالـ وـذـئـابـ التـدـلـيـسـ »<sup>(٣٩)</sup>ـ .ـ

ولـذـاـ نـجـدـ القـدـيـسـ بـنـارـدـ يـحـثـ تـلـمـيـذـهـ يـوـجـينـيـوسـ الثـالـثـ —ـ الـدـىـ كـانـ آـنـذـ جـالـسـاًـ عـلـىـ عـرـشـ الـبـابـوـيـةـ —ـ عـلـىـ أـنـ يـسـتـخـدـمـ «ـ سـيـفـ »ـ الـقـدـيـسـ بـطـرـوـسـ الرـسـوـلـ هـدـمـ الصـلـالـ وـتـقـلـيمـ أـظـافـرـ الـأـنـفـصـالـيـنـ :ـ وـهـوـ بـهـذـاـ يـعـنـيـ الـكـنـيـسـةـ الـبـيـزنـطـيـةـ وـبـطـرـيـرـكـيـتـهـاـ »<sup>(٤٠)</sup>ـ .ـ

\* \* \*

فتحـ يـوـحـنـاـ كـوـمـنـيـنـ بـابـ المـفاـوضـاتـ معـ الـكـرـسـيـ الرـسـوـلـيـ ؛ـ مـبـدـيـاًـ اـسـتـعـدـادـهـ لـمـنـاقـشـةـ مـوـضـوـعـ وـحدـةـ الـكـنـيـسـتـيـنـ الـبـيـزنـطـيـةـ وـالـرـومـانـيـةـ .ـ وـيـحـبـ التـنـبـيـهـ هـنـاـ إـلـىـ أـنـ هـذـهـ الـمـبـادـأـةـ مـنـ جـانـبـ يـوـحـنـاـ كـوـمـنـيـنـ كـانـتـ تـسـتـهـدـفـ فـيـ الـمـقـامـ الـأـوـلـ مـصـالـحـهـ السـيـاسـيـةـ فـيـ الـغـربـ ،ـ وـكـذـاـ مـتـابـعـةـ لـحـلـمـ غالـ علىـ آـلـ كـوـمـنـيـنـ ؛ـ وـهـوـ مـحاـوـلـهـ اـسـتـرـجـاعـ النـاجـ الـرـومـانـيـ منـ الـأـبـاطـرـهـ الـأـلـمـانـ .ـ وـفـيـ يـوـنـيوـ ١١٢٤ـ كـتـبـ الـإـمـبرـاطـورـ الـبـيـزنـطـيـ إـلـىـ الـبـابـاـ كـالـكـسـتوـسـ الـثـانـيـ رـسـالـةـ وـدـيـةـ مـلـوـعـهـاـ الغـيـرـةـ عـلـىـ وـحدـةـ الـكـنـيـسـتـيـنـ وـالـمـرـأـةـ الـتـيـ يـكـابـدـهـاـ إـذـ يـعـاـيـنـهـماـ عـلـىـ حـالـ مـنـ الشـقـاقـ وـالـقـطـيعـةـ »<sup>(٤١)</sup>ـ .ـ

تـوـفـيـ الـبـابـاـ كـالـكـسـتوـسـ فـيـ عـامـ ١١٢٤ـ ،ـ وـخـلـفـهـ عـلـىـ عـرـشـ الـبـابـوـيـ هـونـورـيـوسـ الـثـانـيـ (١١٢٤ـ -ـ ١١٣٠ـ)ـ .ـ فـأـرـسـلـ يـوـحـنـاـ كـوـمـنـيـنـ إـلـىـ الـبـابـاـ الـجـدـيدـ رسـالـةـ (ـ فـيـ أـبـرـيلـ ١١٢٦ـ)ـ عـبـرـ فـيـهـ مـرـةـ أـخـرـىـ عـنـ رـغـبـتـهـ فـيـ وـحدـةـ الـكـنـيـسـتـيـنـ .ـ عـلـىـ أـنـهـ أـكـدـ فـيـ هـذـاـ المـضـمارـ مـبـدـأـ السـيـفـيـنـ الـلـدـنـيـنـ سـلـيـمـهـمـاـ اللـهـ لـلـسـلـطـتـيـنـ الـدـنـيـوـيـةـ وـالـأـرـوـحـيـةـ ؛ـ فـهـوـ بـهـذـاـ يـطـالـبـ لـنـفـسـهـ بـمـاـ أـقـرـهـ السـيـدـ الـمـسـيـحـ لـقـيـصـرـ :ـ (ـ اـعـطـ

De Consideratione III, i, 2 - 4, cols. 1040 - 42. (٣٩)

St. Bernard of Clairvaux, ep. CCLVI, cols. 538-40, in Opera Omnia. (٤٠)

A. Th e i n e r and F. Miklosich, Monumenta Spectantia ad Unionem Ec-

(٤١)

clesiarum Graecae et Romanae Maiorem Partem e sanctoribus Vaticani

Tabularis, Vindobonae, 1872, pp. 2 - 3.

ما لقيصر لقيصر وما لله لله<sup>(٤٢)</sup>). على أن الجهد بغية تحقيق الوحدة لم تتعذر تلك الرسائل الودية بين الطرفين ، بمعنى أنه لم يتخذ جانب منها خطوات إيجابية لتحقيق ماورد في تلك الرسائل .

والواقع أن يوحنا كومينين كان يبغى من وراء تلك النغمة الودية التي خاطب بها البابوية مساندتها له في مشروعاته في غرب أوروبا . ولكنحقيقة الموقف والمشاعر بين الكنيستين لاينبعى تقصيها في سياسة آل كومينين وإنما في اتجاهات وكتابات رجال الأكليروس البيزنطيين ولاتين معا . في عام ١١٣٦ عرج أنسelm من هافلبرج على القدسية ، وهناك دخل في جدال ديني مع نيكيتاس رئيس أساقفة نيقوميديا . وفي هذا الجدل تبادل الطرفان الاتهامات في المسائل العقائدية والطقوسية ، كما حمل نيكيتاس حملة شديدة على مزاعم اليابوبية في إمرة الكنيسة<sup>(٤٣)</sup> . وفي يوليو ١١٣٧ وصل سفراً يوحنا كومينين إلى بلاط الإمبراطور الألماني لوثر لتهنئته على انتصاره ضد روجر الصقلي ولتقديم المدايا الإمبراطورية إليه . وكان من بين أعضاء هذه السفاراة البيزنطية أحد الفلاسفة من اللاهوتين الذي أعلن على مسمع من الجميع أن «البابا الروماني ليس برجل دين وإنما إمبراطور»<sup>(٤٤)</sup> ؛ كما راح يؤكد أن الكهنوت اللاتيني وقع تحت لعنة الحرمان بسبب استخدام الخبز الغير مختمر في شركة التناول . على أن أحد رجال الدين اللاتين وهو بطرس الشمامس – وهو علم من أعلام مونت كاسيينو – كان حاضراً في البلاط ، فقصدى للفيلسوف البيزنطى ، ودار بين الاثنين حوار حاد اللهجة به إصرار من الطرفين على لعن الآخر ووضعه في عداد المراهقة . والخلاف الذى لا تهاود فيه بين الكنيستين – على لسان هذين المتجادلين – هو تحريف اللاتين لقانون الإيمان النبى في إضافة الغرب لعبارة «انشق الروح القدس من ابن أيضاً» ؛ بينما

Ibid., pp. 5 - 6.

(٤٢)

Ibid., p. 4.

(٤٣)

Chronica Monasterii Casinensis', in M.G.H.SS. Vol. VII, p. 833. (٤٤)

يعيب اللاتين على البيزنطيين إنكار ما لله الأب من طبيعة ، في مجال انبثاق الروح القدس ، على الابن ؛ مما يضعه بالضرورة في جوهر دون الجواهر الإلهي الكامل<sup>(٤٥)</sup> .

هذا وفي موقف البابوية تجاه سياسة يوحنا كومين في الإمارات الصليبية<sup>(٤٦)</sup> مايلقى ضوءاً أكثر على حقيقة المشاعر . يحدّثنا أودو دى دويل أن يوحنا كومين بعد أن استولى على طرسوس وما مسرا في كيليكيا ، طرد الأساقفة اللاتين من كافة مدنهما وعين بدلاً منهم يونانيين هراطقة<sup>(٤٧)</sup> .

ولما علم البابا أنوسنت الثاني بهذا ، أصدر قراراً بابوياً في ٢٨ مارس ١١٣٨ يخص فيه المرزة من اللاتين في خدمة يوحنا كومين على الترد ضده ، إذا هاجم أنطاكية ؛ مهدداً من لا ينصاع للأمر بلعنة الحرمان<sup>(٤٨)</sup> .

ليس بمستغرب إذن أن نجد لاهوت بيزنطة والمشغلين بالقانون الكنسي في القرن الثاني عشر ينظرون بازدراء إلى مزاعم البابوية وتحدياتها لبطريκية القسطنطينية . ولعل أشهر ماكتب في هذا الصدد مقالة أهداها نيلوس دوكسوپاترس إلى روجر الثاني ملك صقلية في عام ١١٤٣ . وفيها يتحدث الكاتب عن مركز القسطنطينية الفريد كعاصمة للإمبراطورية الرومانية المسيحية ، وكبيت للبطريκية المسكونية . أما عن روما فقد فقدت إمرتها على الكنائس بعد وقوعها في يد المتربرين<sup>(٤٩)</sup> . وهذا البرهان الذي اعتمد عليه نيلوس وغيره من كتاب القرن الثاني عشر يقوم أساساً على ما ورد في القانون الثامن والعشرين من قرارات مجلس خلقدونية (٤٥١) الذي سبق ذكره .

Ibid.

(٤٥)

Odo of Deuil, *De Profectione Ludovici VII in Orientem* (ed. G. Berry) (٤٦)

New York, 1948. IV, p. 70.

(٤٧)

P.L., Vol. CLXXX, cols. 354 - 55.

Nilus Doxopatres 'Notitia Patriarchatum', in P.G. Vol. CXXXII, cols. 1100 - 1101. (٤٨)

## الفصل السابع

### بيزنطة والحملة الصليبية الثانية

#### تمهيد

أصيب الإمبراطور يوحنا كومينس بسموم وهو في رحلة صيد في كيليكيا فأُتى على حياته . وكان الإمبراطور الراحل قد اختار عمانوئيل أصغر أبنائه ليخلفه على العرش بأن وضع بيديه ، في اللحظات الأخيرة من حياته ، التاج الإمبراطوري على رأس ولده (أبريل ١١٤٣) .

وعمانوئيل واحد من أمجاد أباطرة بيزنطة : وهو إذ يطل من بعض الجوانب عملاقاً بيزنطياً في ملامحه وسماته ، نلمس فيه أيضاً نتاجاً للحضارة الغربية اللاتينية . وكان عمانوئيل في هذا يحاكي بعض الفرسان اللاتين من أبناء القرن الثاني عشر الذين دربوا على التقاليد الفروسية ، ويذهب البعض في هذا إلى حد مقارنته بالملاث الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد . الواقع أن افتتان عمانوئيل بمثل الفروسية العليا وزواجه من أميرتين لاتينيتين أنبت في وجده حبّاً وفضيلاً خالصين . للعنصر اللاتيني .

ولذا فلقد وفد على بلاطه عديد من اللاتين من جermany وfrance وnorman . وإيطاليين وإنجليز وهم على ثقة من النزول أهلاً وسهلاً في القسطنطينية سواء أقاموا بخدمة العاهل البيزنطي في بلاطه أو في جيشه . ومع جهل هؤلاء المرتزقة اللاتين باللسان اليوناني ؛ إذ كانوا « يبصرون أفضل مما ينطقون » ، إلا أنهم نجحوا رغم هذا – في الحصول على أخطر المناصب في الإدارة والحكومة ؛ الأمر الذي أثار نار الحقد في قلوب شعب العاصمة الإمبراطورية . ولقد أجيح من نار هذه الكراهية لللاتين ما صارت عليه من ثراء فاحش تلك الحاليات الخنزيرية والبيزية وبجماعة البنادقة الذين استقروا واستمروا في القسطنطينية .

كان عمانوئيل كوميني مهتماً بالأداب هو وزوجه ورجال بلاطه ؛ ولذا فقد التف حوله خيرة مثقفي عصره وفلاسفتهم . من طراز تزاتزيوس ، وقسطنطين ماناسيز وغليكاس وأحد الآخرين برودرموي . هذا وفي عهد عمانوئيل أتت الأميرة آنا كومينينا ملحمتها الرائعة «الكسيد» ، كما هنا حذوها الكاتبان زوناراس وغليكاس ؛ وفي نفس الآونة جمع المؤرخان الكبيران يوحنا كناموس ، ونيكيتاس كونياتس المادة اللازمة لتأريخهما .

على أن عمانوئيل كوميني لم يكن على وفاق مع الكنيسة البيزنطية . فنجده نيكيتاس كونياتس ينتقد جرأته في الخروج على النصوص الواردة في الكتاب المقدس وتراث الآباء الباكرين<sup>(١)</sup> . ومن قبيل ذلك اصطهاد عمانوئيل للبطريروك ثيودوزيوس الذي انتقد تفسيرات الإمبراطور لبعض النصوص الإنجيلية . كذلك عمد البازيلوس إلى سهل عيون ميخائيل غليكاس لأنه فند ما كتبه الأول في التنجيم . كذلك عيب على عمانوئيل جهوده في التقليل من شأن الكنيسة كمؤسسة ذات شعبية عريضة . ولعل من أشهر أمثلة استخفافه بتقاليدها أنه أقدم على اصطحاب سلطان قونية التركي — الذي كان في زيارة رسمية للقسطنطينية — لزيارة كنيسة أيا صوفيا ، مما أزعج بطريركها<sup>(٢)</sup> هذا وفي الجامع التي دعيت لحاكم المراطقة كانت قرارات عمانوئيل وحدها هي فيصل القول ، وكان على أكليروس أيا صوفيا ابتلاع آرائهم الخاصة . على أن الذي أثار رجال الكنيسة البيزنطية بشكل خاص تلك السياسة الودية التي انتهجهها عمانوئيل قبلة اللاتين والبابوية . وقد ذهب الإمبراطور في هذا إلى حد راح فيه يسامون روما على الاعتراف به إمبراطوراً رومانياً مقابل إخضاعه بطريركية بيزنطة لسلطان خلفاء القديس بطرس الرسول . وقد جلبت تلك السياسة على العاصمة البيزنطية توتراً شديداً هدد شعبية عمانوئيل

Nicæ. 2 honitates Historia, (C.S.H.B.) 'De Manuele, Bonn 1835, VII, (١)  
v, pp. 274 - 75.

John Kinnamos, Epitome Historiarum (C.S.H.B.) Bonn, 1836, V, iii, p. 206. (٢)

ذاته . ولعل في هذا بعض من إجابة للسؤال الذي حير جماعة المؤرخين في تعليمه . العداوة الفجائية التي روى بها عمانوئيل اللاتين ، عندما استنصر غوغاء العاصمة سلوب حي البناية في العاصمة وعندما أمر بسجن وجهاءهم في معتقلاته .

ومهما كان الأمر فإن عمانوئيل كومينين كان معجبًا باللاتين حريصاً على توظيفهم في إمبراطوريته ، مفضلاً إياهم — على حد تعبير وليم الصورى — على « رجاله المحنثين <sup>(٣)</sup> ». ونجده من بين خلصائه اللاتين الكسندر كونفرسانو كونت جرافينا الذي كان قد تمرد ضد سيده روجر الثاني ملك صقلية . وكان الكسندر لهذا قد بحث إلى بلاط كوزراد الثالث الألماني ومن هناك وفد على القدسية في مهمة دبلوماسية . غير أنه قرر البقاء في بيزنطة وعينه عمانوئيل قائداً للجند المرتزقة النورمان في خدمته والمعروفين في الحوليات البيزنطية باسم « الكلت » . وقد وكل عمانوئيل إليه مهام خطيرة من قبيل مقابلة ملك فرنسا وألمانيا القادمين على رأس الحملة الصليبية الثانية . كما وأنه مثل الإمبراطور أيضاً في المباحثات التي كانت تدور بين الحين والآخر مع البنديقية وانكونا . والكسندر هو أيضاً الذي وقع تلك المعاهدة مع ملك بيت المقدس اللاتيني والتي بموجبها تقرر أول هجوم بيزنطو — لاتيني على مصر ( عام ١١٦٦ ) .

هذا ولقد كان سفراً عمانوئيل إلى لويس السابع والبابا اسكندر الثالث من اللاتين العاملين في خدمته . كما كان بلاطه عامراً بالمتجمين اللاتين وعلى رأسهم ثيوفيلاكت ، وميخائيل من أوترانتو ، وليو من تسكانا الذي ترجم صلاة قداس القديس يوحنا خريزostom إلى اللاتينية .

\* \* \*

عندما توفي بونا كومينين ( ١١٤٣ ) غزا ريموند ، أمير أنطاكية الصليبي <sup><</sup>  
بعض المناطق المتاخمة لإقليم كيليكيا <sup>(٤)</sup> ومع أن قوات عمانوئيل استعادت ما نهبها ريموند ، ورغم قدم هذا الأخير إلى القدسية للاعتذار ولأداء يمين

William of Tyre, op. cit., XXII, x, p. 107.

(٣)

Kinnamos, I, iii, p. 33.

(٤)

الولاء والطاعة ؛ إلا أن عمانوويل كان موقناً أنه لن يتم له إرساء سلطانه في الشرق اللاتيني حتى يجده حليفاً قوياً في الغرب في مقدوره تقليم أظافر ملوك صقلية النورمان . وهذا هو الدافع الأساسي لذاك التقارب الذي تم بين البلاطين البيزنطي والألماني خاصية في عهد عمانوويل كومين . ففي أوائل ١١٤٥ أرسل عمانوويل سفيره نقفور محملاً بالهدايا للإمبراطور كونراد الثالث ؛ ليطلب منه ٥٠٠ فارسًا للخدمة في الجيش البيزنطي ، وأيضاً ليبلغه رسالة شفوية من قبل العاهل البيزنطي . ولما استمع كونراد إلى هذه الرسالة الشفوية على لسان نقفور — كما تقول المصادر المعاصرة — « استشاط غضباً وأقسم أنه لو كان ولده هنري قد ذبح أمام بصره لما كان ليتألم هذا الألم الذي أحدهه كلام نقفور »<sup>(٥)</sup> .

ولقد حيرت هذه المسألة كتاباً كثرين ، إذ لا ندرى تماماً فحوى ما قاله نقفور لكونراد فأغضبه على هذه الشاكلة . على أن رد كونراد على عمانوويل قد يلقى بعض الضوء على أعمق هذا الموقف الصعب : نجد في هذه الرسالة أن كونراد يخاطب عمانوويل على أنه مجرد « ملك يوناني » لا إمبراطور روماني<sup>(٦)</sup> . ولنا أن نتساءل : هل رفض عمانوويل مخاطبته كونراد كإمبراطور روماني في بادئ الأمر<sup>(٧)</sup> ؟ أم أن هناك مسائل أخرى أدت إلى ثورة العاهل الألماني ؟

يبعدوا أن السفير نقفور قد ذكر شيئاً على لسان سيده في أمر خطيبته الألمانية — برتا — شقيقة زوج كونراد . والمعروف أن برتا قد وصلت بعد خطيبتها لعمانوويل إلى القسطنطينية ولم يكن وقتها ولية للعرش ؛ ولكن بوفاة شقيق عمانوويل الأكبر — الكسيوس — وضحت فرصته لحمل التابع البيزنطي . ومن ثم فقد راح — أغلب الظن — ليبحث عن أميرة غيرها كزوجة له ، خاصة وأن والده لم يكن راضياً تماماً عن هذا الزواج ، وإنما كان راغباً في تزويع ابنه من أميرة من الدم الملكي الخالص .

Otto of Freising, *Gesta Friderici I Imperatoris*, I, XXV.

(٥)

Ibid.

(٦)

See P. Lamma, *Comneni e Staufer*, Rome, 1955 - 57, I, p. 51.

(٧).

ويحتمل أن تقفور قد طلب زوجة لسيده من الدم الملكي الحالص بدلاً من برتا ؟  
ما أثار كونراد عليه . وما يؤيد ذلك أن كونراد — في رسالته لعمانويل — أولى  
أهمية خاصة لموضوع برتا مؤكداً أن هذا الأمر قد اتفق عليه وأن زواجه من  
عمانويل لابد وأن يتم<sup>(٨)</sup> .

وبالفعل تم زواج عمانويل كومين من برتا الألمانية في عام ١١٤٦ . وقد  
رأى الكاتب برودر وموس في اقتراح الأميرة الجermanية بخليفة قسطنطين شرفاً زائداً  
لكونراد الثالث والألمان ، مشيراً ضمناً إلى علو شأن البيزنطية بالنسبة إلى ألمانيا<sup>(٩)</sup> .  
وكان الشعور في البلاط الجermanي أن هذا الزواج الميمون لبنة في التضامن بين  
الإمبراطورين من أجل « إعلاء اسم المسيح حتى تلهج به كل الألسن في  
المملكة<sup>(١٠)</sup> ». ولقد وعد كونراد صهره عمانويل بأنه يكون صديقاً لأصدقائه  
وعدواً لأعداءه ، وأنه سينظر إليه « كابن عزيز للأسرة الجermanية الملكية » . كذلك  
عرض كونراد لإرسال ٣٠٠ فارس من رجاله للخدمة البيزنطية ، ووعده بمعونة  
القوات الألمانية جيئاً إذا مادعت الضرورة إلى ذلك<sup>(١١)</sup> .

كانت السلطات البيزنطية تعقد على هذا الزواج آمالاً عرضاً في التعاون بين  
الإمبراطوريتين لتقليل أظافر ملك صقلية . غير أن هذه الآمال كانت سراباً ،  
إذ سرعان ما توافت الأنبياء من الغرب عن اقتراب جحافل الحملة الصليبية الثانية  
صوب العاصمة البيزنطية ؛ مما أدى إلى توتر بين السلطات البيزنطية وقائدى الحملة  
كونراد إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا .

\* \* \*

في ٢٣ نوفمبر ١١٤٤ هجم عماد الدين زنكي على مدينة الرها واستردتها من  
الصلبيين . وبسقوط الرها في يده باقى مملكة بيت المقدس ذاتها مهددة بالخطر ؛

Otto of Freising, op. cit., I, xxiv.

(٨)

P.G. Vol. CXXXIII, col. 1360.

(٩)

Otto of Freising, loc. cit.

(١٠)

Ibid.

(١١)

وتوقع الرأى العام في الإمارات اللاتينية الباقية أن يكون غزو أنطاكية الخطوة التالية لهذا القائد المسلم في خططه الواسع . ويحدثنا أوتو من فريزنج أن أسقف جبلة وصل إلى روما « وعيته قد أغروقت بالدموع يحذر سامييه من الخطر المدح وبالكنيسة فيما وراء البحار نتيجة لسقوط الرها ؛ ومبدياً رغبته في عبور جبال الألب ليستعطف ملكي الأماان والفرنسيس لاستقاذها<sup>(١٢)</sup> » .

وفي ٢٥ ديسمبر ١١٤٥ أعلن لويس السابع ملك فرنسا عن عزمه لحمل الصليب ، وأبرق للبابا يوجينيوس الثالث بقصده هذا . فأمر البابا بكلام « أحل من العسل » سائر المؤمنين تلبية مبادأة صاحب الحال ، وخطط لوضع زوجات وأطفال من يسير ورائه في الحملة الصليبية تحت الحماية البابوية ذاتها .. ولقد عبر يوجينيوس عن تحركه ذاتياً للتبرير بالحملة لولا « طغيان سيده البحار » ؛ يقصد الشعب الروماني الذي لم يكن ليكفي عن مناؤاته للبابا . ولذا فقد وكل مهمة التبشير بها إلى معلميه القديس برناردي كليرفوه ، الذي كان لسان حال الكرسي البابوي آنذاك .

ولقد أصدر البابا يوجينيوس الثالث مرسومين : أولهما في أول ديسمبر ١١٤٥ موجهاً إلى لويس السابع والأمراء وسائر المؤمنين ، في غالة ؛ والثاني في أول مارس ١١٤٦ موجهاً إلى « المؤمنين » على الإطلاق في غالة أيضاً ، يدعوهم فيه إلى الإنخراط في الحملة الصليبية . وفي يوم أحد الشعانين (اللحوص) الموافق ٣١ مارس ١١٤٦ اجتمع جمع كبير في مدينة فيزيلاي حيث تلقى الملائكة الفرنسي الصليب الخاص الذي بعث به البابا لهذه المناسبة من يد القديس برنارد . واعتلى القديس المنصة أمام هذا الجمع الغفير وسحرهم ببيانه وحماسه فسارعوا لتلبية دعوته لهم لحمل الصليب ؛ وكان على رأس هؤلاء الملكة إليانور الأقطانية ، وثيودوريك كونت فلاندرز ، وهنري ابن ثيو بالد كونت بلawa ، وروبرت شقيق الملك لويس السابع ، وعمه آماديوس الثالث كونت مورين ، ووليم كونت

نيفيرز ، وارتشيبالد كونت بوربون ، وانجير راند من كوسى ؛ ثم الأساقفة سجودفري من لاروش ، وارنولف من ليزييه . ولقد تقرر في هذا المجتمع تكوين حملة صليبية ضخمة لمقاتلة عرب لشبونة ، والسلاف على نهر إلب ، والأتراك في آسيا الصغرى والأراضي المقدسة<sup>(١٣)</sup> . وقد حدد موعد رحيل الحملة في مارس من العام التالي (١١٤٧) .

على أن الجماهير الشعبية لغرب أوروبا اللاتيني كانت تحتاج ، لكي تنخرط في حركة صليبية جديدة ، إلى نداء علوي من السماء مثلما ألفوا وقت بطرس الناسك ورفاقه .

يحدثنا أوتو من فريزنج عن راهب يدعى راؤول ظهر في أراضي الراين واستنفر الآلاف في كولون ومينز وورمز وستراسبورج وسبايرز لحمل علامة الصليب ، حاثا إياهم على ذبح اليهود « الأعداء الحقيقيين للصلبيين ومسيحيه » ؟ فانقضوا عليهم نهبا وتقتيلا . على أن القديس برنارد غضب من هذا المسلك وراح يهاجم راؤول رغم أنه كان من أبناء جماعة السيسترشيان الديرانية ، ورغم موافقة رئيس ديره لويس من هيغولت على هذا التصرف<sup>(١٤)</sup> .

وبحذير بالذكر هنا أن لويس السابع قد فرض ضريبة صليبية على أتباعه الإقطاعيين من علمانيين وأساقفة ، وكذا البيروتات الدينية . غير أنه لم يطلب من يهود غالطة المساهمة في حملته الصليبية ؛ الأمر الذي أغضب مقدم دير كلوف - بطرس الوقور - فكتب إليه يقول بأن « الذين تستوجب عليهم الخبایة في هذه المناسبة بالذات هم اليهود الملائين » الذين اضطهدوا المسيح وصلبوه وأراقوا دمه . ثم لامه على إعفائهم من الضريبة رغم ثرائهم الفاحش وكنوزهم المكدرة . على

E. Vacandard, Vie de St. Bernard Abbé de Clairvaux, 2 Vols. Paris, 1895, (١٣)

I, p. 301.

Otto of Freising, Gesta, I, 38.

(١٤)

أنه أوضح أنه لا يطالب بقتلهم وإنما بجباية الضريبة منهم تكفيراً عن جرمهم ضد المسيح والمسيحية<sup>(١٥)</sup>.

يقص علينا السجل المعروف باسم *Liber miracularum* ، وهو يحوى تسجيلات رفاق القديس برنارد عن رحلاتهم في غرب أوروبا ، المنجزات التي حققها القديس في إسفاره للتبشير بالحملة : فلقد زار مداين فلاندرز ، وأراس ، وقوسي ؛ ولدى دين ، وكيلماريه ، وبروج ، وأفليجييم ، وجمبولفي ، وفيلليرز ، ومينز ، وكوفستانس . وفي مدينة فرانكفورث التقى بكونواو الثالث ملك ألمانيا ؛ غير أن العاهل الألماني وقتها أعلن أنه لن يتمكن من المشاركة في الحملة . وبعدها يعم برغارد صوب شافهاوزن ، وفتشبورغ وغيرهما من المدن . ويحدثنا جودفري كاتب سيرة القديس أنه أينما حل سيده كان لسانه ينطق قدسية وتقى من الطراز العلوي<sup>(١٦)</sup> . وفي مدينة سپايرز لقى القديس الملك الألماني للمرة الثانية وأخذ يستميله إلى قيادة حملة صليبية أسوة بالملك الفرنسي . وقد اتفق أن حضر هذا الاجتماع بين الرجلين سفراء من البلاط البيزنطي كانوا قد وفدا للتفاوض على حملة مشتركة ضد النورمان في صقلية . وبينما كان أحد السفراء البيزنطيين منشغلًا في الحديث مع القديس برنارد ، تقدم قوم بأمرأة ضريرة إلى مجلس القديس ؛ فما إن لمسها بأنامله حتى رفت عنها غشاوة بصرها ورأت النور . ويقول نفس المصدر — جودفري — أن السفير البيزنطي ذهل مما رأه<sup>(١٧)</sup> .

ويروى مانريكيه أن القديس بعد أن اختتم صلواته للعذراء بقوله «أيتها الرحيمة التقية النقية الحلوة ماريا» ألقى بنفسه أرضاً ثلاث مرات أمام أيقونتها في الكاتدرائية، فجاءه جمهور المصلين صارخين «طوباك يايرنارد». وفي

Peter the Venerable, ep. XXXVI in P.L. Vol. CLXXXIX.

(10)

Vita Bernardi, VI, i, 4, 15, in P.L. Vol. CLXXXV.

(17)

Idem.

(14)

حفل قداس الروح القدس اعتلى الرجل منبر كاتدرائية سبايرز وفتح فاه وتكلم فحرك شغاف القلوب . وهنا انفعل كونراد وابن أخيه فرديريك بربورسا وعديد من أسياد القوم ؛ فحملوا جميعاً علامة الصليب<sup>(١٨)</sup> . وفي مدينة كولون خرجت جموع البشر للقياه وللحملقة في وجهه . وهناك أقام المعجزات وشفى المرضى وهم كثيرون ؛ فصاحب الجمع صارخين :

Christ, uns gnade ! Kyrie, eleison ! Die Heiligen alle helfen uns. <sup>(١٩)</sup>

وبعد عدة رحلات أخرى في غرب أوروبا وصل القديس إلى شالون — سير — مارن حيث التقى بلويس الصغير وسفراء من قبل كونراد الثالث وWolf زعيم الجولف . وفي نهاية المطاف ، في فبراير ١١٤٦ ، وصل إلى مقره في كليرفوه .

\* \* \*

أعد لويس السابع لحملته الصليبية باتصالات دبلوماسية واسعة النطاق ؛ في أغسطس ١١٤٦ أرسل سفراء ميلون من شفريز وراهبين من الداوية إلى البلاط البيزنطي . وقد سلم هؤلاء المبعوثون رسالة ودية من سيدهم وأخرى من البابا يوحannes الثالث إلى عمانوئيل كومنين . وقد طلب صاحبها الرسالتين من العاهل الإيزنطى تسهيل مهمة الصليبيين في عبور أراضى الإمبراطورية وتزويدهم بالمؤن اللازمة مقابل ثمن معقول . كما تلقى عمانوئيل في نفس الوقت رسالة من القديس برنارد يوصيه فيها خيراً بهنرى ابن الكونت ثيو بالد من شباني وبرجال الحملة الصليبية عامة التي يقودها لويس السابع بتعضيده وبركات من السيد البابا . ولقد عبر القديس عن كبير أمله في جهود عمانوئيل لمناصرة قضية المسيحية مثلما فعل أجداده ، كما وأنه أكد في مكتوبه أن عمانوئيل كومنين « أمل العالم المسيحي شرقه وغربه »<sup>(٢٠)</sup> . ولا ندرى إذا ما كانت هذه العبارة

Ibid.

(١٨)

Ibid.

(١٩)

St. Bernard, ep. 462, in Opera Omnia, cols. 771 - 73.

(٢٠)

على لسان برنارد مجرد مجاز برناردى أنيق من طراز الإطراء المبالغ فيه ، أم أنه حقيقة كان يقصد ما قد كتب .

أرسل عمانوويل كومينين برسالتين وسفارة إلى البابا يوجينيوس الثالث ردًا على مكتوبه السابق موضحًا في الأولى استعداده لتسهيل مهمات الصليبيين إن هم وافقوا على أداءيمين الولاء والطاعة له مثليما جرت العادة على عهد أسلافه<sup>(٢١)</sup>. وفي الرسالة الثانية طلب الإمبراطور من البابا إيفاد أحد كرادلته مندوبا بابويًا مع الحملة الفرنسية ليحول دون إيقاع الصليبيين ضررًا بأراضيه وشعبه ، كما عرج على موضوع الوحدة بين الكنيستين<sup>(٢٢)</sup>. أما رسالته إلى لويس السابع ففيها تأكيد واضح عن استعداده للتعاون مع لويس بنفس الشروط السابقة . والمهم في هذه الرسالة الأخيرة أن عمانوويل يلقب نفسه بلقب « العاهل المولود في العباءة الأرجوانية ، امبراطور الرومان الأغسطس »<sup>(٢٣)</sup>. وهذا أمر له دلالته عند مخاطبة واحد من أقوى ملوك غرب أوروبا آنذاك .

هذا وجدت بالذكر هنا أن روجر الثاني ملك صقلية كان مدركاً للنعم الذي  
سيعود عليه إن هو شارك في هذه الحملة الصليبية بجهده ونفوذه . ولذا فإنه قد  
أوفد سفراً إلى المؤتمر الذي عقد في مدينة ايتماپ ( ١٦ - ١٨ فبراير ١١٤٧ )  
ليعرضوا على المؤمنين استعداد سيدهم لنقل الصليبيين إلى سوريا على سفينه  
وكان تزويدهم بالمؤئن الالزمة لهم طوال الرحلة . كذلك وعد بأن يشارك هو ذاته  
أو أحد أولاده في الحملة<sup>(٢٤)</sup> ولقد كان رسول عمانوئيل كوميني وكذا سفراً كونراد

F. Dölger Regesten der Kaiserurkunden des ostromischen Reiches, II, (21)

Monaco, 1921 n. 1348, ed. in S. Lampros pp. 112 - 14.

W. Ohnsorge, Ein Beitrag zur Geschichte Manuels I Von Byzanz Festschrift für Albert Brackmann (ed. L. Santifaller Weimar 1931) pp. 391-93.

R.H.G., Vol. XVI, pp. 9 - 10. (२३)

Odo of Deuil, *De Profectione Ludovici VII in Orientem* (ed. V.G. Berry) (14)

الثالث من بين الحضور في هذا المؤتمر . وقد عرض رسول عمانوئيل شروط سيدهم وأهمها أداء قادة الحملة الفرنسية يمين الولاء والطاعة له . وهنا تتصدى الوفد النورماندي للبيزنطيين وراحوا يشككون في نوايا الإمبراطور البيزنطي . على أن سفراً كونراد الثالث قابلوا هذه المظاهره النورماندية بفتور شديد مما قلل من شأنها . وفي نهاية الأمر قرر لويس السابع قيادة حملته عبر الأراضي البيزنطية ، أى أنه رفض عروض روجر الثاني . وهنا يجدلنا مؤرخ هذه الحملة — أودودي دويل — عن سخاء عروض روجر ، بينما يحجم عن ذكر اسم إمبراطور القسطنطينية في كتابه لأنَّه قد أُسقط من سجل الحالدين لخيانته للحملة الصليبية « الثانية » ؛ كما أنه يعيّب على سيده ثقته في بيزنطة التي أودت بشباب فرنسا وتأمرت على هلاكهم<sup>(٢٥)</sup> .

كانت الحملة الصليبية الثانية تختلف عن الأولى من حيث أن قادتها كانوا أقوى ملوك في غرب أوروبا : لويس السابع وكونراد الثالث . على أنه على عكس ما كان يتوقع كان المشاركون في هذه الحملة على نفس القدر من السوء الذي تميزت به الجماعات المشاركة في الحملة الصليبية الأولى . ففي الحولية المعروفة باسم *Annales Herbipolenses* نطالع أنَّ كثيرين من المشاركون في هذه الحملة كانوا لا يصلحون البتة لمثل هذه المهمة بسبب أوضاعهم الاقتصادية ، كما أن بعضهم ظاهر بالتقى والحماس الديني وإن كانوا في حقيقة أمرهم من المنافقين الشتاتيين<sup>(٢٦)</sup> . كذلك نجد في كتابات جرهون بعنوان *De Investigatione Antichristi* وصفاً أميناً بحسب الصليبية الثانية : فهم من فثاث العبيد والأقنان الهاريين من التزاماتهم ومن جماعات لا تفهم شيئاً في فن القتال ومن المفلسين وقطاع الطرق

Montmorency. He was Louis VII's chaplain for the Second Crusade.

In 1149 he returned with Louis to France. In 1152 when Suger died

Odo became the Abbot of St. Denis.

Ibid.

(٢٥)

*Annales Herbipolenses*, in M.G.H.SS. Vol. XVI, an. 1147.

(٢٦)

وجميعهم كانوا قد حملوا الصليب أولاً في النهب والسلب والغنم<sup>(٢٧)</sup>.

عندما أرسل عمانوئيل كومينين سفراً له للتفاوض مع لويس السابع في الشروط التي أصر عليها الأول لتسهيل مهمته عبر الفرنجة أراضي الإمبراطورية البيزنطية لم يكن كونراد الثالث قد قرر بعد حمل الصليب والارتحال إلى الشرق ، فلما وفدت الأنباء إلى البلاط البيزنطي بأن الملك الألماني أيضاً قد قرر المشاركة في الصليبية استشاط الإمبراطور البيزنطي وحكومته غضباً لهذا القرار . إذ أن ذلك كان يعني مضاعفة في العبء الذي كانت الإمبراطورية لا بد وأن تتحمل به أثناء عبور أكبر جيشين في غرب أوروبا : الفرنسي ثم الألماني . والمسألة التي باتت تقلق عمانوئيل هي أنه على حين أن لويس كان قد أرسل ما يفيد قبوله لشروط بيزنطة في قسم يمين الولاء والطاعة للبازيليوس ، لم ير العاهل البيزنطي كيفية ما يعامل بها الإمبراطور الروماني المقدس كونراد الثالث . كما أن قبول كونراد مؤخراً لقيادة حملة صليبية يجعله في حل من أية التزامات ارتبط بها الملك الفرنسي قبلة السلطات البيزنطية . وأيضاً كان تغيب كونراد عن مسرح الأحداث في غرب أوروبا يعني فرصة ذهبية لروجر الثاني الصقلي ليغزو الأراضي الغربية للدولة البيزنطية متهمزاً فرصة انشغال جيوش بيزنطة في مراقبة تحركات الصليبيين من آلان وفرنجة ، وفرصة رحيل عدو اللدود كونراد الثالث عن الغرب .

كان الألمان أول من ارتحل في الصليبية الثانية عبر الأراضي البيزنطية . وفي المحرر تلقى كونراد الثالث رسالة من عمانوئيل كومينين سامها له السفيران ديمتريوس ماركوبوليتيس واسكندر من جراشينا ، اللذان طلبوا باسم سيدهما من العاهل الألماني الإفصاح عن نيته إن كان قد قدم ورجاله أعداء أم أصدقاء ، وراح السفيران يبسطان شروط عمانوئيل : لئن كان كونراد صديقاً فعليه أن يأمر أتباعه النبلاء وقادة الجيش بقسم يمين الولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطي . وعلى هذا جمع الإمبراطور الألماني رجاله وحثهم على قبول مطلب البازيليوس . وبعدها زحف

---

Gerhoh, De Investigatione Antichristi, in M.G.H.SS., Libelli de Lite, (٢٧)

III, p. 305 seq.

الألمان إلى بلغراد . وحتى وصوّلهم إلى بلدة برانشيفو لم تحدث قلاقل بين الصليبيين وبين الكتائب البيزنطية التي كانت تراقب تحركاتهم عن كثب . ولقد أوضح كونراد في رسالته إلى ويبالد رئيس دير ستافيلوت أن البيزنطيين لم يتحرسوا برجاهه عندما دخلوا الأراضي الإمبراطورية<sup>(٢٨)</sup> .

على أنه سرعان ما أدى جشع الألمان وعجرفتهم إلى صدام بينهم وبين الكتائب البيزنطية ؛ إذ أصر الصليبيون على التهرب بأن رفضوا دفع أثمان الأطعمة والسلع التي أخذوها من البيزنطيين ، ولما احتج الآخرون قابليهم الألمان بالإهانة وضربات الحراب . ومن أمثلة الفظاظة الجرمانية ما حدث في إحدى الحانات على أطراف مدينة فيليبوبولس حيث عرج للراحة والشراب جماعة من الصليبيين ، وبینا هم يمرحون دخل الحانة أحد «الحواء» اليونان وطلب قدحاً من الخمر راح يحتسيه . وبعد قليل أخرج الرجل من جيب سترته الداخلية ثعباناً ووضعه على الأرض وراح يمارس ألاعيبه بقصد الفكاهة والمداعبة . على أن الألمان ، ولڪأنهم أبصروا شرآً مستطيراً ، أمسكوا بالرجل من عنقه وطروهه أرضياً ثم قطعوه إرباً بسيوفهم وصاحوا في صوت واحد بأن البيزنطيين قد عزموا على قتالهم بالسم الرعاف<sup>(٢٩)</sup> . وقد وردت هذه الحادثة في مؤلف أوودوي دويل في صدد تعریضه بمسالك الألمان ، لا حباً وعطفاً على البيزنطيين وإنما لتصویر غلطتهم وعجرفتهم وتحريشهم بالصلبيين الفرنسيين من بنى جلدته ؛ إذ دأب الألمان على السخرية من الفرنجية ونهب ما قد ابتعادوا من الأسواق أثناء عودتهم إلى معسكراتهم<sup>(٣٠)</sup> . ولقد مضى الألمان في غيرهم وسلبهم للمواطنين العزل مما دعى رئيس أساقفة فيليبوبولس ، الأديب المرموق ميخائيل أتاليكوس ، إلى أن يتدخل في الأمر ويطلب من كونراد الثالث معاقبة الذين أخلوا بأمن وسلم مواطني مدينته .

Wibald, ep. 48, in Jaffé, *Biliotheca Rerum Germanicarum*, I, p. 126. (٢٨)

Odo of Deuil, op. cit., III, p. 44. (٢٩)

Ibid. (٣٠)

ولما علم عمانوبل كومين بالجرائم التي ارتكبها الألمان ضد رعاياه العزل أرسل فرقاً بقيادة بروزوش للدفاع عن السكان . وبالفعل انقضت الكتائب البيزنطية على الجماعات التي أخذت على النهب والسلب وقاتلتها قتالاً مريضاً . ولقد حدث بعد أن رحل كونراد ومعظم أفراد جيشه الرئيسي عن مدينة أدريانوبيل أن تخلف أحد أقاربه بسبب مرض مفاجئ ألم به في أحد أحياء المدينة . على أن نفراً من أشقياء المدينة هاجموا الرجل وسرقوا ممتاعه وما له وقتلوه وواروه التراب إخفاء لجرهم . فلما علم كونراد بالخبر أوفد فرديريك السوبي ليتحرى الأمر . فما كان من فرديريك إلا أنه أشعل النيران في الدير وبقى على عديد من أهل المدينة وأعدمهم في التو؛ مما أدى إلى صدام بينه وبين بروزوش ورجاله<sup>(٣١)</sup> وبعدها أسرع فرديريك رجاله للحاق ببقية الجيش الألماني الزاحف صوب القسطنطينية .

كان كونراد قد خطط السير بجيشه في الطريق المؤدي من تشورلو إلى القسطنطينية . وفي طريقه قابل اندرونيكيوس أو بواس سفيراً من قبل عمانوبل لتقرير الملك الألماني على الجرائم التي ارتكبها رجاله ، وأيضاً ليطلب منه اتباع الطريق المؤدي إلى سيسنوس حيث كانت هناك سفن معدة لنقله وجيشه إلى آسيا الصغرى . كما أوضح له أو بواس أن عمانوبل سوف يعتبر مسيرة الألمان إلى القسطنطينية ضرباً من ضرب العدون السافر<sup>(٣٢)</sup> . ومع أن الطريق الذي أوصى به عمانوبل كان الطريق الأقل وعورة والأكثر أماناً للحملة الألمانية لأنه يؤدي بهم إلى سيسنوس ومنها إلى اللاذقية ، التي كان الطريق إليها في أيدي السلطات البيزنطية ، إلا أن كونراد أصر على السير نحو العاصمة البيزنطية في عناد وإصرار بالغين .

جاء رفض كونراد لمطلب عمانوبل ليزيد من عمق الهوة التي باتت تفصل بينهما . ولقد فكر الإمبراطور البيزنطي جديداً في قيادة حملة بذاته لمقاتلة الصليبيين الألمان وإجبارهم على الابتعاد عن عاصمته . وبالفعل أرسل القائدين بروزوش وبازل تريكانديلس ليعداً كميناً عند مدينة لونجا في المنطقة المتأخمة

Kinnamos, II, xiii, p. 71; conf. Choniates, I, V, p. 85.

(٣١)

Kinnamos, II, xiv, p. 72.

(٣٢)

لأدريانوبول<sup>(٣٣)</sup>. ويبدو أن عمانويل قد زحف ورجاله بالفعل لمقاتلة كونراد وجيشه ولكنَّه فجأة قرر العودة إلى العاصمة مستدعيًا الجنرالين اللذين كان قد سبق إيفادهما إلى لونجا<sup>(٣٤)</sup>.

وصل كونراد الثالث وقواته إلى فيليوباتيون ومنها عبروا قنطرة القرن الذهبي وأقاموا معسكراً عند بكرديون وجيوفيريَا . ومن هناك بدأت المفاوضات بينه وبين عمانويل كومينيَّن. ونجده هنا تناقضًا كبيرًا بين ما تورده المصادر الغربية وبين ما تطالعنا به المصادر البيزنطية : فبينما تتكلم المصادر اللاتينية عن لقاء أخوى بين العاهلين وعن هدايا إمبراطورية للملك الألماني<sup>(٣٥)</sup> ، تتحدث الأصول البيزنطية عن العلاقات بين الطرفين في تلك المرحلة بالذات في شيء من المراارة<sup>(٣٦)</sup> . وأغلبظن أن صداماً قد وقع خارج أسوار القدسية بين الألمان والبيزنطيين ، أعلن بعدها كونراد أنه قادم في العام التالي لحصار القدسية<sup>(٣٧)</sup> . ويفيد هذا الرأي ذلك التقارب الذي تم بين عمانويل كومينيَّن وسلطان قونية في تلك المرحلة بالذات . ذلك أن الإمبراطور البيزنطي لما استبيان نوايا الملك الألماني العدوانية رأى ضرورة التحالف مع السلطان التركي لمواجهة التحرشات الألمانية وأيضاً ليؤمن حدوده المتاخمة لسلطنة قونية في آسيا الصغرى ، وكذلك ليقاوم الغزو النورماندي لممتلكاته الغربية . على أنه إنصافاً للواقع يجب ملاحظة أن هذا التحالف بين بيزنطية وسلطنة قونية لم يكن موجهاً ضد الحملة الصليبية الثانية<sup>(٣٨)</sup> ، وإنما قصد به تأمين حدود الإمبراطورية في آسيا الصغرى .

**لما وصلت الأنباء بقرب قدوم لويس السابع ورجاله سارع كونراد الثالث**

Ibid.

(٣٣)

Ibid, p. 73.

(٣٤)

Annales, Palidenses, in M.G. H.SS.Vol. XVI, p. 82; Annales Casinenses, (٣٥)  
in M.G.SS. Vol. XIX p. 310.

Kinnamos, II, XV, p. 75; Cheniates, I, v, p. 87.

(٣٦)

Kinnamos, II, xvi, p. 79.

(٣٧)

ف طلب التفاوض مع عمانويل كومينين . والمعروف أن الملك الألماني لم يكن على وفاق مع ملك فرنسا في ذلك الوقت . ووافق عمانويل كومينين على نقل الألماان على سفنه إلى آسيا الصغرى كما وعد بإمدادهم بمرشدين من رجاله . كذلك أمر الإمبراطور البيزنطي بتوزيع الأسلحة على فقراء الحملة العزل (٣٨) .

وقد أرسل عمانويل كومينين رئيس حرسه الخاص لمقابلة كونراد والتفاوض معه في آسيا الصغرى ، طالباً منه إمداده ببعض الفرسان الألمان مقابل تعاونه معه في حربه ضد « السراكنة » (٣٩) . ولم يكن عمانويل بعرضه هذا يعني محاربة سراكنة قونية الذين عقد معهم معاهدة في تلك الآونة ، وإنما كان يقصد ، بطبيعة الحال ، سراكنة سوريا وبوجه خاص عماد الدين زنكي الذي كان قد استولى على الرها من أيدي الصليبيين ومن ثم فقد كان السبب الأساسي لقيام الصليبية الثانية . على أن كونراد رفض شروط عمانويل وتوقفت المحادثات بين الطرفين ؛ ومن بعدها أحجم العاهل البيزنطي عن تقديم أي عون أو نصح للملك الألماني .

اتبع كونراد وجيشه الطريق المؤدى إلى قونية عبر نيقوميديا ونيقيا . وفي نيقايا دب الخلاف بين البارونات ، إذ قرر أوتو اتباع الطريق المؤدى إلى اللاذقية . وآتاليا ؛ بينما أصر الباقيون على الزحف صوب قونية . وبعد مضي ثانية أيام من مسيرتهم اكتشف الصليبيون نقلاً في المؤى ؛ وسرعان ما بدأت المجاعة تنتشر في معسكرهم . ثم جاءت ضربات الأتراك المتلاحقة الخاطفة لتشييع الفزع في نفوسهم وذلك على مقربة من دوريلابوم .

ولقد كان في رفقة الألمان مرشد بيزنطي لمساعدتهم في التعرف على المسالك في آسيا الصغرى . فلما انهارت معنوياتهم لاذ هذا بالفرار خوفاً من اتهامه بالخيانة . ويتمم أودودى دوليل هذا الضابط البيزنطي بالخيانة وبأنه تعمد تضليل

الصلبيين في متأهلات آسيا الصغرى لكي يدفهم أحياه هناك بعد أن أعلم الترك بما كان تجمعاتهم<sup>(٤٠)</sup>. وبعد هزيمة ماحقة لحقت بالألمان عند باثيز قرر كونراد التقهقر إلى نيقيا. وكان هذا القرار المفاجئ كافياً لإشاعة الفوضى والفراغ بين رجاله، فانقض عليهم الترك ذبحاً وتقديلاً<sup>(٤١)</sup>. ولقد جرح كونراد ذاته أثناء المعركة، ويقدر عدد الذين هلكوا بسيوف الترك بحوالي ٣٠,٠٠٠<sup>(٤٢)</sup>. وبعد عنت مرهم وصلت فلول الجيش الألماني إلى نيقيا، حيث التقى كونراد بلويس السادس.

لقد كانت هزيمة صليبية كونراد ساحقة ماحقة بالفعل. هذا وتجمع المصادر اللاتينية دون استثناء على تجريم عمانوئيل كومينين في الحديث عن فشل حملة كونراد واتهامه اتهامات ثلاثة: أنه باع الألمان دقلياً مخلوطاً بالحجر الجيري؛ وبأنه أنقذهم عملية مزيفة، وبأنه استعدى عليهم الترك ودهم على تحركاتهم. والاتهام الأول ظهر بعد وصوفهم فارين من ضربات الترك إلى نيقيا. والواقع أن الوباء الذي تفشى في معسكرهم على أثر النتن الذي فاح من جثث القتلى العديدين قد ساعد على إطلاق هذه الإشاعة ضد السلطات البيزنطية. أما عن المعاهدة التي أبرمت بين عمانوئيل وسلطان قونية فقد أملتها تحرشات كونراد ورجاله بالأراضي البيزنطية. كما أن هناك نقطة هامة حدد الإمبراطور البيزنطي على أساسها سياساته تجاه الحملة الألمانية بوجه خاص: فالذي لاشك فيه أن آلية تعزيزات لاتينية كانت تصل إلى أنطاكية كانت تعنى مناعتها وبالتالي كانت سوف تؤدي إلى إحباط محاولات عمانوئيل كومينين في فرض سيطرته التامة عليها. وكونراد كان في حل من قسم يمين الولاء والطاعة لعمانوئيل، مما كان سوف يتركه سيد الموقف في سوريا لو نجحت مهمته في آسيا الصغرى. وأهم من هذا فإن تلك الفترة قد شهدت جهوداً لتوحيد الكنيستين البيزنطية والرومانيَّة، وكان الرأي

Odo de Deuil, V, p. 76.

(٤٠)

Michael the Syrian, op. cit., III, p. 276.

(٤١)

Odo de Deuil, V, p. 75.

(٤٢).

العام البيزنطي يأمل في اعتراف البابوية بعمانويل امبراطوراً رومانياً ، ولذا فإن أي نجاح يحرزه كونراد الثالث في الشرق اللاتيني كان سيؤدي حتماً إلى التقليل من شأن مطامع عمانويل كومين . كما أن الإمبراطور البيزنطي لم ينس أن والده قد أذل في سوريا (١١٤٢) باسم البابا والإمبراطور الألماني ، وذلك خارج أسوار أنطاكية . ويتفق في تأييد هذا الرأي كل من يوحنا كناموس المؤرخ البيزنطي ، ووليم الصوري المؤرخ اللاتيني (٤٣) . ولعل في هذا ما يفسر وجهة نظر عمانويل كومين الذي كان على يقين من أن أي نجاح يحرزه إمبراطور الألمان كان يمثل تهديداً مباشراً لصالح بيزنطية في سوريا وأيضاً في إيطاليا ، بل وفي غرب أوروبا كلها .

\* \* \*

تلقي جند الصليبية الفرنسية برؤس البابا يوجينيوس الثالث ، الذي زار فرنسا خصيصاً لهذا الغرض ، في عيد فصح ١١٤٧ في كنيسة سان دينيس . وتحركت جحافل لويس السابع من متز وورمز إلى فيرزبورج ، ومنها إلى راتسبيون ثم باساو . واستغرق عبورهم أراضي المجر خمسة عشر يوماً؛ مرروا بعدها خلال أراضي بلغاريا حتى وصلوا مدينة نيش ، أولى المداير في الأراضي البيزنطية من الجانب الغربي . وهنا يروي أوودودي دويل أنهم في تلك المدينة تعرفوا على العملة البيزنطية النحاسية المعروفة باسم ستاميناى التي ابتكاروها من أهلها بخمسة دينارات . أي أنهم كانوا يخسرون ماركاً كاملاً في تبديل ما قيمته اثنتا عشر سوليداً ، « وهكذا ما إن وطأنا أرض البيزنطيين » ، يقول الكاتب ، « حتى كان في ستقبالنا ذلك الغش اليوناني المعهود » (٤٤) . وينتقد نفس المصدر أساليب المداهنة والنفاق . والخداع في معاملات البيزنطيين ومفاوضاتهم الرسمية ؛ فعندما ضاق لويس السابع ذرعاً بنفاق السفير الذي جاء ليحييه ، صاح في وجهه أسقف لأنج리ه - جودفري - قائلاً : « أيها الرفاق ! لا حاجة بملوكنا إلى ألفاظكم المسولة

Kinnamos, II, xii, p. 70; William of Tyre, XVI, xxi.

(٤٣)

Odo de Deuil, p. 20.

(٤٤)

« صاحب الحالـة والـمجد والـحصـافـة والتـقـ » فـي كلـ عـبـارـة تـنـطـقـونـ بـهـا ، هوـ عـلـيمـ بـذـاتهـ وـنـحنـ أـيـضـاـ نـعـرـفـهـ جـيـداـ . أوـ لـأـتـعـرـفـونـ سـبـيلـآـخـرـ لـإـيـضـاحـ رسـائـلـكـمـ دونـ طـنـطـنةـ وـغـمـوضـ؟ـ !ـ »<sup>(٤٥)</sup> .

طلب سفراء عمانوويل من الملك الفرنسي أن يتعهد بالقسم هو وبلاوهه بـأـلـيـعـرـضـواـ مـدـنـ الإـمـپـراـطـورـيـةـ لـأـىـ عـبـثـ ؛ـ وـبـأـنـ يـرـدـواـ إـلـيـهـ ماـ يـقـعـ فـيـ أـيـدـيهـمـ منـ أـرـاضـىـ فـيـ حـوـزـةـ التـرـكـ كـانـتـ أـصـلـاـ ضـمـنـ أـرـاضـىـ الإـمـپـراـطـورـيـةـ .ـ وـلـمـ يـتـسـلـمـ السـفـرـاءـ رـدـاـ عـاجـلاـ مـنـ لـوـيـسـ السـابـعـ صـرـحـواـ لـهـ بـأـنـ سـيـدـهـمـ عـازـمـ عـلـىـ إـحـرـاقـ المـؤـنـ وـتـخـرـيـبـ الـطـرـقـ لـيـأـمـنـ شـرـ الصـلـيـبيـيـنـ وـلـيـحـمـيـ دـعـيـتـهـ مـنـ غـزـوـاتـهـ وـفـيـهـمـ »<sup>(٤٦)</sup> .

والواقع أن سكان الإمبراطورية في الجزء الغربي كانوا قد عانوا قد عانوا الأمرين على يد الجماعات الألمانية من حملة كونراد الثالث ، فلما دخلت أراضيهم جيوش لويس السابع أحجم الناس عن التعامل معهم بل وأغلقوا متاجرهم ودورهم ، وفي الحالات القليلة التي تم فيها البيع والشراء بين الجانبيين كان البيزنطيون يدللون بسلعهم من وراء جدرانهم مدلاة بالحبال . وأمام هذا هجوم الفرنسيين على المتاجر والدور وحطموها بعد نهب ما كانت تحويه من مال وسلح . ورغم هذا نطالع كيف أن أهالي صوفيا خرجوا لاستقبال الحملة الفرنسية في شرف زائد رافعين أمامهم الأيقونات والصلبان . وجاء حاكم المدينة ليوفر لهم ما كان يلزمهم من طعام وشراب ، كما يقرر ذلك أودو دي دوبل ذاته<sup>(٤٧)</sup> .

كانت بعض الفرق الفرنسية من جيش لويس السابع قد سبقت غالبية الحملة ووصلت القسطنطينية . وكان على رأس هؤلاء أسقف متز وشقيقه رينولد كونت مونسون ، ثم أسقف تول . ولا حدث توثر بين هؤلاء الفرنسيين ورجال كونراد الثالث ، تقرر أن تنتظر هذه الفرق في العاصمة البيزنطية حتى

Ibid., p. 28.

(٤٥)

Ibid.

(٤٦)

Ibid., III, p. 41.

(٤٧)

وصول بقية الجيش والملك إلى هناك<sup>(٤٨)</sup>. وطبقاً لرواية أودو دي دويل أغلق أهالي العاصمة الأسواق في وجههم بقصد إجبارهم على العبور إلى آسيا الصغرى، ونجحت الخطة. على أن نفراً من هؤلاء قد آثروا البقاء في المدينة ورفضوا اللحاق ببني جلدتهم على الشاطئ الآسيوي . وأمام هذا هجم عليهم فريق من الجنديين والكومان الذين كانوا في خدمة عمانويل كومينين . ولا علم سفراء لويس في القدسية بهدا هرعوا إلى الإمبراطور للشكوى من أجل « هؤلاء الحجاج الذين تعرضوا لوحشية الكفار في مدينة مسيحية » ، على حد تعبير أودو دي دويل<sup>(٤٩)</sup> .

أصدر الإمبراطور أوامره بالسماح لهؤلاء الفرنجة من جيش لويس السابع بإقامة معسكرهم على مقربة من أحد قصوره كما فتح لهم سوقاً خاصاً لتسهيل مهمتهم في البيع والشراء<sup>(٥٠)</sup> ولكن صداماً آخر وقع بينهم وبين البشناق . وهنا انطلق بعض سفراء لويس - أفراد من برتوبل ، ومناسيس من بيل ، وأنسلم سنيكال فلاندرز وغيرهم - شاهرين سيوفهم للدفاع عن بني جلدتهم ضد ضربات البشناق . ووسط هذا الصراع يعم اللورد أفراد من بارريه ، وباريليمبيو المستشار ، وأرشيبالد من بوربن . شطر القصر الإمبراطوري للاحتجاج على هذا العذوان . على أن عمانويل أقسم طؤلاء السادة أنه لا يعلم بأمر هذا الهجوم من جانب البشناق ، وطلب منهم العفو لرجاله ، ثم سمح للفرنجة بإقامة معسكرهم على مقربة من قصره كما أصدر الأوامر بإمدادهم بكافية المؤن اللازمة .

وفي هذه المرحلة من الأحداث نجد أودو دي دويل يلعن عمانويل كومينين وينعته بالخيانة ؟ موضحاً أن سفراء لويس السابع قد علموا آنئذ بأمر المعاهدة التي أبرمها الإمبراطور البيزنطي سرّاً مع سلطان قونية التركي .

ولعل أهم ما يستلفت النظر في كتابات هذا الراهب الفرنسي - أودو دي دويل -

Ibid. p. 50.

(٤٨)

Ibid.

(٤٩)

Ibid.

(٥٠)

تحامله الشديد على الكنيسة البيزنطية وعقيلتها وطقوسها . ومن خلال صفحاته التي كرسها للتسفيه من بيزنطة وكنيستها يدرك القارئ تلك الفجوة المهولة التي باتت تفصل بين اللاتين والبيزنطيين على المستوى العقائدي : فهو يذكر أنهم اعتادوا تطهير المذابح المقدسة في الكنائس إن تصادف وكان اللاتين قد استخدموها لأداء صلواتهم عليها ظناً منهم أن اللاتين قد دنسوها بطقوسهم . كذلك يذكر نفس المصدر أن البيزنطيين ، إذا ما تزوجوا من نساء لاتينيات أُجبر وهن على العmad مرة ثانية وفقاً للطقوس اليونانية . ويضيّ الكاتب في تعريف « هرطقات » البيزنطيين خاصة مسألة انبثاق الروح القدس من الألب فقط<sup>(٥١)</sup> . وهذه الأسباب مجتمعة فإن الصليبي ، علمانياً كان أو من جماعة الإكليرicos ، كان يؤمن ليماناً راسخاً أن بيزنطة كانت بمثابة العدو الألد له ولقضية الصليب ؛ بل وراح البعض من المسؤولين في الحملة يؤكّد أن خطر بيزنطة على المسيحية كان أدهى وأنكى من خطر الآتراك السلاغقة . ومن ثم فقد استحل الفرنخة دم البيزنطيين ، واعتبروا مقاتلتهم واحدة من مكرمات الصليبي الحقيق . وهذا ما نجده تماماً في كتابات أودودي دوويل<sup>(٥٢)</sup> .

أرسل عمانوئيل كومين رسله إلى لويس السابع لينصهحوه بتغيير خط سيره إلى سيسكتوس ضماناً لسهولة العبور وسرعتها ؛ ولكن الملك الفرنسي ، مثله في هذا مثل الملك الألماني من قبله ، رفض المشورة وواصل السير نحو القسطنطينية . وعلى مسيرة يوم من العاصمة التقى الملك بسفرائه الذين قصوا عليه ما وقع لبني جلدتهم في العاصمة البيزنطية كما أبلغوه بنباً المعاهدة السرية المبرمة بين بيزنطة وسلطان الترك . وهنا بدأت الأصوات في المعسكر الفرنسي تعلو منادياً بالاستيلاء على الأرضيّ البيزنطية وقلاعها ، كما طلبوا من الملك مكاثبة روجر الثاني الصقلي — الذي كان آنذاك يسلّد ضرباته لإملاك بيزنطة في البحر الأدرياتي — للمساهمة

Ibid., p. 51.

(٥١)

Ibid.

(٥٢)

بأنطوله ورجاله للهجوم على القسطنطينية<sup>(٥٣)</sup> . ولكن الملك لم يأخذ بهذا الرأى لأنه أراد مواصلة سيره إلى الأرض المقدسة .

عندما اقترب لويس السابع ورجاله من العاصمة البيزنطية خرج للترحيب بهم خيرة رجالات المدينة من علمانيين وكهنوت ، طالبين من الملك قبول الدعوة لمقابلة البازيليوس في قصره . وفي حين يروى أودو دي دويل أن سيده لقى استقبالاً إمبراطوريّاً في بهو القصر تبادل وقتها العاهلان القبلات والعناق ثم وبلغ إلى الداخل فجلسا على مقعدين أعدا خصيصاً لامتنابه<sup>(٥٤)</sup> ؛ نجد أن كناموس يروى قصة أخرى ؛ فهو يقول إنَّه جئَ بلويس إلى حيث كان عمانويل جالساً على عرشه ، ثم أجلس على مقعد صغير ليتمكن من الحادثة . وفي رأى هذا الكاتب البيزنطي أن ما سمح به للويس كان شرفاً بعيداً ؛ لأنَّه كان على سائر نبلائه الوقوف طيلة الحادثة<sup>(٥٥)</sup> . ومهما كانت الحال فإنَّ أغلب الظن أنَّ عمانويل رحب بضيوفه الفرنسي ترحيباً طيباً ؛ وعقب هذه المقابلة اصطحبه نبلاء البلاط إلى قصر فيلوباتيون الفاخر الذي خصص له أثناء إقامته في العاصمة .

سحر جمال القسطنطينية خيال صاحبنا أودو دي دويل ، الذي كان مرافقاً للويس السابع . والمدينة كما رأها هي مجد الإغريق ، ثرية في شهرتها وأزيد من هذا فيها تحويه من نفائس وأيات للفن . كما أن الجمال الأناذن الذي تفردت به آيا صوفيا وما احتوته من أيقونات وأثار مقدسة أخذ بالباب الفرنجية . هذا ولقد اصطحب عمانويل كوميني ضيفه لزيارة أضرحة القديسين في المدينة ؛ ثم أقام له وحاشيته مأدبة فاخرة ؛ كانت على حد تعبير أودو « تفوح شواء وتفيض أنبلدة يسيل لها لعاب الفم »<sup>(٥٦)</sup> على أن هذه الحاتمية قوبلت ، كالعادة ، بنكران

Ibid.

(٥٣)

Ibid.

(٥٤)

Kinnamos, II, xvii, p. 81.

(٥٥)

Odo de Deuil, IV, p. 66.

(٥٦)

للح米尔 وبشعور بالريبة من جانب الفرنجية ؛ إذ رأى أودو في هذا الكرم الزائد والفضل السابع تغطية لما كان عشر البيزنطيين في الخفاء يمكرون<sup>(٥٧)</sup> .

تقاطر الفرنجية من معسكراهم في خارج الأسوار إلى قلب المدينة الفاحشة البراء ، وراحوا يسبعون وهم الجشع في السرقة والابتزاز والعربدة<sup>(٥٨)</sup> . واستاء أهل العاصمة من مسلك هؤلاء « الحجاج » السكارى وفجورهم فاحتتجوا وكان جراوهم أن أشعل نار من الصليبيين الذين في الدور والمتأجر وأشجار الزيتون<sup>(٥٩)</sup> .

ويقص علينا أودو حدثاً له دلالته في إلقاء الضوء على الخلافات الطقوسية بين كنيسة الفرنجية وكنيسة بيزنطة : فيبينا كان لويس السابع في معسكره منتظرأً وصول بعض قواته القادمة من أبوابيا بحراً إلى دورازو ، حل عيد القديس دينيس . ولما كانت الكنيسة البيزنطية أيضاً تحفل بهذا العيد ، فإن عمانويل كوميني أرسل بنفر من خيرة القسيسين مزودين بدفوف ذهبية رائعة الزينة إلى معسكر الملك لينشدوا لهم صلوات الابتهاج بحلول العيد . ويقول صاحبنا الراهب الفرنجي - مؤرخ الصليبية الثانية - إن ما صاح به هؤلاء القسسين « كان غريباً على أسماعنا لغة ومعنى ؛ فهو مغاير لما اعتدناه في صلواتنا اللاتينية » . ولا يكتفى بهذا بالحادي بهذا القول ، وإنما يلمز بأن جل هؤلاء الكهنة كانوا من الخصيان<sup>(٦٠)</sup> . وعلى هذا فإن تلك اللفتة الإمبراطورية الكريمة قوبلت بالاستهزاء والسخرية وبأقذع الاتهامات في المعسكر الصليبي .

والواقع أن رجال الدين المرافقين للويس السابع بوجه خاص كانوا يضمرون عداوة شديدة لبيزنطة واحتقاراً فظياً لكتنيستها : فيها هوجوردري أسقف لأنجيري يهمس في أذن الملك أنه يحسن به مهاجمة القسطنطينية « مدينة الجناء والمراطقة ، أشياع كل الغزاة » . وأوضج الأسقف لسيده أن المدينة لا تحمل شيئاً من المسيحية

Ibid.

(٥٧)

Ibid.

(٥٨)

Ibid.

(٥٩)

Ibid. IV, p. 70.

(٦٠)

بين ظهرياتها عدا اسمها ، وذكره بما فعله يوحنا كورنيلين « والد هذا الترس ». في أنطاكية وكيف أندل الذل والهوان يالرهبان اللاتين في كيليكيا فحرق صوامعهم ، ثم طرد الأساقفة الفرنجية وأحل مكانهم هراطقة من عنده . وراح جودفري يقص على الملك كيف أن يوحنا كورنيلين حالف « الكفار » ضد الصليبيين لاستصال شأفتهم ، ولكن الله شاء أن يصيب هذا نفسه برمح مسموم ليتهي هكذا حياته المذبحة بالعار جزاء وفاقاً على جرمـه . وأنهى الأسقف الفرنجي حدـيثه للويس السابع مؤكداً له أن الصليب وضريح المسيح المقدس لن يكونا في أمان طالما جلس على عرش هذه المدينة العينة عمانوـيل هذا عدو القديس بطرس وعرشه الرسولي في أنطاكية<sup>(٦١)</sup> .

بذل عمانوـيل كورنيلين كورنيلين قصارى جهـده لإقناع لويس السابع بضرورة عبور البسفور إلى آسيا الصغرى . وأخيراً وافق الملك الفرنسي وتم العبور . وهناك كان على لويس أن يتـظر وصول بقية أجناده لمدة عشرة أيام . وفي أثناء ذلك هاجم نفر من الصليبيـين التجار البيزنطيـين الذين أتوا لتسهـيل مهمـة تغيـير العملات ونهـبوا كنوزـهم ؛ مما أساءـ إلى مشـاعر السـلطـات البيـزنـطـية فأـوقفـوا إـمـدادـ الفـرنـجـةـ بـالـأـسـوـاقـ الـلـازـمـةـ . ولـاـ طـلـبـ لوـيـسـ منـ عـمـانـوـيلـ إـعادـةـ فـتحـ هـذـهـ الأـسـوـاقـ المـغلـقةـ أـصـرـ الـأـخـيـرـ عـلـىـ تـأـديـةـ الـبـارـوـنـاتـ الفـرنـجـةـ يـمـينـ الـوـلـاءـ وـالـطـاعـةـ لـهـ ضـهـانـاـ لـحـسـنـ نـيـتـهـمـ . غـيرـ أـنـ الـبـارـوـنـاتـ وـالـأـسـاقـفـ رـفـضـواـ مـطـلـبـ عـمـانـوـيلـ وـانـبـرـىـ الـأـسـاقـفـ جـودـفـريـ يـقـولـ : « صـهـ ! هـوـ ذـاـ الـمـلـحدـ يـظـهـرـ ماـ كـانـ يـبـطـنـ . لـقـدـ أـتـىـ يـطـلـبـ مـنـكـمـ أـتـمـ تـبـعـيـتـهـ سـيـدـاـ عـلـيـكـمـ . . هـوـ الـذـيـ لـاـ يـصـلـحـ فـصـلـاـ لـكـمـ . أـمـاـ نـحـنـ – يـاـ سـيـدـيـ الـغـالـيـ – فـيـحـسـنـ بـنـاـ الـحـصـولـ عـلـىـ مـاـ نـبـغـيـ بـقـوـةـ السـيـفـ مـنـهـ . كـمـ وـأـنـاـ لـنـ نـرـضـيـ بـهـذـاـ الـوـثـنـىـ لـنـاـ سـيـدـاـ »<sup>(٦٢)</sup> .

تم لقاء ثان بين عمانوـيلـ كـورـنـيلـينـ وـلوـيـسـ السـابـعـ تعـهـدـ فـيـهـ الثـانـيـ بـالـأـ

يـسـتـوـلـ عـلـىـ أـرـاضـ كـانـتـ ضـمـنـ السـلـطـانـ الـبـيـزـنـطـىـ مـنـ قـبـلـ ؟ وـفـيـ مـقـابـلـ

Ibid.

(٦١)

Ibid., pp. 74 - 76.

(٦٢)

هذا وعد الأول بتزويديه بثلاثة من رجاله لإرشاد الصليبيين عبر مسالك آسيا الصغرى ؛ كما وعد بتسهيل مهمة إمدادهم بالمؤن الازمة . ولقد طلب عمانوويل من لويس تأييده له في صراعه ضد روجر الثاني الصقلي ، الذى كان قد أثقل ضرباته على أراضى الإمبراطورية ، ولكن لويس رفض المعاونة . ويبدو أن هذا كان كافياً لأن يحمل عمانوويل صليبية لويس السابع ويتركها وشأنها : فمع أن الأسواق قد أعيدت إلا أنها سرعان ما اختفت ، ولم يرسل عمانوويل المرشدين الذين كان قد وعد بإرسالهم للويس<sup>(٦٣)</sup> .

\* \* \*

عند وصول لويس السابع مدينة نيقيا التي بالملك كونراد الثالث جريحاً منكسرًا كاسيف البال وذلك عند قلعة لوبار . واتفق هناك على أن يتزود كونراد من جديد بالمؤن الازمة لمن تبقى من رجاله من مدينة نيقيا وبعدها يسرع للحاق بالفرنجية عند لوبار . وانتشر الفرنجة في كل حدب وصوب من الأراضى البيزنطية فنهبوا ما فيها . وسار الأئمان للحاق بجيشه الفرنجة في لوبار وكأنهم في موكب جنائزى رهيب بطله المتفوّ هو الكراهة الجرمانية . ومن هناك تقدم إلى الحيشان حتى فيلادلفيا ومنها إلى ميناء ادرميد . ولقد خبر الفرنسيون في جبال تلك المنطقة أهوا لا بشعة . ومن ثم فإن جماعة من الصليبيين الذين انهارت معنوياتهم ركبوا سفينة راسية في ادرميد وخرقوا عباب البحر ؛ بينما قرر آخرون العمل خدمةً لدى المؤمنين من البيزنطيين في ذلك الجزء الشرق من الإمبراطورية .

أما بقية جند الصليبية ، من ألمان وفرنجية ، فقد قصدوا إلى سيرنا ثم برغامة حتى وصلوا إلى سيروس . وهناك التي بهم رسول عمانوويل يحملون رسائل تحذيرهم من هجوم وشيك الواقع عليهم من جانب الترك وتصحهم بالاحتماء داخل القلاع البيزنطية في المنطقة<sup>(٦٤)</sup> . ولكن لويس الذي كان — على

Ibid.

(٦٣)

Ibid., VI, p. 108.

(٦٤)

حد قول أودو دي دوبل — يزدري الترك وأيضاً مشورة عمانوويل رفض النصوح . وهذا أبرز سفراء عمانوويل رسائل أخرى تحذر الملك من الانتقام الذي يتغويه رعایاه في تلك المنطقة بسبب ما حل بهم وبدورهم من خراب ونهب . والثابت أن أهالى آسيا الصغرى من البيزنطيين الذين قد جن جنونهم من قسوة الفرنجة كانوا قد عقدوا العزم على محالفة الترك ضدتهم انتقاماً منهم لما قد حل بهم وبتراثهم<sup>(٦٥)</sup> . وهذا تصدق رواية أودو دي دوبل في قوله بأن البيزنطيين أرشدوا الترك إلى معسكر الفرنجة ليلة عيد الميلاد ليأخذوهم على غرة<sup>(٦٦)</sup> .

في هذه المرحلة قرر الإمبراطور الألماني العودة إلى القسطنطينية لقضاء فصل الشتاء ضيفاً على عمانوويل كومين . وأغلب الظن أن كونراد الثالث أضطر للعودة بسبب شدة مرضه ، وإن كان كناموس يعزّو الأمر كله إلى السخرية التي تعرض لها الألمان من الفرنجة وللشعور الإمبراطور بتضليل شأنه إن هو بقي في معسكر لويس السابع<sup>(٦٧)</sup> .

دفع الصليبيون بأنفسهم بعد هذا إلى اللاذقية ، وجاءت الأمطار الغزيرة والثلوج لتزيد الطين بلة . وعلى هذا المنوال وصلوا إلى ضفة نهر المياندر حيث انقض عليهم الترك . وفي طريقهم إلى آتاليا هوجموا مرة أخرى وسقط الآلاف منهم صرعى في ساحة القتال . وفزع الباقيون منهم ففر البعض إلى حيث لا يدرى بينما سقط آخرون على الأرض إعياء ورعباً . أسرع لويس السابع لنجدته رجاله ، ولكن الترك أثقلوا ضرباتهم ، وتعرض الملك لخطر فادح هدد حياته ذاتها ، وهوت من حوله جثث الضحايا مخضبة بالدماء . « وهكذا » ينوح أودو دي دوبل ، « ذابت ورود فرنسا قبل أن تتفتح

B. Kügler, Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzuges, Stuttgart, 1866, (٦٥)  
p. 166.

Odo de Deuil loc. cit. (٦٦)

Kinnamos, II, xviii, p. 83. (٦٧)

براعمها في دمشق »<sup>(٦٨)</sup>.

يقول أودو دي دوييل إن البيزنطيين والترك اتفقوا على إبادة من تبقوا من الصليبيين سواء بتجويعهم أو بمقاتلتهم . ولذا فقد أطلقوا السائمة للتدمير كل عشب ونبات في طريق الفرنجة ، كما أحرقوا المحاصيل لحرمانهم من العيش . وأمام هذا اضطر الصليبيون إلى هجر خيولهم الجائعة المتهالكة ، وكذا تحذفوا بالقاء متابعيهم وخيماتهم وملابسهم وسلاحيهم لأن أحوالهم لم تكن لتسمح لهم بحملها أثناء فرارهم<sup>(٦٩)</sup>.

كانت الكارثة التي حلت بصلبية لويس السابع مهولة بالفعل : ولقد نجح الملوك أسباب الفشل الذريع في رسالة بعث بها إلى شوجير مقدم سانت دينيس . فهو يتهم عمانوويل كومينين بالخيانة ، ويشير إلى وعورة المنطقة الطبيعية وكراهيته أهلها للفرنجة ثم نقص المؤن في معسكره . على أنه عزا الشر الذي حاصل به وب الرجال إلى الآثام التي ترددوا فيها دون مراعاة لغضب الله<sup>(٧٠)</sup>.

بلغت الحنة غايتها في آنالييا ( ٢٠ يناير ١١٤٨ ) واندحرت معنويات البارونات إلى وحل اليأس والإيمان الحقيقي . وفي هذه اللحظة ظهر رسول عمانوويل كومينين ينصحون لويس السابع بأنه لم يبق أمامه سوى البحر يلوذ إليه مسلماً أمره وأمر السفينة إلى سيد العواصف . وأسلم لويس أمره إلى « عفو الله » وتمت مثل بولس الرسول « هاندا في التهلكة في بلة البحر . . . وفي البرية . . . وبين أنىاب الكفار . . . وفي شباك أخوة مزيفين ». وأبحر لويس والمقربون إليه على متن السفن التي أرسلها إليه عمانوويل كومينين ، ميممين شطر سوريا ؟ تاركين من خلفهم من تبقوا من الحملة ليموتون !

Odo de Deuil, loc. cit.

(٦٨)

Ibid., VI, p. 110.

(٦٩)

R.H.G, XV, xv, p. 496.

(٧٠)

Odo de Deuil, VI, p. 111.

(٧١)

وما من شك في أن هؤلاء الترسان قد صبغوا وهم يرقبون السيد الذي وضعوا آمالهم فيه ينسلا هارباً مع خلصائه تاركاً إياهم للهلاك المحقق.

أبخر مؤرخنا أودو دي دوويل مع لويس السابع من آتاليا . ولا ندري المصدر الذي استمد منه معلوماته عن بقية أفراد الحملة الذين تخلى عنهم لويس في آتاليا ؛ ويرجح أنه استقى أخبارهم من أرشيبالد من بوربون كونت فلاندرز ، الذي وكل إليه الملك مهمة ترحيل من تبقوا من الحملة .

لم يسمح البيزنطيون للصلبيين الاحتفاء داخل قلاعهم ، ولذا كان أمر ذبحهم على يد الترك شيئاً ميسوراً . على أن أودو دي دوويل يذكر أن الترك تحركت قلوبهم عطفاً على هؤلاء الترسان المخدولين وقدموا الطعام والشراب لمرضاهם ومعلميهم ؛ في حين أن البيزنطيين سخروا الأصحاء منهم في القيام بخدمتهم وكانتوا ينقدونهم لكيماً وضرباً مقابل خدمتهم . كما أن الترك اشتروا من البيزنطيين بعض العملات الفرنسية وقصدوها بها على الصليبيين . غير أن البيزنطيين قاموا بسرقة هذه الصدقات من جيوب هؤلاء البوساع . ولقد جاء عطف الترك هذا بأكبر الأثر وأعمقه على نفوس الفرنجة ؛ ولذا فإن ثلاثة آلاف منهم اعتنقوا الإسلام<sup>(٧٢)</sup> . ومن الثابت أن الترك لم يجبروا واحداً منهم على هجر مسيحيته .

جاهم لويس السابع ومن تبقوا معه من ألمان وفرنسا لكي يؤدوا شيئاً يذكر في سوريا . فاقترب عليه رaimond<sup>(٧٣)</sup> أمير أنطاكية أن يهاجم نور الدين أمير حلب ؛ بينما نصح بطريرك أورشليم بتوجيهه حملة ضد دمشق . وفي نهاية الأمر شارك لويس وجماهرة في حصار عسقلان الذي انتهى بفشل ذريع في صيف ١١٤٨<sup>(٧٤)</sup> . هنا ولم يكن جند الصليبية الثانية على وفاق

Ibid.

(٧٢)

Louis VII was shocked at the romantic intimacy between Raymond of Poitiers and Queen Eleanor. (٧٣)

R. Grousset, op. cit., p. 250; C. Cahen, La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades, pp. 379 - 82; S. Runciman, op. cit., II, p. 285. (٧٤)

مع الفرنجية في سوريا بسبب «خستهم وفوضويتهم» على حد تعبير وليم الصوري<sup>(٧٥)</sup>. وبعد سلسلة من الفشل المتلاحم تسلل اليهود من أفراد صليبيية ١١٤٧ عائدين إلى غرب أوروبا.

\* \* \*

وكما جرت العادة في الأوساط الكنسية والعاشرانية في غرب أوروبا اللاتيني التي ثقل اللوم جميعه في فشل الحملة على كاهم بيزنطة وإمبراطورها . على أن هناك بعض السطور الواردة في حوليات اللاتين تلوى اللوم على الصليبيين أنفسهم فنطالع في كتابات أحدهم أن ما حل بالصليبيين يرجع إلى عجرفهم وسوء خلقهم واستبدادهم بالرأي واستخفافهم بالسراكنة<sup>(٧٦)</sup> . ويدرك أتوه أسقف فريزنج أن هذه الصليبية قد شملت فيما شملت لصوصاً وقطاع طرق<sup>(٧٧)</sup> .

ولقد جزع الرأي العام في غرب أوروبا عندما وفدت الأنباء بفشل حصار عسقلان<sup>(٧٨)</sup> . وراح التقرير ينصب على رأس مبشر الحملة برنارد دي كليرفون ؛ خاصة وأن إشاعة كانت قد راجت آنذاك بأن أحباب القديس من جماعة الداوية قد خانوا قضية صليبية ١١٤٧ . على أن برنارد كان موقناً أن «أخلاقيات» الحملة كانت قد تمرغت في الطين ولذا نجده في «تأملاته» يصرخ قائلاً «بشرنا بالسلام وليس هناك سلام ، ووعدنا بالخير فعجلت من حولنا صنوف الشر»<sup>(٧٩)</sup> .

ولكن القديس برنارد اعتقد أن البيزنطيين لهم يد في أسباب فشل حملة

---

William of Tyre, XVII, vi. (٧٥)

Annales Herbipolenses, p. 399. (٧٦)

Otto of Freising, Gesta, I, 42, 44. (٧٧)

Reported by some historians, wrongly, as "Damascus." . (٧٨)

St. Bernard de Clairvaux, De Consideratione, II, i, col. 1021, in Opera Omnia. (٧٩)

١١٤٧ . ولا هاجم الأسطول البيزنطي السفن التي كانت تحمل لويس السابع والملكة اليانور من الشام نحو غرب أوروبا ، وذهب الجندي أمنعة الملكة هاج الرأى العام الفرنسي منادياً بالانتقام ، وأصبحت النظرية الحاكمة آنذاك ، والتي تشدد لإنفاذها شوحاً غير من سانت دينيس ؛ وبطرس الوقور ؛ والقديس برنارد دي كليرقوه ، أنه لا بد من توجيه حملة صليبية لتقليم أظافر البيزنطيين ومعاقبتهم على خياناتهم للقضية المسيحية .

الفصل الثامن

دبي نافورة والإمارات الصناعية

( ۱۱۸۰ - ۱۱۴۳ )

إن دراسة سياسات عمانويل كوميني تجاه الدوليات الصليبية في الشرق الأدنى أمر حتمي لتفهم علاقاته بغرب أوروبا بصفة عامة وبالبابوية على وجه الخصوص .

ولقد تغير ميزان القوى تماماً على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية: فاحتل الجزء الأكبر من مكاسب يوحنا كومين في كيليكيا قد ضاع على بيزنطة على لافر الثورة الأرمنية هناك . وأدى هذا إلى صراع دموي شمل البيزنطيين والأرمن والترك واللاتين . وساعدت الفوضى الناجمة عن هذا الصراع العناصر الأرمنية واللاتينية الطمرحة على توسيع نفوذها على حساب أراضي بيزنطة وإمارة نور الدين صاحب الموصل . وتاريخ هذه الفترة غامض وبخاصة في التفاصيل المتصلة بالثورة الأرمنية ؟ وذلك لأن الحواليات المقتضبة التي لدينا عن تلك الثورة مليئة بالتناقض وبالقصص الأسطورية عن الأبطال الأرمن وكفاحهم من أجل الاستقلال .

وبطل استقلال أرمينيا هو ثوروس ابن الزعيم ليو . وكان ليو هذا ولداته ثوروس وروپن ، قد وقعا أسيرين في يد يوحنا كومين . أما أبناء الزعيم الأرمني الثلاثة الباقيون : قسطنطين وستيفانوس ومليح فقد أفلتوا من يد الإمبراطور ، وبلغوا إلى قريتهم جوسلين كونت الراها . والصورة التي يرسمها المؤرخون الأرمن لثوروس محاطة بطار أسطوري . فهم مثلاً عندما يتحدثون عن فترة سجنه في القسطنطينية يصورونه بطلاً غرامياً إذ هنالك

وَقَعَتْ فِي حَبَّهُ أُمِيرَةٌ بِيَزَنْطِيَّةٌ أَمْدَتْهُ بِالْمَالِ الْلَّازِمِ لِاستِعْادَةِ أَرَاضِيِّ وَالدَّهِ  
الضَّائِعَةِ<sup>(١)</sup>.

وَهُمْ كَانُوا كَانُوا الْأَمْرُ فَإِنْ ثُورُوسْ وَصَلَ آنْزَارْبَا حِيثُ قَابِلَ صَدِيقَهُ الْوَفِيِّ  
أَثَانِاسِيوسْ الْثَامِنُ (١١٣٨ - ١١٦٦) بِطَرْيِرَكَ الْيَعَاقِبِيَّةِ السُّورِيَّيْنِ<sup>(٢)</sup>.

تَمَكَّنَ ثُورُوسْ مِنْ جَمْعِ بَعْضِ الرِّجَالِ حَوْلَهُ وَهَجَمَ عَلَى قَلْعَةِ آمُودَةِ  
وَاسْتَولَ عَلَيْهَا بِعِنْوَنِهِ سَكَانُهَا الَّذِينَ انْفَضُّوا عَلَى حَرَاسِهَا الْبِيَزَنْطِيَّيْنِ.  
وَقَتَّكُوا بِهِمْ<sup>(٣)</sup>.

بَعْدَ هَذَا النَّصْرِ انْفَضَ إِلَى ثُورُوسْ عَدِيدٌ مِنْ شَبَابِ الْأَرْمَنِ، كَمَا أَنَّ  
بَعْضَ الْلَّاتِينَ تَطَوَّعُوا لِلْمُحَارَبَةِ فِي صَفَّهُ ضَدَّ الْبِيَزَنْطِيَّيْنِ<sup>(٤)</sup>. وَبِهِذِهِ  
الْقَوَافِلِ الْجَدِيدَةِ تَمَكَّنَ ثُورُوسْ مِنِ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى عَدَدٍ بِلَدَانٍ مِنْ حَوْزَةِ  
بِيَزَنْطَةِ أَشْهُرَهَا ثَانِيَا<sup>(٥)</sup>. ثُمَّ تَزَوَّجَ ثُورُوسْ مِنْ ابْنَةِ سِيمُونَ حَاكِمِ مَدِينَةِ رَابِّانِ  
الْلَّاتِينِ<sup>(٦)</sup>. وَوَاصَلَ هَذَا التَّأْثِيرُ غَزَوَاتَهُ فَهَاجَمَ بَعْضَ الْفَرَقِ الْتُّرْكِيَّةِ وَهَزَّمَهَا  
ثُمَّ أَطْلَقَ سَرَاحَ الْأَسْرَى الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُمْ.

وَسَارَ الْبَطْلُ الْأَرْمَنِيُّ مِنْ نِجَاحٍ إِلَى نِجَاحٍ فَاسْتَوْلَى عَلَى سِمنِجَالَا،  
وَأَرِيُونَدَسْبِرْتَ فِي كِيلِيَّكِيَا، وَفِي عَامِ ١١٥٢ دَانَتْ لَهُ مُوَيَّسُوْسْتَا وَتُلِّيَ حَمْدُونَ  
مِنْ يَدِ الْبِيَزَنْطِيَّيْنِ، كَمَا أَنَّ تُومَاسَ قَائِدَ الْقَوَافِلِ الْبِيَزَنْطِيَّةِ وَقَعَ أَسِيرًا  
فِي يَدِهِ<sup>(٧)</sup>.

Chronique Rimée de la Petite Arménie, in R.H.C. Arm., Vol. I, p. 503: (١)

Documents Arméniens, Ibid., p. 618.

Michael the Syrian, Chronique, (ed. Chabot), III, p. 281. (٢)

Ibid. (٣)

Sempad, Chronique, in R.H.C. Arm., Vol. I, p. 618 (٤)

Chronique Rimée, p. 594; Sempad, loc. cit. (٥)

Michael the Syrian, loc. cit.; the Documents Arméniens (p. 342) give Jocelin instead of Simon. (٦)

Sempad, p. 619. (٧)

تعرض نفوذ بيزنطة في كيليكيا إلى خطر آخر تمثل في سياسة مسعود سلطان قونية ، الذي استغل الصراع الدائر في المنطقة وبدأ يتسع في كيليكيا ووادي الفرات على حساب ممتلكات ونفوذ بيزنطة . وكانت المنطقة الواقعة بين ميليتين وأنطاكية بقلالها الخصبة في قيسون وبهنسى وربان تحت إمرة بلدويين اللاتيني كونت ماراش<sup>(٨)</sup> .

توفى بلدويين في عام ١١٤٦ فخلفه في الإمارة شقيقه رينولد الذي كان متزوجاً من أجنس ابنة جوسلين صاحب الراها<sup>(٩)</sup> .

وفي يونيو ١١٤٩ توفي رينولد فألت أملاكه إلى صهره جوسلين . ولكن يحmi أراضيه من الغزوات القادمة من الشمال اضطر جوسلين إلى عقد معاهدة مع قلوج أرسلان ، ولكن الوفاق بينهما لم يدم طويلاً .

وفي سبتمبر ١١٤٩ سقطت ماراش في يد السلطان مسعود وتعرضت تل بشير لهجوم شديد أيضاً<sup>(١٠)</sup> . وأضطر جوسلين إلى الاعتراف بالسلطان سيداً إقطاعياً له ، كما تعهد بإطلاق سراح جميع الأسرى الترك كما قدم له هدايا نفيسة القيمة<sup>(١١)</sup> . وفي مايو ١١٥٠ وقع جوسلين أسيراً في يد الكتائب التركمانية التي كانت في خدمة نور الدين<sup>(١٢)</sup> ؛ مما سهل على الأتراك مهمة غزو كيليكيا . وبذلك أصبحت سلطنة قونية تملك ماراش ، فرزمان ، ربان ، قيسون ، ثم بهنسى ؛ واستولى قلوج أرسلان على بابولا ، جاكتا ، ثم جارجار<sup>(١٣)</sup> ؛ أما تمورتاش فقد سيطر على بير ، ساموساتا ، غورس ، وكفاسود ؛ وصار لنور الدين بلدان آراس ، كايليد (خالد)<sup>(١٤)</sup> .

<sup>(٨)</sup> Gregory the Priest, Chronicle, in R.H.C. Arm., Vol. I, p. 158.

<sup>(٩)</sup> Michael the Syrian, III, p. 275.

<sup>(١٠)</sup> Gregory the Priest, p. 162; Michael the Syrian, p. 296.

<sup>(١١)</sup> Michael the Syrian, p.p. 298 - 94; William of Tyre, XVII, X.

<sup>(١٢)</sup> Gregory the Priest, p.p. 165 - 66; Michael the Syrian, p. 296.

<sup>(١٣)</sup> Michael the Syrian, p. 295.

روبا وبيزنطة

وغيرهما من البلدان الصغيرة<sup>(١٤)</sup>.

باتت الإمارات اللاتينية في سوريا في خطر داهم أمام هذه الانتصارات الساحقة من جانب الأتراك . ولذا فإن أرملة أمير أنطاكية ، كونستانتس ، التي كانت أراضيها عرضة لهجوم وشيك الرقوع ، وضاعت نفسها وأملاكها تحت حماية بيزنطة<sup>(١٥)</sup> . ولقد رحبت السلطات البيزنطية بهذا ، وفي عام ١١٥٣ صدرت الأوامر إلى حاكم كيليكيا البيزنطي ، ليعرض على أرملة جوسلين ، بياتريس ، شراء ما تبقى من أراض في يدها مقابل مبلغ سنوي يحق لها ولأولادها من بعدها<sup>(١٦)</sup> .

وفي أثناء المباحثات بين البيزنطيين وبياتريس وصل بلد़وين ملك بيت المقدس في زيارة إلى أنطاكية وأحيط علماً بها . وقد ثار جدل عنيف بين الأمراء والبارونات اللاتين حول هذا الأمر : ففريق رفض الاعتراف بخطورة الموقف ورأى في تسليم أراضي بياتريس للسلطات البيزنطية اعترافاً بالعجز واليأس ؟ وفريق آخر نصح بضرورة تسليم بعض المناطق للإمبراطور البيزنطي بدلاً من ضياعها ليد الأتراك خاصة وأن الصليبيين كانوا عاجزين تماماً عن الدفاع عنها ، وكان ملك أورشليم مؤيداً لرأي الفريق الثاني ، ولذا فقد اصطبغ القوات البيزنطية إلى تل بشير حيث أشرف على تهجير بياتريس كونتيسة الرها وأبنائها وكذا السكان اللاتين والأرمن الذين رفضوا البقاء في المدينة في ظل الحكم البيزنطي . ثم سلم بلدُوين المدينة للسلطات البيزنطية . وتم نفس الشيء في عنتاب ، ورافندان ورانكولات ، وبيلا ثم ساموساتا<sup>(١٧)</sup> . وقامت قوات ملك بيت المقدس

Ibn al-Athir, Kamel el-Tawarikh, in R.H.C or , Vol. I, p. 481; Michael (١٤)

the Syrian, p. 297.

Kinnamos, IV, xvii, p. 178. (١٥)

William of Tyre, XVII, vi; Sempad, p. 619. (١٦)

Bar - Hebraeus, Chronicon Syriacum, II, p. 345; William of Tyre, XVII, (١٧).  
xvi; Michael the Syrian, p. 297.

بحماية عدد وافر من السكان الالatin والأرمن أثناء هجرتهم إلى أنطاكية ... على أن ما آلت إلى البيزنطيين هكذا دون قتال من أعمال إマرة الراها لم يلبث أن سلب منهم على يد نور الدين الذي ألحق بهم هزيمة نكراء في عام ١١٥٢ . وفي نفس الوقت استولى التأثر الأرمياني ثوروس على طرسوس وموبسوستا وأنخذ توماس دوق كيليكيا أسيراً للحرب . قوبلت هذه الأنباء بضيق شديدي في العاصمة البيزنطية واضطررت السلطات إلى اتخاذ موقف حاسم في كيليكيا . فعين الإمبراطور ابن عمه أندرونيكيوس . كومين دوقاً على كيليكيا . وأوفد معه القيسير يوحنا أرمل شقيقة عمانويل ، ماريا ، في مهمة خاصة إلى أنطاكية تلبية للرغبة التي كانت قد أبدتها أميرتها كونستانس . وكان على القيسير هذا أن يطلب يد الأميرة كونستانس . للزواج منه . ولكن أفضال أنطاكية استنكروا هذا العرض لأنهم رأوا فيه سيطرة للنفوذ البيزنطى على إمارتهم وأميرتهم . وأغلب الظن أن كونستانس رفضت الاقتران بالقيصر بسبب كبر سنها . ولما فشل القيسير في مهمته رجع إلى القسطنطينية واعتزل الحياة العامة وارتدى مسوح النساك<sup>(١٨)</sup> .

كان الدوق الجديد لـكيليكيا — أندرونيكيوس كومين — معروفاً بغرامه . النهم بالنساء وبحبه الجم للمسرح . ويحكي عنه أنه كان يصطحب معه فرقة من الكوميديين إلى ساحة المعركة<sup>(١٩)</sup> . وكان يختار ضباطه من يقدرون فيه هذه الملكات الفنية والمخاطر النسائية . هجم أندرونيكيوس ورجاله على مدينة موبسوستا ، حيث أقام ثوروس معسكره القيادي ، وضرروا حولها حصاراً . ولكن ثوروس ورجاله ثقباوا خارجاً في ذلك الجزء من سور المدينة الذي لم يكن أندرونيكيوس قد اهتم بحراسته . وذات صباح انقض القائد الأرمياني وفرسانه على معسكر أندرونيكيوس وهو في غفلة من أمرهم . وهزموا هزيمة نكراء ، قتل خلالها السباستوس ثيودور كونتيستيفانوس ، كما

Kinnamos. III, xiv, pp. 121 - 23; IV, xvii, p. 178.

(١٨)

Ibid., p. 123.

(١٩)

وقع كل ما احتواه المعسكر البيزنطي من عتاد ومؤن غنية في يد الأرمن . هرب أندرونيوكوس بعد هذه الهزيمة إلى أنطاكية ، ومنها عاد إلى القسطنطينية<sup>(٢٠)</sup> وقد توج ثوروس انتصاره هنا بالاستيلاء على عدة مدن أخرى من يد البيزنطيين ، مما زاد من هيئته بين أمراء أرمينيا ، فاعترفوا به سيداً عليهم .

اهتزت كرامة عمانويل كوميني على إثر الهزائم المتلاحقة التي أحلتها ثوروس بالقوات البيزنطية في كيليكيا . ولذا فإن الإمبراطور بحاجة إلى سلاح الدبلوماسية في مصارعته ثوروس ؛ ففتح باب المفاوضات مع سلطان قونية ، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال إن هو شن حرباً على ثوروس بمُوازرة القوات البيزنطية<sup>(٢١)</sup> .

هجم السلطان على كيليكيا ، ولكنه عندما حاول عبور جبال طوروس وجد مهاراتها مدققة ب الرجال ثوروس المسلمين . ولذا فقد آثر التفاوض مع التأثير الأرمني ، وطلب منه الاعتراف به سيداً عليه وإعادة المدن التي استولى عليها من البيزنطيين إليهم . وقد قبل ثوروس الشرط الأول من عروض السلطان مسعود ولكنه رفض التنازل عن شبر من الأراضي البيزنطية . واتفق الطرفان على هذا ووقد معاهدة صلح كانت بطبيعة الحال لمصالحة الطرفين ، ولكن على حساب بيزنطة<sup>(١١٥٣)</sup> .

ومع هذا فقد سعى عمانويل كوميني مرة أخرى لتأليب السلطان مسعود على ثوروس بأن يبذل له قدرًا من الذهب . وفي مايو ١١٥٤ وجه السلطان حملة بقيادة يعقوب لهاجمة ثوروس ، ولكن الذي حدث أن انقض جماعة الداوية ورجال ستيفانوس ، شقيق ثوروس ، عليهم في مر بورتللا الصيق الذي يصل كيليكيا بسوريا . وكانت هزيمة الترك في هذه

Ibid., p. 126.

(٢٠).

Gregory the Priest, p. 169; Sempad, p. 260.

(٢١) **الكتابية**  
ملك الأستاذ الدكتور  
رمزي زكي بطرس

الموقعة تامة، كما قتل فيها قائد الحملة يعقوب<sup>(٢٢)</sup>. هذا في حين أن وباء حل ب الرجال مسعود أثناء حصارهم لتل حمدون مما اضطره لرفع الحصار والتقهقر إلى قونية.

وفي عام ١١٥٥ توفي مسعود ، فاندلعت نار الحرب الأهلية في سلطنته. كما أن ولده وخليفة قاج أرسلان وقع في صدام شديد مع نور الدين صاحب حلب في وادي الفرات . وأمام هذا التحدى من جانب نور الدين عقد قلعة أرسلان معاهدة صلح مع ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية ثوروس الأرميني ، وذلك في عام ١١٥٧<sup>(٢٣)</sup>.

لما وصلت أنباء هذه المعاهدة إلى البلاط البيزنطي أرسل عمانوويل سفيره الكسيوس جيفارد محملا بالهدايا إلى بلاط قلعة أرسلان وإلى الأمير يعقوب أرسلان ، طالبا منها وعداً باحترام حدود الإمبراطورية في آسيا الصغرى (١١٥٨) . وبعد أن تم له هذا قرر قيادة حملة ضخمة بنفسه لتصفيية الموقف المعقد في كل من كيليكيا وسوريا .

كان عمانوويل قد شعر بالإهانة التي وجهتها إليه كونستانتس أميرة أنطاكية برفضها الزواج من القيسريون. ولقد زاد من غيظه أنها تزوجت في عام ١١٥٣ من مغامر صليبي يدعى رينولد دي شاتيليون الذي كان قد رافق لويس السابع من أورشليم إلى أنطاكية حيث التقى بالأميرة الفرنجية<sup>(٢٤)</sup>. وقد رأى عمانوويل في هذا الزواج تحدياً لأوامره ونكراناً لحقوقه على إمارة أنطاكية المتعارف عليها .

ولذا نجد أن رينولد بعث يطلب الصفح من الإمبراطور البيزنطي ميديا استعداده لتنفيذ ما يطلب منه لنيل رضاه<sup>(٢٥)</sup> . طلب عمانوويل منه أن

Gregory the Priest, . 172; Michael the Syrian, p. 347.

(٢٢)

Gregory the Priest, pp. 177 - 78.

(٢٣)

William of Tyre., XVII, xxvi.

(٢٤)

Kinnamos, IV, xvii, p. 178.

(٢٥)

يشن حملة على ثوروس ، متعهداً إمداده بالمال اللازم لتمويل هذه الحملة<sup>(٢٦)</sup> . وكان رينولد لا يمانع في الاستطلاع بهذه الحملة ؛ لأن ثوروس كان قد اغتصب حصن جاستين من جماعة الداوية . وبالفعل دارت الحرب بين رينولد وثوروس على مقربة من الإسكندرية . ويبدو أن النصر فيها كان لأمير أنطاكية على الأمير الأرمني<sup>(٢٧)</sup> . إلا أن الطرفين قد عقدا صلحًا ثم معاهدة للعمل سويا بغية تحقيق أطماعهما الشخصية . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً تحالف الاثنان على العمل سويا ضد البيزنطيين . ويحاول المؤرخ الصليبي وليم الصورى تبرير موقف رينولد بقوله إن الأخير لم يتلق المال الذى وعده به عمانويل كومين ، رغم أنه أفقد بالفعل حماة ضد ثوروس<sup>(٢٨)</sup> . ولذا فإن أمير أنطاكية قرر التعاون مع خصم عمانويل - ثوروس - للانتقام من خداع الإمبراطور له .

اختار رينولد وثوروس جزيرة قبرص الغنية بالخيرات مسرحاً لغامرتها المشتركة ، وجهازها أسطولاً لهذا الغرض . كانت قبرص في ذلك الوقت تحت حكم يوحنا كومين ، ابن شقيق عمانويل كومين ، يعاونه في إدارة شئونها ميخائيل براناس . ويبدو أن حاكم الجزيرة قد علم بطريقة ما بمشروع رينولد ضد الجزيرة ، ويدل على ذلك أنه عند رسو سفن رينولد كان براناس ورجاله واقفين له بالمرصاد ، في حين أن يوحنا ذاته كان مرابطًا بقواته في ليكوزيا (نيقوسيا)<sup>(٢٩)</sup> .

يزعم المؤرخ كناموس أن رينولد قد هزم على يد أهالى قبرص<sup>(٣٠)</sup> ، ولكن روایته هنا غير صحيحة . ونجده الحقيقة فيها كتبه وليم الصورى في

William of Tyre, XVIII, x.

(٢٦)

William of Tyre, loc. cit.; conf., Michael the Syrian, p. 350 gives the

(٢٧)

opposite version of the story.

William of Tyre, ioc. cit.

(٢٨)

Ibid.

(٢٩)

Kinnamos, IV, xvii, p. 179.

(٣٠)

هذا الصدد : فالقوات البيزنطية التي حاولت صد رينولد ورجاله منيت بالهزيمة واضطررت للتقهقر إلى ليكوزيا . ثم تعقب الغزاة القوات المتقهقرة وأسرروا القائد ميخائيل براناس . وعندما تقدم يوحنا كومين لمعاونة الفرق المتقهقرة مني هو الآخر بهزيمة فادحة بل ووقع أسيراً في يد رينولد . وبعد هذا أطلق الأمير الصليبي عصاياته في كل ركن من أركان الجزيرة لتجريدها من كل ثرواتها وخیراتها . وهكذا فإن مداشر الجزيرة وقرابها وكنائسها دورها وقعت فريسة للنهب والسلب والعبث . وعملت سيفون الفرنجية في الأهلين دون رحمة ، بل وتعرض النساء في صوامعهم للتشويه . وكان الحصاد من الذهب والفضة والأقمشة بجد وغير ، هذا إلى جانب أعداد مهولة من القطعان على مختلف صنوفها . على أن رينولد ، لكي يتتجنب مشقة نقل هذه الأعداد الضخمة من الماشية والقطعان على سفنه إلى أنطاكية ، فرض على أهل الجزيرة شراء مواشיהם وقطعاهم وبشمن باهظ . كذلك فرض ضريبة أسمها « جزية الحرب المقدسة » على سكان الجزيرة . ولضمان جباية هذه الضريبة قبض على عدد من وجهاء الجزيرة ورؤساء الدين رهائن لديه في أنطاكية<sup>(٣١)</sup> .

وقدت أحداث حملة رينولد هذه في عام ١١٥٦ ، وجاءت هذه الفعلة صدمة عنيفة للرأي العام . ولقد غضب الأمراء الصليبيون أقران رينولد في سوريا وبيت المقدس من مسلكه هذا ، لأن السلطات البيزنطية أغلقت جميع الموانئ في وجه السفن القادمة من الغرب إلى الإمارات الصليبية ، ردًا على هذا العدوان السافر . هذا وقد عنت بلهدوين الثالث ، ملك بيت المقدس ، الأمير الأنطاكى على خطئه أثناء حصارهما لمدينة شيزار<sup>(٣٢)</sup> . ولم يكن غضب بلهدوين دون مبرر : فإلى جانب كراهيته لشخص رينولد ،

William of Tyre, XVIII, xvii; Gregory the Priest, p. 187; Michael the Syrian, p. 350; Bar - Hebraeus, II, p. 325. (٣١)

William of Tyre, loc. cit.

(٣٢)

رأى في حملته على قبرص المسار الأخير في نعش التفاهم بين الصليبيين وبيزنطة ، وذلك في وقت بلغت فيه سطوة نور الدين أوجها ، مما بات يهدد كيان الإمارات اللاتينية بخطر محقق .

ورغم هذا فقد كتب بولدوين إلى الإمبراطور البيزنطي يطلب الصفح والغفران ، كما أوفد سفارة إلى القسطنطينية لتخطب له أميرة بيزنطية للزواج منه . ولکي يؤكد حسن نواياه أعلن الملك الصليبي أنه عازم على إخضاع السلطات الحاكمة في إمارة أنطاكية لطاعة عمانوويل كومين (٣٣) .

تألف سفراء بلدوين إلى العاصمة البيزنطية من إيتارد رئيس أساقفة الناصرة ، وهنفرى من تورون ، وجوسلين بيزو ، ثم وليم من باريه (٣٤) . وقد توفى رئيس الأساقفة أثناء زيارته للقسطنطينية . هنا ولم يسمح للأوفد اللاتيني بمقابلة عمانوويل كومين فور وصولهم العاصمة . على أنه بعد حين سمح لهم بذلك ، وتقرر تلبية طلب بلدوين بأن رشح الإمبراطور زوجاً له ثيودورا ابنة شقيقه إسحق . ووهب الإمبراطور ملكة أورشليم المستقبلة ١٠٠,٠٠٠ هايبير بيروى إلى جانب ٤٠,٠٠٠ أخرى وبعض الأحجار الثمينة والأقمشة والسيجاجيد وتحالفة من نفائس القصر الإمبراطوري . وأوفد معها وفداً من أعيان المدينة في رحلتها الميمونة مع السفراء الفرنجية إلى الأرض المقدسة .

وصلت ثيودورة إلى صور في سبتمبر ١١٥٨ ، ومنها تقدمت في موكيها إلى أورشليم حيث عقد قرانها على بلدوين الثالث على يد عموري بطريرك أنطاكية ؛ إذ كان بطريرك أورشليم متغياً في تلك اللحظة (٣٥) .

بعد أن وثق عمانوويل كومين علاقاته ببلدوين الثالث قرر قيادة حملة لتقليل أظافر المارقين رينولد وثوروس لفعلهما بشعة ضد أهالي جزيرة

Gregory the Priest, p. 189.

(٣٣)

Ibid.; William of Tyre, XVIII, xxii.

(٣٤)

Ibid.

(٣٥)

قبرص . ولکی يأخذ عدویه على غرة روج إشاعة مؤداها أنه قادم لمحاربة الترك<sup>(٣٦)</sup> . ورصف الجيش البيزنطي بقيادة إمبراطوره من آتاليا إلى سلوقيا حيث كان في انتظاره حاكمها الكسيوس كازيانوس .

لعب القدر دوراً بارعاً في إنقاذ ثوروس من قبضة عمانویل . ذلك أن أحد الحجاج اللاتين ، الذى كان قدماً من الشمال ، أبلغه أنه قد رأى الإمبراطور البيزنطي على رأس جيش هائل يزحف صوب الجنوب . جمع الزعيم الأرمني أفراد عائلته وكنوزه وفر إلى بطن الجبال . وتوارى هذا الهارب وذوه في بقعة تعرف باسم دادجيق ، لم يعرف عنها من قبل أنها آوت إنساناً ما<sup>(٣٧)</sup> . ولم يعلم ثوروس بملاده هذا أحداً عدا صديقه توماس وكوركيس . وكان بين الحين والآخر يخرج من كهفه هائماً في جبال طوروس ليتسقط الأنباء عن الانتصارات المتلاحقة التي حققها عمانویل كونمين في كيليكيا<sup>(٣٨)</sup> .

كان عمانویل قد دخل كيليكيا بعد هروب ثوروس ثلاثة أيام فقط<sup>(٣٩)</sup> ولم يلق مقاومة تذكر ، فاستولى على لاموس وكتسراموس وأنزربا وطروسوس ، ولوتحينياس ، ثم تل حمدون ، وعند حلول نوفمبر من عام ١١٥٨ أصبح عمانویل السيد المطلق لإقليم كيليكيا<sup>(٤٠)</sup> . أمر عمانویل أن يقام معسكره عند بوابات موسوسنا ، ثم بدأ يفكر في كيفية إذلال ينولد دي شاتيليون .

نظر رينولد بن حوله فرأى الإمبراطور وجيشه على أطراف إمارته يتأنبون للنيل منه ، ووجد أعداءه داخل أنطاكية مستبشرين ارتياحاً لما

Kinnamos, IV; xvii, p. 179.

(٣٦)

Dadjig was a castle in the Cydnus valley.

(٣٧)

Gregory the Priest, p. 187; Kinnamos, loc. cit.

(٣٨)

William of Tyre, XVII, xxiii.

(٣٩)

Gregory the Priest, loc. cit.; Kinnamos, IV, xvii, pp. 180 - 81.

(٤٠)

كان لا محالة واقع به من عقاب . وكان على رأس أعدائه في أنطاكية عموري بطريركها العنيد . ولقد بدأت العداوة بين الرجلين منذ عرض البطريرك زواج رينولد من الأميرة كونستانس . وانتقم الأمير من رجل الدين بأن قبض عليه وأمر بضربه ثم طلاه وهو عريان بالعسل وألقى به أرضاً نهراً للدغ الذباب في صيف أنطاكية القاتظ . ولم ينقذ عموري من الهوان سوى دفعه لرينولد مبلغاً ضخماً من المال اشتري به حريته . على أنه ما إن أطلق سراحه حتى فر يلتجيء عند بدويين الثالث ملك بيت المقدس<sup>(٤١)</sup> . كان طبيعياً أن يشمت بدويين الثالث وعموري في رينولد وأن يودا عقابه على يد عمانوئيل كومين . وكان رينولد مدركاً لهذا ، ولذا فقد بعث يعرض على البازيليوس تسليمه قلعة أنطاكية ولكن هذا العرض رفض بشدة . وهنا نصح لرينولد خلصاؤه بأن يسرع في وضع نفسه تحت رحمة الذات الإمبراطورية بدلاً من أن يخسر كل شيء .

عارى الرأس ، حاف القدمين ، ويداه أيضاً عاريتان حتى العنق الذي التف حوله حبل من مسد ، وقد أمسك بغمده من حده لا من المقبض جر رينولد دى شاتيللون قدميه على طول طريق موبوسونا حتى الخيمة الإمبراطورية . وكان يحيط به من حوله جمع من النساك عاري الرؤوس حاف الأقدام ، وهو يقدم خطوة ويؤخر أخرى قبلة مقام صاحب العباءة الأرجوانية . أما عمانوئيل كومين فقد كان متربعاً على عرشه محاطاً بالحاشية والحرس المدجج بالسلاح ؛ الذين وقفوا شاهرين سيفهم . وفي حين رکع القوم الذين قدموا مع الأمير النادم وهم يمدون أيديهم توسلا للرحمة والغفران ألقى رينولد بنفسه على الأرض عند قدمي الإمبراطور يشحد رضاه . تعمد عمانوئيل إطالة مدة هذا المشهد المهين إلى حد راح من طوله بعض المشاهدين في سنة من النوم .

وفي نهاية الأمر منح الإمبراطور عفواً مشروطاً للأمير الذليل . ومهما كان الأمر فإن من شاهد أو سمع عن هذا الإذلال من الفرنجية رأى فيه مهانة مقصودة للعنصر اللاتيني على إطلاقه . ويروى ولم يُسقِّف صور تفاصيل هذه الحادثة في أسي وحزن بالغين « بسبب العار الذي لحق بالفرنجية » في موبوسوستا<sup>(٤٢)</sup> . والذي زاد من قدر هذه المهانة وجود عدد كبير من السفراء من مختلف الأنصار والأقطار : من خراسان وبغداد وحلب وقونية ، ليشهدوا تلطيخ كرياء الفرنجية في وحل كيليكيا<sup>(٤٣)</sup> . وقبل أن يسمح عمانوئيل كومينين لأمير أنطاكية بـأداء قسم الولاء والطاعة له ، الذي كان عليه بموداه أن يسلم إلى الإمبراطور قلعة أنطاكية ، كان عليه أن يتعهد بقبول بطريقك بيزنطى لكرسى المدينة بدلاً من بطريقكها اللاتيني . ولم يكن هذا الشرط بداعية جديدة ، فهو التزام كان يصر عليه من قبل يوحنا كومينين ، ومن قبله الكسيوس كومينين عندما وقع اتفاق دبابولس<sup>(٤٤)</sup> مع بوهمند الأول . كذلك كان على رينولد إمداد عمانوئيل بعدد محدد من الكتائب للخدمة في جيش الإمبراطور وقما تدعى الحاجة إلى ذلك<sup>(٤٥)</sup> .

كان إذلال موبوسوستا انتصاراً كبيراً لبيزنطة على اللاتين في سوريا .

ونظر أهل الإمبراطورية إلى هذا الحدث على أنه حصاد كفاح مرير دام ستين عاماً مع جنس الفرنجية المتبربر . ولقد نظم ثيودور برودر وموس قصيدة لتخليد هذا الحدث التاريخي تحدث فيها عن دونية اللاتين وسيادة بيزنطة<sup>(٤٦)</sup> .

بعد ذلك بقليل وصل بلدوين الثالث وشقيقه عموري كونت يافا إلى أنطاكية . ومن هناك أوفدا جيوفرى مقدم دير معبد السيد المسيح ليطلب

Ibid.

(٤٢)

Kinnamos, IV, viii, p. 183.

(٤٣)

Kinnamos, IV, xxiv, p. 199; William of Tyre, XVIII, xxiii.

(٤٤)

Theodore Prodromus, Carmen, in R.H.C.Gr., Vol. II, pp. 303 seq.

(٤٥)

من عمانويل كومينين السماح لهما بزيارته . ويبدو أن البدوين كان يطمح في أن يقطعه الإمبراطور إمارة أنتاكية بدلا من رينولد<sup>(٤٦)</sup> . ولقد ذهب رجال البلاط لاستقبال البدوين على بعد من الخيمة الإمبراطورية . غير أن حادثاً صغيراً وقع فعكر صفو المودة بين الضيف والمضيف إلى حد : ذلك أن ملك أورشليم ، بقصد أو بغير قصد ، تقدم مهتماً جواده أبعد من النقطة التي كان يتحتم عندها أن يتوجل كائن من كان إلا الإمبراطور ذاته . وكان هذا الخرق لقواعد البروتوكول من جانب البدوين سبباً في فتور الاستقبال الذي لقيه من الإمبراطور<sup>(٤٧)</sup> . ومع ذلك فقد أقام البدوين ضيفاً على الإمبراطور عشرة أيام ، اتفق خلالها على أن يمد الأول الثاني بعدد معين من الكتائب . ولا يستبعد أن يكون البدوين قد أقسم يمين الولاء والطاعة لعمانويل أيضاً .

هذا عن قصة رينولد دى شاتيلليون . أما عن ثوروس فيبدو أنه طلب من بلهوين الثالث التوسط له لدى الإمبراطور لتسوية خلافه مع بيزنطة . وافق عمانويل كومين على أن يقدم ثوروس نفسه في مشهد شبيه بذلك الذى كان رينولد بطلاه الذليل . وقبل ثوروس هذا الشرط وأدى يمين الولاء والطاعة الذى طلب منه . وعليه فقد أقطع بالأراضى التى كان قد استولى عليها من الإمبراطوريتين<sup>(٤٨)</sup> .

وكما جرت العادة ، وزع البازيليون الهدايا الإمبراطورية على أتباعه وحلفائه . ويروى ولم يصرح أن نصيب بلدوين الثالث كان ٢٢,٠٠٠ هايبير بيري و ٣٠٠٠ مارك من الفضة<sup>(٤٩)</sup> وغادر بلدوين موسسونا عائدًا إلى أنطاكية ، تاركًا وراءه شقيقه عموري ، وهىومن إبلسين ليتلقيا

William of Tyre, XVIII, xxiii.

( ፭ )

Kinnamos, IV, xix, p. 183; William of Tyre, loc. cit.

(iv)

Kinnamos, p. 187.

( 5 A )

William of Tyre, XVIII, xxiv.

(49)

نصيبهما من الكرم الإمبراطوري <sup>(٥٠)</sup>

قبل حلول فصح ١١٥٩ أرسل عمانوئيل كومين سفيره يوحنا كاماتيروس إلى أنطاكية ليعلن وشك زيارته سيده للمدينة <sup>(٥١)</sup>. غير أن السلطات الحاكمة في أنطاكية أعلنت أنها لا تتصح بإتمام هذه الزيارة لأن هناك مؤامرة قد دبرها البعض لاغتيال البازيليوس <sup>(٥٢)</sup>. ولكن عمانوئيل كان مصرًا على دخول أنطاكية في موكب المتصرين ، فأرسل يطلب من أمراء إنطاكية بعض الرهائن ، كما أمرهم بعدم حمل سلاح ما إن أرادوا المشاركة في حفل استقباله .

كان دخول عمانوئيل كومين مدينة إنطاكية دخولاً مظفراً : فقد ظهر في رداء الإمبراطوري يتلألأً بالأحجار الثمينة ممسكاً بصويخانه على ظهر جواده .

أما رينولد دي شاتيليون ورفاقه الأمراء اللاتين فقد ساروا على الأقدام في تواضع جم بجواره . وأقى من خلفه ملك أورشليم على ظهر جواده دون أن يحمل سلاحاً . وكان في استقبالهم عند بوابة المدينة الشعب والإكليروس وعلى رأسهم البطريرك في كامل زيه الكهنوت ممسكاً بالأناجيل في يديه . وهنا علا رنين الأبواق وارتقت نعمات الترانيم الدينية ، وتقدم الموكب الحافل على البسط المفروشة في الطريق الرئيسي المؤدي إلى الكاتدرائية التي توجه منها الإمبراطور إلى قصره <sup>(٥٣)</sup> . ولمدة ثمانية أيام ارتفع العلم الإمبراطوري ليرفرف في أعلى قلعة المدينة ؛ كما أمر الإمبراطور بتوزيع الهبات والصدقات على أهلها . كذلك أمر بعقد مبارزات ودية بين فرسانه والفرسان اللاتين ، واشتراك بذاته في هذه الرياضة وأوقع بفارسین لاتينيين

Ibid.

(٥٠)

Ibid.

(٥١)

Kinnamos, IV, xxi, pp. 186 - 87.

(٥٢)

William of Tyre, XVIII, xxv.

(٥٣)

من على ظهر جوادهما أرضاً<sup>(٥٤)</sup>.

في آخر مايو ١١٥٩ رحلت القوات البيزنطية عن أنطاكية بقصد شن الحرب ضد نور الدين أمير حلب. وانضمت لهذا الغرض قوات الأمراء الالاتين إلى قوات بيزنطة. ضرب المتحالفون مسکراهم عند عواصي بالا استعداداً للقتال. غير أن البازيليوس قرر فجأة عدم القتال وعقد صلحًا مع نور الدين، تعهد الأخير بمقتضاه إطلاق سراح الأسرى الالاتين الذين كانوا في حوزته. كما وعد أمير حلب معاونة عمانوبل في حربه ضد سلطان قونية<sup>(٥٥)</sup>. كان عدد الأسرى الذين أطلق نور الدين سراحهم أكثر من ستة آلاف<sup>(٥٦)</sup> غالبيتهم من أفراد الحملة الصليبية الثانية. وكان من بين هؤلاء برتراند ولد الفونس جورдан وحفيد رaimond من سان جيل، ثم برتراند من بلانكافورت رئيس الداوية<sup>(٥٧)</sup>.

عندما قرر عمانوبل كوميني عقد هدنة مع نور الدين، رأى الأمراء الالاتين في هذا الإجراء مثلاً آخر من جبن البيزنطيين وغدرهم. كما أن الفرق الأرمنية التي كانت مشتركة مع القوات المتحالفة شاركت الالاتين في شعورهم بالماراة<sup>(٥٨)</sup>.

على أنه ينبغي ملاحظة أن عمانوبل كوميني عندما قدم إلى كيليكيا، وسوريا لم يأت بغية التعاون مع الأرمن أو الالاتين ضد نور الدين، وإنما العكس هو الصحيح، إذ أنه قد جاء ليعاقب أمير أنطاكية وزعيم الأرمن لهجومهما الغادر على جزيرة قبرص. وما من شك في أن الخطر الذي كان يمثله نور الدين على الإمارات الالاتينية كان عاملاً أساسياً من العوامل التي

Nicetas Choniates, III, iii, p. 142.

(٥٤)

Kinnamos, IV, xxi, p. 188.

(٥٥)

Ibid.

(٥٦)

William of Tyre, XVIII, xxv.

(٥٧)

Gregory the Priest, p. 191.

(٥٨)

شجعت عمانوبل على الزحف على كيليكيا وسوريا لتحقيق أغراضه ولتأكيد حقوقه على إمارة إنطاكية بقرة السيف . وأغاب الظن أن عمانوبل عقد صلحاً مع نور الدين بدلاً من مقاتلته ليبيقي عليه شوكة قوية في ظهر الصليبيين ، مما يترك الأمور في سوريا في شيء من التوازن الذي كان بالضرورة من مقتضيات الحفاظ على مصالح الإمبراطورية البيزنطية في المنطقة . يضاف إلى هذا أنه بهذا الصلح كسب إلى جانبه حليفًا يخشى بأسه ضد سلطان قونية . ومع هذا فإن المعاهدة التي عقدها الإمبراطور مع أمير حلب قد حققت مكسباً وافراً للصليبيين إذ بمقتضها أطلق نور الدين سراح ما يربو على ستة آلاف أسير صليبي ، كان من بينهم أفراد ذوو مكانة هامة .

بعد هذا رجع جيش عمانوبل بطريق سلوقيا — لاراندا . ولكن القبائل التركية في المنطقة انقضت عليه عند كاتايون (كوتاهية) وأوقعت به هزيمة نكراء<sup>(٥٩)</sup> . وما من شك في أن سلطان قونية — قلج أرسلان — هو الذي حرض القبائل على هجومها ضد الجيش البيزنطي ، كرد فعل طبيعي على المعاهدة التي أبرمها عمانوبل مع أمير حلب .

في عام ١١٦٠ أرسل عمانوبل كومينس سفيريه يوحنا كونستيفانوس، وثيوفيلاكت كبير الترجمة في مهمة خاصة إلى ملك بيت المقدس . كان على هذين السفيرين أن يطلبوا من باليوين الثالث يد إحدى الأميرات اللاتينيات للزواج من عمانوبل كومينس ، الذي كانت زوجته الألمانية إيريني قد توفيت في عام ١١٥٨ . وكانت رغبة البازيليوس تنحصر في واحدة من اثنتين : إما مليسيندادا شقيقة الكونت رaimond الثالث صاحب طرابلس ، وإما مارييا ابنة رaimond أمير إنطاكية المتوفى .

تشاور باليوين الثالث مع نبلائه في الأمر ، ثم قرر عرض يد ابنته

Ibid., p. 192.

(٥٩)

William of Tyre, XVIII, xxx; Kinnamos, V, iv, p. 210.

(٦٠)

أخته — ميليسيندا — على عمانوويل . والواقع أن ملاك بيت المقدس أراد أن يبعد الإمبراطور عن شئون أنطاكية خوفاً من ازدياد النفوذ البيزنطي في سوريا ، لأن تم زواجه من ماريا الأنطاكية . بدأ السفراء يتقصّون أخبار الأميرة المرشحة لمشاركة سيدهم في التاج الإمبراطوري وأرسلوا بتفاصيل دقيقة عن قوامها وجمالها إلى عمانوويل<sup>(٦١)</sup> . وفي أثناء ذلك بدأ رايمند في تجهيز اثنى عشرة سفينة للمناسبة السعيدة وراح يشتري لأنّه أغلى التفاصيل استعداداً للزفاف الميمون . وانتشرت الأخبار السارة في كل أرجاء الشرق اللاتيني ، فوفدت جماعات النبلاء من كل ركن إلى بلاط طرابلس حيث أمتعوا بفاخر المآدب والشراب ابتهاجاً بالمناسبة . وأطال الأضياف إقامتهم في بلاط رايمند في الانتظار وصول رسالة من القسطنطينية يحدد فيها عمانوويل موعد اللحظة المرقبة . ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يرد البة من هناك .

كان طبيعياً أن يزداد القلق في نفسى بلدوين و Raimond بعد أن انصر عام كامل دون رد من القسطنطينية . ولذا فقد طلبا من السفراء البيزنطيين البحث في الأمر . وأعلن رايمند أن هذا الزواج إن لم يتم فإنه لقاطع أواصر الصلة بالبيزنطيين ، كما أنه صرّح بعزمه على استرداد جميع ما أفقه من مال استعداداً لهذا الزواج<sup>(٦٢)</sup> . أما بلدوين فقد أرسل أوتو من رزبرج إلى العاصمة البيزنطية لكشف الأمر ، وهناك علم أن عمانوويل قد رفض الزواج من ميليسيندا<sup>(٦٣)</sup> . وسرعان ما انتشر الخبر في كل مكان وأشاع اضطراباً شديداً بين الأوساط اللاتينية خاصة في بلاط طرابلس إذ أعلن رايمند أنه سيقود حملة بحرية بنفس السفن التي كان قد أعدّها للزفاف ليُخرب سواحل الإمبراطورية انتقاماً للإهانة التي لحقت بشرف

Ibid., XVIII, xxxi.

(٦١)

Ibid.

(٦٢)

Ibid.

(٦٣)

أشتره من جراء تصرف عمانوويل كومين (٦٤) . أما السفراء البيزنطيون في طرابلس فقد انسلوا سرّاً من هناك وأبحروا هاربين في قارب صغير إلى قبرص .

انختلفت الآراء في تفسير الأسباب التي من أجلها رفض عمانوويل يد الأميرة ميليسيندا : إذ نجد كناموس يصرح بأنّ السفير كونستيفادوس اكتشف من خلال تحرياته الدقيقة أن ميليسيندا كانت من أصل غير شرعى ، ولذا فقد قرر العودة إلى العاصمة دون إتمام شيء (٦٥) . أما وليم الصورى فيقرر أن سبب عدول عمانوويل عن هذا الزواج تلك الأحداث المتلاحقة التي شهدتها أنطاكية : في ٢٢ نوفمبر ١١٦٠ وقع رينولد دى شاتيلليون أسيراً في يد الترك ، وتبين عن هذا أن نشط الحزب المعادى لبيزنطة في أنطاكية بتحريض من ثوروس الأرمني ، بهدف طرد كونستانس من حكومة الإمارة وإعلان ابنها القاصر ، بوهمند الثالث ، أميراً . وأمام هذا فقد كتبت كونستانس — سرّاً — إلى عمانوويل كومين تستنجد به بوصفه سيدها الإقطاعى هى وزوجها وفق معاهدة ١١٥٩ . وكانت كونستانس تخشى أيضاً نفوذ بلدوين ملك أورشليم ، الذى كان كارهاً لها وزوجها . ومن هنا جاءت سياستها الودية قبلة بلاط القسطنطينية .

أرسل عمانوويل يطمئن كونستانس وفي نفس الوقت طلب يد ابنته ماريا في الزواج منه . وأوفد لهذا الغرض بعثة دبلوماسية من كبير الأدواق الكسيوس ، ابن الأميرة آنا كومينينا ، ومحافظ العاصمة أندرونيكوس كاماتيروس (٦٦) .

ولما قدم بلدوين الثالث إلى أنطاكية علم بالأمر فحاول إحباط مشروع الزواج . ولكن الأمر كان قد قضى بعد أن وافقت الأميرتان الأم والابنة

Ibid.

(٦٤)

Kinnamos, V, iv, p. 26.

(٦٥)

Ibid., V, iv, p. 210.

(٦٦)

على مشروع عمانوبل . وبعد قليل سافرت ماريا إلى القسطنطينية <sup>(٦٧)</sup> . وفي ٢٥ ديسمبر ١١٦١ احتفلت أيا صوفيا بعقد قران عمانوبل كمنين على ماريا الأنطاكية ، وقام بالمراسيم لوقا بطريرك القسطنطينية ، يعاونه في ذلك سوفرونيوس بطريرك الإسكندرية واثاناسيوس البطريرك البيزنطي لأنطاكيه <sup>(٦٨)</sup> .

وثق هذا الزواج العلاقات بين بلاطى أنطاكيه وبيزنطة ، وأخذ النفوذ البيزنطى يزداد وضوحاً في الإمارة ، مما أزعج ملك بيت المقدس الجديد عموري وأيضاً بوهمند الثالث الأمير الأنطاكي . ولذا نجدهما يكتبان إلى الملوك لويس السابع في عام ١١٦٢ للشكوى من ازدياد نفوذ بيزنطة في سوريا - ورغم هذا فإن القوات البيزنطية حاربت جنباً إلى جنب مع اللاتين في كيليكيا ضد ذور الدين : فقد حارب دوق هذا الإقليم كولومان ورجاله معهم في موقعة القيع ضد أمير حلب . وفي أغسطس ١١٦٤ وقع الدوق البيزنطى أسيراً في موقعة حارم ، هو وبوهمند الثالث وراموند الثالث <sup>(٦٩)</sup> .

في هذه المرحلة كان عمانوبل كمنين منصرفاً لمحاربة المغارف في أوروبا الذين كانوا يمثلون خطرًا على أراضي الإمبراطورية . فاستغل ثوروس زعيم أرمينيا وأخوه ستيفانوس هذه الفرصة وراح يهاجمان على كيليكيا البيزنطية . وحدث أن دعا الدوق الجديد لـ كيليكيا ، أندرونوكوس إفوربيوس ، ستيفانوس إلى مأدبة عشاء ، تم فيها اغتيال الضيف ورجال حرسه جميعاً <sup>(٧٠)</sup> . وانتقاماً لهذا شدد ثوروس وشقيقه الآخر مليح ضرباتهما للبيزنطيين في كيليكيا وقتلا ما يزيد على عشرة آلاف منهم ثم استوليا على موبسرستا ، وانزاربا ، وفاججا <sup>(٧١)</sup> .

William of Tyre, XVIII, xxxi.

(٦٧)

Kinnamos, V, iv, p. 211.

(٦٨)

Ibn al-Athir, History of the A'abeks, p. 209; William of Tyre, XIX, ix.

(٦٩)

Michael the Syrian and almost all the Armenian chroniclers report,

(٧٠)

wrongfully, that Sdephanus was murdered by Andronicus Comnenus.

Sempad, pp. 621 - 22.

(٧١)

تدخل عموري ملك بيت المقدس ليفرض الصراع الدامي بين الأرمن والبيزنطيين في كيليكيا وعقد بينهما صلحًا ، ولكن سرعان ما نقض ثوروس العهد واستأنف مقاتلة القوات البيزنطية من جديد .

اضطر عمانوئيل كومينين بعد هذا إلى أن يعين دوقاً جديداً لإقليم كيليكيا : هو أندرونيوكوس كومينيروس ، وزوجه بمال وغير لخاربة ثوزوس والقضاء على ثورته الجديدة . على أن الدوق الجديد لم يكن رجل حرب، إذ دأب على قضاء جل وقته في مدينة أنطاكية ، حيث أقام علاقات ودية مع أميرتها وأل بيتها . وسرعان ما أوقع في حبائل غرامه الأميرة فيليبيا شقيقة زوج عمانوئيل كومينين . وهامت فيليبيا بأندرونيوكوس حباً وإعجاباً وأسلمت ذاتها كليّة لهذا الممثل البارع .

ولما علم الإمبراطور بهذه العلاقة بين الاثنين غضب غصباً شديداً ، إذ كان موقفناً أن أندرونيوكوس سيعيث بالصبية بغية تحقيق مآربه الخاصة في اغتصاب إمارة أنطاكية ذاتها . ولذا أقاله من منصبه وعين بدلاً منه كولومان الذي افتداه من الأسر . وقد أمر الإمبراطور هذا الدوق الجديد بالتردد على البلاط الأنطاكى ومحاولة كسب قلب فيليبيا وتأليها على أندرونيوكوس . ولكن الأميرة المدللة ، التي كان عليها أن تستقبل كواومان تنفيذاً لأوامر زوج شقيقها ، باتت تشكو علانية من إحلال هذا « الفارس الأشعث القوى » محل أندرونيوكوس الجميل ، كما وأنها كثيراً ما سخرت منه لقصر قامته . وقد تبع هذا نزاع حاد بين عمانوئيل وأندرونيوكوس ، قرر بعده الأخير ، وقد ميّج خليلته ، الرحيل عن أنطاكية . وقد حمل أندرونيوكوس معه الأموال الوفيرة التي كانت قد سلمت إليه لمهنته في كيليكيا<sup>٧٢</sup> . ووصل أندرونيوكوس بعد هذا إلى بيت المقدس حيث وجد ثيودورة أرملة بدوين الثالث فطارحها الغرام ، ثم هرب الاثنان معاً إلى بلاط أحد الأمراء المسلمين .

في عام ١١٦٥ أطلق الأمير نور الدين سراح بوهمند الثالث مقابل فدية تعهد الأخير دفعها . واتجه بوهمند مباشرة إلى القدسية حيث أعطاه عمانوويل كوميني المبلغ المطلوب منه<sup>(٧٣)</sup> . واصطحب بوهمند في عودته إلى أنطاكية بطريركاً بيزنطياً للمدينة ، مما يوحى بأن معاهدة ١١٥٩ التي أبرمت بين عمانوويل وريولد دي شاتيليون قد بعثت من جديد . على أنه ما إن وصل البطريرك البيزنطي إلى أنطاكية حتى ثار عموري البطريرك اللاتيني للمدينة وترك المدينة غاضباً بعد أن أصدر قراراً بالقطع ضدها<sup>(٧٤)</sup> . هذا وقد وثق بوهمند الثالث علاقاته بعمانوويل بأن تزوج من ثيودورة ابنة شقيقه الأول ،

ورغم هذا فإنه في بداية عام ١١٧٠ نشط الحزب المعادي لبيزنطة في أنطاكية وازداد نفوذه ، ويدلنا على ذلك حقيقة إعادة البطريرك اللاتيني عموري إلى عرشه البطريركي وإغفال حقوق بطريركتها البيزنطى<sup>(٧٥)</sup> .

\* \* \*

أما عن علاقات عمانوويل بملكية بيت المقدس ، فقد سبق ذكر أن بلدوين الثالث قد غضب من زواج البازيليون بماريا الأنطاكية بعد الإهانة التي ألحقها بابنته شقيقته ميليسيندا أميرة طرابلس .

توفى بلدوين الثالث في العاشر من فبراير ١١٦٢ فخلفه على العرش شقيقه عموري . وكان الملك الجديد يرى في سياسة عمانوويل عداء للصلبيين لا يقل عن عداوة الخانق الإسلامي لهم . وقد وضح موقفه هذا في الرسالة التي بعث بها إلى الملك لويس السابع في بداية عهده بالملك

William of Tyre, XIX, ii.

(٧٣)

Michael the Syrian, p. 360. Amouri retired to Koseir (Kursat), and his

(٧٤)

case was the cause of Pope Alexander III's anger in 1178. See Jaffé,  
3020.

William of Tyre, XX, xviii; Michael the Syrian, p. 339.

(٧٥)

يطلب فيها نجادات ضد « عدوان نور الدين وعمانويل على الإمارات اللاتينية »<sup>(٧٦)</sup>.

ولكن الرأى العام في غرب أوروبا كان قد صم أذنيه بعد الفشل التربيع الذى منيت به صليبية ١١٤٧ . وبهذا لم يتق عموري ردًا مطمئنًا من الغرب لاستنجاده المتكرر . وهنا أخذ عموري يتملق العاهل البيزنطى ويخطب وده . والذى دفعه إلى هذا التقارب ذات الخطير الذى كان يمكن فى مختلف نور الدين فى مصر والشام والذى كان يستهدف تطويق الفرنجية تماماً ومن هنا ولدت فكرة عموري فى قيادة حملة مشتركة مع بيزنطة ضد مصر التى كان النفوذ فيها وقىئت لنائب نور الدين : صلاح الدين الأيوبي .

أرسل عموري سفيريه هينيزلوس رئيس أساقفة قيسارية وأودو من سانت آماند رئيس جماعة الداوية للتفاوض مع عمانويل كومين فى أمر الحملة المشتركة ضد مصر ، وأيضاً ليخطبا له إحدى الأميرات البيزنطيات لتكون شريكة حياته<sup>(٧٧)</sup> .

نجح السفيران فى مهمتهما وعادا إلى أورشليم يصطحبان معهما الأميرة ماريا ابنة البروتيسبياستوس يوحنا كومين ، وممثل الإمبراطور : جورج باليلواغ والسيباستوس عمانويل كومين الأصغر . وتم حفل الزواج فى مدينة صور فى ٢٩ أغسطس ١١٦٧<sup>(٧٨)</sup> . كما أرسل الإمبراطور فيما بعد اسكندر كونفنسانو ، وميخائيل أوترانتو للتفاوض مع ملك بيت المقدس فى أمر الحملة المشتركة . وقد طلب عمانويل كومين جزاء اشتراكه فى الحملة نصيباً معيناً من الغنائم وكذا بعض الأرضى . ويبدو أن عموري لم يرض عن هذه الشروط فأرسل وليم رئيس أساقفة صور ، مؤرخنا المرموق ، ليتفاوض مع الإمبراطور فى هذه الشروط .

R.H.G., Vol. XVI, pp. 36 - 37, 39 - 40.

(٧٦)

Kinnamos, VI, xiii, p. 237; William of Tyre, XX, i.

(٧٧)

William of Tyre, loc. cit.

(٧٨)

لما وصل وليم الصورى إلى العاصمة البيزنطية علم أن الإمبراطور كان على رأس حملة لتأديب الصرب . ولا كان رئيس الأساقفة شديد الرغبة في إنفاذ مهمته على أسرع وجه سافر إلى بيتوليا (موناستير ) حيث استقبله الإمبراطور بالترحاب . وفي هذا اللقاء وقعت معااهدة بين الطرفين تعهد عمانوئيل بمقتضاها التعاون مع الملك عموري في حملة ضد مصر في العام التالي من اللقاء ، مقابل تسليمه نصف ما قد يقع من غنائم في أيديهم . ولما عاد وليم الصورى إلى أورشليم اكتشف أن الملك عموري قد رحل على رأس حملة إلى مصر<sup>(٧٩)</sup> .

هذا في حين أن عمانوئيل كومينين أمضى شتاء ١١٦٩ يشرف على تجهيز أسطول لنقل الكتائب البيزنطية التي كانت ستشارك عموري في حملته المتفق عليها . وعين الإمبراطور كبير الأدواق الكسيوس كونستيفانوس قائداً عاماً للحملة ، يعاونه في ذلك اسكندر من جرافينا وثيودور ماروزوبيس . وكان الأسطول البيزنطي يتتألف من ٢١٠ قطعة حربية وناقلة للمجندين<sup>(٨٠)</sup> .

وفي العاشر من يوليو ١١٦٩ أبحرالجزء الأكبر من الأسطول إلى جزيرة قبرص ، بينما أبحرت ستون ناقلة إلى الأرض المقدسة ليعلن قائدتها ماروزوبيس عن نبأ وصول الحملة إلى قبرص ، وكذا لينقل الفرسان الفرنجية الذين اتفق على سفرهم على الناقلات البيزنطية<sup>(٨١)</sup> . على أن القائد العام للحملة الذي كان متقدراً برجاله وسفنه في جزيرة قبرص لم يتلق ردّاً من ملك بيت المقدس ، فقرر الإبحار إلى الأرض المقدسة لتقصي الأمر بنفسه . وقد ذهل كونستيفانوس عندما اكتشف أن عموري لم يتم إتمام أية استعدادات توحى بأنه راغب في الاشتراك مع بيزنطة في هذه الحملة . وأمام هذا الواقع اضطر عموري إلى أن ينجز ترتيباته على أسرع وجه للمشاركة في الحملة .

William of Tyre, XX, iv.

(٧٩)

Dandolo, Chronicon, in Muratori, R.I.S.S., XII, p. 291.

(٨٠)

Choniates, V, iv, p. 208.

(٨١)

في ٢٥ أكتوبر ١١٦٩ وصلت القوات البرية إلى الفرما ، حيث التقت بالأسطول البيزنطي الذي نقلها عبر الفرع الشرقي لنهر النيل . وتقدمت بعض الفرق بحراً على الضفة الغربية لنفس الفرع قبالة دمياط ، التي وصلوها في ٢٧ أكتوبر وأقاموا معسكراً لهم . وبعد ثلاثة أيام وصل الأسطول ، ولكن تعذر عليه دخول ميناء المدينة بسبب السلسل الصخمة التي كانت تربط بين برجين كبيرين على الحانبين<sup>(٨٢)</sup> .

كان أمر حكومة مصر في ذلك الوقت موكولاً إلى صلاح الدين الأيوبي ، فائب نور الدين ، ووزير الخليفة الفاطمي في آن واحد . وحينها بدأ الفرنجية والبيزنطيون حصارهم لمدينة دمياط ، وقدت للمدينة تعزيزات ومؤن من قبل صلاح الدين ، لمواجهة هذا العدوان المشترك . كما قاوم أهل المدينة هذا الهجوم مقاومة مشرفه ، وقتلوا عدداً وافراً من المعتمدين<sup>(٨٣)</sup> . وسرعان ما نفذت مؤن الجيش البيزنطي ، في حين كانت لدى اللاتين كميات باقية . وعندما طلب البيزنطيون من حلفائهم بعض المؤن عرضوا بيعها لهم بأسعار خيالية . ولما اشتد بهم الجوع ، وزداد عنف المقاومة ببدأ الكثير من الجنود البيزنطيين يفكرون في الهروب . وزداد الأمر سوءاً عندما راجت إشاعة مفادها أن الملك عمرري قد انفق سرّاً مع صلاح الدين ، دون مشاورته مع السلطات البيزنطية . ويشير — هنا — نيكيتاس كونياتس إلى الفرقة التي حللت بين الخليفين ، مذكراً القارئ بقصة الأخوين بروميثيوس وأبيميشيوس ؟ من أعمال هزيود<sup>(٨٤)</sup> . هذا في حين أن وليم الصوري<sup>(٨٥)</sup> يؤقب الحانب البيزنطي لأن السلطات البيزنطية — في رأيه — قد فشلت في تحقيق التزامها في تزويد

William of Tyre, XX, xv. (٨٢)

See Beha ed - Din - Life of Salah ed-Din, II, v; Ibn al - Athir, Kamel el-Tawarikh, p. 567. (٨٣)

Choniates, V, vi, p. 214. (٨٤)

William of Tyre, XX, xvii. (٨٥)

الحملة بمال ومؤن كافية . كما وأن نفس المصدر يعتذر لبني جلدته في موقفهم هذا بأنه كان يتهم عليهم اختزان الفائض من طعامهم لغد غير مأمومة عواقبة<sup>(٨٦)</sup> .

جاءت الأنبياء إلى معسكر المعتدين بأن أعداداً وفيرة من الجند المسلمين كانوا في طريقهم إلى دمياط لنجدتهم إخوانهم ضد الفرنجة والبيزنطيين . وما إن بدأ البيزنطيون هجومهم على المدينة حتى ظهر عموري على ظهر جواده بين القادة البيزنطيين يطلب منهم وقف القتال ، معلناً لهم أن مفاوضاته مع الجانب المصري قد أسفرت عن تسليم المدينة إليه<sup>(٨٧)</sup> . وأغلب الظن أن الملك عموري تلقى أنباءً من أورشليم تفيد بأن نور الدين قد شدد هجماته على مملكة بيت المقدس ، مما اضطره إلى وقف القتال والإسراع في العودة للدفاع عن أراضيه . على أنه قد اتخذ هذا القرار دون الرجوع إلى حليفه كونستيفانوس ، وأمام هذا بدأ البيزنطيون رفع حصارهم عن المدينة استعداداً للانسحاب . وقد تخلاص الكثيرون من أسلحتهم بأن أشعلا فيها النيران ، تخفيقاً للعبء في رحلة العودة ( ديسمبر ١١٦٩ ) . واستقلت غالبية جند كونستيفانوس سفن الأسطول ، بينما تخلف هو بست سفن فقط . وقد وقعت سلسلة من النكبات للأسطول البيزنطي في البحر الأبيض المتوسط ، إذ حطمت العواصف عدداً من السفن<sup>(٨٨)</sup> . أما عن كونستيفانوس فقد رافق ملك بيت المقدس إلى عسقلان ، ومنها عاد إلى القدسية .

عندما عاد عموري إلى أورشليم اكتشف أن الخسائر التي تكبّلتها مملكته من جراء إغارات نور الدين أثناء تغيبه ثلاثة وخمسين يوماً في حملته على دمياط كانت فادحة . ونظر ملك بيت المقدس من حوله فأيقن أن إمارته باتت عرضة لحصار من الشمال على يد نور الدين ومن الجنوب من جانب

Ib'd.

Choniates, V, vii, p. 217.

William of Tyre, XX, xvii.

(٨٦) هـ ١١٦٩ .

(٨٧) هـ ١١٧٠ .

(٨٨) هـ ١١٧١ .

نائبه صلاح الدين في مصر . كما أدرك عموري أن لا تعزيزات يرجى وصوطاً في القريب العاجل من غرب أوربا . وهنا قرر الملك مرة أخرى طلب العون من الإمبراطور البيزنطي<sup>(٨٩)</sup> .

قرر عموري القيام بزيارة رسمية للعاصمة البيزنطية لمقابلة البازيليوس . فأرسل فيليب من نابليون مقدم الداوية ليعلن عن مقدم سиде . وفي العاشر من مارس ١١٧١ أبحر ملك بيت المقدس من عكا ، يرافقه وليم الصوري ، وجيرموند من طبرية ، ويوحنا من أسور ، وجيرارد من بوحى ، وراموند من نفرين<sup>(٩٠)</sup> .

رست السفن المقلة لعموري وحاشيته عند جالبيولي حيث كان في استقباله حموده يوحنا كوميني على رأس بعض الفرق البيزنطية لمرافقته الضيف المرموق إلى أرجله ثم منها إلى المرسى الخاص بالإمبراطور في بوصوليون . وكان رجالات البلاط في استقبال عموري هناك ، ثم رافقوه إلى القصر الإمبراطوري حيث استقبله عمانويل كوميني في قاعة العرش . وقد احتفى الإمبراطور بضيوفه وحاشيته وأقام المأدبة الفاخرة تكريماً لهم وسمح لهم بمشاهدة آثار الآلام المقدسة [ وهي جزء من صليب الصليوبت ، المسامير ، الحرفة المقدسة ، قطعة الإسفنج التي قدم بها اليهود خلا بدلاً من الخمر للمسيح المصلوب ، ثم إكليل الشوك ]<sup>(٩١)</sup> .

أظهر عمانويل كوميني عطفه على قضية ملك بيت المقدس ووعده بالمساعدة ضد أعدائه ، ثم أبرمت معاهدة بين الطرفين ( ١١٧١ ) تعهد فيها الإمبراطور بمساعدة الملك ضد نور الدين وصلاح الدين . هنا

Ibid., XX, xxii.

(٨٩)

Ibid.

(٩٠)

F. de Mély; 'La Croix des Premiers Croisés', in Supplementary Vol. to

(٩١)

P. Riant, Exuviae Sacrae Constantinopolitanae, Paris, 1904, III,  
pp. 39 - 172.

ويروى كناموس أن عموري قبل ، في مقابل هذا ، أن يصبح « رجل الإمبراطور » أي تابعه الإقطاعي<sup>(٩٢)</sup> . ويؤيد قول كناموس هذا ذاك النص المنقوش في كنيسة بيت لحم ، الذي يرجع تاريخه إلى عام ١١٦٩ ، والذى يعترف فيه عموري بعمانوبل كومين سيداً له<sup>(٩٣)</sup> .

في عام ١١٧٤ اتفق وليم الثاني ملك صقلية مع عموري ملك بيت المقدس على قيادة حملة مشتركة بنهما ضد مصر . ولما علم عمانوبل كومين بأمر هذا الاتفاق رأى فيه خرقاً للمعاهدة المبرمة بينه وبين عموري في عام ١١٧١ . ولذا فقد أبلغ الإمبراطور البيزنطي صلاح الدين الأيوبي بأنباء تحركات الحملة النورماندية أولاً بأول . وفي ١١ يوليو ١١٧٤ توفي عموري تاركاً النورمان ليضوا في حملتهم بمفردهم<sup>(٩٤)</sup> .

جدد ملك بيت المقدس الجديد ، بلدويون الرابع ، معاهدة ١١٧١ مع بيزنطة ، كما اتفق مع عمانوبل كومين على قيادة حملة مشتركة ضد مصر . ولكن هذه الحملة لم تم بسبب تغير المحادثات بين الطرفين . في السنى الأخيرة من حكمه أظهر عمانوبل كومين عطفاً بالغاً على اللاتين في الشام : فعندما وقع الكونت هنري من شامبانيا أسيراً في يد أتراك آسيا الصغرى افتداه الإمبراطور بمبلغ كبير من المال<sup>(٩٥)</sup> . وفي نهاية عام ١١٧٩ ، كان وليم الصورى عائدًا إلى الأرض المقدسة بعد مشاركته في المجمع اللاتيراني الثالث برومَا ، فتوقف في القدسية لمدة سبعة أشهر وهناك أكرم عمانوبل وفاته كما تبرع له بهبات قيمة للكنيسة صور . كذلك دعى رئيس الأساقفة هذا في الحفلين الذين أقيماً ابتهاجاً بزواجه ابن الإمبراطور وابنته (الكسيوس وماريا)<sup>(٩٦)</sup> . وفي عام ١١٨٠ أوفد

Kinnamos, VI, x, p. 28.

(٩٢)

See M. de Vogue, Les Eglises de la Terre Sainte, Paris, 1860, p. 99.

(٩٣)

F. Chalandon, Histoire de la Domination Normande, II, p. 395.

(٩٤)

R.H.G., Vol. XVIII, p. 249.

(٩٥)

William of Tyre, XXII, iv.

(٩٦)

ملك بيت المقدس السنکال جوسلين ليطلب عون القوات البيزنطية لملكته ضد أعدائها ، وقد أقام السفير في العاصمة البيزنطية حتى بعد وفاة عمانويل كومينين في نفس العام<sup>(٩٧)</sup> .

وقد كتب وليم الصوري الكثير عن صفات عمانويل الحسنة وعن تسامحه وكرمه الراشد ، كما أوضح أن ذكرى هذا البازيليوس ستظل تتلى في كنيسة القديسين في مدينة صور بسبب هباته الكثيرة لها<sup>(٩٨)</sup> .

---

Ibid., XXII, v.

(٩٧)

Ibid., XVI, xxviii; XVII, xvii; XVIII, ;xvi; XX, xxii; XXI, xii.

(٩٨)



## الفصل التاسع

### العلاقات السياسية بين بيزنطة وغرب أوروبا

من ١١٤٧ إلى ١١٨٠

في الوقت الذي كانت فيه بيزنطة مهددة بجيوش الحملة الصليبية الثانية ، تكبت بغزو غربي آخر من جانب النورمان . فقد سبق أن ذكرنا أن روجر الثاني الصقلي قد حاول في مجلس ايتامب أن يقنع الملك لويس السابع بالسفر بصلبيته عن طريق صقلية . وكان هدف روجر من هذا بسط نفوذه على أمور الإمارات اللاتينية في الشرق ، حيث يمكنه مضايقة السلطات البيزنطية بصورة مباشرة . على أن نفوذ الإمبراطور الألماني كونراد الثالث قد حطم خطط روجر الثاني في السيطرة على صلبيبة ١١٤٧ .

ومع أن خطة روجر قد باعت بالفشل ، إلا أنه استغل فرصة تغيب كونراد الثالث من غرب أوروبا وراح يقلم أظافر الإمبراطورية البيزنطية بالتحرش بحدودها الغربية . وجاء الصدام الذي وقع بين عمانويل كوميني وكونراد الثالث أثناء عبور حملته للأراضي البيزنطية ليزيد من فرص روجر الثاني في تشتيت ضرباته للأراضي البيزنطية . في النصف الثاني من عام ١١٤٧ تحرك الأسطول النورماندي من أوترانتو إلى جزيرة كورفو واستولى عليها <sup>(١)</sup> . ثم سقطت في يده بعد ذلك مداين مشنا ، ومومنيسيا ، ونوبليا ، كما نهبت قواطه يوبايا ونجروبونت وأثينا . كذلك وقع تحت طائلة يده جزيرة سيريجو ، وأراس ماليا ومنطقة سيرق . أما مدينة طيبة فقد دمرت عن كاملها ثم سيقت نسواتها أسيرات للحرب إلى مدينة بالرمي بচقلية لتعليم

Nicetas Choniates, II, i, p. 97; Kinnamos, III, ii, p. 92; Otto of Freising, ( ١ )  
Gesta, I, xxxiii.

أهلها صناعة الحرير التي اشتهرت بها . كذلك نهبت كورنة واستولى النورمان على رفات القديس ثيودور ونقلوها إلى جزيرة كورفو . وبعد هذه القرصنة عاد الأسطول المنورمانى محملاً بالأسلاب والأسرى إلى جزيرة صقلية (٢) .

كان هذا التحدي النورمانى السافر لأراضى بيزنطة مدعاه لأن يطلب عمانوبل كومين من لويس السابع ثم من كونراد الثالث معاونتهما ضد روجر الثاني ، ولكنهما رفضا المعاونة . ولذا فقد عقد عمانوبل صلحًا مع سلطان قونية ليؤمن حدوده في آسيا الصغرى أثناء كفاحه ضد روجر الصقلى . كذلك فتح عمانوبل باب المفاوضات مع جمهورية البندقية ، التي باتت مصالحها التجارية في الأدریاتی مهددة أمام التفозд المتزايد للنورمان في تلك المنطقة . ولقد منع عمانوبل كومين جمهورية سان مارك امتيازات تجارية طائلة في قبرص ورودس كما خصص لها مرسى بحرياً رابعاً في ميناء القدس طينية ، وذلك في مقابل وضع أسطولها في خدمته وتطوع البندقة المقيمين في الإمبراطورية للحرب ضد النورمان .

جهز البازيليوس جيشاً ضخماً وأسطولاً لمقاتلة « تنين الغرب »، عدو المسيحية الأكبر ، الذي يحكم صقلية اغتصاباً » (٣) . ولقد باركت الكنيسة البيزنطية حملة عمانوبل هذه ضد « آماليك » (٤) . ولحق أسطول جمهورية البندقية بالأسطول البيزنطى عند اسكي - ساجرا . وهناك التقى عمانوبل بالإمبراطور كونراد الثالث أثناء عودته من عكا ، وتوجه العاهلان سوياً إلى القدس طينية ؛ حيث أمضى الضيف الألماني أعياد ميلاد ١١٤٨ مع عمانوبل كومين ، وحيث شارك في حفل زواج هنرى دوق النمسا من الأميرة البيزنطية ثيودورة . كذلك ناقش الطرفان مشروع زواج ابن كونراد

Otto of Freising, loc. cit.

( ٢ )

Ghoniates, II, ii, pp. 102-103.

( ٣ )

Ibid.

( ٤ )

الثالث من إحدى أميرات البيت المالك في بيزنطة . ولعل أهم ما تم لابرام معاهدة بين الطرفين ، تعهد فيها كونراد الثالث بقيادة حملة لتأديب روجر الثاني في عام ١١٤٩ ، كما وعد ، في حالة سقوط آبوليا وكلابرية في يده ، أن يقدمهما هدية لشقيقه زوجه ، برتا ، زوج عمانوئيل كوميني<sup>(٥)</sup> ثم غادر كونراد العاصمة البيزنطية في فبراير ١١٤٩ عائداً إلى ألمانيا .

في خلال ذلك الوقت حاصر الأسطولان البيزنطي والبنديق جزيرة كورفو لمدة ثلاثة أشهر دون نجاح . ثم نشب نزاع بين البنادقة والبيزنطيين كان من نتيجته أن أشعل البنادقة النيران في السفن البيزنطية<sup>(٦)</sup> . واضطرر هذا الإمبراطور إلى أن يتدخل بذاته لفض النزاع بين الطرفين ، ثم أقنع البنادقة بضرورة مشاركتهم مرة أخرى في حصار كورفو . غير أن النورمان قاوموا هذا الحصار في إصرار وعنف وقتلوا الكثير من جند القوتين المتحالفتين .

في هذه المرحلة من الصراع كان الملك لويس السابع مبحراً من الأرض المقدسة إلى فرنسا ، فلما قابل قطع الأسطول النورماندي آثر الانتقال على ظهر إحداها . وقد حدث أن هاجم البيزنطيون السفينة المقلة لبعض رجال الملك ومتاعه واستولوا عليها . غير أن عمانوئيل كوميني أصدر أوامره بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين وإعادة أمتعة الملك إليه فوراً .

أراد روجر الثاني أن يستغل هذا الحادث ليظهر حرصه على الانتقام لشرف الملك من السلطات البيزنطية ، فأرسل جزءاً من أسطوله لمحاجمة القسطنطينية . وقد نجح النورمان بالفعل في الحصول على غنائم وفيرة من البيوتات الساحلية على البسفور ، كما وأنهم أهبطوا القصر الإمبراطوري ببابل من السهام . وفي صيف ١١٤٩ فتح أحد الخونة من النورمان ، واسمه ثيودور ، بوابات مدينة كورفو للاجيش البيزنطى فتم لهم الاستيلاء

Kinnamos, IV, i, p. 134.

(٥)

Ibid., III, v, p. 98.

(٦)

عليها<sup>(٧)</sup> . بعد هذا يعم عمانوئيل كومينين شطر آفلونا بقصد محاربة روجر الثاني في إيطاليا ، ولكن سوء الأحوال الجوية حال دون ذلك . ولقد علم الإمبراطور آنذاك بثورة الصرب ضد الإمبراطورية فأسرع عائداً لقمعها ، تاركاً أمراً للقيادة إلى أكزوش . ولكن هذا اكتشف أن البنادقة يأتوا يتآمرون ضد القوات البيزنطية فقرر العودة بقواته إلى العاصمة في شتاء ١١٥٠<sup>(٨)</sup> .

اندلعت ثورة الصرب بوحى من روجر الثاني الذى كان قد بذل مالاً وفيراً للهنجار والصرب للتمرد ضد عمانوئيل كومينين ؛ بغية تحويل أنظاره عن حملته ضد إيطاليا . رفِّ نفس الوقت استمال روجر الثاني الدوق ولفه شقيق هنرى المتكبر إلى جانبه . ولقد عمد ولف إلى تأليف عصبة من الأمراء الألمان أجبروا كونراد الثالث على التراجع عن قيادة حملة ضد روجر الثاني .

لم يكتفى روجر بهذا وإنما بدأ يروج في دوائر غرب أوروبا الكنيسية السياسية أن الفشل الذى أصاب الحملة الصليبية الثانية كان سن فعل الحياة البيزنطية ، وأن آن كومينين قد غدروا بقضية المسيحية .

كانت البابوية أول من تلقف هذه الدعاية وتحمس لها : فإلى جانب كراهيتها الدفينية لبيزنطة وبطريكتها المنشقة ، كانت تتظر إلى علاقات المودة بين عمانوئيل كومينين وكونراد الثالث في قلق زائد . إذ فسر البابا ذلك الحلف المبرم بين الألمان والبيزنطيين على أنه تهديد مباشر لنفوذه في غرب أوروبا بشكل عام وفي إيطاليا بصفة خاصة . وشارك البابا في رأيه لويس السابع ملك فرنسا ، الذي كانت لديه من الدواعى ما يجعله يكره كلًا من عمانوئيل كومينين وكونراد الثالث . ولقد صدم الرأى العام في فرنسا عندما جاءت أنباء المهانة التي لحقت بملكهم وما يکتمهم في البحر على يد الأسطول

Choniates, II, v, pp. 117 - 18.

(٧)

Kinnamos, III, ix, p. 113.

(٨)

البيزنطي أثناء عودتهما من الحملة الفاشلة ، التي كانت — في رأيهم — ضحية للخيانة البيزنطية .

تقابل لويس السابع مع روجر الثاني في بوتنزا حيث ناقشا مشروع إقامة حلف أوربي ضد الإمبراطورية البيزنطية . كذلك أوحى روجر إلى الدوق لوف أن يبحث لهذا المشروع مع سينسيو فرانجياني ، زعيم الحزب البابوي في روما ، وذلك عندما دارت بينهما المحادث . وأهم من هذا وذلك أن لويس السابع عرض الأمر نفسه على البابا يوجينيوس الثالث عند لقاءه به في مدينة تيفولي ، وذلك قبل عودته إلى فرنسا .

كان يوجينيوس الثالث شديد الريبة في الحلف القائم بين عمانويل كومين وكونراد الثالث . والحق أن كونراد راح يتحدث علانية عن حاتمية صهره البيزنطي وشهادته واتهامه البالغ به عندما كان ضيقاً معتل الصحة عليه في عاصمته <sup>(٩)</sup> . ولذا نجد البابا يوجينيوس الثالث ، في رسالته إلى كونراد معزيأً إياه فيها على النهاية المشؤومة التي لقيتها الحملة الصليبية الثانية ، يذكره بالزمامته كإمبراطور للروماني — تجاه الكنيسة الرومانية الأم ؛ حاثاً إياه على توثيق أوامر الخبرة معها بدلاً من العمل ضدها <sup>(١٠)</sup> .

هذا ، ولقد كان من خلصاء عمانويل كومين في ألمانيا أيضاً مقدم دير ستافيلوت ، وهو ويالد . ولقد دأب ويالد على تقوية عرى الخبرة والمودة بين سيده كونراد الثالث وبين صديقه عمانويل كومين . غير أن البابا و مجلس كرادنته استطاعوا غضباً من موقف هذا الزعيم الديني الألماني ، ولذا فقد كتب إليه الكردينال جيدو — المستشار البابوي — يطلب منه إعلام كونراد أن البابوية هي التي قامت بحماية ابنه هنري من أي أذى أثناء غيابه في الحملة الصليبية ، وأنه على هذا لا يحسن به أن يبدى نكراناً

P. Jaffé, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, Vol. I, p. 152.

(٩)

Ibid., p. 304, an. 1149, Jun. 23.

(١٠)

روما وبيزنطة

للمجamil في إبرام آحلاف بينه وبين القسطنطينية ضد مصالح كنيسة روما<sup>(١١)</sup>. على أن صيغات جيلو وسيده يوجينيوس الثالث لم تلق أذناً صاغية في البلاط الألماني. وعليه فقد حدث تقارب سياسي بين البابوية وروجر الثاني الصقلي. غير أن هذا الاتجاه البابوي الجديد أغضب مجلس السناتو في روما والحزب الجمهوري بزعامة آرنولد من بريشيا. وببدأ الصراع يختدم بين الحزب البابوي، الذي احتوى في قلعته في توسكيلو، وبين أهل مدينة روما. وهنا استنجد السيناتو والأهلون بكونراد الثالث — «إمبراطور الرومان وسيد العالم» — ؛ طالبين منه الهجوم على إيطاليا لتأديب البابا وحليفه روجر الصقلي. ولقد ذكر أصحاب الرسالة الإمبراطور كونراد بالدسائس والمؤامرات التي كادها البابوات السابعون للإيقاع بالأباطرة الألمان من أسلافه. وبعد هذا كشفت الرسالة عن طبيعة المعاهدة المبرمة بين البابا يوجينيوس الثالث وروجر الصقلي: فقد وافق البابا على الاعتراف بأحقية روجر في الأراضي التي استولى عليها جنوب إيطاليا مقابل مبلغ ضخم من المال يدفع سنوياً للخزانة البابوية. وفي نهاية الرسالة استنجد بكونراد بأن يشهر سيفه ليرد ما لقيه من لقيصر؛ «مثلاً فعل من قبل جستينيان، وحسبما أوصى السيد المسيح»<sup>(١٢)</sup>. كذلك تلقى كونراد الثالث رسالة أخرى من مجلس السيناتو الروماني يرجوه فيها القدوم إلى روما ليحكم بينهم وبين البابا يوجينيوس الثالث حسبما جرت العادة على عهد أسلافه حتى جاء البابا جريجوري السابع وخرق هذا التقليد. كذلك جاء في الرسالة أن البابا يوجينيوس الثالث، بدلًا من التبشير بالسلام والرحمة كما ينبغي عليه، قد انصرف كلية إلى تدبير جرائم القتل والإرهاب<sup>(١٣)</sup>.

تعقدت الأمور على المسرح السياسي في غرب أوروبا ووصلت قمة التأزم في عام ١١٤٩ - ١١٥٠؛ إذ حفل هذا العام بمناورات سياسية

Ibid., p. 316.

(١١)

Ibid., p. 316.

(١٢)

Wāid, p. CCXVI.

(١٣)

ودبلوماسية من جانب روجر الثاني من ناحية ، ومن جانب عمانويل كومينيز من ناحية أخرى . والحق أن جهود روجر الدعائية العدائية تجاه بيزنطة آتت أكلها في مختلف الدوائر الكنسية الفرنسية . فن بين الدين تحمسوا لمشروعه ضد بيزنطة شوجير من سانت دينيس ، وبطرس الوقور ، ثم برنارد دي كليرفوه . ففي رسالة موجهة من بطرس الوقور إلى روجر الصقلاني ، نجد الرعيم الكلوفي يعبر عن حب وإعجاب بالغين لملك صقلية ، كما وأنه يعلمه بعدي الحزن الذي يكابده هو ورفاقه أبناء دير كاوفن من جراء ذلك الخصم الواقع بين عاهل صقلية وكونراد الثالث . ثم يبيّن الكاتب استعداده للوساطة بينهما من أجل إقرار السلام بين البلطيقين . بعد هذا يتعرض بطرس الوقور إلى تحديد أعداء المسيحية ، فيؤكد أن البيزنطيين والساكنة هم الخطط الحقيقي علىها . كما يشير نفس المصدر إلى « ملك » البيزنطيين على أنه « تافه ودفع » لأنّه خان قضية « حاج » الصليبية الثانية . ويهيب الكاتب في نهاية الأمر بروجر أن يعقد صلحًا مع كونراد الثالث للتفرغ لتأديب أعداء الله السابق ذكرهم <sup>(١٤)</sup> .

أما القديس برنارد دي كليرفوه فكان يشارك بني جلدته في الرغبة في الانتقام من البيزنطيين لخيانتهم الصليبية ١١٤٧ . ولذا فإنه بداية من أبريل ١١٥٠ نشطت الاجتماعات والمحالس في شارترز ولاون لمناقشة مشروع حملة صليبية ضد بيزنطة . وقد رأس لويس السابع مجلس لاون الذي قرر الائتناس برأى البابا في هذا الأمر الهام . ورد البابا بأن فوضى لويس السابع بالتخاذل القرار الذي يراه صالحا . غير أن هذا الموقف السلفي من جانب البابا يوحينيوس الثالث أغضب عليه معلمه برنارد دي كليرفوه ؛ فكتب له يقول « بواسطة من إذن يسلط سيفها القديس بطرس للانتقام إن لم يكن بيديك أنت ؟ » <sup>(١٥)</sup> كذلك كتب القديس برنارد دي كليرفوه

Peter the Venerable, ep. XVI, in P.L., Vol. CLXXXIX, col. 424. (١٤)

St. Bernard de Clairvaux, ep. CCLVI, in Opera Omnia, I, cols. 538 - 40. (١٥)

إلى روجر الثاني يمتدح كرمه وغيرته على قضية المسيحية . وكان روجر قد كتب إلى القديس يطلب منه إيفاد عدد من الرهبان من طائفته الديوانية إلى صقلية . ولبي برنارد طلب العاهل الصقلي ، وبعد أن أتته أخبار حفاظته بهؤلاء النساء أرسل يشيد بشخصيه وبغيرته على المسيحية <sup>(١٦)</sup> .

كذلك كان شوجير زعيم سانت دينيس ناقماً على بيزنطة وإمبراطورها فأيد مشروع حملة صليبية ضد الإمبراطورية الممقوته ، كما كاتب روجر الثاني في هذا الأمر <sup>(١٧)</sup> .

كان عمانويل كوميني مدركاً تماماً أن صقلية وفرنسا والبابوية وسائر البيروقات الديوانية في غرب أوربا قد عقدوا النية على إيداع بيزنطة . ولم يقف العاهل البيزنطي مكتوف الأيدي أمام هذه التحركات الدبلوماسية النشطة في الغرب ، فراح يعقد المعاهدات والأحلاف مع القوى المجاورة له بقصد مجاومة العدوان الحماعي المرتقب من دول وكنيسة الغرب اللاتيني . وفي عام ١١٤٩ وقع معاهدة مع جمهوريتي بيزا وجنوة اتفق فيها على ضرب حصار حول صقلية في حوض البحر المتوسط غربيه وشرقيه <sup>(١٨)</sup> .

كذلك واصل عمانويل كوميني مكانته أصدقائه في غرب أوربا وعلى رأسهم ويبالد مقدم دير ستافيلوت . والحق أن هذا الزعيم الديني الألماقي هو الذي حذر عمانويل من دسائس روجر الثاني : في رسالة له مؤرخة بابريل ١١٥٠ يصف روجر الثاني بأنه العدو المشترك لبيزنطة وألمانيا وأيضاً لوبيالد شخصياً ؛ فلقد طرد روجر ويبالد هذا من ديره في مونت كاسينو ، ولذا نجده ينعته بنعوت من قبيل « الطاغية » و « عدو الله » <sup>(١٩)</sup> .

غير أن موقف ويبالد لهذا أزعج البابا والكيوريا الذين راحوا يكيلون

St. Bernard de Clairvaux, ep. CCIX.

(١٦)

Vita Sugerii, in R.H.G., Vol. XX, pp. 110, 495.

(١٧)

Codice Diplomatico della Citta di Genova, a cura di G. Imperiale, I, Rome, 1936, n. 195.

(١٨)

Wibald, ep. CCXXIV.

(١٩).

له الإيالام والتقرير مع اتهامه بخيانة « أمه » : كنيسة روما . ولذا نجده في رسالته إلى المستشار البابوي جيدو يعلن بأنه لا يبرر بعد لانزعاج السيد البابا والساسة الكرادلة لأنّه عازم — تلبية لأوامرهم — على المباعدة بين سيده كونراد الثالث وبين عمانويل كومين (٢٠) .

في شتاء ١١٥٠ أوفد الإمبراطور البيزنطي مندوبه ميخائيل بارديلا ليبحث كونراد الثالث على قيادة حملة ضد روجر الصقلبي . وردًا على هذه البعثة كتب الإمبراطور الألماني إلى عمانويل معتبراً عن اعتذراه الشديد للتأخر في الهجوم على جنوب إيطاليا لتقليل أظافر ملك صقلية ، بسبب اعتلال الصحة ونتيجة للاضطرابات الداخلية في ألمانيا . أما وقد نجح في قمع تمرد الدوق ولوف ( ٨ فبراير ١١٥٠ ) ، وقد من الله عليه بالشفاء فإنه عازم على تحقيق ماسبق ووعد به في هذا الصدد (٢١) .

كذلك كتب كونراد إلى الإمبراطورة برتا ، شقيقة زوجه وقرينة عمانويل كومين ، معتبراً مرة أخرى عن أسفه للتأخر في قيادة الحملة التي كان قد وعد بها زوجها ضد ملك صقلية ، بسبب اعتلال صحته . كما زف إليها أنباء انتصاره الساحق على عدوه ولوف ، الذي كان قد تلقى معنونة مالية من « الطاغية الصقلبي » لتدبير حركة التمرد داخل ألمانيا ؛ وبعد هذا كشف كونراد النقاب عن مشروع روجر الثاني والملك لويس السابع ضد الإمبراطورية البيزنطية ؛ ولكنه (كونراد) أوضح أنه وافق لهما بالمرصاد حتى يسحق مؤامراتهما الدنيئة (٢٢) .

وفجأة حدث تحول عجيب في الدبلوماسية الغربية : فبعد أن أنهى البابا يوجينيوس الثالث مقابلته مع روجر الثاني في مدينة سبرانو ، أيقن أن مطامع هذا النورماندي الجبار لن تعرف حدوداً . وجاء توقيع روجر

Ibid., ep. CCXXV.

(٢٠)

Ibid., ep. CLXXXVII.

(٢١)

Ibid., ep. CLXXXVIII,

(٢٢)

لابنه دون حتى مشاورة البابا في هذا الأمر ليؤكد مخاوف البابا من ملوك صقلية . ولذ فقد سارع يوجينيوس الثالث في إصدار أوامره إلى مستشاره جيدو ليخاطب القديس برنارد دى كليرفوه وبطروس الوقور ويحثهما على التخلّى عن وساطتهما في إقرار صلح بين روجر وكونراد الثالث <sup>(٢٣)</sup> .

كذلك كتب كونراد الثالث إلى محافظ مدينة روما والقناصل وإلى «كاففة الشعب الروماني» معلنا عن عزمه في القدوم إلى إيطاليا لإعادة السلام والأمن إلى المدينة وشبه الجزيرة <sup>(٢٤)</sup> غير أن ابنه هنري توف فجأة ، ولذا فقد كتب إلى القدسية ليعلم عمانويل كوميني بهذا ، كما طلب ترشيح أميرة بيزنطية لزواجه منه <sup>(٢٥)</sup> .

كان البابا يوجينيوس الثالث في موقف لا يحسد عليه : فمن ناحية راقب ازدياد نفوذ روجر الثاني في قلق زائد ، ومن ناحية أخرى جاءاته الأنباء بقرب وصول كونراد الثالث على رأس حملة إلى مدينة روما . أمام هذا طلب البابا من ويبالد أن يتوسط في إقرار صلح بينه وبين الإمبراطور الألماني . ونجح ويبالد في المهمة التي وكلت إليه ، وأقنع سидеه بإيقاف سفارته للتفاوض مع البابا لإقرار الصلح بينهما ، وذلك في ربيع عام ١١٥٠ <sup>(٢٦)</sup> . ما من شك أن الصداقة المتبينة التي كانت تربط بين كونراد الثالث وعمانويل كوميني كانت العامل الرئيسي في إحباط المشروع الصليبي الذي خطط له روجر الثاني ولويس السابع ضد بيزنطة . ولما راح القديس برنارد دى كليرفوه ، من جديد ، ليغري كونراد على حمل الصليب مرة أخرى تعمد الإمبراطور الألماني تجاهل آراء القديس السياسية . كما أن كونراد لم

See Lamma, op. cit., p. 111.

(٢٣)

Wibald, ep. CCCXLV.

(٢٤)

Ibid., ep. CCCCCXI.

(٢٥)

Ibid., ep. CCXLII.

(٢٦)

يُخْفِ غُصْبَه بِسَبَبِ المُوْدَه الْرَّائِدَه الَّتِي كَانَ الْقَدِيسُ وَرَجَالُ دِيرِه يَبْدُوْنَهَا ملِكَ صَقلِيه . وَبَيْنَما كَانَ عَمَانُوْيلِ كُوْمِنِين يَتَرَقَّبُ لَحْظَه اِنْقَضَاضِ حَلِيفِه الْأَلمَانِي عَلَى جَنْوبِ إِيطَالِيَا لِتَقْلِيمِ أَظَافِرِ رُوْجَر ، فَجَعَ بِخَبْرِ وَفَاهُ كُونِرَادِ الثَّالِثِ الْمُبَاغِتَه فِي ١٥ فِرَاءِرِ ١١٥٢ . وَبِمَوْتِ كُونِرَادِ الثَّالِثِ بَدَأَتِ الْأَمَانِيَّه تَتَخَذُ نَهْجَهَا مُغَايِرَه تَعَامِلاً تَجَاهَ الْإِمْپِراَطُوريَّه الْبِيَزَنْطِيه .

.

جَلَسَ عَلَى عَرْشِ أَمَانِيَّه بَعْدَ وَفَاهُ كُونِرَادِ الثَّالِثِ فِرْدِيَّرِيَّتِ بِرْ بِرُوسَا ( ١١٥٢ - ١١٩٠ ) ، الَّذِي اسْتَنَ قَوَاعِدَ جَدِيدَه فِي سِيَاسَتِه كَامِبِرَاطُورِ رُومَانيَّه . وَالْمَطَالِعُ لِلرِّسَالَه الَّتِي كَتَبَهَا الْأَسْقُفُ أُوتُوْ مِنْ فَرِيزِنِجَ وَكَذَا لِلْطَّبُعَه الثَّانِيَّه لِحُولِيَّتِه الَّتِي أَهَدَاهُمَا إِلَى الْإِمْپِراَطُورِ الرُّومَانِيِّ الْجَدِيدِ يَجِدُ صُورَه مُثْلِي لِلْإِمْپِراَطُورِ الرُّومَانِيِّ الْمَقْدِسِ الَّذِي كَانَ عَلَى غَربِ أُورُوبَا ، عَلَمَانِينِ وَلَا كَلِيرُوسَ ، أَنْ يَخْصُصُوا لَهُ تَمَامًا . ( ٢٧ ) كَذَلِكَ جَاءَتِ رِسَالَه بِرْ بِرُوسَا لِلْبَابَا يُوجِينِيوسِ الثَّالِثِ لِتَحْدِدُ فِي حَزْمٍ أَنْ إِقْرَارُ الْعَدْلَه ، وَحْمَاهِيَّه الْيَتَامِيِّ وَالْأَيَامِيِّ ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَهِ الْقَانُونِ فِي اِرْجَاءِ الْإِمْپِراَطُوريَّه الرُّومَانِيَّه هِيَ جَمِيعًا مِنْ حَقِّ الْإِمْپِراَطُورِ وَحْدَه . وَلَا أَوْفَدَ بِرْ بِرُوسَا سَفَارَه إِلَى الْبَلَاطِ الْبَابِويِّ بِرِئَاسَه اِدُورَادُو أَسْقُفَ بَامِبِرِجَ ، طَلَبَ مِنْ وَيَبَالَدَ تَزوِيدَ الْأَسْقُفِ بِرِسَالَه تَتَفَقَّ وَرُوحُ الْعَزَّه وَالْكَرَامَه وَالْعَلوُّ الَّتِي مَيَّزَتْ هَنْرِيَّه الثَّالِثِ وَهَنْرِيَّه الْرَّابِعِ . وَكَتَبَ وَيَبَالَدَ الرِّسَالَه الْمَطْلُوبَه فَصُورَ العَاهَلِ الْأَلمَانِيِّ فِي لَطَارِ أَسْمَى مِنْ سَائِرِ الْأَمْرَاءِ وَالْمَلُوكِ فِي الْعَالَمِ : فَهُوَ وَحْدَه الْإِمْپِراَطُورُ وَالآخَرُونَ أَمْرَاءُ « بِرَابِرَه » ( ٢٨ )

أَدْرَكَ الْبَابَا يُوجِينِيوسَ عَلَى الْفَوْرِ أَنَّهُ أَمَامُ إِمْپِراَطُورٍ عَنِيدٍ مَهِيبٍ الْجَانِبُ فَسَارَعَ يَطْلَبُ الصَّلَحَ مَعَهُ ؟ خَاصَّهُه بَعْدَ أَنْ سَاعَتِ الْعَالَمَاتِ بَيْنَ الْكَيْوُرِيَا وَبَلَاطِ

Otto of Freising, Chronica sive Historia de Duabus Civitatibus, in SS. ( ٢٧ )

Rer. Germ., Leipzig, 1912.

Wibald, ep. CCCLXXII.

( ٢٨ )

بالرمو . وفي ٢٣ مارس ١١٥٣ وقع يوجينيوس الثالث وببروسا اتفاق كونستانس : الذى تعهد فيه الإمبراطور بـألا يوقع هدنة أو سلماً مع شعب روما أو مع روجر الثاني دون موافقة البابا أو من يخلفه . كذلك أخذ ببروسا على عاتقه إخضاع شعب روما للسلطان البابوى والحفاظ على شرف البابوية وسلطان القديس بطرس . وتعهد الإمبراطور أيضاً بأن يستحصل شافة نفوذ البيزنطيين من إيطاليا . أما عن البابا فقد تعهد باحترام شرف الإمبراطور وبتوبيجه بذاته ، كما وعد بمقاومة أى تدخل بيزنطى في شئون إيطاليا بجيشه المؤلف من رجال القديس بطرس<sup>(٢٩)</sup> .

بعد شهور قلائل من توقيع معاهدة كونستانس وطلاق زوجته آديلا ، كتب ببروسا إلى عمانوئيل كومينين يخاطبه على أنه «إمبراطور القسطنطينية بينما احتفظ لنفسه دون غيره بلقب «إمبراطور الرومان ، الأغسطس الأجد ، المتوج من قبل الله» . وفي نفس الرسالة نجد ببروسا يطلب يد إحدى أميرات البيت المالك البيزنطى في الزواج منه ، كما أنه ألمح بأنه يعد العدة لقيادة حملة ضد أبوليا وصقلية<sup>(٣٠)</sup> . وكان ببروسا يبغى الزواج من الأميرة ماريا ابنة السباستوكاتور لاسحق ، شقيق عمانوئيل كومينين ، والتي كان قد رآها أثناء زيارته للقسطنطينية في رفقة كونراد الثالث<sup>(٣١)</sup> . على أن هذا الاختيار بالذات أزعج عمانوئيل ؛ إذ رأى في مصاورة ببروسا اشقيقه الأكبر – صاحب الحق الشرعى في التاج – تهديداً مباشراً له . وفي نوفمبر ١١٥٣ أرسل عمانوئيل سفراه لعرض مشروع تحالف بينه وبين ببروسا وفق شروط معينة حددتها عمانوئيل . ولقد أغضبت شروط عمانوئيل الإمبراطور الألماني إلى حد جعله يطرد السفراء البيزنطيين ويأمرهم بالعودة فوراً إلى عاصمتهم

P. Jaffé, op. cit., p. 546.

(٢٩)

Wibald, ep. CCCLXXXVII.

(٣٠)

Kinnamos, IV, i, pp. 134 - 35.

(٣١)

ويشير أوقتو من فريزنج هنا إلى أن عمانوويل قد طلب أن يكون له من النفوذ في إيطاليا نفس القدر الذي يبغيه بربوسا لنفسه فيها<sup>(٣٢)</sup>. وفي خريف ١١٥٤ أرسل بربوسا أنسالم من هايلبرج وإسكندر من جرافينا لمتابعة المفاوضات مع عمانوويل. وفي أثناء رحلتهم إلى القدسية علموا بموت روجر الثاني ملك صقلية<sup>(٣٣)</sup>.

ما أن توفي روجر الثاني في ٢٦ فبراير ١١٥٤ حتى اندلعت الثورة في مملكته وتمرد البارونات ضد خلفه وليم الأول. وكان على رأس المتمردين روبرت من باسافيلا كونت لورينتا<sup>(٣٤)</sup>. ووجد وليم نفسه مهدداً من كل جانب؛ فلم يقتصر الأمر على تمرد البارونات وإنما كانت هناك أيضاً تحديات للإمبراطورين الألماني والبيزنطي له. انهزم عمانوويل كوميني الفرسنة وأرسل قسطنطين الجيلوس على رأس بعض السفن إلى موشايسيا حيث كان عليه الانتظار حتى مجىء بقية الأسطول البيزنطي. وحدث في تلك الآونة أن كان الأسطول النورماندي عائداً من عملية قرصنة ضد مصر، قرر الجيلوس مهاجمة الأسطول النورماندي بما كان تحت يديه من قطع بحرية محدودة، أملاً في تحقيق نصر يرفع من قدره في نظر الإمبراطور، ولكنه هزم هزيمة ساحقة وقع أسيراً في يد النورمان.

وفي نفس الوقت قاد فردريلك بربوسا حملة على إيطاليا في ١١٥٤؛ ولم يكن في نيته التعاون مع البيزنطيين، ولذا فإنه لم يأبه حتى ب مجرد إعلام عمانوويل كوميني عن خطته. ولذا فقد قرر عمانوويل الكفاح في إيطاليا بقواته دون معاونة من الإمبراطور الألماني، فأمر إسكندر من جرافينا الاتصال بالذين تمردوا ضد وليم من البارونات النورمان. وفي إيطاليا لحق إسكندر

Otto of Freising, *Gesta Friderici*, III, xx.

(٣٢)

Kinnamos, IV, i, p. 134.

(٣٣)

Romuald of Salerno, *Chronicon*, in M.G.H.SS., Vol. XX.

(٣٤)

بميخائيل باليولوغ ويونا دوكاس ، وذهبوا جميعاً إلى مدينة انكرنا حيث فابلوا فرديريك ببروسا بعد أن تم تتوبيه على يد البابا هادريان الرابع (١٨ يونيو ١١٥٤) <sup>(٣٤)</sup> ، وقدموا له الهدايا الإمبراطورية وعرضوا عليه يد إحدى أميرات البيت المالك في بيزنطة لزواج منه وفق مطلبها الأسبق .

ولقد كان الإمبراطور الألماني عازماً على مقاتلة وليم الأول ولكن البارونات الألمان عارضوا هذا وأجبروه على العودة إلى ألمانيا ، تاركاً أصدقاعه من الأمراء النورمان التمردين وحدهم في ميدان القتال ضد ملك صقلية الجديد .

جاء مرuff ببروسا هذا خليباً لآمال روبرت لوريتللو ، ولذا أرسل سفراً له لفتح باب المفاوضات مع اسكندر من جرافينا ويونا دوكاس وميخائيل باليولوغ ؛ القائد العام للقوات البيزنطية المغاربة في إيطاليا . وبعد قليل تم توقيع معاهدة بين روبرت وباليولوغ في مدينة فيستي نصت على قيام حلف بين الطرفين من أجل مغاربة وليم الأول <sup>(٣٥)</sup> . والحق أن باليولوغ أثبت جداره بالغة في مهمته في إيطاليا فاستولى على القلاع والمدن الواحدة تلو الأخرى ، فتجمع من حوله كافة أعداء ملك صقلية أملأ في القضاء على نفوذه في جنوب إيطاليا تماماً ، وكان على رأس هؤلاء روبرت لوريتللو وشقيقه وليم ، وروبرت من كاپوا ثم أندريا من روبيتشانينا ، وبتأييدهم سقطت مدايا آركا وترانى وباري في أيدي القوات البيزنطية تباعاً . وأضحى اسم عمانويل كوميني يدوى في كل مكان في الجنوب الإيطالي .

بعد سقوط مدينة باري في يد باليولوغ تشجع البابا وكرادلته وقرروا الدخول في هذا الصراع المختدم لاسترجاع الأرضي التي اغتصبها ملوك صقلية من البابوية في جنوب إيطاليا . وعلى هذا في سبتمبر ١١٥٥ زحفت الكتائب البابوية واستولت على بعض من هذه الممتلكات <sup>(٣٦)</sup> . كذلك اتصل البابا هادريان الرابع بالقائد العام البيزنطي وأعلمته أنه على استعداد للحرب هو

Kinnamos, IV. i, p. 135, Choniates, II, vi, p. 210. (٣٥)

Kinnamos, IV, i, p. 135, F. Ughelli. Italia Sacra, XX, p. 363. (٣٦)

Liber Pontificalis, Vol. II, p. 393. (٣٧)

ورجاله في صفين بيزنطية ضد ملك صقلية بغية استرداد بينيقتم وكامپانا<sup>(٣٨)</sup>. واتفق الطرفان وزود پاليولوغ البابا بمال الذى طلبه لإعداد المرتزة للخدمة في جيشه ، كما أحاط نفسه بالأمراء المتمردين ضد وليم ، وعلى رأسهم روبرت من كاپوا . ودارت الحرب في شتاء ١١٥٥ - ١١٥٦ بين القوات البابوية وكتائب وليم الأول ، وسيطر رجال البابا على بينيقتم كما ساعدو البيزنطيين في الاستيلاء على برنديزى .

بعد هذا النجاح الرائع الذى حققه پاليولوغ دوكاس كان متظراً أن يتسع المد البيزنطى ليضاعف امن هيبة فى الجنوب الإيطالى . غير أن العكس تماماً هو الذى حدى . ومرد ذلك هذا الخلاف الذى دب بين القادة البيزنطيين والأمراء النورمان الذين حاربوا في صفتهم ضد وليم الأول . والواقع أن الجنرالين البيزنطيين كانوا فى ريبة من أمر روبرت لوريتالو ، وظننا أنه على اتصال خفى بوليم الأول . ومع أن صلحآ قد تم بين پاليولوغ وروبرت عند مدينة بيتنو ، إلا أن الصفاء لم يعد كما كان فى سابق عهده بين الجنابين . ثم توف پاليولوغ فجأة وحل محله فى القيادة يوحنا دوكاس . ولعل من العوامل الأخرى التى كانت قد سهلت على البيزنطيين الاستيلاء على ما استولوا عليه ذلك المرض الذى ألم بوليم الأول فى سبتمبر ١١٥٥ . على أنه عوفى فى مطلع عام ١١٥٦ ثم انقض على مركز الثوار فى بيوتيرا واستولى عايهها<sup>(٣٩)</sup> .

وفي مايو من نفس العام رحل وليم عن مسينا على رأس جيش ضخم وفاجأ القوات البيزنطية المرابطة عند برنديزى . وقد شجع قدومه حراس قلعة المدينة المحاصرين على الدفاع عنها ضد الحصار البيزنطى فى بسالة نادرة . وهنا أدرك روبرت لوريتالو أن الكارثة لا محالة واقعة بالبيزنطيين ، فأثار الانسحاب برجاته من وراء الجوداد الخاسر وهرب إلى شمال إيطاليا . كذلك انقض بعض الجناد المرتزة من حول يوحنا دوكاس لأنه كان قد آخر صرف

Kinnamos, IV, xiv, p. 171.

(٣٨)

F. Chalandon, La Domination Normande, p. 225.

(٣٩)

رواتبهم . وجاء الأسطول النورماندي ليؤازر القوات البرية ولضرب حصانه محكم حول قوات دوكاس البرية وأسطوله البحري، في ميناء برنديزى .

وفي ٢٨ مايو ١١٥٦ انقض النورمان على البيزنطيين وقتلوا بهم ، وكانت الهزيمة ماحقة بالفعل ، إذ وقع القائد العام دوكاس ونائبه برينيوس وعدد من الأمراء النورمان المحاربين في صفوفهم أسرى في يد وليم الأول ، كما استولى وليم على سفن الأسطول البيزنطي وما كانت تحمله من كنوز وذهب . وجاء يوم برنديزى هذا ليبيتلىع كافة انتصارات ياليلوغ ودوκاس وليلحق العار الشائن ببيبة عمانوبل كومين في شبه جزيرة إيطاليا . وانتشرت زحوف وليم الأول صوب الشمال ففتحت المداشن أبوابها صغيرة ضارعة في أمل العفو ، ولكن وليم الأول فتك بأهل مدينة پاري وأشعل النار في الزرع والحرث والدور ولم يتركها إلا كومة من رماد ؛ وذلك بسبب مشاعتها للقوات البيزنطية ضده .

أما البابا هادريان الرابع ورجال جيشه فقد حوصروا في مدينة بینيقتنم ، وراح البابا يتسلل إلى العاهل النورماندي طالباً الصلح . ولكن وليم أصر على أن يرضخ البابا لسائر الشروط التي يعلمها عليه بأن يعطيه مملكة صقلية وأپوليا وكالپرا ونابلي وآمالفي وسالرنو وأراضي المارسي . ووافق البابا ووقع معاهدة تنص على هذا، بعد أن اقسم له وليم يعين الولاء والطاعة (١٨ يونيو ١١٥٦) وهكذا جددت معاهدة بينيقتنم الحلف القديم بين البابوية والنورمان الصقليين . كان عمانوبل كومين قد أرسل سفراً به بصحبة صديقه وييالد في يونيو ١١٥٦ للتفاوض مع بربروسا ؛ ولكن الأخير كان حانقاً على السلطات البيزنطية بسبب عملياتها العسكرية في جنوب إيطاليا . ولذا فقد أساء معاملة السفراء الوفادين من بيزنطة بأن رفض مقابلتهم كما أمر باحتيازهم في سالزبورج بل فكر في محاكمتهم بتهمة الخيانة<sup>(٤٠)</sup> . ويزعم أوتو أسقف فريزنج أن

غضب ببروسا من عمانوبل يرجع إلى أن رجاله قد زيفوا رسائل مهورة باسم الإمبراطور الألماني لإنضاج مدن جنوب إيطاليا . في ذلك الوقت لم يكن ببروسا قد علم بعد بالإذلال الذي لحق بالقوات البيزنطية في برندizi ، ولكن ما أن سمع به حتى سعى لسفراء عمانوبل بمقابلته . ومرد ذلك أنه رأى في الصلح الذي تم في بينيقتوم بين البابا ووليم الأول تهديداً لنفوذه في إيطاليا ؛ ومن ثم فكر في عقد حلف مع الإمبراطور البيزنطي .

وفي عام ١١٥٧ أرسل ببروسا قسيس بيته المدعو ستيفن رسولًا خاصًا لعمانوبل كونمين . وكان هذا التقارب الجديد من ثمار جهود ويبالد الذي كان قد أمضى الجزء الأكبر من عام ١١٥٥ - ١١٥٦ ضيقاً على عمانوبل في القسطنطينية . فلذا نجد البابا يكتب إلى ويبالد رسالة تقرير عنفية متهمًا إياه بالتأمر ضد كنيسة روما مع سلطات القسطنطينية (١٩ يناير ١١٥٧) . وحيث البابا رئيس دير ستافيلوت على أن يفيق لصوابه وأن يخدم أمه الكنيسة الرومانية وذلك بالكف عن محاولة تغيير الإمبراطور الألماني من الكرسي الرسولي<sup>(٤١)</sup> .

أرسل عمانوبل كونمين سفراًه مرة أخرى للتفاوض مع ببروسا أولاً في عقد حلف معه يمكنه من غسل العار الذي لحق به في برندizi . كما حمل السفرا رسالة خاصة من الإمبراطورة برتا (ميريني) الألمانية تطلب فيها من ببروسا الإنعام بشرف الفروسية على فردريلك ابن كونراد الثالث . واستجابة العاهل الألماني لطلب برتا ، ولكنه أهمل مشروع عمانوبل كونمين . ويحدثنا أوتو أسقف فريزنج عن صدام بين العاهلين بسبب الألقاب : فلقد استنكر ببروسا على عمانوبل أن يلقب نفسه في رسالته «إمبراطور الرومان» وكتب إليه مؤكداً بأن «هذاك إمبراطوراً واحداً للرومانيين» ؛ وهو ببروسا بطبيعة الحال . أما إذا أصر عمانوبل على حمل لقب «إمبراطور» فيحسن به أن

يحمل لقب «إمبراطور القسطنطينية»، فحسب<sup>(٤٢)</sup> :

كان هذا بحق هو موضع الخلاف بين الطرفين : ذلك لأن ما قد يتحققه عمانوئيل من نصر في إيطاليا كان حتماً على حساب كرامة ونفوذ الإمبراطور الألماني . ومن هنا لم يكن هنالك سبيل إلى تحالف الطرفين اللذدين : خليفة قسطنطين من ناحية وخليفة شارلأن من ناحية أخرى . وهناك حادث معين يبين مشاعر الريبة والتربيص التي ميزت العلاقات بين عمانوئيل وبربروسا : فقد حدث أن أوفد بربروسا سفيره ويبالد في مهمة إلى القسطنطينية ، وفي أثناء عودته من هناك توفي في الطريق . فسارع عمانوبل ، وهو الصديق القديم لويبالد ، بإرسال سفراه إلى ألمانيا ليؤكداوا أن ويبالد قد توفي وفاة طبيعية وأن السلطات البيزنطية لم يكن لها يد في موته !

لم يكتف وليم الأول ملك صقلية بما أوقعه هو ورجاله ببيزنطة من إذلال ، بل راح هو وزيره مايون يدبران خططاً أخرى لتأديب عمانوئيل كومين . فقد عقدا معاهدتين مع البندقية وجنة لضمان مساندة الأولى وحيدة الثانية في الصراع ضد بيزنطة .

وفي ربيع ١١٥٧ أرسل وليم أسطوله لتخريب الشواطئ البيزنطية ومدنها . وهجم الأسطول النورماندي على الأسطول البيزنطي عند نجر وپونت وأحرق بعض سفنه ، ثم أشعل الجنديان في مدينة نجر وپونت وألميرا . وبعدها أبحر الأسطول النورماندي حتى القسطنطينية وأمطر قصر بلاكناي بوابل من السهام المدمرة .

وقفت السلطات البيزنطية وعلى رأسها عمانوئيل كومين عاجزة تماماً أمام هذا العدو الضارى ، فلقد أحرقت معظم سفن الأسطول وهلث الكثير من الجند وأنهكت الخزانة الإمبراطورية . وهنا تدخل البابا هادريان الرابع في

الأمر وعرض وساطته من أجل صلح بين وليم وعمانويل<sup>(٤٣)</sup>.

وما من شك في أن البابا كان يخطط لحماية نفسه ، فهو بتكثيل قوات النورمان مع جيش عمانويل من ورائه كان يستطيع التهوض أمام تحديات عدوه اللدود فردريلك بربروسا ، ونجحت مساعي البابا ووصلت سفارة من البلاط الصقلي إلى العاصمة البيزنطية حيث اتفق الطرفان على عقد هدنة مدتها ثلاثون عاماً ، كما أطلق وليم سراح أسراه من الجند البيزنطيين . ويضيف مصادرنا كناموس أن الملك الصقلي وعد بتأييد عمانويل كوميني في مشروعاته في الغرب<sup>(٤٤)</sup> . فإن صبح هذا يكون الطوفان قد وقع حلفاً ضد العدو المشترك فردريلك بربروسا بإيحاء من البابا هادريان الرابع .

اتجهت جهود عمانويل السياسية في تلك الفترة إلى توثيق علاقاته بمدن شمال إيطاليا ، التي كانت تناصب بربروسا العداء الشديد . وأخذ الإمبراطور البيزنطي العطايا والهدايا في سخاء زائد على مداين ميلان وكريمونا وبافيا وأنكونا وبيزا وجنوة والبنديقية<sup>(٤٥)</sup> . وكانت انكونا أشد مدن الشمال الإيطالي عداوة لبربروسا ، ولذا فإنها رغم تبعيتها نظرياً للإمبراطورية الألمانية ، نادراً ما كانت تأبه بالسلطان الألماني . ولذا كانت انكونا دواماً هدفاً لغضب وانتقام بربروسا . في عام ١١٦٧ ضرب الإمبراطور الألماني حولها حصاراً لمدة ثلاثة أسابيع ولم ينقدرها من هذه الأزمة سوى دفعها جزية طائلة القيمة وتقديمها بعض الرهائن<sup>(٤٦)</sup> . وفي عام ١١٧٣ حاصر المستشار الألماني كرمتيان من مينز مدينة انكونا مرة أخرى بمعزنة أسطول جمهورية البنديقية . غير أن عمانويل كوميني أسرع بإرسال الأموال الالزمه لمعاونة الأهلين على مقاومة

Choniates, II, viii, p. 128.

(٤٣)

Kinnamos, IV, xv, p. 172.

(٤٤)

Bon Compagni (ed. Gaudenzi), in *Bulletino dell' Istutio Storico Italiano*, Vol. XV, p. 181.

(٤٥)

Anonymi Laudensis Continuato, in M.G.H.SS., Vol XVIII, p. 646.

(٤٦)

المستشار الألماني وحليفته<sup>(٤٧)</sup> . ولقد ظلت مدينة أنكونا طوال عهد عمانوويل كوميني مركزاً للنشاط البيزنطي للخطط التي كان يدبرها البازيليونس في محاولته بسط نفوذه في إيطاليا .

أما عن الصلات بين جمهورية بيزا وعمانوويل كوميني فقد بدأت في عام ١١٦٢ عندما قدم السفيران كوتتشو جريفي وبواتشيوس إلى البلاط البيزنطي للتفاوض . وقد وعد الإمبراطور البيزنيين بدفع مبلغ ضخم من المال لحكومتهم ومنهم امتيازات تجارية واسعة المدى إذا أحجمت الجمهورية البيزنية عن إتعاونها مع الإمبراطور الألماني ضد بيزنطة<sup>(٤٨)</sup> . غير أن السلطات البيزنية لم تكن ترغب في إغضاب ببروسا ، ومن ثم فقد رفضت شروط عمانوويل . أدى هذا إلى أن أمر عمانوويل بطرد الجالية البيزنية من الحي الشخص لها في العاصمة البيزنطية . وهنا أدرك البيزنيون أن عداوتهم لبيزنطة قد جرت عليهم ضرراً كبيراً ، فراحوا يفاضلون الإمبراطور من جديد ، وأرسلوا إليه القنصل ألبرت بازي وبيرجنديوس وكوانت ماركتو الذين عقدوا معه صلحًا وحصلوا في مقابل ذلك على تجديد للامتيازات التجارية القديمة التي كانت تتمتع بها جمهوريتهم ، إلى جانب الهيئة السنوية التي كان البازيليونس يمنحها لرئيس أساقفتها<sup>(٤٩)</sup> . ويمكن تفسير هذا الكرم الزائد الذي أبداه عمانوويل كوميني في اتفاقه مع بيزا عام ١١٧٢ على أنه تقارب دبلوماسي مع سلطاتها بقصد كسب تأييدها خاصة بعد أن انقض عمانوويل على جالية البنادق في عاصمته وقضى عليها وعلى ثرواتها . ولذا نلاحظ في مضامون الاتفاق المشار إليه أن تعتبر بيزا كل معاهدة أبرمتها سابقاً مع « أفراد متوجين أو غير متوجين » ضد صالح البيزنطية باطلة المفعول<sup>(٥٠)</sup> . ويبدو أن العلاقات بين بيزنطة وبيزا ظلت حسنة حتى نهاية حكم عمانوويل كوميني .

Historia Ducum Veneticorum, in M.G.H.SS., Vol. XIV, p. 81.

(٤٧)

Annales Pisani, in M.G.H.SS., Vol. XIX, p. 246.

(٤٨)

Ibid., p. 262.

(٤٩)

Ibid.

(٥٠)

أما جمهورية جنوة فقد دخلت في مفاوضات مع السلطات البيزنطية في عام ١١٥٥ بفضل جهد القائد البيزنطي الشهير ميخائيل پاليولوغ بطل الحرب الإيطالية الذي تحدثنا عنه سلفاً . وقد أعقب هذا توقيع معايدة بين الطرفين تعهد بمقتضها عمأنوويل بدفع مبلغ معين من المال سنويًا للسلطات جنوة ، إلى جانب مبلغ آخر خصص لرئيس أساقفتها . كذلك سمح للجالية الجنوية بقطعة أرض مجاورة لحي البناية السكنى فيها ، مع تخصيص مرسى خاص لنشاطهم التجارى في ميناء العاصمة . وفي مقابل هذه الامتيازات تعهدت جنوة بألا تشارك في أي عمل يشكل تهديدًا للأراضي الإمبراطور وشرفه ؛ كما فرضت على الجنويين المقيمين في الأراضي البيزنطية الخدمة العسكرية مع الجيش البيزنطى إذا ما وقع اعتداء على بيزنطة<sup>(٥١)</sup> .

غير أن جنوة عقدت معايدة صداقة مع وليم الأول الصقلى في عام ١١٥٦ مما جعل عمما نوويل كوميني يتتجاهل المعايدة البرمة بينه وبينها . وازدادت العلاقات بين الجنويين سوءاً عندما وقعت جنوة حلفاً مع فردريلك بيربروسا في عام ١١٦٢ . وعلى هذا فقد باتت السلطات البيزنطية تفكير في الانتقام من جنوة والقضاء على مصالحها في الإمبراطورية البيزنطية . والحق أن المسؤولين في العاصمة البيزنطية كانوا يدركون عمق الأحقاد والضغائن التي كانت بين الحاليات الإيطالية في القسطنطينية ؛ وهذا شجع السلطات على حض البناية والبيزنيين على مهاجمة حتى الجنويين ونهبهم لمدة عشرة أيام . وحدث أثناء هذا الهجوم أن قتل أحد الشبان الجنويين ويدعى روفو ؛ كما أسرت خسائر الحالية عن قرابة ٣٠,٠٠٠ هايربرروي<sup>(٥٢)</sup> .

تبع هذه الخسائر أن رحل الجنويون عن القسطنطينية خوفاً من نكبات مشابهة قد تحل بهم مستقبلاً . وفي عام ١١٦٨ أوقدت الجمهورية الجنوية السفير أميكو من مورتا مقابلة عمأنوويل كوميني ومطالبته بتعويضات قدرها

Caffaro de Caschifelone, Annales Januenses, in M.G.H.SS., Vol. XVIII, p. 25. (٥١)

Ibid., p. 33. (٥٢)

٤٣٠,٠٠٠ هايريري؛ ولكننا نعلم أيضاً أن السلطات الجنوية فوضت آميكو هذا بأن يقبل أقل من هذا بكثير إلى حد ٢٠,٠٠٠ فقط. وكان على آميكو أن يطلب من الإمبراطور مساهمة سنوية في بناء كاتدرائية سان لورزو إلى جانب هبة خاصة لرئيس أساقفة جنوة لا تقل عن تلك التي يتلقاها كل عام بطريرك البندقية؛ أو على الأقل عن تلك الموهبة لرئيس أساقفة بيزا. كذلك طلبت جنوة امتيازات مماثلة بتلك التي كانت تتلقاها البندقية في النشاط التجاري وفي المراسى البحرية في الإمبراطورية البيزنطية. هذا إلى جانب تأكيدات بأن لا ضير سوف يحل بالحالية الجنوية في القدسية مستقبلاً. وفي مقابل هذا تعهدت الجمهورية بإمداد بيزنطة بثلاثين قطعة بحرية حربية للخدمة مع الأسطول البيزنطي بإشراف طاقمهم الجنوي.

ولكن آميكو لم يفلح في الحصول على كافة المطالب الجنوية في المعاهدة التي وقعتا مع عما نويل كوميني عام ١١٦٩، مما أغضب القنصلين الذين رأوا في شروط عما نويل المنصوص عليها، والخاصة بمساعدة جنوة لبيزنطة في حالة «عدوان من متوج أو غير متوج» على الإمبراطورية، خطرًا داهمًا يستثمر فرديريك بربروسا ضدتهم. ولذا فقد طلبوا من آميكو السعي لحذف هذه الفقرة بعينها من المعاهدة.

وبيناً كانت المباحثات تجري بين السفير الجنوي والإمبراطور البيزنطي، من السفراء البيزنطيين الذين كانوا يتفاوضون مع البابا إسكندر الثالث بجمهوريه جنوة (يونيو ١١٧٠)؛ وعرض هؤلاء السفراء مبلغ ٥٦,٠٠٠ هايريري على السلطات الجنوية مقابل تأييد عمانويل ضد بربروسا. ولكن رفض القوميون مناقشة الأمر حتى عودة آميكو من القدسية ومعرفة صيغة الاتفاق النهائي على لسان سفيرهم الخاص. ولما وصل آميكو بعد إنجاز مهمته اكتشف القوميون خلافاً كبيراً بين عروض السفراء وعرض سيدهم، ولذا فقد رفض القوميون موافقة المحادثات مع بيزنطة (٥٣).

أرسل عما نوبل كومينين يحتج على موقف جنوة المترى ، وسافر آميكو مرة أخرى إلى القسطنطينية للتفاوض . وتم الاتفاق في هذه الجولة بعد أن غيرت الفقرة التي اعتبرضت عليها جنوة إلى الآتي : « تتعهد جمهورية جنوة بأنها لن تؤيد أية قوة أجنبية تغير على أراضي الإمبراطور أو تهدد تاجه ». ويلاحظ كذلك أن المعاهدة خلت من أية ضمانات من جانب عمانوويل في حالة وقوع أذى جديد بالحالية الجنوية ومصالحها في العاصمة البيزنطية .

هذا وبعد فترة قصيرة من توقيع هذه المعاهدة هوجم حى الحالية الجنوية . وتم نهيه مرة أخرى . ويروى المؤرخ كيناموس أن البنادقة هم الذين أقدموا على هذه الفعلة<sup>(٥٤)</sup> . على أنه يجب ملاحظة أن عمانوويل كومينين قام بعد ذلك بمصادرة ثروات عدد كبير من البنادقة والبيزنيين من كبار التجار في القسطنطينية بحججة أنهم قد شاركوا في المؤامرة ضد الحى الجنوى . فإذا ما وضعنا في اعتبارنا أن المعاهدة التي أبرمها عمانوويل مع آميكو في عام ١١٧٠ قد خلت من أية فقرة أو نص عن ضمانات في حالة وقوع ضرر بالحالية الجنوية ، فإنه يحق لنا أن نتساءل : هل كان عمانوويل يتوقع وقوع هذا الأذى بالفعل ضدتهم ؟ ليس بمستبعد أن يكون عمانوويل قد أوعز بحادث نهب الحالية الجنوية في عاصمتها ، وليس غريباً أيضاً أن يتخذ من الحادث ذاته ذريعة لمصادرة أملاك وثروات بعض البنادقة والبيزنيين ؛ لأنه في ذلك الوقت بالذات كانت مشروعاته في غرب أوروبا قد منيت بالفشل الذريع بعد أن أُنقل الحزانة والرجال بأعباء جسام ، الأمر الذي أدى إلى وجود تدمير شديد بين المواطنين في العاصمة والذين كانوا ينتظرون إلى مخططاته المماثلة للآتين بالكثير من العنف والاستنكار . على أنه من المرجح أن البنادقة قد شاركوا الغوغاء من البيزنطيين الذين هاجموا قبة الحى الجنوى في العاصمة – بإيعاز من السلطات – والدليل على ذلك أنه عندما قاد دوق البندقية حملة ضد عمانوويل – بسبب ما حل بحالته في عام ١١٧١ – طلب من

الجنويين المقيمين في آملير و المشاركة معه في حملته ، ولكنهم رفضوا مطلبها فاستولى منهم على بعض سفنهم <sup>(٥٥)</sup> .

وعدت السلطات البيزنطية تعويض الضحايا الجنويين عن خسائرهم ولكنها لم تتحقق وعودها . ولذا أرسل القوميون الجنوي السفير جريمالدي في عام ١١٧٣ ليطلب من عمانوويل كوميني تعويض بني جلدته من الضحايا عن النكبات التي حلّت بهم ، وأيضاً ليطلب « برد حى كوباريون من جديد للعالية الجنوية » <sup>(٥٦)</sup> ، وهو الحى الذى كانت تتمتع بالإقامة والتجارة فيه هذه الحالىة فى مدينة القدس . وبالفعل وصل السفير الجنوى إلى العاصمة وقابل البازيليوس وعرض مطالب القوميون ، ولكننا لا نعلم شيئاً مما أسررت عنه هذه المفاوضات .

\* \* \*

اجتازت العلاقات بين البندقية وبيزنطة تغيراً هاماً أثناء حكم عمانوويل . فلقد تخلى البنادقة عن بيزنطة أثناء حصار كورفو سنة ١١٤٩ ، ويقال إنهم كانوا ينظمون مظاهرات للسخرية من شخصية عمانوويل وذلك بتمثيله زنجياً قبيح المنظر بقصد الاستهزاء به <sup>(٥٧)</sup> . الواقع أن البندقية كانت تشعر بضيق شديد أمام توسيع بيزنطة في دلاشيا (١١٦٦) وتنظر إليه بريبة شديدة . ولكن هجمات فرديريك ببروسيا المتتابعة على مدن شمال إيطاليا دعت البندقية إلى أن تخطب التعاون مع عمانوويل في تأييد هذه المدن ضد ببروسيا <sup>(٥٨)</sup> . أرسل عمانوويل سفيره نقولور كالوييفيس إلى البندقية ، وتم اتفاق بين الطرفين تعهدت البندقية بمدحه بإمداد بيزنطة بأسطول قوامه

G. Bertolotti Documenti sulle Relazioni di Genova coll Impero Bizantino, (٥٥)

in Atti della Societa Ligure di Storia Patria, Vol. XXVIII (1897)

pp. 371, 397.

Ibid.

(٥٦)

Ghoniates, I, i., p, 64,

(٥٧)

Kinnamos, V, ix, p, 230,

(٥٨)

٣٠٠ قطعة حربية للمشاركة في حملته الإيطالية<sup>(٥٩)</sup>. وفي العاشر من ديسمبر ١١٦٧ كان هناك ثلاثة سفراء بيزنطيون في البندقية ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن طبيعة مهمتهم هناك<sup>(٦٠)</sup> . وفي نفس الوقت نجد سفراء الملك ستيفن ، ملك المجر ، الذي كان وقتئذ في حرب ضد بيزنطة ، موجودين في البندقية للتفاوض في مشروع زواج ابنة أخيه ماريا من نيقولاس ابن الدوق ميخائيل فيتالس<sup>(٦١)</sup> . هذا التقارب بين البندقية وال مجر يحدد بداية العداوة بين البلاط البيزنطي وجمهورية البندقية . في عام ١١٦٨ قامت ست قطع بحرية حربية تابعة للبندقية بالهجوم والقبض على خمس قطع بحرية تملكها مدينة أنكونا التي كانت آنذاك مركز النشاط البيزنطي في شبه جزيرة إيطاليا ؛ متقدمة بهذا سياسة عما نوبل الإيطالية .

ثم أخذت العلاقات تتدهور بين بيزنطة والبندقية حتى بلغت ذروتها في عام ١١٧١ . والحق أن موقف عمانويل العادى بحالية البنادقة في عام ١١٧١ كان خالفاً لخطوط سياسته الودية تجاه اللاتين ، كما أن عنصر المفاجأة فيه قد حير الدارسين . ويقص علينا داندolo أن عمانويل كان قد عرض يد ابنته في الزواج من وليم الثاني ملك صقلية ، ثم غير رأيه ، وعندما طلب من دوق البندقية تأييده ضد مالك صقلية في حالة الحرب المتوقعة بينهما رفض الدوق ، ومن ثم فقد راح البازيليوس يدبر في التحفاء للانتقام من هذا الموقف من جانب الدوق في تقويض مصالح جمهوريته في القسطنطينية<sup>(٦٢)</sup> . على أن بعض المؤرخين لم يقبلوا برهان داندolo ، موضحين أن القطيعة التامة مع وليم الثاني لم تحدث إلا في عام ١١٧٢ أى بعد عام كامل من ضربة عمانويل ضد جالية البنادقة في بيزنطة<sup>(٦٣)</sup> . وأوضح فريق آخر من

Ibid., V, xii, p. 237

(٥٩)

Annales Venetici Breves, in M.G.H.SS., Vol. XIV, p. 71.

(٦٠)

Ibid.

(٦١)

Dandolo, Chronicon Venetum. in Muratori, R.I.SS., Vol. XII, p. 291.

(٦٢)

See W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant, I, p. 216.

(٦٣)

المؤرخين بأن هناك قطبيتين وقعتا بين عمانوويل ووليم الثاني : الأولى في عام ١١٦٦ والثانية في عام ١١٧٢<sup>(٦٤)</sup> . وربما أدى فشل المفاوضات بين عمانوويل ووليم في عام ١١٦٧ إلى سعي الأول لكسب حلف جمهورية البندقية ضد الثاني ، ولما رفضت البندقية هذا التحالف فكر عمانوويل في الانتقام خاصة وأنه لم ينس للبنادقة تخليهم عنه أثناء صراعه السابق ضد النورمان .

على أن هنالك عوامل أخرى تساعد في تفسير أحداث عام ١١٧١ التي وقعت بين جمهورية سان مارك وبيزنطة . يلاحظ أن أفراد جالية البندقية في القسطنطينية كانوا قد كذبوا ثروات ضيختهم مستغلين الامتيازات والخصائص التي منحها لهم الأباطرة السابقون . وكانت عامة الشعب والخاصة في العاصمة تنظر إلى هؤلاء الأجانب الفاحشى الثراء في حقد وغيظ . ولما كانت خزانة عمانوويل كومينين في هذا الوقت شبه خاوية فإنه بدأ ينظر إلى تلك الثروات الهائلة في شيء من الطمع . وكان البازيليوس مدركاً أن رعایاه الساخطين على سياسته الفاشلة في الغرب سوف يهملون فرحاً إن هو أقدم على مصادرة أملاك وثروات هؤلاء الأجانب اللاتين . ومن هنا فإن إقدامه على هذا العمل كان سيوفر له مالاً كثيراً وأيضاً قد يهدى الرأى العام الساخط ضد كل ما هو لاتيني . وتشير *الHistoria Ducum Veneticorum* إلى الحقد الذي كان يعتمل في قلب عمانوويل قبلة التجار البنادقة في إمبراطوريته<sup>(٦٥)</sup> . أما المؤرخ البيزنطي كناموس فإنه يزعم أن عما نوبل قرر عقاب البنادقة بسبب هجماتهم المتكررة على الجالية الجنوية في القسطنطينية<sup>(٦٦)</sup> . وهنالك ما يؤكّد رواية كناموس في الأوامر التي أصدرها قوميون جنوة إلى السفير جريمالدي بأن يقابل البازيليوس ويكشف له عن العداوة التي يضمرها البنادقة والبيزنيون تجاه الجنويين<sup>(٦٧)</sup> . أما نيكوباتاس كونيياتيس فإنه يؤكّد

See F. Chalandon, *Les Comnènes*, II, p. 586.

(٦٤)

*Historia Ducum Veneticorum*, p. 78.

(٦٥)

Kinnamos, VI, x, p. 282.

(٦٦)

G. Bertolotto op. cit., p. 371      Cum inde culpabiles essent.”

(٦٧)

أن مسلك البنادقة السياسي واستهتارهم استفز جماهير الشعب في العاصمة البيزنطية ، كما أن البازيليون ذاته كان منزعجاً لأن البنادقة طالما تجاهلوا أوامره<sup>(٦٨)</sup> .

وفي عام ١١٧٠ بدأ عمانوبل في مصادرة أملاك البنادقة وثرواتهم بحججة أنهم قد نهبوا حمى الجنوبيين في القسطنطينية . وكرد فعل أمام هذا التصرف أمر دوق البندقية بمقاطعة بيزنطة ، وببدأ البنادقة يرحلون عن الإمبراطورية عائدين إلى جمهوريتهم<sup>(٦٩)</sup> . غير أن الإمبراطور أرسل سفارة إلى البندقية يطلب إعادة العلاقات التجارية بين البلدين واعداً منح امتيازات خاصة بل واحتكاراً للنشاط التجاري للبنادقة دون غيرهم ، مؤمناً لياتهم وفق ضمانته خاصة<sup>(٧٠)</sup> . وجاءت هذه الوعود الطائلة لتهديء من روع الدوق ، وسرعان ما أعيدت العلاقات التجارية بين البحانيين . وتقول المصادر إن أكثر من ٢٠,٠٠٠ من أهالي البندقية عادوا إلى بيزنطة يحملون معهم كميات ضخمة من السلع والمال والسلاح . كما أرسل الدوق سفيرين مع هذه الحالية هما سباستيانوس زيانى وأوريوس ماستيروبترو<sup>(٧١)</sup> . استقبل عمانوبل السفيرين بكل رحمة زائد وعدهما بمعاملة أفراد جالية البندقية معاملة الأبناء<sup>(٧٢)</sup> . وعندما استقر البنادقة مرة أخرى في العاصمة وغيرها من مداشر الإمبراطورية راح عمانوبل يخطط لهم كيابتهم تماماً . وفي العاصمة بوجه خاص ، حيث احتفظت حالياً بمعظم ثرواتها ، اتخذت احتياطات خاصة لإنفاذ المؤامرة في إحكام زائد : فقد استدعت السلطات فرقاً عسكرية من خارج العاصمة ووضعت في حالة طوارئ ليل نهار لحين تنفيذ المخطط . وكان هذا كفيلة لأن يثير شكوك البنادقة ، فأسرع السفيران لمقابلة البازيليون للاستوثاق من

Choniates, V, ix, p. 233.

(٦٨)

Dandolo, pp. 291-93.

(٦٩)

Historia Ducum Veneticorum, p. 78.

(٧٠)

Ibid.

(٧١)

Ibid.

(٧٢)

نيته . هدأ الإمبراطور من روعهما وأرسل منادين يعلنون بأن أية جريمة ترتكب ضد البناقة سوف تردع بقسوة من جانب الإمبراطور ذاته<sup>(٧٣)</sup> .

ولكن عما نوبل كومين خدع السفiriين بحق : في ١٢ مارس ١١٧١ — تقول الحولية — هجم الإمبراطور ورجاله على البناقة كما ينقض الأسد على الحمل وألقى القبض على عشرة آلاف منهم وأودعهم السجون ، كما صادر ثرواتهم . ولا ضاقت السجون بهذه الأعداد ، استعين ببعض الأديرة لهذا الغرض . ولم يتمكن من الإفلات من القسطنطينية سوى عدد قليل من البناقة الذين لاذوا بإحدى السفن الراسية في الميناء وأبحروا فيها إلى عكا . كذلك هربت الحالية المقيدة في أرميرو على خليج قلول على متن عشرين سفينه نقلتهم إلى موطنهم . وهناك راحوا يوللون على ما أصابهم من عنث على يد الإمبراطور «الحادي» ، مطالبين بإعداد حملة للانتقام منه<sup>(٧٤)</sup> .

بدأت جمهورية سان مارك تعد العدة لمقاتلة بيزنطة من مارس إلى سبتمبر ١١٧١ ، فأعادت ١٢٠ سفينه لهذا الغرض . وساهمت زارا وبعض مدائن دلاشيا الأخرى باشتراك عشره سفينه للمشاركة في هذه الحملة<sup>(٧٥)</sup> . انقض الدوق ورجاله على مدن دلاشيا التي كانت تحت النفوذ البيزنطي ، وفتحت تراو أبوابها لهم . أما مدینة تر راجوزا فمع أن المسؤولين فيها قد أقسموا يمين الولاء والطاعة للدوچ إلا أنهم سرعان ما هجموا على البناقة ، ولكنهم أصيروا بخسائر فادحة في الرجال . ولذا فقد خرج رئيس أساقفتها ورجال الأكليروس الآخرون إلى معسكر الدوچ وألقوا بأنفسهم عند قدميه طالبين العفو والغفران . ووافق الدوچ على الصلح مع راجوزا بعد أن أقسم له سادتها يمين الطاعة والولاء وتعهدوا بدفع مبلغ كبير من المال إليه ، إلى جانب كميات معينة من المؤن والأنبذة . كذلك أجبر رئيس

Ibid.

(٧٣)

M. de Canale, *La Cronica dei Veneziandi*, (ed. Galvani), Frierze, 1845, (٧٤)  
p. 312.

Historia Ducum Veneticorum, loc. cit.

(٧٥)

الأساقفة على الاعتراف بتبعيته لبطريرك البندقية وبالخصوص لسلطان البابا<sup>(٧٦)</sup>. بعد هذا هجوم البناذقة على نجروپونت ونهبها . وهناك طلب بعض رجال عمانويل كومين من الدوج إيفاد سفارة خاصة إلى العاصمة لتسوية النزاع دون إراقة دماء . ووافق الدوج على هذا وأوفد الأسقف باسكال من أقويليا ، ومناسيس بادوفاريوس مقابلة البازيليوس للتفاوض معه<sup>(٧٧)</sup> . وفي خلال ذلك احتل البناذقة جزيرة خيوس حيث قرروا قضاء فصل الشتاء فيها ، ومن هناك انتشرت عدة قطع بحرية من أسطولهم لتنهب خيرات المدن الواقعة على الساحل .

غضب عمانويل كومين من هذه القرصنة فرفض السماح للسفيرين باسكال ومناسيس بمقابلته . ولكنه أرسل من لدنه سفيراً إلى الدوج يطلب منه إرسال بعثة جديدة لفتح باب المناقشات من جديد .

ويحدثنا داندولوفي هذا الصدد أن عمانويل إنما أرسل هذا السفير للتجسس على معسكر البناذقة<sup>(٧٨)</sup> . ومع هذا أوفد الدوج سفارة جديدة إلى القسطنطينية . وفي أثناء ذلك تفشي وباء خطير في معسكر البناذقة (أبريل ١١٧٢) وهناك عدد كبير منهم . وتعلل حوليات البناذقة هذا بأن الإمبراطور دس سماً في مياه الآبار وفي الأنابيب التي كانت في جزيرة خيوس<sup>(٧٩)</sup> .

في هذه المرحلة من الصراع أبحر الأسطول البيزنطي لمقاتلة البناذقة عند جزيرة خيوس ، ولكن الدوج ورجاله كانوا قد انتقلوا إلى جزيرة صغيرة هي سانكتا باناتشيا . وهناك عادت السفارة الثانية لتعلم الدوج بفشل مساعدتها في القسطنطينية . وكان مع هذه السفارة مبعوث آخر من لدن الإمبراطور يطلب إيفاد سفارة ثالثة لمواصلة المفاوضات . ولما كانت أحوال الهند قد ساءت بسبب الوباء في معسكر البناذقة فقد أوفد الدوج السفيرين هنري داندلو وفيليب

Ibid.

(٧٦)

Ibid.

(٧٧)

Dandolo, p. 295.

(٧٨)

Historia Ducum Veneticorum, p. 79.

(٧٩)

لخاونة الوصول إلى « حل سلمي » مع البازيليوس<sup>(٨٠)</sup> . وهنا قرر البناذقة الانتحال إلى جزيرة ليموس للانتحال هناك بعيد فصح ١١٧٢، غير أن عاصفة فجائية أجبرتهم على الرسو في جزيرة سكيروس . وبعد احتفالات عيد الفصح ارتفعت صيحات التذمر والسيخط بين الجنديين البناذقة ، كما اشتدت وطأة الوباء عليهم فانحيطت معنوياتهم . ولذا قرر الدوج العودة بحملته إلى البندقية .

عاد الدوج ميخائيل فيتالس مع من تبقى من أفراد الحملة ليواجه إشاعات تتهمه بالعجز وبخيانة قضية الجمهورية<sup>(٨١)</sup> ، وبهذا كان فيتالس يرأس مجلس الشيوخ هجمت عليهم جماعة مسلحة ، هرب الشيوخ جميعاً من قاعة الاجتماع وتسلل فيتالس إلى خارج أبواب القصر الذي كان المجلس منعقداً فيه ، ولكن أحد أفراد هذه الجماعة المسلحة ويدعى ماركوس كازولوس لحق به عند كنيسة سان زكريا وقتلها بسيفه<sup>(٨٢)</sup> .

خلاف فيتالس في منصب الدوج سباستيانو زيانى . وأرسل الدوج الجديد سفارة مكونة من فيتالس داندollo ومنيس بادوقار يوم وفيتالس فاكرتوس إلى القدسية للتفاوض مع عمانويل كومين ، ولكن جهودهم لم تأت بنتيجة . ولذا فقد قرر زيانى محاولة أعداء بيزنطة ، فتعاونوا بأسطوله مع ببروسا في حصاره لمدينة أنكونا — حلية عمانويل — في عام ١١٧٣ ، كما عقد معاهدة ود وصداقة مع وليم الثاني ملك صقلية في عام ١١٧٥<sup>(٨٣)</sup> .

هذا ويحدثنا نيكيتاس كونياتس أن عمانويل فتح باب المفاوضات مع البندقية وأن اتفاقاً عقد بين الطرفين أطلق البازيليوس بمؤداءه سراح أسرى عام ١١٧١ ، وأعاد لجمهورية سان مارك امتيازاتها التجارية السابقة<sup>(٨٤)</sup> . أما داندollo

Ibid.

(٨٠)

Ibid.

(٨١)

Dandolo, p. 296.

(٨٢)

*Historia Ducum Veneticorum*, p. 81.

(٨٣)

Choniates, V, x, p. 225.

(٨٤)

فيري أن هذا الاتفاق لم يتم في عهد عمانوئيل وإنما في زمن حكم أندرونيكيوس كومينين (١١٨٣ - ١١٨٥) <sup>(٨٠)</sup>.

على أنه ليس هناك دليل مقنع بأن البندقية قد حصلت على تعويض مرض لما حل بها في عام ١١٧١ لا في عهد عمانوئيل ولا في زمن حكم أندرونيكيوس. وقد جاء هذا الحادث ليشتعل نار الكراهة في قلوب البندقية ضد بيرنطة ، الأمر الذي دفعهم إلى المشاركة في غزو القسطنطينية في صلبيية ١٢٠٤ .

لم تكن البندقية هي القوة الوحيدة الغاضبة على عمانوئيل كومينين في غرب أوروبا ، وإنما كان هنالك أيضاً برناميج فرديريك بربروسا المعادي لكل ما هو بيزنطي . في عام ١١٧٢ أرسل بربروسا الأسقف كونراد من ورمي إلى القسطنطينية ليكتشف طبيعة ذاك الاتفاق الذي كان العاهل الألماني يظن أنه قد أبرم بين عمانوئيل كومينين وبين هنري الأسد . دوق سكسونيا . واعروف أن هنري الأسد قد عرج على القسطنطينية في عام ١١٧٢ أثناء رحلته إلى الأرض المقدسة وليس بمستبعد أن يكون عمانوئيل قد عقد بالفعل حلفاً مع هنري الأسد ضد بربروسا . وهنالك في بعض المصادر ما يؤكّد هذا الفرض . فيحدثنا أرنولد من لوبلك أن عمانوئيل كومينين قد أرسل بعثة ودية لمقابلة دوق سكسونيا في عام ١١٦٤ <sup>(٨٦)</sup> . ومصدر آخر يتهم الدوق صراحة بأنه كان يتآمر ضد بربروسا <sup>(٨٧)</sup> . ويقول بنيديكت من بيتربرو أن الدوق هنري سافر إلى القسطنطينية بقصد «إيلاء الإمبراطور الروماني» <sup>(٨٨)</sup> . كذلك نجد في الرسالة التي بعث بها بربروسا إلى عمانوئيل كومينين في عام ١١٧٧ توبيراً للإمبراطور البيزنطي

Dandolo, p. 309.

(٨٠)

Arnold of Lübeck, Chronica Slavorum, in M.G.H.SS., Vol. XXI, p. 117. (٨٦)

Continuatio Cremisanensis, in M.G.H.SS., Vol. IX, p. 564. (٨٧)

Benedict of Peterborough, Gesta Regis Henrici II, (ed. W. Stubbs), 2 vols., Rolls Series, London, 1867, Vol. I, p. 249. (٨٨)

« لخاولته غواية أقصاد الإمبراطورية الألمانية »<sup>(٨٩)</sup>.

كان الساعد الأيمن لبربروسا في هذا الوقت كرستيان رئيس أساقفة مينز. وكرستيان هذا كان متخصصاً للنظم الإمبراطورية والسياسة الألمانية أكثر من الإمبراطور ذاته. ولقد كان هذا المستشار الألماني يحتقر البيزنطيين، كما كان عازماً على تقليل أظافر السلطات البيزنطية بسبب تحشرها بالصالح الألماني في إيطاليا. وفي عام ١١٧١ ظهر كرستيان على رأس حملة في إيطاليا ليخيف مدن العصبة اللومباردية المتمردة على بربروسا وحليفها البابا الشرعى إسكندر الثالث. وفي أبريل ١١٧٣ حاصر المستشار الألماني بجيشه، بمعونة أسطول البندقية، مدينة أنكونا التي كانت مركز النشاط البيزنطى في إيطاليا. ولم يرفع المستشار هذا الحصار عن أنكونا إلا بعد أن دفع أهلوها جزية مالية كبيرة جاءتهم من خزانة بيزنطة.

هذا وفي أثناء حصار أنكونا فتح الإمبراطور فردريلك بربروسا باب المفاوضات مع ألد أعداء بيزنطة وهو قلوج أرسلان سلطان قونية. وحيث الإمبراطور الألماني سلطان الروم على مهاجمة الإمبراطورية البيزنطية. وتبعد أن سفراء السلطان قد أتوا إلى البلاط الألماني محميين المدايا لبربروسا في عام ١١٧٣، ليطلبوا يد ابنته بربروسا لابن السلطان. ولاشك في أن علاقات المودة بين البلاطين الجرماني والتركي آنذاك كانت من العوامل التي جعلت قلوج أرسلان يشقى من ضرباته التي وجهها ضد بيزنطة في عامي ١١٧٤، ١١٧٥، والتي فتت في عضد الجيش البيزنطى. وجاء عام ١١٧٦ ليشهد أسوأ هزيمة منيت بها بيزنطة، وذلك في واقعة مير يوكيفالون، حيث قتل خيرة ضباط الإمبراطورية وجندتها، وحيث تعرض عمانويل كرمنين ذاته للهلاك ثم للعار. وكانت كارثة ١١٧٦ أكثر هولا من واقعة ملاذكرد (١٠٧١) في الخسائر في الرجال والعتاد، كما أنها لطخت سمعة عمانويل الذي حاول بعد المزيمة التكريء الهرب

H. Kap - Herr, Die Abendländische Politik Kaiser Manuels mit Besonderer Rücksicht auf Deutschland, Strassburg, 1881, pp. 156 - 57. (٨٩)

يذاته تاركاً من تبقو حوله نهباً لسيوف الترك ٩٣ وما من شك أن أبناء ميريكيفالون قد أدخلت السرور على نفس ببروسا .

وفي عام ١١٧٧ عقد ببروسا صلحًا مع البابا إسكندر الثالث، وهو المعروف بصلح البندقية ، فانتهى بذلك عهد التفاهم بين عمانوئيل كومينين والبابوية ضد الإمبراطور الألماني . واسوء حظ عمانوئيل جاءت كارثة ميريكيفالون في وقت منيت فيه مصر وعاته في غرب أوروبا بفشل ذريع ، بعد أن أجهد خزانة الدولة . ولعل خير ما يصور ذلك الضياع الذي منى به البازيليوس تلك الرسالة التي بعث بها ببروسا إلى عمانوئيل في ذلك الوقت . تخاطب الرسالة عمانوئيل على أنه « ملك اليونان » فحسب ؛ الذي عليه هو وشعبه إظهار الخصوع والطاعة للإمبراطور الأوحد للروماني — ببروسا — ، وأيضاً للبابا رئيس الكنيسة الرومانية . كذلك ألمح ببروسا في رسالته أنه على استعداد لفض النزاع القائم بينه وبين بطريرك القدسية . وفي ختام رسالته كشف ببروسا عن طبيعة الحلف الذي عقده مع سلطان الروم ، الذي لن يجرؤ أحد على إيلامه من أجله حتى في يوم الدين <sup>(٩٤)</sup> .



## الفصل العاشر

### بيزنطة والبابوية

من ١١٥٦ إلى ١١٨٠

منذ اللحظة التي حصل فيها تقارب شديد بين عمانويل كوميني وفريديريك هادريان الرابع (٤ ديسمبر ١١٥٤ / ١ سبتمبر ١١٥٩)، اتسمت العلاقات بين القسطنطينية وروما بشيء غير عادي من المودة. كان البازيليوس حتى تلك اللحظة مهتماً في المقام الأول بمحاربة النورمان في جنوب إيطاليا، ولكن عندما بحث إليه البابا يطلب العون صراحة، راح عمانويل يخطط لما هو أبعد في سياساته في الغرب اللاتيني. ولما وصل الصدام بين البابا وفريديريك ببروسيا درجته القصوى تشجع الحالس على عرش قسطنطين العظيم فأخذ يفكر جدياً في استعادة التاج الذي سلبه الملوك الألمان منذ عهد شرمان من الإمبراطور الشرعي على ضياف البسفور. ونجد صدئ هذا الاتجاه فيما كتبه المؤرخ المعاصر كناموس إذ يقول إن السادة الذين حكموا إيطاليا من وقت القوط لا يمكن اعتبارهم أكثر من أمراء، أما أولئك الذين وضعوا تاج الإمبراطورية على رؤوسهم فهم لا محالة غاصبوون<sup>(١)</sup>. كذلك يؤكّد نفس المصدر أن الشرف الذي ازدانت به البابوية هو من صنع الإمبراطور قسطنطين العظيم. وعلى هذا فإن حق تعيين البابوات يبقى في يد الحالس على عرش قسطنطين<sup>(٢)</sup>.

وبتقليل هذا الرأي أخذ عمانويل كوميني يعلل النفس بالأمنى مستغلاً في هذا ذاك الصراع المحتدم بين البابا وفريديريك ببروسيا. على أن

Kinnamos, Epitome, in G.S.H.B., V, vii, p. 218.

(١)

Ibid.

(٢)

البازيليوس كان دبلوماسيًا في مفاوضاته مع البابا هادريان الرابع ، إذ أنه لم يكشف عن نواياه الحقيقة في بادئ الأمر وإنما اكتفى بإيذاء استعداده لمؤازرة هادريان في صراعه ضد النورمان وأيضًا ضد بربروسا . وكان عمانوويل ماهراً عندما راح يؤكد حماسه في نفس الوقت لتوحيد كنيستي روما وبيزنطة ؛ الأمر الذي كانت الكيوريا ترغبه كل الرغبة في تحقيقه منذ أيام هلدبراند .

وبطبيعة الحال تصور عمانوويل كوميني أنه يقدر ورثة — كأوتوقرات — أن يجبر إكليروس أياصوفيا على موافقته في سياسة توحيد الكنسيتين . ولكن الدلالات تشير إلى عكس ذلك تماماً . في عام ١١٥٥ كتب البابا هادريان الرابع إلى بازل رئيس أساقفة تسالونيكا ينطبه حبه لكنيسة روما — رأس الكنائس — ويرغبه في مشروع الوحدة الكنسية . على أن البابا ذكر في رسالته أن الشقاق الذي وقع بين بيزنطة وروما يرجع إلى عناد وعجرفة البطارقة البيزنطيين الذين شاعوا لكتنيستهم أن تنسلخ عن الجسد الواحد مثلها في ذلك مثل « القطيع الضال » الذي انفصل عن أمير الرعاة بطرس الرسول <sup>(٣)</sup> .

جاء رد بازل على البابا مليئاً بالمرارة والسخرية ؛ متحججاً على ازلاق لسان البابا وعلى اتهامه كنيسة بيزنطة المسكونية بالزيغ والضلالة في تشبيهه لها « بالخراف الضالة » . ثم راح صاحب الرسالة يعدد أفضال بطريركية القسطنطينية على العالم المسيحي أجمع شرقيه وغربيه <sup>(٤)</sup> . لا شك في أن البابا هادريان الرابع كان يدرك تماماً استحالة الوحدة بين الكنسيتين ، ولكنه برغم ذلك رحب بعبادة عمانوويل كوميني ما دام هذا سيخدم حلفه مع الجنوبيين في الانتقام من النورمان الذين سطوا على الممتلكات البابوية في الجنوب الإيطالي . وجاءت تحديات فردریک بربروسا المتتابعة للبابا لتوثيق العلاقة بين البلاطين البابوي والكونفي . وبعد وفاة هادريان

Mansi, Vol. XXI, cols. 796 - 99.

(٣)

Ibid., cols. 799 - 801.

(٤)

الرابع ومجيء البابا إسكندر الثالث (٧ سبتمبر ١١٥٩ / ١١٨١ أغسطس) واصل عمانوويل كومينين جهوده لتوثيق حلقه مع الكرادلة الرومان وسيدهم الجديد.

وكان من حسن حظ عمانوويل أن بلغ الصدام بين بربورسا وإسكندر الثالث مرحلة حرجة من التوتر ، خاصة بعد أن عقد العاهل الألماني مجلساً في مدينة بافيا أعلن فيه شرعية البابا المعارض - فكتور الرابع - وذلك نكاية في البابا الشرعي إسكندر الثالث. ولذا نجد إسكندر الثالث يوفد سفارة من اثنين من أخلص كرادلته إلى القدسية لمواصلة المفاوضات مع عمانوويل كومينين من أجل إرساء حلف متين بين الطرفين<sup>(٥)</sup>.

وعندما قدم بربورسا على رأس حملة لتهديد المدن اللومباردية واستعادتها نفوذه بقوة السيف في تسكانيا ، سارع إسكندر الثالث في الاستنجاد بالملك الفرنسي لويس السابع ، طالباً منه مخاطبة عمانوويل كومينين لتأييده ضد الملك الألماني<sup>(٦)</sup>. وفي نفس الوقت كتب وليم من بافيا ، المندوب البابوي الدائم في فرنسا ، رسالة إلى عمانوويل كومينين يطلب منه فيها الاعتراف بالبابا إسكندر الثالث ببابا شرعاً . وبتجدد المندوب البابوي يخاطب العاهل البيزنطي على أنه "الأغسطس المعين من قبل الله لحكم الإمبراطورية ، خليفة العظام الذين كانوا حماة الكنيسة ضد طغيان البرابرة والغزاة" . وهذه الفقرة من الرسالة ذات معنى خطير ، إذ أنها تنتطوي على إشارة صريحة إلى الألمان على أنهم عنصر متربير ، وأهم من هذا إشارته إلى أباطرة بيزنطة على أنهم حماة الكرسي البابوي الرسولي في روما<sup>(٧)</sup>.

استجابة عمانوويل كومينين على الفور لتلك التهديدات المتتالية ؛ فكتب إلى الملك لويس السابع رسالة تفيض مودة واعتزازاً بتلك الصلة التي يأبانت تربط بينهما بعد زواج الأول من ماريا أميرة أنطاكية حفيدة عمة لويس السابع ..

Liber Pontificalis, II, p. 403.

(٥)

R.H.G., Vol. XVI, p. 82.

(٦)

Ibid., p. 55.

(٧)

روما وبيزنطة.

وأكَدَ « . الأُوقُرَاطُ الرُّومَانِيُّ صَاحِبُ الرِّداءِ الْأَرْجُوْنِيُّ » مَلِكُ فَرْنَسَا أَنَّهُ مُلِقٌ بِكُلِّ تَأْيِيدِهِ فِي صِفَتِ الْبَابَا إِسْكَنْدَرُ الثَّالِثِ ضَدَّ خَصْوَصِهِ<sup>(٨)</sup> . وَفِي يُولِيُو ١١٦٣ ظَهَرَ سُفَرَاءُ عَمَانُوِيلِ كُومِنِينُ فِي سَانْ جِيلَ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى بِلَاطِ الْمَلَكِ الْفَرَنْسِيِّ لِمُواصِلَةِ الْمَفَاضِلَاتِ مَعَهُ وَمَعَ الْبَابَا إِسْكَنْدَرُ الثَّالِثِ . وَهُنَالِكَ الَّتِي السُّفَرَاءُ بِالْمَنْدُوبِ الْبَابِوِيِّ الدَّائِمِ فِي فَرْنَسَا ، فَسَلَمَوْهُ رَسَائِلَ سَيِّدِهِمْ الْمُوجَهَةِ إِلَى الْبَابَا . وَفِي ٢٠ آغْسْطِسِ ١١٦٣ كَتَبَ الْبَابَا إِسْكَنْدَرُ الثَّالِثُ إِلَى مَلِكِ فَرْنَسَا يَعْلَمُهُ أَنَّ سُفَرَاءَ عَمَانُوِيلِ كُومِنِينَ لِدِيهِمْ رِسَالَةً شَفْوَيَّةً ذَاتَ أَهمِيَّةٍ قَصْوَيِّ مُوجَهَةً إِلَى الْبَابَا وَالْمَلَكِ جَمِيعِينَ فِي مَدِينَةِ بُورْجٍ . وَأَوْضَحَ الْبَابَا أَنَّهُ لَا يَمْانِعُ الْاسْتِجَابَةَ لِطَلْبِ عَمَانُوِيلِ ، رَاجِيًّا مِنْهُ اسْتِقبَالِ السُّفَرَاءِ الْبِيْزَنْطِيِّينَ اسْتِقبَالًا حَسَنًا<sup>(٩)</sup> .

وَلَكِنَّ مَوْقِفُ لُوِيسِ السَّابِعَ كَانَ مَائِعًا بَعْضَ الشَّيْءِ : فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِي تِلْكَ الْفَتَرَةِ تَقَارِبٌ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَرْدِرِيْكَ بِرْ بِرُوسَا ، وَلَذَا إِنَّ الْاجْتِمَاعَ الَّذِي كَانَ قَدْ اتَّفَقَ عَلَى عَقْدِهِ فِي مَدِينَةِ بُورْجٍ بَيْنَ الْبَابَا وَالْمَلَكِ الْفَرَنْسِيِّ لَمْ يَتَمْ . وَلَا نَكَادُ نَعْلَمُ شَيْئًا بَعْدَ ذَلِكَ عَمَّا تَمَّ فِي الْمَفَاضِلَاتِ بَيْنَ لُوِيسِ السَّابِعَ وَعَمَانُوِيلِ كُومِنِينَ اللَّاهِمَ إِلَّا ذَلِكَ الْبَعْضُ مِنَ الرِّسَالَةِ الَّتِي كَتَبَهَا الْبَابَا إِسْكَنْدَرُ الثَّالِثُ إِلَى الْمَلَكِ الْفَرَنْسِيِّ فِي ٢٦ يَانِيَرِ ١١٦٥ وَالَّذِي يَتَحَدَّثُ فِيهِ الْبَابَا عَنْ بَالِغِ السُّرُورِ الَّذِي أَدْخَلَهُ كِتَابُ لُوِيسِ إِلَى عَمَانُوِيلِ ، مَرْفَقًا بِطِيهِ بَعْضَ الرِّسَائِلِ الَّتِي بَعَثَ بِهَا الْعَاهِلُ الْبِيْزَنْطِيُّ إِلَى لُوِيسِ مَعَ رَئِيسِ أَسَاقِفَةِ بَنْفَتَمِ<sup>(١٠)</sup> .

إِنَّ أَسْلَوبَ الْمُودَةِ وَمَهْجَ التَّقَارِبِ مَعَ الْقَسْطَنْطِيْنِيَّةِ الَّذِي يَمْيِيزُ مَوْقِفَ الْبَابَا إِسْكَنْدَرُ الثَّالِثِ فِي هَذِهِ الْفَتَرَةِ بِالذَّاتِ يَؤْكِدُ أَنَّ حَلْفَهَا مَا كَانَ بِسَبِيلِ الْإِرْسَاءِ بَيْنَ الْبَابِوِيَّةِ وَفَرْنَسَا وَبِيْزَنْطِيَّةِ ضَدَّ فَرْدِرِيْكَ بِرْ بِرُوسَا . وَالْوَاقِعُ أَنَّ

Mansi, XXXI, cols. 974 - 75.

(٨)

R.H.G., Vol. XV, p. 814.

(٩)

Ibid.

(١٠)

حماس إسكندر الثالث لهذا الحلف الغير طبيعى كان يرجع إلى الضربات الشديدة التى كاها بربروسا له فى عناد غريب . فبعد وفاة البابا المناهض لإسكندر الثالث - فكتور الرابع - عقد المستشار الألماني رينالد من دازل مجلساً فى فيينا أعلن فيه انتخاب خلف لفكتور فى شخص باسكال الثالث .

وفى عام ١١٦٥ عقد الأساقفة الألمان ، بيعاز من بربروسا ومستشاره ، مجمعاً فى فرزبورج أكدوا فيه من جديد شرعية باسكال الثالث ضد إسكندر الثالث . وليس بمستبعد أن يكون البابا إسكندر الثالث فى هذه اللحظات اليائسة من صراعه ضد بربروسا قد فكر جدياً فى التاویح لخصمه资料 the German بقدرته على نقل التاج من على رئيس خليفة شرمان إلى رئيس خليفة قسطنطين العظيم ، الذى لم يكف عن المطالبة بمحقمه المسلاوب .

وصل جورдан ابن روبرت أمير كاپوا فى تلك الموحلة مندوياً عن عمانوئيل كومينين لمقابلة البابا إسكندر الثالث ومواصلة التفاوض معه بشأن وحدة الكنيسة والتاج . وعرض سفير عمانوئيل على البابا مبالغ ضخمة من الذهب ، واعداً إليه إخضاع مدينة روما وسائر أجزاء إيطاليا لسلطانه بقرية الكتائب الإمبراطورية التابعة لبيزنطة . وبعد أن ناقش البابا عروض العاهل البيزنطي مع كرادله ، قرر إيفاد اثنين من خلصائه لمواصلة المفاوضات مع القسطنطينية<sup>(١١)</sup> ، وفي حين أن المصادر اللاتينية لا تذكر شيئاً عن طبيعة مهمة هذين القاصدين الرسليين ، نجد أن المؤرخ البيزنطي كناموس يرى أنها أكدا لعمانوئيل قبول البابا إسكندر الثالث لشروطه على شريطة أن يأتي للإقامة الدائمة فى مدينة روما . ويضفى كناموس فى روايته فيقول إن العاهل البيزنطي رفض هذا الشرط ، ومن ثم وصلت المفاوضات بين الطرفين إلى مرحلة من الركود<sup>(١٢)</sup> . وتشير الدلائل الأخرى على أن الحادثات التى جرت بين سفراء البابا وعمانوئيل قد فشلت بالفعل : فتحن

Liber Pontificalis, II, p. 415.

(١١)

Kinnamos, op, cil., VI, iv, p. 262.

(١٢)

نعلم أن جدلا لا هوئيا قد اندلع بين أحد السفراء من الكرادلة الرومان وبين عمانوويل كومينن ذاته حول عبارة *al Filioque* وأيضاً حول مزاعم روما في إمارة الكنيسة العالمية . ونعلم كذلك أن عمانوويل قد هاجم الكنيسة الرومانية في هاتين النقطتين هجوما شديداً ومريراً<sup>(١٣)</sup> .

والواقع أن تحولا قد طرأ على موقف البابا إسكندر الثالث مذ أنشأت العصبة اللومباردية مدينة الساندريا — المشقة من اسم البابا — وقد وقفت القوميونات اللومباردية وقفمة تحذ سافر خلد ببربروسا وجيرشه القادمة من وراء الألب .

وشهد عام ١١٦٧ النكبات الفادحة التي حللت ببربروسا ورجاله في حملته الفاشلة على لمارديا . وجاء مرض الطاعون لينزل الملائكة إلى جانب المزيمة ب الرجال الملك الألماني العنيف .

لم يعد إسكندر الثالث إذن في حاجة ماسة إلى العون أو التأييد من عمانوويل كومينن بعد أن أذلت العصبة اللومباردية ببربروسا في مرات جبال الألب ، وبعد أن أوشك ذات مرة على الوقوع في أيدي اللومبارديين أسيراً للحرب .

ولهذا عندما قدم مبعوثو عمانوويل كومينن من جديد إلى روما لمواصلة سعيهم لتحقيق أطماع سيدهم قوبلاوا بفتور . فلقد قال لهم إسكندر الثالث أنه بعد مشاورته للأباء الكرادلة في عروض القسطنطينية تبين له استحالة تحقيق مطالب العاهل البيزنطي ، ولكنه شكر له حسن نواياه تجاه البابوية وقت الشدة<sup>(١٤)</sup> . ولكي يخفف البابا من وقع الصدمة على نفس عمانوويل أرسل إليه قاصدين رسوليين من قبله يحملان عبارات المودة والمحاملة دون تعرض من قريب أو بعيد لأحلام العاهل البيزنطي . والواقع أن العلاقات بين إسكندر الثالث وعمانوويل ظلت طيبة : في عام ١١٧٠ حضر البابا

Hugh Eterianus, De Haeresibus Graecorum, in P.L., Vol. CCII, (١٣)  
cols. 231 seq.

Liber Pontificalis, II, pp. 419 - 420. (١٤)

حفل زفاف ابنة شقيق عمانوويل إلى الأمير أوتو من فرانجيباني في مدينة فيروي<sup>(١٥)</sup>. كما بارك البابا زواج الكسيوس الثاني ، ابن عمانوويل ، من اجنس ابنة الملك لويس السابع في عام ١١٧١<sup>(١٦)</sup> . وفي عام ١١٧٥ يبعد أن أعاد عمانوويل كومينين بناء مدينة دوريلا يوم كتب إلى البابا يعلمه بما بعض انتصار حققه على الأتراك ويطلب منه إرسال نجدات من الغرب إليه لعونه على مقاتلة الترك . ونجد البابا يستجيب لنداء الإمبراطور البيزنطي فيبعث إلى مندوبي الدائم في فرنسا ليبحث الرجال على تلية رجاء عمانوويل كومينين<sup>(١٧)</sup> . وفي أكتوبر ١١٧٦ أثناء المحادثات التمهيدية لإقرار الصلح بين فرديريك بربورسا والبابا إسكندر الثالث ، في مدينة آناجي ، نجد البابا يصر على إدراج اسم عمانوويل كومينين بين أصدقائه وخلفائه<sup>(١٨)</sup> . ولكن اسم عمانوويل أهل تماماً في الصيغة النهائية لمعاهدة البندقية (١١٧٧) التي أقرت السلام بين الإمبراطور الألماني من جانب والبابا إسكندر الثالث وحليفه ملك صقلية من جانب آخر . وبينما كان البابا والإمبراطور الغربي يتلقيان التهنئة على هذه المعاهدة كانت القدسية تدب حظها بعد أن فتك الترك بخيرة ضباطها في واقعة ميريوكيفالون (١١٧٦) . وليس بمستبعد أن تكون أنباء فاجعة ميريوكيفالون قد دعت البابا إسكندر الثالث إلى أن يهمل هذا الجواب البيزنطي بالخسر ويسارع في إقرار السلام مع غريمه بربورسا . ولعل خير ما يوضح تلك المراة التي مني بها عمانوويل كومينين بعد فشل سياسته الردية تجاه الغرب اللاتيني تلك المناقشة الحادة التي حدثت بينه وبين البطريرك ميخائيل الثالث أنشيالوس في عام ١١٧٦ في المجلس الذي كان يناقش موضوع الوحدة بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية . فقد كان من رأى عمانوويل أن الخلافات الطقوسية والعقائدية بين

*Annales Caccanenses*, in M.G.H.SS., Vol. XIX, p. 286.

(١٥)

Jaffé, nos. 11883, 11894.

(١٦)

R.H.G., XV, p. 952.

(١٧)

Liber Pontificalis, Vol. II, p. 434; Jaffé, nos. 12737, 12743.

(١٨)

الكنسيتين ليست بالعمق الذي درج بطاقة القسطنطينية على إبرازه . وهذا تصدى له انشيالوس معلنًا إدانة اللاتين بالهرطقة بسبب الا Filioque الدخيلة على قانون الإيمان النبوي ، كما فند مزاعم البابوية في الإمارة على الكنيسة العالمية موضحاً أن أولوية روما قد انتهت منذ نقلت العاصمة منها إلى روما الجديدة على ضفاف البسفور . وعند هذا الحد صفق المؤمنون تحية لانشياوس « رجل الأرثوذكسيّة الم��ب إيماناً » موجعين الشكر لله على تثبيت هذا العهد الصالح ليعلى بناء كنيسته المسكونية .

وفي نهاية الأمر انفق الحاضرون على صيغة مرسوم يدعوا إلى فصم العلاقات جمعياً مع اللاتين ، تاركين أمرهم إلى قضاء الله دون حتى إلحاد اللعنة بهم بسبب زيفهم في العقيدة . ودعا المرسوم بطاقة المشرق إلى عدم مجادلة كنيسة الفرنجة في أمور سبق إدانتهم بسببها مراراً وتكراراً ؛ وذلك تماشياً مع قول الكتاب : « فر من الهراطقة بعد تحذير وتحذير ؛ فإن إثمهم وحده كفيل بإدانتهم »<sup>(١٩)</sup> .

والواقع أن ما أكدته ميخائيل انشيالوس في هذا الجباس يمثل الرأى الذي كان سائداً في القرن الثاني عشر لدى اللاهوتيين والمشتغلين بالقانون الكنسي من أمثال آريستانوس وزونارس وبالسامون . فهم جميعاً يلقون بثقل أقلامهم على القانون الثامن والعشرين لمجمع خلقدنوفية على أنه نقل إمارة الكنيسة من روما إلى القسطنطينية . ونبحد زونارس يقول بأن إمارة البابا قد انتهت منذ راحت الباباوية تردد قانوناً للإيمان منحرفاً عن القانون الأرثوذكسي المتفق عليه بين الآباء الباكرين للكنيسة<sup>(٢٠)</sup> .

See. V. Grumel, *Les Registres des Actes de Patriarcat de Constantinople*, (١٩)  
II, 2, p. 151.

See Aristenus, in P.G., Vol. CXXXVII, col. 325; Zonaras, ibid., cols. (٢٠)  
485 - 92; Balsamon, ibid., cols. 1433 - 44.

## الفصل الحادى عشر

### بيزنطة والصليبيّة الثالثة

توفى عمانوئيل كومينين في عام ١١٨٠ وخلفه على العرش ابنه الكسيوس الثاني الذي كان في الثانية عشرة من عمره؛ وذلك تحت وصاية أمه ماريا الأميرة الأنطاكية. وبذل صار هناك إمبراطورتان لاتينيتان في البلاط البيزنطي: ماريا الإمبراطورة الأم وأختها زوج الإمبراطور الطفل. ولقد استعانت ماريا في توجيه الحكم بأحد أبناء أشقاء عمانوئيل الراحل وهو البرتوسبياستوس الكسيوس كومينين الذي كان هو أيضاً محباً للعنصر اللاتيني. وقد كان موقف ماريا لهذا مدعاة إلى ظهور الأحقاد والضغائن في نفوس أفراد آل كومينين ذاتهم لتفضيلها واحداً بعينه على سائر أفراد البيت. وكان الشعب كارهاً لهذه «الأجنبية» واصديقها «المخت» اللذين أحاطا الحكومة بعدد هائل من المرتزقة اللاتين، بينما كانت جماهير الشعب تئن من وطأة الفقر الذي عم بسبب مشروعات عمانوئيل الباهظة الفاشلة في غرب أوروبا. ونظر أهل العاصمة من حولهم ليروا بحالات البناية والبيزنس والجنويين تعيش في رفاهية زائدة فزاد حنقهم على ماريا والكسيوس. وهكذا بات أمر هذه الحكومة ومصيرها مقضياً عليه لا محالة. وهنا برز من جديد على مسرح السياسة البيزنطية أندرونيوكوس كومينين، حاكم كيليكيا الأسبق، الذي كان وقتئذ دوقاً على بنطس. وجاءت أحداث البلاط لمهدد الطريق لهذا الطامع المترقب لفرصته في تحقيق أطماعه في العرش. فقد نشب خلاف شديد بين ماريا وماري ابنة عمانوئيل وزوج رينيه دى مونت فرات. ودببت ماري وزوجها مؤامرة لقلب نظام الحكم ولكن المؤامرة اكتشفت قبل إنفاذها. ولذا فقد هرب المتآمرون إلى آيا صوفيا طلباً في حماية الكنيسة. وسرعان ما تحولت الكنيسة إلى قلعة حصينة

محاطة بالآلاف من الرجال المسيحيين الذين هبوا لمناصرة ماري ضد «المرأة الأجنبية» . ومن داخل الكنيسة أرسلت ماري بإذنار شديد اللهجة إلى مارييا تطلب منها فيه اعتقال الوصاية على الحكم هي «وعشيقها الخنت» الكسيوس . ولقد وقف رجال الدين والبطريرك علانية في صف التآمررين ضد الحكومة . ولكن الحكومة بعثت بجندتها الذين هجموا على آيا صوفيا ودار القتال عنفياً بين الطرفين في قلب البازيليكا ، مما اضطر البطريرك ذاته إلى التدخل لوقف القتال داخل بيت العبادة . وحينما راجت الإشاعات عن قرار الكسيوس بعزل البطريرك اجتاحت المظاهرات شوارع العاصمة تهتف بسقوط الحكومة التي «انتهكت حرمة بيت الله» .

وهنا نشط أندرونيوكوس كومينيوس في بطنطس وأرسل يبشر بنى جلدته بأنه قادم إليهم ليخلصهم من نير اللاتين . أرسلت الحكومة حملة بقيادة أندرونيوكوس أنجيلاوس لخاربة أندرونيوكوس كوميني ولكن الحملة باعت بالفشل وانضم قائدها أنجيلاوس إلى أندرونيوكوس كوميني . وضرب أندرونيوكوس معسكره في خلقدونية ، ومن هناك وجه إنذاره الشهير إلى الحكومة مطالباً بعزل الكسيوس وإبعاد مارييا إلى أحد الأديرة . واستغل أندرونيوكوس شعور الكراهيّة الدين في قلوب الأهلين تجاه اللاتين الذين كانوا يكذبون سلس سكان العاصمة ، فأرسل من يروج إشاعات بأن المرتزقة اللاتين قد دبروا مذبحة للقتل بالأبرياء العزل من المواطنين . وهنا زحف غوغاء القسّطنطينية على أحياط الحاليات اللاتينية في العاصمة وذبحوا النساء والأطفال والشيوخ كما أشعلوا النيران في كل ما وقعت عليه أيديهم . ولم ينج من تلك المأساة الرهيبة سوى عدد قليل من اللاتين فروا يولولون قبلة الغرب اللاتيني<sup>(١)</sup> .

دخل أندرونيوكوس العاصمة دخول «الخلص» المنتظر ، وقوبل بحماس منقطع النظير من سكان العاصمة على مختلف طبقاتها . وبدأ برنامجه

«الإصلاحى» بالتخلص من كل منافسيه فى العاصمة : وكانت ماري عمانوئيل وزوجها رينيه أول من اختفى كلياً من على المسرح . كما وجهت تهمة الخيانة العظمى إلى الإمبراطورة الأم وحكم عليها بالإعدام ، الذى وقع عليه ولدها الكسيوس الثانى تحت إلحاح أندرونيکوس . بعد هذا تجمهر أشياع أندرونيکوس ووضعوا الناج على رأسه ، شريكاً في الحكم للإمبراطور الطفل . وسرعان ما أُغتيل الطفل خنقاً بيد عصابة هذا المغتصب للعرش (نوفمبر ١١٨٣) . ولكن يضفي على نفسه صفة الشرعية في الحكم تزوج أندرونيکوس الذى كان وقتها في الخامسة والستين من العمر من الإمبراطورة الطفلة أجنس التى كانت في الثالثة عشرة من عمرها ، بعد فترة وجيزة من اغتيال زوجها الطفل .

إن السياسة التي استهلها أندرونيکوس حكم الإمبراطورية ، مثلها مثل شخصيته ، لمدعاة للدهشة بسبب تلك التناقضات الصارخة التي ميزته عن دونه من سائر الأباطرة البيزنطيين . لقد حاول هذا الرجل «الغرير الأطوار» أن يحيي الإمبراطورية وهي لاذ ريم : فقد أقدم في عزم من حديد على استئصال الشرور التي استشرت في المجتمع البيزنطي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، والتي كان أبرزها تسلط الطبقة الأرستقراطية من كبار ملوك الأرض على الفلاحين . واستخدم أندرونيکوس السبيل الأوحد الذي كان يعرفه جيداً في حربه الضاربة ضد هذه الطبقة «المسورة» ، ولذا فإن فترة حكمه كانت في الواقع سلسلة من أعمال العنف والإرهاب من من جانب الحكومة ، والمؤامرات تلو المؤامرات من جانب هذه الطبقة الموسرة الفاحشة<sup>(٢)</sup> .

في ذلك الوقت الذي انصرف فيه أندرونيکوس لإشعال النار في العفن الذى كان يعمل في قلب المجتمع البيزنطي ، جاءت سحب الغزو والتهديد تنذر من الغرب . فقد ثار الملك بيلا الثالث المجري وال Khan الصربي ستيفن

See G. Ostrogorsky, op. cit., p. 352.

(٢).

نيانجا ضد القسطنطينية : في عام ١١٨١ استولى بيلا على دلماشيا وبعض من كرواتيا وعلى مقاطعة سرميوم ، فقضى بهذا على الجهود التي كان عمانويل كومين قد بذلها في المجر بعد أن أنهك خزانة الدولة . وفي عام ١١٨٣ عقد الهنفاري والصرب حلفاً ثانياً ضد بيزنطة وسقطت في أيديهم بلغراد ويرانسيشو ونيس وصوفيا<sup>(٣)</sup> .

وفي آسيا تمردت طبقة كبار الملك ضد أندرونيوكوس بقيادة فرع من آل كومين مما ألقى مضاجع الحاكم . هذا في حين أن إسحق كومين ، حاكم جزيرة قبرص ، سرعان ما أعلن استقلال الجزيرة عن الإمبراطورية ولقب نفسه إمبراطوراً كما سلك عملية خاصة بإمبراطوريته الصغيرة . ولم يستطع أندرونيوكوس مقاومة هذه الحركة الانفصالية الخطيرة ، وكل ما استطاع فعله هو أن قبس على أقرباء إسحق كومين وأصدقائه القائمين في القسطنطينية وقتلهم أشنع قتل .

أما هذا النفر القليل من اللاتين الذين هربوا من مذبحة ١١٨٢ فقد وصلوا إلى غرب أوروبا ليقصوا الأهوال التي لقيها لخوانهم من الضحايا على يد السلطات البيزنطية ؛ مطالبين بالثأر . وكان هذا حافزاً جديداً لاشتداد موجة الكراهية ضد كل ما هو بيزنطي . وليس من قبيل الصدفة أن أعلن بربروسا وقتهما عزمه على تقليم أظافر الجالس على عرش البسفور ، خاصة بعد أن زوج ولده ووريثه هنري السادس من الأميرة كونستانتس وريثة تاج صقلية في عام ١١٨٤ . وبهذا أصبحت القوتان الغربيتان اللتان كانتا أشد القوى عداوة لبيزنطة في يد ألمانية واحدة ، وباتت في مقدورها اتخاذ صقلية ونابولي قاعدة للتحرك بغية القضاء على كيان الرجل المريض على ضفاف البسفور . وهذا ما نجده في إحدى الحوليات المعاصرة التي تقول بأن « الإمبراطور وقد رغب في طعن حكم البيزنطيين طعة نجلاء خطب لولده أميرة صقلية »<sup>(٤)</sup> .

Ibid., p. 354.

(٣)

Annales Colonienses Maxim'. n M.G.H.SS., Vol. XVIII, p. 791.

(٤)

وباء وليم الثاني ملك صقلية على رأس حملة للانتقام من المذبحة التي أحلها أندرونيكيوس بالحاليات اللاتينية في عام ١١٨٢ . وكان في معيته أحد الأمراء البيزنطيين يطالب بأحقيته في العرش ؛ ولكن الغرض الحقيقي من وراء تلك الحملة كان خلع أندرونيكيوس ثم ضم التاج البيزنطي إلى التاج النورماندي<sup>(٥)</sup>.

أمام كل هذه التحديات في الداخل ومن الخارج اضطر أندرونيكيوس إلى البحث عن حلفاء له في كل من الشرق والغرب . فعقد معاهدة مع البندقية في بداية عام ١١٨٥ ، أطلق بموجبها سراح الأسرى من البندقية كما وعد بدفع تعويضات لمن أصيروا بأضرار على أثر أحداث ١١٧١ و ١١٨٢<sup>(٦)</sup> . كذلك راح أندرونيكيوس يتودد إلى الباباوية مبدياً رغبته في الاستجابة لكافة مطالب البابا بشأن الكنائس اللاتينية في الإمبراطورية البيزنطية . وهناك رسالة هامة من البابا لوسيوس الثالث (١١٨١-١١٨٥) موجهة إلى ليو كبير الترجمة اللاتين في البلاط البيزنطي تلقي بعض الضوء على هذا الأمر الهام . فمع أن الجزء الأكبر من هذه الرسالة يتضمن تعزية لليو في وفاة شقيقه الكريدينال هيومن سان أنجيلوس ، إلا أن هناك فيها ما يفيد بأن البابا قد أرسل قاصداً رسوليّاً إلى القسطنطينية لتفاوض مع أندرونيكيوس كومين في مسائل كنسية<sup>(٧)</sup> . كذلك يحدثنا أحد الكتاب المعاصرين أن أندرونيكيوس كومين قام برغم المعارضة الشديدة التي أبدتها بطريرك القسطنطينية ببناء كنيسة على حسابه في العاصمة البيزنطية ومنحها للاتين ليمارسوا فيها طقوسهم في حرية تامة دون تدخل من جانب السلطات الكنسية البيزنطية<sup>(٨)</sup> .

See A. Vasiliev, *A History of the Byzantine Empire* (trans. B. Blackwell), (٥)  
Oxford, 1952, p. 453.

Dandolo, *Chronicon*, p. 309. (٦)

P. Jaffé, I, p. 444 (14712). (٧)

Benedict of Peterborough, op. cit., I, p. 257. (٨)

ويرغم هذه الجهود اليائسة بات الخطر محيطاً ببيزنطة من كل صوب وحذب . وجاءت الضربة القاضية على يد وليم الثاني ملك صقلية الذي استولى على دورازو ، ثم زحف على رأس رجاله عبر طريق أجناشيا قبالة تسلونيكا . وفي أغسطس ١١٨٥ سقطت تسلونيكا ، العاصمة الثانية للإمبراطورية ، في يد النورمان الذين ابتلوا المدينة بدمار بشع وبدمابع قاسية انتقاماً لأحداث ١١٨٢<sup>(٩)</sup> . وبعدها زحف النورمان صوب العاصمة ذاتها ، وبات مصير بيزنطة في خطر داهم .

بلغ أندروفينيكوس كومين في تلك المرحلة اليائسة من فترة حكمه إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي وعقد معه حلفاً ضد اللاتين في الشام وضد سلطان قونية . غير أن تلك الأحلاف التي عقدها أندروفينيكوس لم تنجر من مصيره المحتوم . وبينما كانت جحافل النورمان تزحف صوب العاصمة البيزنطية ، كان أندروفينيكوس يطارح خليلاته الغرام ، ويمضي أمسياته حتى مطلع الفجر يستمع إلى أنغام إحدى العازفات على الناي والتي كانت محببة إلى قلبه<sup>(١٠)</sup> . وكان هذا كفيلاً بأن يثير السخط كله من جانب أهل العاصمة على مختلف طبقاتها ضده . فقامت المظاهرات الشعبية تهتف بسقوط الطاغية «الخمور» : وقبض رجال الإمبراطور على المحرضين على الثورة ونكروا بهم تنكيلًا شديداً .

وفي عام ١١٨٥ توجه وزير البوليس (المagiونخستوفوريتوس) للقبض على أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية في العاصمة واسمه إسحق أنجيلاوس ، ولكن الأخير ضرب الوزير بسيفه فأرداه ثم مرق بجواره إلى آيا صوفيا حيث طلب الحماية من الكنيسة . ولما انتشرت أنباء هذا الحادث تقاطر الناس حول البازيليكا وقفوا بسيوفهم مشهورة لحماية البطل اللاجي . وفي الصباح التالي اختارت جماهير العاصمة هذا الهارب ليكون إمبراطوراً

Nicetas Choniates, Historia, pp. 391 - 92.

(٩)

C. Diehl, op. cit., p. 125.

(١٠)

عليهم . وتم بعدها القبض على اندرونيكيوس كوميني الذي قيد بالأغلال وأقييد إلى مقام أسحق انجلوس الذي سلمه إلى سوق العاصمة ليفعلوا به ما يشتهون . وأقييد الإمبراطور المخلوع على ظهر بعير حقير في طرقات العاصمة وشوارعها في موكب مهين ، محفوفاً باللطم وأقذع الأهانات ، حتى وصلت الفريسة إلى المپدروم . وهناك تسابق الجموع بين زطبيين ولاتين في تعذيب اندرونيكيوس بضربات سيفهم حتى مزقه إربا .

وعلى هذه الشاكلة أنهت حياة آخر الآباطرة من آل كوميني ، وبدأت فترة حكم أسرة انجليل في عام ١١٨٥ . ولم يكن الإمبراطور الجديد اسحق انجلوس (١١٩٥-١١٨٥) يملك القدرة الحقيقية على حمل تاج الإمبراطورية . وهو بثورته في عام ١١٨٥ قد مكن للطبقة الاسترقاطية من مواصلة نفوذها والسيطرة على مقدرات الفلاحين من جديد ، بعد أن قضى على عدوها الأول اندرونيكيوس كوميني . كذلك كانت سياسة اسحق الخارجية تجاه مملكة البلغار الثانية وتجاه الترك غير محددة المعالم (١) .

ولعل أهم حدث وقع في فترة حكم اسحق انجلوس هو قيام الحملة الصليبية الثالثة . وهذا يدعونا إلى ذكر بعض الواقع الأساسية التي سبقت التبشير بهذه الحملة : ففي فبراير ١١٨٣ أُبْحِرَ الأمير رينولد دى شاتيليون صاحب الكرك الصليبي على رأس جيشه صوب الحجاز بغية تدمير مملكة والمدينة ، ولكنه هزم هزيمة نكراء على يد حسام الدين لؤلؤ وزير صلاح الدين الأيوبى . وفي بداية يونيو ١١٨٧ هجم صلاح الدين ورجاله على الصليبيين ومنهم بزيمة فادحة عند خطين ، بعد أن أسر جائى ملك بيت المقدس وهو مفرى من تورون زعيم الداوية ثم رينولد (أرنات فى المصادر العربية) ذاته . ولقد عامل السلطان البطل أسراه باحترام زائد ولكنه قتل بيده رينولد بسبب خرقه للمواثيق والعقود التي كان قد أبرمها من قبل مع صلاح الدين وأمراءه ،

---

See F. Cognasso, *Un Impetatore Bizantino della Decadenza, Isacco Angelo*, (١) Rome, 1915, p. 44.

وبسبب إغاراته على الحجاز والأماكن المقدسة فيه . وفي ٢ أكتوبر ١١٨٧ دخل السلطان بيت المقدس ، وكان فتحه لها فتحاً إنسانياً من الطراز الأول : فقد أبدى من العطف والتسامح مع الصليبيين ما أكسبه إعجاب كافة المؤرخين في الشرق والغرب على السواء . وكان هذا الموقف المتسامح الكريم مخالفًا تماماً للصورة الرهيبة التي دخل بها الفرنجية بيت المقدس في عام ١٠٩٩ .

بعد المذيعة المذكورة التي حلّت بالصلبيين في واقعة حطين سافر وليم الصورى إلى غرب أوروبا لينقل الأنباء ولطلب النجدة من أمراء الغرب . هذا وتعزّوا الحوليات الغربية سقوط أورشليم إلى الفساد والأثام التي كانت قد استشرت بين اللاتين في الأرض المقدسة ، وعلى رأسهم بطريرك أورشليم هرقليوس ، وبوهمند الثالث أمير انطاكية (١٢) :

والمعلوم أن الفرنجية في سوريا وفلسطين كانوا قد بعثوا إلى السلطات الغربية يطلبون النجدة من قبل عندما ضيق صلاح الدين عليهم الخناق . في أثناء انعقاد المجلس اللاتيراني الثالث سنة ١١٧٩ وفي مجلس فيرونا عام ١١٨٤ وصل أساقفة ومبعوثون من الإمارات اللاتينية في الشرق يخشون المؤمنين على المسارعة في إنقاذ ما تبقى من نفوذ صليبي في الشام . وقد حمل البابا اسكندر الثالث وخلفه لوسيوس الثالث هؤلاء المبعوثين رسائل إلى أمراء وملوك غرب أوروبا ، وعلى رأسهم فيليب أغسطس ملك فرنسا وهنري الثاني ملك إنجلترا لمساعدة هؤلاء السفراء في التبشير بحملة صليبية جديدة . ومع أن الملكين الفرنسي والإنجليزي فوضا هؤلاء حق التبشير بحملة صليبية في بلديهما ، إلا أن الرأي العام لم يجد اهتماماً يذكر لهذه النداءات . ولكن أنباء سقوط أورشليم كانت حافزاً كبيراً لإشعال حماس صليبي جديد في غرب أوروبا . فأرسل البابا الجديد جريجورى الثامن خطاباً دورياً إلى سائر المؤمنين في الغرب

---

Caesarius of Heisterbach, *Dialogus Miraculorum*, (ed. Strange), 2 vols., (١٢)  
Cologne, 1851, Vol. I, p. 187; William of Tyre, XXXI, vii; Ricardi  
Londiniensis *Itinerario Peregrinorum*, in M.G.H.SS., Vol. XXVII,  
p. 195.

يحثهم فيه على التطوع في صليبية جديدة لإنقاذ إخوانهم في الشام<sup>(١٣)</sup>. وجاء خلفه كلمة الثالث ليواصل الجهد لتحقيق المشروع : فأمر بإقامة صلوات خاصة في سائر الكنائس من أجل استعادة أورشليم ، كما أوفد سفراوه إلى أمراء غرب أوروبا ليحثوهم على حمل الصليب . وأشهر من تولى مهمة التبشير بالحملة الثالثة وليم الصوري والكاردينال هنري من البانو ، وذلك بتفويض من البابا كلمة الثالث . ولقد قوبلت دعوى الأسقف وليم الصوري بحماس زائد شبيه بذلك الحماس الذي غمر غرب أوروبا أيام التبشير بالصلبية الأولى ، حتى أن وليم الثاني ملك صقلية الذي كان حتى ذلك الوقت يعوق أية اتصالات بالأرض المقدسة من خلال مملكته باادر بإرسال خمسين قطعة بحرية حربية تحمل خمسةمائة من فرسانه كانوا السبب الرئيسي في إنقاذ انطاكية من السقوط<sup>(١٤)</sup> . ولما توفى وليم الثاني (في ١٨ نوفمبر ١١٨٩) تعهد صهره الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد ، كونت بواتو ، بقيادة حملة صليبية إلى الشرق . وسرعان ما حذوا حذوة فليب أغسطس ملك فرنسا . وقد فرض هذان الملكان ضريبة خاصة على شعبيهما تعرف « بعشور صلاح الدين »<sup>(١٥)</sup> . كذلك قobel القاصد للبابوي في ألمانيا بحفاوة بالغة على يد فرديريك بربروسا ، الذي عقد مجلساً في مدینه مينز أعلن فيه اعتزامه الرحيل على رأس حملة إلى الشرق (٢٣ أبريل ١١٨٩) .

أرسل بربروسيا رسائل إلى ملك المجر وأمبراطور القسطنطينية وسلطان قونية يعلمهم فيها بحملته ويطلب منهم تقديم التسهيلات الازمة له أثناء عبوره إلى آسيا الصغرى . كذلك بعث بالكونت هنري من ديز إلى السلطان صلاح الدين يطلب منه إعادة أورشليم وصليب الصليبيوت ، وإلا فليس بعد للحرب<sup>(١٦)</sup> . وكان بربروسا في السبعين من عمره عندما حمل شارة الصليب . ولقد

Mansi, Vol. XXII, cols. 507 - 31.

(١٣)

Ricardi Londiniensis, loc. cit.

(١٤)

Baronius, Annales Ecclesiastici, ad. an. 1188.

(١٥)

Otto of Saint Blaize, Chronica, in M.G.H.SS., Vol. XX, p. 319.

(١٦)

استقبله ملك المجر استقبالاً طيباً وقدم له هدايا فنية . ومن المجر بعث ببروسيا أسقف منستر والكونت روبرت وماركوارد للتفاوض مع إسحق أنجيلوس إمبراطور بيزنطة ، ولكن الأخير احتجز السفراء الألمان في عاصمته كرهائن وسرعان ما بدأت الاشتباكات بين الحملة الألمانية والكتائب البيزنطية التي كانت ترافق تحركاتهم عبر الأراضي البيزنطية . وفي إحدى المناسبات قبض فرسان ببروسيا على ثلاثة من جند بيزنطة ونصبوا لهم المشانق وأعدموهم على مشهد من الأهلين<sup>(١٧)</sup> . ودار القتال عنيفاً بين الطرفين في أثناء اختراق الألمان لأراضي بلغاريا المليئة بالغابات .

كتب ببروسيا في تلك المرحلة إلى السلطان قلوج أرسلان يطلب منه مهاجمة حدود بيزنطة في آسيا الصغرى . ولذا فقد قرر الإمبراطور البيزنطي — إسحق أنجيلوس — عقد حلف مع السلطان صلاح الدين الأيوبى . ويحدثنا بهاء الدين ابن شداد عن حرص العاهل البيزنطى على الحفاظ على علاقات المودة والصداقة بينه وبين صلاح الدين ، وعن جهوده في إنهاء قوى الحملة الألمانية قبل وصولها إلى أراضى العامل الأيوبى<sup>(١٨)</sup> . أما المصادر اللاتينية فتصور العلاقات الودية بين إسحق أنجيلوس وصلاح الدين على أنها دليل جديد على خيانة البيزنطيين وغدرهم . كما وأنهم يؤكدون أن الإمبراطور البيزنطى تلقى أبناء سقوط أورشليم في يد صلاح الدين بسرور بالغ ، وأسرع يرسل له التهنئة والهدايا . وقد حدث أن وقع شقيق إسحق ، الكسيوس أنجيلوس ، في يد أمير أنطاكيه وكانت طرابلس وهو في طريقه لمواصلة المفاوضات مع صلاح الدين ، ولكن السلطان أجبرهما على إطلاق سراحه . كذلك توضح هذه المصادر أن السلطان صلاح الدين بعث بمئذن ليشرف على المسجد القائم في العاصمة البيزنطية تلبية لرغبة إسحق أنجيلوس<sup>(١٩)</sup> .

Ansbert, Historia de Expeditione Friderici Impexatoris, in A. Chroust, (١٧)

Quellen., Berlin, 1928, pp. 40 - 43.

Beha ed-Din ibn shaddad, Anecdotes, in R.H.C.Or., III, pp. 172 - 75. (١٨)

Chronicon Magni Presbiteri, in M.G.H.SS., Vol. XVIII, p. 511. (١٩)

ولذا فقد عامل ببروسا ورجاله أهالي الإمبراطورية البيزنطية على أنهم أعداء للصلبيين ، فانقضوا على مدينة فيليبوبلوس ونهبها (٢٤) ١١٨٩ من كل تقىس فيها إلى حد جعل أحد المصادر يقول بأن « رجال ببروسا جميعاً قد حصلوا على كميات من الذهب والفضة » وفيرة (٢٥). وفي فيليبوبلوس تلقى ببروسا رسائل من القسطنطينية « مكتوبة بلغة متعالية وفيها تلويع بالتهديد إلى جانب نبرات النفاق والخداعة » ، على حد تعبير أنسبرت (٢٦). وفي هذه المرحلة وصلت الآباء إلى المعسكر الألماني تفيد بأن سفراء ببروسا قد احتجزوا أسرى في يد إسحق أنجيلوس. وكان هذا كافياً لأن يقدم الإمبراطور الألماني وجشه على تدمير القلاع والقرى والمداير التي كانوا يعبرونها انتقاماً من موقف أنجيلوس . وأمام هذا اضطر إسحق أنجيلوس إلى أن يطلق سراح هؤلاء السفراء الذين وصلوا إلى المعسكر الألماني يؤكدون أن الإمبراطور البيزنطي قد سرق أموالهم وأذلم ذلة بالغة . ونجده تفصيلاً لهذا في الرسالة التي بعث بها ببروسا إلى ابنه هنري السادس من مدينة فيليبوبلوس :

« هنا ولعلكم تدركون أن عبورنا من سان جورج أمر صعب بسبب موقف إمبراطور القسطنطينية ، ولذا فإني أطلب من جلالتكم المبادرة للتفاوض مع جنوة والبنديقية وأنكونا وبيزا لإرسال أساطيلهم لمقابلتنا عند القسطنطينية لكي نشن عليها حصاراً من البر والبحر ..... ويحسن بفتح خاملكم أيضاً الكتابة إلى سيدنا البابا ليبعث بمندوبيه إلى بلدان غرب أوروبا لاستئثار المقاتلين ضد أعداء الصليب ضد اليونانيين ؛ ذلك لأن سفراعنا (....) قد سمعوا بأذانهم بطريقك آيا صوفيا يعلن بسمهور المسلمين أن البيزنطي الذي يقتل مائة صليبي تغفر له كل آثامه حتى ولو كان قد سفك دماء عشرة من بنى جلدته » (٢٧).

Cronica Ymaginis Mundi, p. 82.

(٢٥)

Ansbert, pp. 42 - 43.

(٢٦)

Ibid.

(٢٧)

روما وبيزنطة

وهكذا فإن بربوسا قد عقد العزم هو وفرسانه على تدمير بيزنطة وقتل أهلها . وقد أنفذ الألمان خططهم هذا في مدينة برانتس (٢ يوليو ١١٨٩) ثم في صوفيا (١٣ أغسطس ١١٨٩) . وأصبح الأدوات الألمان يتنافسون في قتل البيزنطيين والتشكيل بهم : فنجد الدوق بروتولد يربط أربعة وعشرين رجالاً في ذيول خيوله حتى وصوله إلى المعسكر ثم يقوم بشنقهم على مشنقة واحدة وهم معلقون؛ أرجلهم إلى أعلى ورؤوسهم إلى أسفل . هنا بينما كان فردريلك من برج يثبت ضحاياه في سيقان الأشجار بالخطاطيف . وكان بربوسا يبرر هذه الوحشية بما أسماه «جريدة البيزنطيين في عقد حلف مع صلاح الدين عدو الصليب»<sup>(٢٣)</sup> . وزاد من إصرار بربوسا على تقطيع أظافر أنجيلوس تلك الروايات التي استمع إليها من سفراه وكيف «احتجزوا في الأسر ونبت أموالهم وأخضعوا للمهانة والسخرية بأن اغتصبت منهم خيولهم وقدمت هدية لسفراء صلاح الدين في العاصمة البيزنطية»<sup>(٢٤)</sup> .

وجاءت رسالة أخرى من إسحق أنجيلوس لتزييد النار ضرامةً : فقد خطب بربوسا فيها على أنه «ملك الألمان» لا إمبراطور الرومان . ولذا فقد نهر بربوسا سفراء أنجيلوس وسخر من سيدهم الذي يلقب نفسه بإمبراطور الرومان دون استحقاق . كما أفهمهم أنه سيعبر أراضي بيزنطة دون مشاورة مع السلطات البيزنطية وإنما بحد السيف<sup>(٢٥)</sup> . وبالفعل قام فردريلك دوق سوابيا في الرابع والعشرين من نوفمبر ١١٨٩ باحتلال ديموتيقا وقتل أكثر من ١٥٠٠ من أهلها<sup>(٢٦)</sup> .

وفي نفس الوقت عقد بربوسا حلفاً مع الحالية الأرمينية في مدينة فيليبيوبولس بعد أن قام زعماً لهم بأداءيمين الولاء والطاعة له . ويرى المؤرخ البيزنطي نيكيتاس كونياتس في هذا التقارب بين الألمان والأرميين نتيجة لتشابهه

Ibid., p. 44.

(٢٣)

Ibid., pp. 44 - 45.

(٢٤)

Ibid., p. 50.

(٢٥)

Ibid., p. 54.

(٢٦)

الجانين في العقيدة والطقوس الدينية : فكلّا هما لا يبدى احتراماً كافياً للأيقونات ، كما وأنهما يستخدمان خبزاً غير مختمر في الأفخارستيا<sup>(٢٧)</sup> .

استمر القتال بين صليبيّة بربروسا والبيزنطيين : فقد هجم أسقف فرزبورج وكونتا سالم وسباهيم على أراضي الولاشيين واستولوا على ثلاث مدن ، بعد أن قتلرا قرابة خمسمائة ألفاً من أهلها . كذلك زحف كوفن إبنبرج وفرديرك من برج صوب الجنوب وسلبا خيرات مده . في حين أنّ أسقف بساو ودوق دلماشيا استوليا على الأرضي المجاورة لتسالونيكا . وعند مدينة جرادتز وجد الألمان كثائسها مليئة بصور للصلبيّين على هيئة خيول يمتطيها البيزنطيون وقد ألموا بهم ، فجن جنونهم وحرقوا المدينة عن آخرها<sup>(٢٨)</sup> . كذلك فتح بربروسا باب المفاوضات مع الخان ستيفن نيانجا زعيم الصرب وحضره على التمرد ضد بيزنطة وعلى محالفته في تدمير القسطنطينية (يناير ١١٩٠)<sup>(٢٩)</sup> . وجاء بطرس زعيم الولاشيين يطلب من بربروسا مساعدته في الحصول على تاج بيزنطة مقابل إمداده بأربعين ألفاً من رجاله لمهاجمة القسطنطينية<sup>(٣٠)</sup> .

أمام هذه التحدّيات المروعة اضطر إسحق أنجيلوس إلى تغيير موقفه من الحملة الألمانيّة ، فأرسل سفارته ودية في ٢١ يناير ١١٩٠ إلى بربروسا لتعقد صلحًا معه على الشروط التالية :

- ١ - تنازل إسحق أنجيلوس عن التعويضات التي كان قد طالب بها عن الخسائر التي حلّت بالأهليين في مقدونيا وترacia .
- ٢ - أعلن البازيليوس استعداده لمن بربروسا بالسفن الكافية لنقل « جيش المسيح الموقر » من جاليبولي .

Nicetas Choniates, 322, A, in R.H.C.Gr., Vol. II, p. 442.

(٢٧)

Ansbert, pp. 59 - 60.

(٢٨)

Ibid., p. 61.

(٢٩)

Ibid., p. 58.

(٣٠)

- ٣ - تعهد إسحق بأن تبقى سفنه الحربية على الشاطئ أثناء عملية عبور الألمان .
- ٤ - تبقى الكتائب البيزنطية على متنى من الجيش الصليبي بمسيرة أربعة أيام .
- ٥ - يقدم الإمبراطور البيزنطى ثمانى عشرة رهينة من الدم الملكى انحالص .
- ٦ - إذا لم توف السلطات البيزنطية التزاماتها في مد الألمان بالأسوان الكافية يصبح جيش بربروسا حرّاً في تصرفه للحصول على متطلباته .
- ٧ - يصدر إسحق أنجيلوس عفواً شاملًا عن هذا النفر من البيزنطيين والأرمن الذين أدوا خدمات للسيد الأوحد إمبراطور الرومان .
- ٨ - يدفع إمبراطور بيزنطة تعويضات كافية عن الخسائر التي حلّت بسفراء بربروسا إلى القسطنطينية .
- ٩ - يتمهد إسحق أنجيلوس بإطلاق سراح كافة الأسرى اللاتين الذين وقعوا تحت يده .

بهذه المعاهدة المعروفة بصلح أدريانوبيل<sup>(٣١)</sup> تمكن إسحق أنجيلوس من إنقاذ عاصمته من خطر محقق ، وبمحض أيضًا في إغراء بربروسا على العبور من أوربا إلى آسيا . وفي ٢٥ لبريل ١١٩٠ دخل الألمان الأراضي التابعة لسلطنة الأتراك ، حيث وقعت مناوشات بين الطرفين ، وانتهى الأمر بأن عقد صلح بين قطب الدين ملك شاه وببروسا<sup>(٣٢)</sup> . وفي ٣٠ مايو وصل الألمان لاراندا ، على حدود كيليكيا حيث قوبلا بالترحاب من قبل أمرائها الأرمن وعلى رأسهم ليو الثاني . وكانت عملية عبور منظمة طوروس الجبلية مهمة شاقة للغاية ، وصل بعدها الألمان إلى وادي نهر سالف ( كاليسادونس ) . وهناك

Ibid., pp. 64 - 66.

(٣١)

Ricardi Londinensis Itinerario Peregrinorum, p. 204.

(٣٢)

نزل ببروسا إلى النهر ليتخفف من حدة الحرارة ولكنه غرق (١٠ يونيو ١١٩٠). بعد وفاة ببروسا تحولت حملته إلى موكب جنائزى ، وانقسمت إلى ثلاثة جماعات : الأولى أبحرت من طرسوس إلى طرابلس ؛ والثانية إلى أنطاكية ؛ والثالثة قررت مواصلة السير برأس حتى سوريا . وفي سوريا وقع الألمان فريسة لوباء الطاعون فهلك منهم جمع كبير من بينهم جودفرى أسقف فرزبورج ومارتن أسقف ميش والمارجريف هرمان من بادن ، والبرجريف بركمارك من مجلدبرج والكونت فلورند من هولندا والكونت بوبيو من هنبرج والكونت ولاراند من هالرمند ثم فدرريك من برج . كذلك هلك من هذا الوباء الدوق فدرريك ولد ببروسا في عكا في ٢٠ يناير ١١٩١ ودفن في جبانة جماعة الاستبارية . بعد هذا تولى أمر الحملة كونرادى مونت فرات لخين وصول ليوبولد دوق النمسا في ربيع ١١٩١ . ولكن ليوبولد وجشه قد أذلا على يد الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد وقت حصار عكا في ديسمبر ١١٩١ ، مما اضطر ليوبولد إلى العودة إلى وطنه وهو يعقد النية على الانتقام من ريتشارد . وبهذا فإن عدداً ضئيلاً جداً من صليبيي ببروسا ظلوا في الشام ليشهدوا سقوط عكا في يد الصهايبين .

ولعل أهم نتيجة لحملة ببروسا — برغم فشلها الذريع — هي أنها قد أوضحت للسلطات المسئولة في غرب أوروبا إمكانية تحطيم الدولة البيزنطية تماماً وإزالتها كعقبة في طريق الصليبيين إلى الأرض المقدسة . وهذا ما سيقدم عليه خلف ببروسا : هنرى السادس .

\* \* \*

قاست الإمبراطورية البيزنطية الأهوال على يد صليبيية ببروسا . وجاءت صليبية ريتشارد قلب الأسد هي أيضاً لتهديد كيان جزيرة قبرص . في ١٠ أبريل ١١٩١ أبحر ريتشارد على رأس أسطوله من مسينا وتوقف عند كريت ثم عند رودس . وفي أثناء ذلك هبت عاصفة دفعت بالسفينة التي كانت تقل جوانا شقيقة الملك الإنجليزى وبرنجاريا خطيبته إلى شواطئ جزيرة

قبرص . كذلك تحطمت سفينتان أخرىتان على نفس الشاطئ . وكانت قبرص تخضع لحكم إسحق دوكاس كوميني الذي كان قد أعلن نفسه إمبراطوراً في عهد أندرونيكوس كوميني . قام إسحق بالقبض على رجال ريتشارد وصادر أمتعتهم وأموالهم ، ثم وجه الدعوة إلى الملكة جوانا لتنزل ضيقه عليه ولكنها رفضت . ولما طلبت الملكة إمداداً من الماء العذب لطاقم سفينتها رفض إسحق مطلباً « في وفاحة زائدة » . وراح إمبراطور الجزيرة يقيم التحصينات الحماية نفسه من أسطول ريتشارد قلب الأسد . وفي الخامس عشر من مايو ١١٩١ وصل ريتشارد إلى جزيرة قبرص ، حيث علم بما حل برباته وبأخته على يد إسحق كوميني . وتصور الحوليات الإنجليزية إسحق هذا على أنه « يهودا الأسخريوطى » لأنه كان ينجب ويقتل الصليبيين الذين يصلون إلى شواطئ جزيرته ، وأنه قد عقد تحلفاً مع صلاح الدين الأيوبي<sup>(٣٣)</sup> .

طلب ريتشارد من إسحق كوميني إطلاق سراح الرجال الذين وقعوا في يده من الحملة هم وأمتعتهم وأموالهم ، ولكن الأخير رفض الاستجابة لهذا المطلب . ولذا فقد هجم هو ورباته على الجزيرة « كما ينقض الذئب على الحمل » وعملوا فيها نهباً وتقتيلاً<sup>(٣٤)</sup> . فر الأهالي مذعورين من ضربات سيف الإنجليز واحتلوا في الجبال بعد أن هزم إسحق كوميني وفقد الراية الإمبراطورية ومتع خيمته . وفي ١١ مايو ١١٩١ وصل إلى قبرص جائى من لوزينيان ملك بيت المقدس وجودفري شقيقه وراموند أمير أنطاكية وبوهمند كونت طرابلس . وكان جائى قد أتى ليطلب مساعدة ريتشارد له ضد أطماع كونراد دى مونت فرات في تاج مملكة بيت المقدس خاصة وأن الملك الفرنسي فيليب أغسطس كان يؤيد كونراد في أطماعه<sup>(٣٥)</sup> . استقبل ريتشارد

Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte, (ed. Gaston Paris), Paris, 1897, (٣٣)  
cols. 37 - 38.

Anglo - Norman Texts (The Crusade and Death of Richard I, (ed. R. Johnston), Oxford, 1961, pp. 24 - 25. (٣٤)

Ambroise, col. 39. (٣٥)

ملك بيت المقدس وصحبه استقبلاً حسناً ، ثم قام هؤلاء بأداءيمين الولاء والطاعة له<sup>(٣٦)</sup> . وفي اليوم التالي تم حفل زواج الملك الإنجليزي من خطيبته برنجاريما في مدينة ليماسول .

قرر إسحق كومين التفاوض مع ريتشارد قلب الأسد ، فعرض عليه أن يدفع له مبلغ ٢٠,٠٠٠ مارك من الذهب ، وأن يطلق سراح الأسرى الإنجليز ، وأن يشارك في حملة ريتشارد بفرقة قوامها مائة فارس وألف من المحاربين والمشاة . وقبل ريتشارد عروض إسحق بعد أن أقسام الأخير يمين الولاء والطاعة للأول وتلقى «إمبراطوريته» إقطاعاً من يد الملك الإنجليزي<sup>(٣٧)</sup> . غير أن إمبراطور قبرص سرعان ما ندم على صلحه مع هذا الغازى وهرب من ليماسول .

أرسل ريتشارد بعد هذا بجزء من أسطوله تحت قيادة روبرت من تيرنام ليكتسيح شواطئ الجزيرة غرباً وليستولي على سفن وموانئ اسحق كومين . وقد هو ذاته النصف الثاني من الأسطول وأبحر شرقاً قبالة فماجوستا . أما القوات البرية فقد عهد بقيادتها إلى جاي من لوزينيان الذي كان عليه السير ورجاله بمحاذة أسطول ريتشارد . وعند نيقوسيا توغل جاي داخل البلاد ونهب القرى والمدن والقلاع . ووقعت ابنة إسحق كومين أسيرة في يد جاي عندما عثر عليها في حصن كيرين . أما الإمبراطور فقد اختبأ في أحد الأديرة ولكنه عندما علم بقرب وصول الملك إلى هذه البقعة أسرع ليلقى بنفسه عند قدمي ريتشارد يطلب منه الرحمة والغفران متسللاً إليه ألا يقيمه بقييد من الحديد . أمر ريتشارد بتقييد إسحق بقييد من فضة ثم أرسله تحت حراسة وزيره رالف فرتز جودفري إلى طرابلس . وصادر الملك الإنجليزي ثروة الإمبراطور الأسير وسلب نصف ممتلكات سائر سكان الجزيرة<sup>(٣٨)</sup> .

Anglo - Norman Texts, p. 25.

(٣٦)

Ambroise, col. 49.

(٣٧)

Anglo - Norman Texts, p. 26 : "Puis prist tout son avoir et la moitié (٣٨)

ovelement de touz les biens mobles de toutes gentz de l'ile de Cypre".

ترك ريتشارد حامية صغيرة تحت قيادة ريتشارد من كامفيل وروبرت من تيرنham للإشراف على شؤون الجزيرة ، وفي ٥ يونيو ١١٩١ أبخر وأسطوله قبلة عكا . وتميز هذان الصابطان الإنجليزيان بغلظة وشراسة فقد أمرا الأهلين بحقن لحاظهم علامة على خصوّعهم التام ، كما راحا يبتزآن أرزاق وأموال الناس في إرهاب خيف . ثار الأهلون على هذا الظلم ولكن ثورتهم قمعت في قسوة بالغة .

ولما كان ريتشارد قلب الأسد منشغلًا في حربه في عكا وفي مواجهة تحديات حزب فيليب أغسطس وكونراد دي مونت فرات ، ولما علم بموت ريتشارد من كامفيل فإنه قرر بيع الجزيرة لجماعة الداوية<sup>(٣٩)</sup> . واستخدم الداوية وسائل العنف أيضًا في حكم جزيرة قبرص فقوبلوا بشورة الأهلين . ولذا فقد باعوا الجزيرة إلى جاي من لوينيان ملك بيت المقدس (مايو ١١٩٢)<sup>(٤٠)</sup> . حكم جاي جزيرة قبرص مدة عامين وعند وفاته في عام ١١٩٤ خلفه في حكمها شقيقه عموري .

كان غزو جزيرة قبرص على يد الصليبيين برهاناً قاطعاً على اطماع اللاتين في ولايات الإمبراطورية البيزنطية . ولعل أهم دلالة لهذا الغزو هو أنه قد أوضح للسلطات في غرب أوروبا أنه إذا كان في المقدور ضم إقليم هام من أقاليم الإمبراطورية البيزنطية للتبعة اللاتينية ولكنّيسة روما فإنه من اليسير أيضًا على الجماعات الصليبية الزحف على القسطنطينية ذاتها وإسقاطها . وكانت هذه هي الفكرة المسيطرة على هنري السادس خليفة فرديريك ببروسيا .

\* \* \*

---

Benedict of Peterborough, *Gesta Regis Henrici II*, Vol. II, pp. 172-73; (٣٩)

*Estoire d'Eracles*, in R.H.C Occ., II, p. 170.

G. Hill, *History of Cyprus*, Vol. II, Cambridge, 1948, pp. 67 - 69. (٤٠)

الفصل الثاني عشر  
صلبيّة هنري السادس  
ضد بيزنطة

تسلّم هنري السادس زمام حكم الإمبراطورية الالمانية وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بعد غرق والده بربوسا أثناء قيادته للحملة الصليبية الثالثة في آسيا الصغرى (يونيو 1190) . وكان هنري يشارك والده الرأي في خططاته ضد المصالح البيزنطية ، ويقال إنه ألقى مسؤولية وفاة والده على الإمبراطور الشرقي . وأرجح من شعور الكراهيّة هذا تلك الروايات التي نقلاها الأفراد العائدون من الصليبيّة الفاشلة ضد السلطات البيزنطية .

كان هنري السادس يرى ضرورة غزو بيزنطة لاعتقاده أنها قد وقفت عقبة في سبيل المنجزات الالمانية في إيطاليا وفي الشرق . ولقد أصبح واضحا له بعد الحملة الصليبية الثالثة أن الدولة البيزنطية تعانى من اضطرابات داخلية ، وأن الصربي والبلغار يقفون على أهبة الاستعداد للانقضاض عليها في أية فرصة مناسبة . كذلك بينت الحملة الصليبية الالمانية بقيادة بربوسا أن سلطنة قونية التركية التي لم يكن في مقدورها محاربة الجيش الالماني المتمسك في آسيا الصغرى، هذه السلطنة على ضعفها كانت قد هزمت وأذلت بيزنطة في عديد من المناسبات . وكان هذا دليلاً قاطعاً على العفن الذي أصاب الدولة البيزنطية وعلى إمكانية تحطيمها دون عناء كبير . وللذى شجع هنري السادس على المضي في خطته ضد بيزنطة ذلك الشعور المتوفّد انتقاماً من القسطنطينية والذي كان يضمّره النبلاء والأساقفة الالمان الذين أصرّوا على ألا تضيع جهود بربوسا في الشرق هباء . ولكن كانت أمام هنري السادس مشكلتان كان عليه حسمهما قبل الزحف على بيزنطة هما أن يتوج إمبراطوراً على يد البابا ، ثم لا يخضع صقلية .

توفى البابا كلمنت الثالث في مارس ١١٩١ واختار الكرادلة خلفاً له البابا سلسرين الثالث . اختار هنري السادس هذه الفرصة بالذات للذهاب إلى إيطاليا على رأس جيش ضخم ليتوح على يد البابا الجديد . ولا وصل هنري من وراء جبال الألب طابت منه سلطات مدينة تسكولوم حمايتها ضد البابا والسيناتو الروماني . وفي نفس الوقت أرسل أهل روما إلى هنري يبلغونه أنهم سيعارضون توبيخه لأن لم يخضع تسكولوم لسلطانهم . ووافق هنري على مطلب الرومان . وفي ١٥ أبريل ١١٩١ ثم تتوبيخ هنري وزوجة كونستانتس الصقلية في كاتدرائية القديس بطرس . وفي اليوم التالي هجم الألمان على مدينة تسكولوم واستولوا عليها . ثم سلم هنري المدينة المنزهة إلى البابا ، الذي سلمها بدوره إلى أهل روما . وانقض الرومان على المدينة نهياً وقتلوا حتى أتوا على كل من فيها وما فيها حتى صارت كومة من رماد<sup>(١)</sup> .

بعد هذا زحف هنري صوب أبوليا بغية خلع الملك تانكرد الذي كان قد تسلم صقلية لقطاعاً من البابوية . ولم يجرؤ البابا على معارضته الإمبراطور الألماني ضد فصيله في صقلية . على أن حملة هنري هذه لم تصادف نجاحاً . وفي عام ١١٩٤ توفى تانكرد فأسرع هنري بجيشه وغزا صقلية دون مقاومة تذكر . وبعد هذا الانتصار العظيم أعلن هنري صراحة أنه عازم على إخضاع البابوية تماماً لسلطانه ، فجدد بهذه خطبة والده في إخضاع إيطاليا والقضاء على التعليم المهدبرانديني . وقد فكر هنري جدياً في جعل الملكية في ألمانيا نظاماً وراثياً في آل الهوهنشتاوفن . أما في إيطاليا فقد خلع الوظائف الهامة فيها على أتباعه من النبلاء الألمان : فعين شقيقه فيليب دوقاً على تسكانيا وضم إليه أملاك الكونتيستة ماتيلدة ، وأقطع كونراد من فرسليجن إقليم سبوليتو ، في حين أن القائد ماركوارد حصل على رومانا . ولم يجرؤ أحد على رفع صوته ضد سياسة هنري السادس ، خليفة شرمان .

Arnold of Lübeck, Chronica Slavorum, in M.G.H.SS., in usum scholarum, (١)

1868, IV, iv.

بعد هذه الانجازات انصرف هنري إلى مشروعه الصليبي ضد الدولة البيزنطية . ففي أسبوع الآلام لعام ١١٩٥ تلقى شارة الصليب من يد يوحنا أسقف سوتري ، وفي يوم العيد عقد مجلس الدياط في مدينة باري حيث أصدر مرسوماً إمبراطوريّاً يدعوه فيه إلى صاحبته الجديدة<sup>(٢)</sup> كذلك طلب من البابا سلسرين الثالث أن يبحث الأساقفة على الدعوة في أبو روسياتهم للحملة الصليبية التي اتفق على قيامها في أغسطس ١١٩٥<sup>(٣)</sup> .

كان هنري السادس يهدف من وراء صليبيته تحقيق حلم الهو亨شتاوفن في الإطاحة بالحالس على عرش القسطنطينية الذي لم يكف عن المطالبة بالتأج الروماني والذى كان شوكة في جنب الإمبراطور الألماني بسبب أطماعه في إيطاليا . وعلى هذا فإن صليبية هنري لم تكن تستهدف استخلاص أورشليم من يد الأيوبيين فحسب وإنما أيضاً الاستيلاء على بيزنطة وذلك تحقيقاً للسياسة السائدة وقتئذ في البلاط الألماني والتي كان شعارها : Weltpolitik *Drang nach Osten* . وما من شك أن شرمان الجديد كان يبغى لإحياء الإمبراطورية الرومانية تحت حكم الهو亨شتاوفن . ولقد كان زواجه من كونستانس ملكة صقلية صفقة سياسية هامة ضمنت له ملك صقلية لتكون قاعدة يتحرك منها لتنفيذ مخططه ضد بيزنطة وفي الشرق اللاتيني . وقد شجعه على المضي في مشروعه هذا أن جاءه رسول من لدن عموري من لوزينيان ملك قبرص وبيت المقدس ومن ليو الثاني أمير كيليكيا الأرمني يعرضون عليه تبعية سيليهما للتأج الألماني .

وكانت قبرص في ذلك الوقت تحت سيطرة عموري من لوزينيان الذي راح يفرض على أهلها النظم الفرنجية في تعنت بالغ . فلقد أرسل إلى البابوية يطلب المشورة في أمر الكنيسة في الجزيرة البيزنطية . وقرر البابا سلسرين الثالث إخضاع كنيسة قبرص للكرسى البابوى ، فعين آلان رئيس شمامسة

Annales Marbacenses, in M.G.H.SS., Vol. XVII, p. 166.

(٢)

Annales Colonienses Maximi, in M.G.H.SS., Vol. XVII, p. 804.

(٣)

اللاذقية رئيساً للأساقفة في نيقوسيا الذي قام هو ورئيس شمامسة اللد بإنشاء أسقفيات لاتينية أخرى في بافوس وفاجوستا وليماسول . ومع أن رجال الدين اللاتين لم يقدموا مباشرة على طرد الأساقفة البيزنطيين من أسقفياتهم إلا أن الإبروشيات والعشور التي كانت من حصتهم قد ضمت إلى الأسقفيات الجديدة التي أنشأها الغزاة<sup>(٤)</sup> .

وفي أكتوبر ١١٩٥ أرسل عموري إلى الإمبراطور هنري السادس يعبر عن رغبته في وضع شخصه وملكته تحت التبعية للتاج الروماني (الألماني) ، مؤكداً تشوّقه لأنّ يصبح «رجل الإمبراطور»<sup>(٥)</sup> . وفي نفس الوقت أرسل ليون الثاني أمير أرمينيا الصغرى يطلب من هنري السادس الإنعام عليه بلقب ملك مقابل اعترافه به سيداً إقطاعياً عليه وبذاته يصبح لو تابعاً للإمبراطورية الرومانية<sup>(٦)</sup> .

رأى هنري السادس في كلّ هذا مقدّمات لإحياء مجد الإمبراطورية الرومانية . على أنه كان يرى ضرورة صياغة إمبراطوريته الجديدة بالصيغة البخومانو - إيطالية فحسب ، ذلك لأنّه كان بطبيعته كارها للفرنجية . ولذا فإنّه قد عقد العزم على ضمّ الشرق اللاتيني إلى إمبراطوريته وتطعيمه بعناصر ألمانية بحثة . وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً أنّ هذا لن يتمّ إلا إذا قضى على بيزنطة قضاء تاماً . وبعد هذا يمكن له ضمّ تاجي بيزنطة وبيت المقدس إلى تاج شرمان الأوحد . وتتضح نية هنري تجاه بيزنطة في الرسالة التي بعث بها إلى الإمبراطور إسحق أنجيلوس يطلب منه فيها إعادة الأرضي البلقانية من دورازو إلى تسالونيكا إليه لأنّه « خليفة ولِيم الثانى ملك صقلية » . كما طالب بتعويضات عن الخسائر الفادحة التي لحقت بوالده الراحل من جراء الخيانة البيزنطية

L. Mas-Latrie, Historie de l'Isle de Chypre sous le Régne de la Maison de (٤)

Lusignan, 3 Vols., Paris, 1852 - 1861, Vol. III, Documents, pp. 599 - 605.

L. Makhaeras, Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus (ed. with trans. Dawkins), 2 Vols., Oxford, 1932, Vol. I, pp. 28 - 29.

Annales Marbacenses, p. 167.

(٥)

R.C. Arm; Vol. I, pp. 422 - 23.

(٦)

وقت الحملة الصليبية الثالثة ، هذا إلى جانب وضع أسطول بيزنطة تحت تصرفه في حملته الصليبية لاسترجاع بيت المقدس<sup>(٧)</sup> .

لم يكن أمّاً لإسحق أنجيلوس من خيار سوى فتح باب المفاوضات الودية مع العاهل الألماني الجديد الذي كانت شهّرته قد ذاعت في الشرق والغرب على حد سواء . ولكن ما إن بدأت المحادّثات بين الطرفين حتى وقع انقلاب في القسّطنطينية على يد الكسيوس الثالث أنجيلوس الذي خلع شقيقه إسحق عن العرش ثم سهل عينيه وأودعه السجن . وكانت هذه فرصة نادرة لـ هنري السادس ليهدّد الإمبراطور الجديد تهديداً مباشراً ؛ مستندًا على أحقيته في التدخل في شؤون بيزنطة . ذلك أنه كان قد زوج شقيقه فيليب دوق سوا比ا من لـ يريني ابنة إسحق أنجيلوس الخلوع في ٢٥ مايو ١١٩٧ . ولـ يريني هذه كانت أرملة روجر ابن تانكـرد آخر ملوك صقلية .

وهكذا أرسـل هـنـي إـلـيـ الكـسيـوسـ الثـالـثـ يـنـدرـهـ بـأـنـهـ قـادـمـ لـتـأـديـبـهـ « لاـ كـإـمـبرـاطـورـ لـلـرـوـمـانـ وـوـرـيـثـ لـمـلـكـةـ النـورـمـانـ وـقـائـمـ صـلـبـيـ فـحـسبـ وـإـنـماـ قبلـ كـلـ هـذـاـ كـصـاحـبـ ثـأـرـ نـيـاـبـةـ عنـ إـسـحـقـ آنـجـيلـوـسـ الـخـاوـعـ وـعـائـلـتـهـ »<sup>(٨)</sup> . واـضـطـرـ الـكـسيـوسـ أـمـامـ هـذـاـ التـهـديـدـ السـافـرـ إـلـىـ اـسـتـرـضـاءـ هـنـيـ السـادـسـ بـالـمـالـ فـفـرـضـ ضـرـبـيـةـ أـسـمـاهـاـ « الـأـمـانـيـكـونـ »ـ أـيـ « جـبـاـيـةـ الـأـلـمـانـ »ـ وـكـانـتـ كـرـيـهـةـ ثـقـيـلـةـ عـلـىـ كـاـهـلـ الشـعـبـ الـبـيـزـنـطـيـ<sup>(٩)</sup> .

راح هـنـيـ السـادـسـ وـمـسـتـشـارـهـ يـعـدـانـ لـلـحملـةـ الصـلـيـبـيـةـ فـيـ مـجـالـسـ الـدـيـاطـ التي عقدت تباعاً في جلـنـهاـوزـنـ (أـكتـوـبـرـ ١١٩ـ٥ـ) وـوـرـمـ (دـيـسـمـبـرـ ١١٩ـ٥ـ) وـفـرـزـبـورـجـ (مـارـسـ ١١٩ـ٦ـ) . وـاتـفـقـ عـلـىـ أـنـ تـبـدـأـ الصـلـيـبـيـةـ مـسـيـرـتـهـ فـيـ عـيـدـ مـيـلـادـ ١١٩ـ٦ـ . وـقـدـ حـلـ الصـلـيـبـ وـرـاءـ هـنـيـ عـدـدـ وـافـرـ مـنـ رـجـالـ الدـينـ الـأـلـمـانـ وـعـلـىـ رـأـسـهـمـ كـونـرـادـ مـنـ وـتـلـزـ باـخـ رـئـيـسـ أـسـاقـفـةـ مـيـنـزـ وـهـارـتفـيـجـ رـئـيـسـ

Nicetas Choniates, Historia (Bonn ed.) pp. 227-28.

(٧)

W. Norden, Das Papsttum und Byzanz, Berlin, 1903, p. 128.

(٨)

Nicetas Choniates, op. cit., p. 631.

(٩)

أساقفة بermen وكونراد من كورفورت أسقف هالدزهايم ثم أساقفة هالبرشتات وفردن ونبرج وزايتيس ومنستر ورجنزبرج ويساو وبراج وتول. ومن بين العلمانيين الذين تبعوا هنري الدوق هنري من برابانت وهنري من برنسويك والدوقي فرديريك من النمسا والدوقي برتوالد من دلماشيا والدوقي أرلخ من كارنشيا واللاندجريف هرمان من ثورنجيا وأخرون عديدون<sup>(١٠)</sup>.

تحرك رئيس أساقفة مينز على رأس غالبية رجال الحملة نحو موانئ إيطانيا وصقلية للإبحار منها إلى الشرق . ولكن الأهلين قاموا بثورة عارمة ضد رجال هنري السادس ، فأسرع الإمبراطور وانقض هو وجيشه على الثوار وسحقهم في وحشية بالغة ، حتى أيقن إن مملكة صقلية المزدهرة قد تحولت على يدي هنري إلى صحراء قاحلة . كانت هذه الشورة سبباً في حرب هنري السادس من قيادة حملته الصليبية بنفسه . ولذا فقد أمر قواه بالتحرك صوب الشرق وقرر هو البقاء في إيطاليا إلى حين . وببداية من مارس ١١٩٧ فصاعداً بدأت تحركات الصليبيين الألمان نحو الشرق .

وفي أغسطس من نفس العام وصلت إلى مسينا أربع وأربعون سفينة تقل المقاتلين من أراضي الراين وسكسونيا بقيادة هنري من برنسويك ورئيس أساقفة بermen ، بعد أن عرجا على التزويج وإنجلترا والبرتغال . ومن مسينا تحرك الجيش في سبتمبر مع جزء آخر من الجيش الإمبراطوري تحت قيادة المستشار الألماني كونراد من كورفورت وهنري من كالدن . وقد توقف المستشار الألماني والكونتadolف من هولشتين عند جزيرة قبرص لإنعام حفل تتويج الملك عموري من لوزينيان وليتلى كونراد منه ، نيابة عن هنري السادس ، يمين الولاء والطاعة<sup>(١١)</sup> .

ولما وصل الصليبيون الألمان إلى مدينة عكا راحوا يعيثون فيها نهباً وفساداً

Annales Marbacenses, pp. 167-68.

(١٠)

Ernoul, Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier (ed. Mas-Latrie),

(١١)

Paris, 1871, pp.302-303; Estoile d'Eraclis, pp. 209-12.

ما أدى إلى تدمير شديد بين الفرنجية القاطنين هناك الذين ساعدهم عجرفة الألمان وسوء سلوكهم تجاه النساء الفرنجيات<sup>(١٢)</sup>. ولذا فإن هنري من شامباني ملك بيت المقدس أمر أتباعه وفرسانه بمقابلة عبيث الألمان بالضرب على أيديهم بشدة « حيث أن هذه هي اللغة الوحيدة التي بواسطتها قد يتفهمون<sup>(١٣)</sup> ». وفي أثناء ذلك نجح هنري من برابانت ورجاله في احتلال صيدا ومنها زحف قبالة بيروت<sup>(١٤)</sup>. وكان المدف من وراء هذا محاولة فتح طريق يصل بين مملكة أورشليم وإمارة طربلس . وفي العاشر من سبتمبر ١١٩٧ توفى هنري من شامباني على أثر حادث وقع له في مدينة عكا . وكانت هذه فرصة المستشار الألماني كونراد لكي ينفذ سياسة سيده في الشرق اللاتيني فقدم تاج مملكة بيت المقدس إلى عموري من لوزينيان ملك قبرص وفصل هنري السادس . وكان نجاح المستشار الألماني في هذا عنوانا على قوة النفوذ الألماني في الشام .

في ٢٨ سبتمبر ١١٩٧ توفى فجأة الإمبراطور هنري السادس بالحمى التي أصابته في مسيينا . وما وصلت هذه الأنباء إلى عكا سارع النبلاء الألماني في العودة إلى الوطن لحماية حقوقهم . وقد شجعهم على المبادرة بالعودة أن وقعت بيروت في يد صاحب بيت المقدس .

و قبل أن يرجع المستشار الألماني إلى وطنه نجح في تحقيق هدفين من حملة هنري السادس : فلقد تمكّن من تنصيب أحد أوصيال الإمبراطور الألماني على عرش بيت المقدس ، وبذل وضع الأرض المقدسة في إطار نفوذ الهohenstaufen<sup>(١٥)</sup> . كذلك قام المستشار بتتویج الأمير ليو الثاني ملكا على

Estoire d'Eracles, p. 216.

(١٢)

Ibid.

(١٣)

The Letter of Duke Henry of Lorraine to the Archbishop of Cologne, in  
Bibliothéque de Valenciennes, Manuscript 482, ff. 132-133.

(١٤)

Roger of Hoveden, Chronica (ed - W - Stubbs), Rolls Series, London,  
1868-71, P. 439.

(١٥)

أرمينيا الذى أقسم يمين الولاء والطاعة للإمبراطور الألماني<sup>(١٦)</sup>.

\* \* \*

كان هدف هنرى السادس من وراء صلبييته هذه محاصرة الدولة البيزنطية من الجانبين الأوربى والآسيوى ، ولكنه توفى فجأة وترك المسألة البيزنطية لخلفائه . ولعل أهم نتيجة لسياسة هنرى السادس هي : أن بدأت البابوية توقين أنه إن قدر النجاح لبرنامج الهوهنشتاوفن فى إنشاء إمبراطورية عالمية تضم بيزنطة وصقلية والشرق اللاتينى فإنه لا محالة مقضى عليها بالشلل السياسى . وقد كان حرمان البابوية من التفوذ فى صلبييى بربروسا وهنرى السادس مظهراً آخر من مظاهر قوة الهوهنشتاوفن وخور الكرسى الرسولى فى روما . ولذا فإن الكيوريا كانوا يتوقون إلى تحين فرصة ليرفعوا على عرش القديس بطرس رجلاً من طراز هيلدبراند ليقلم أظافر الألمان وليستعيد نفوذ « أمير الرسل » على الحركة الصلبيية . ومن هنا جاء اختيار البابا أنورسنت الثالث للقيام بهذه المهمة الصعبة .

See Sirarpie Der Nersesian, The Kingdom of Cilician Armenia, in

( ١٦ )

Selton, A History of the Crusades, Vol. II, pp. 647-50.

الفصل الثالث عشر  
الجوانب الكنسية في الصليبية الرابعة  
التي انتهت بغزو القدسية (١٢٠٤)

اهتم المؤرخون بدراسة الصليبية الرابعة وانقسموا في هذا مدارس شتى :  
 XFeric يفسر تحول الحملة عن هدفها الأصيل إلى غزو القدسية وفق  
 نظرية عرفت بنظرية « الصدفة » ؛ بمعنى أن الغزو لم يأت عمداً وإنما  
 كان وليد ظروف طارئة<sup>(١)</sup>. وبجماعة أخرى ترى في سياسة جمهورية البندقية  
 وألمانيا مؤامرة مقصودة لتدمير بزنطية<sup>(٢)</sup>. على أن أحداً لم يحاول تفصي  
 ما كان يكمن وراء الغزو الصليبي لمدينة قسطنطين من دافع كنسية .  
 وهذا الفصل يعالج هذه الجوانب .

في ٨ يناير ١١٩٨ توفي البابا سلسرين الثالث ، وكان قد جاوز التسعين  
 من العمر ، وفي نفس اليوم اختار الكرادلة خليفة له . وقد وقع اختيارهم هذه  
 المرة بالذات على أصغرهم سنًا وأقواهم شخصية : لوثير من ساجنى الذي  
 لقب أنوسنت الثالث بعد انتخابه للعرش البابوي . وفقد ألقى البابا الجديد  
 بموعضة هامة يوم تتويجه : فهي ترتكز ، وفي ثقل ، على النظرية البطرسية ،

---

See G. Hanotaux; Les Venetiens ont -ils trahi la Chrétienté en 1202 ? in (١)

Revue Historique, IV (1887), pp. 74-102; J. Tessier, La Quatrième  
Croisade-Là Diversion sur Zara et Constantinople, Paris, 1884, pp. 183-84;  
F. Cerone, Il papa ed i Veneziani nella Quarta Crociata, in Archivio  
Veneto, XXXVI (1888), pp. 57-70, 237-297

L. Mas-Latrie, L'Histoire de l'Isle de Chypre sous le Règne de la Maison (٢)  
de Lusignan, Vol. I, Histoire, pp. 162-63; P. Riant, Innocent III, Philippe  
de Souabe et Boniface de Montferrat, in Revue des Questions Historiques,  
Vol. XVIII (1875), pp. 5-75; also. Le changement de direction de  
la Quatrième Croisade d'après quelques travaux récents, ibid., Vol.  
XXIII (1878), pp. 71-114.

فالبابا هو بطرس ذاته ، الصخرة التي تقوم عليها الكنيسة ، حامل مفاتيح الجنة وصاحب الخل والربط على الأرض وفي السماء ، سيد على العالم أجمع لا يعلوه إلا الله .<sup>(٣)</sup> وكان انوسنت الثالث يؤمن ليماناً قاطعاً بما جاء في « هبة قسطنطين للبابا سلسستر »، إلى حد أنه راح يقول بأن هذا « الإمبراطور الورع رغب في وضع التاج الإمبراطوري على رأس سلسستر ولكن الأخير قد رفض »<sup>(٤)</sup> ولذا نجده في إحدى رسائله إلى قوميون تسكانيا يؤكد أن السلطات الزمنية جميعها تستمد شرعيتها وشرفها من الكرسي البابوي ! مثلما يستمد القمر نوره من الشمس<sup>(٥)</sup> .

ووهكذا فإنه منذ البداية أعلن انوسنت على الملأ أنه ليس فقط « كاهن الله » وإنما أيضاً – ولأول مرة في تاريخ البابوية – « ممثل الله على الأرض ».<sup>(٦)</sup> ولم يكن هذا كافياً إذا راح البابا يدعى لنفسه السلطان على المسيحيين وغير المسيحيين في المسكونة : « أو ألم يقم السيد المسيح بطرس أميراً على الأرض كلها ؟ »<sup>(٧)</sup> .

كان انوسنت قد جاء إلى العرش البابوي ليعيد خليفة بطرس سلطاته الذي كان وهو هنشاون قد ابتلعوه . ولذا فقد أعلن البابا أن الإمبراطور تابع للبابا لأنه يتلئ التاج من يديه ، وأنه لا يُعرف بشرعنته في الحكم ما لم ينعم عليه « سيد العالم » بهذه الشرعية . وقيل وقتئذ أن حفل تتويج الإمبراطور ما هو إلا مراسيم إقطاعية يصبح بموجتها هذا الذي يتسلّم التاج تابعاً لمن ينعم به عليه . وكدليل على دونية الإمبراطور بالنسبة للبابا كان يتم تتوبيحه أمام مذبح متواضع في الركن الجنوبي من كاتدرائية القديس بطرس ، في حين أن السيد البابا كان يزف إلى « مجد الإمارة العالمية »

P.L., Vol. CCXVII, col. 658.

(٣)

Ibid., cols. 481-82.

(٤)

P.L., Vol. CCXIV, col. 377.

(٥)

Ibid., cols. 203, 272, 481.

(٦)

«Principatus super omnem terram.»

(٧)

أمام المذبح الرئيسي للبازيليكا، الذي كان وقفًا على هذه المناسبة دون سواها . كانت أحوال الإمبراطورية الألمانية وقت جلوس أنوست الثالث على العرش البابوي عاملاً مشجعاً له لأن يمضي في سبيل إنفاذ برنامجه الجديد . فلقد مات هنري السادس ، تاركاً أرملته كونستانس وطفله البالغ من العمر ثلاثة سنوات في مدينة بالرمو نهباً لثورة الصقليين وقردهم . ولذا فقد طلبت كونستانس الحماية لها ولولدها من البابا أنوست الثالث ، مقابل تنازلها عن الحقوق الكنسية في مملكة صقلية . وفي ٢٨ نوفمبر ١٩٨٦ توفيت كونستانس ، تاركة البابا وصيّاً على ولدتها ، فرديريك الثاني ، ولذا يقال إن أنوست الثالث كان الوريث الحقيقي هنري السادس . ظل العرش الألماني شاغراً ، ولا توج فرديريك الثاني ملكاً على صقلية في بالرمو ضياعاً قضيته في التاج الألماني . على أن الشقيق الأصغر هنري السادس — فيليب من سوavia — تزعم حزب الموهنشتاوفن وراح يطالب بالتأييد . هذا في حين أن حزباً آخر بقيادة رئيس أساقفة كولون كان يطالب بالتأييد لأوتو أصغر أبناء هنري الأسد والذي كان أيضاً حفيداً للملك هنري الثاني الإنجليزي . ولكن أوتو كان قد تربى في قلعة أنجلو-نورماندية ، وكان يتكلّم الفرنسية ، وبذاته كان « غريباً » في بلده ألمانيا . راح الحزبان يتملقان أنوست الثالث كل يطلب تأييده لأميره المرشح للعرش الألماني : فبعث ريتشارد قلب الأسد ، عم أوتو ، إلى البابا يعده بإعادة سائر الحقوق التي كان الأباطرة السابقون قد اغتصبواها من الكرسي البابوي . أما فيليب السوافي فقد أرسى إلى البابا رسالة ودية يطلب منه فيها تأييده مقابل بعض التنازلات في إيطاليا .

وفي مايو ١٩٩٩ كتب أنوست الثالث إلى الأمراء الألمان في اجتماعهم لانتخاب إمبراطور ألمانيا يوبخهم ويهذدهم لأنهم لم يستأذنوه في عقد هذا المؤتمر ؛ « لأن انتخاب ملك ألمانيا أمر يدخل ضمن اختصاصاتنا » . وراح البابا يقول « ماذا يكون الحال إن أقدمتم على انتخاب عدو للكنيسة

أو متبرد عليها أو طاغية أو أبله أو مهرطق أو زنديق؟». أو أيسصح للبابا وقتها وضع الناج على رأس هذا الزنديق؟ كلام كلام. هذا وفي نفس العام قدم سفراء أوقوا مع ستة من الأساقفة الألمان بقيادة مقدم ديركورنلمنستر وقسيس بيت ريتشارد قلب الأسد إلى مقام البابا انوسنت الثالث يطلبون منه اعتماد انتخاب أوقوا ملكاً على ألمانيا . وكان الثن الذى طلبه البابا من هذا الحزب مقابل اعترافه بأوقوا باهظاً للغاية : فقد كان عليه الاعتراف بالبابا سيداً مطلقاً علىسائر ممتلكات الكنيسة في رومانا وانكونا وسپولتو وأراضي الكونتيستة ماتيلدا . هذا إلى جانب اعترافه بسلطان الكرسي الرسولي على مملكة صقلية وتلبية أوامر البابا في تسكانيا ومدن العصبية اللومباردية . ومع أن الموافقة على هذه الشروط كان يعني تحول الإمبراطورية الألمانية إلى مجرد دولة تابعة للبابا ، فإن سفراء أوقوا وافقوا عليها .

على أنه يجب ملاحظة أن هذا البابا الجديد الذى كان يبشر بإحقاق العدل والانتصار للمظلوم كان صاحب أطماع دنيوية وأنانية ، كانت حديث الشعب في مدينة روما . فلقد أتھم — وبحق — بالمحسوبية لأنھ أقطع شقيقه ريتشارد بإمارة في لا تينوم ، وعندما اغتال أقرباؤه ثيوبالد نسيب البابا الراحل سلسلين الثالث قام لحمايتم من القانون برغم جريمتهم في سفك الدماء<sup>(٨)</sup> .

كانت هذه سمات الرجل الذى تربع على عرش روما من ١١٩٨ إلى ١٢١٦ . ولئن كان هنا موقفه تجاه الإمبراطورية الألمانية ، فإن موقفه تجاه الإمبراطورية البيزنطية وبطريركيتها المسكونية كان ينطوي بالعداوة والخذلان الشديدين . ولتفصى موقف انوسنت بطريقة موضوعية في هذا الصدد ولكن تفهم دوره في الغزو اللاتيني للعاصمة البيزنطية عام ١٢٠٤ يجب البحث في نشاطه ضد المصالح والكنيسة البيزنطية في شرق أوروبا : في صربيا

---

See F. Gregorovius, History of the City of Rome in the Middle Ages, 8 (٨)  
Vols. (trans. by G. Hamilton), London, 1909, Vol. V, p. 41.

وبلغاريا حيث كان الأثر البيزنطي واضحا وعريقا .

في نهاية القرن الثاني عشر ظهر زعيم صربي قوى من مومنت نجرو هو ستيفن نيانجا الذى أرسى قواعد دولة قوية ضمت صربيا وإقليم نافيازار ومومنت نجرو وجزءاً من هرتزا جوفنا وبعضاً من برترزند . ولقب العاهل الجديد نفسه بالخان الأعظم (فليكى زوپان) واتخذ له عاصمة في كروتشيفاك في وادى المورافا . كان ستيفن رجلاً تقيراً وقد كان شديد الإعجاب بكنيسة بيزنطة ، التي ساعدته في إنشاء الكثير من الأديرة وبيوتات العبادة . وهب أصغر أبنائه ساقه لحياة الديرانية ويعتبر بحق مؤسس النظم الديرية في صربيا .

عندما اعتزل سافر في ١١٩٥ إلى دير على جبل آثوس آل السلطان على صربيا بلقب الخان العظيم إلى شقيقه ستيفن الذي أقطع شقيقه الثالث ثولوكو أقاليم دلماشيا الصربية ومومنت نجرو والهرتزا جوفينا . وسرعان ما دب النزاع بين ستيفن وثولوكو ، الأمر الذي أتاح الفرصة للبابا وملك المجر للتدخل في شؤون صربيا . فلقد اعترف ثولوكو باميرى ملك المجر سيدا له وفتح باب المفاوضات مع البابا انوسنت الثالث طالبا منه معاونته في تنظيم الكنيسة في أملاكه وكذا الاعتراف بأسقف مدينة انتيقاري .

رحب البابا انوسنت الثالث بطلبي ثولوكو الذي أتاح له الفرصة النادرة لخالع كنيسة صربيا من تبعيتها التقليدية للكنيسة البيزنطية . وفي ٨ يناير ١١٩٩ أرسل انوسنت رسالة إلى ثولوكو مخاطبا إياه على أنه «الملاك المعلم للدلماشيا وديوقليا» ؟ معلنا أنه موذن رساه لإرساء قواعد «الإيمان الحق» في كنيسة صربيا<sup>(٩)</sup> . ولعل أهم فقرة في هذه الرسالة تلك التي يؤكّد البابا فيها أن مهمته رجاله في صربيا تستهدف في المقام الأول تقويم الانحرافات والأغلاط الشائعة في كنيسة الصرب . وفي هذا الكلام تعريض غير خفي

بـكـنـيـسـةـ الـقـصـطـنـطـيـنـيـةـ التـىـ كـانـتـ الـكـنـيـسـةـ الـأـمـ لـلـكـنـيـسـةـ الـصـرـبـيـةـ .

عـلـىـ أـنـ عـلـاقـةـ فـوـلـكـوـ بـالـكـرـسـىـ الـبـابـوـىـ أـقـلـقـتـ شـقـيقـهـ الـأـكـبـرـ سـتـيفـنـ . ولـذـاـ فـقـدـ أـرـسـلـ سـتـيفـنـ إـلـىـ الـبـابـاـ اـنـوـسـنـتـ الـثـالـثـ يـعـبـرـ عـنـ رـغـبـتـهـ هـوـ أـيـضـاـ فـيـ تـوـثـيقـ عـلـاقـاتـ الـكـنـيـسـةـ فـيـ «ـمـلـكـتـهـ»ـ بـكـنـيـسـةـ رـومـاـ الرـسـولـيـةـ . اـسـتـجـابـ الـبـابـاـ عـلـىـ الـفـورـ مـطـلـبـ الـمـلـكـ الـشـرـعـىـ سـتـيفـنـ وـأـرـسـلـ أـسـقـفـ الـبـانـوـ لـيـقـومـ بـتـوـبـيـجـ سـتـيفـنـ مـلـكـاـ مـقـابـلـ خـصـوصـهـ لـالـسـلـطـانـ الـبـابـوـىـ . وـلـكـنـ إـمـيرـ مـلـكـ الـمـجـرـ الـذـىـ كـانـ عـلـىـ خـلـافـ مـعـ سـتـيفـنـ لـمـ يـمـهـلـهـ بـلـحـنـيـةـ حـصـادـ هـذـاـ الـخـلـفـ مـعـ الـبـابـوـيـةـ . وـالـوـاقـعـ أـنـ الـذـىـ شـجـعـ مـلـكـ الـمـجـرـ فـيـ تـحـديـهـ لـسـتـيفـنـ تـلـكـ السـمـعـةـ الشـائـنةـ الـذـىـ كـانـتـ لـصـيقـةـ بـشـخـصـ سـتـيفـنـ ، وـبـخـاصـةـ فـيـ عـلـاقـتـهـ مـعـ زـوـجـهـ يـدـوـكـيـاـ اـبـنـةـ الـإـمـپـرـاطـورـ الـكـسـيـوـسـ الـثـالـثـ انـجـيلـيوـسـ . فـقـدـ حـدـثـ ذـاتـ مـرـةـ أـنـ لـعـبـتـ الـخـمـرـ بـرـأـسـهـ فـاـنـقـضـ عـلـىـ زـوـجـهـ ضـرـبـاـ ثـمـ أـلـقـىـ بـهـ عـرـيـانـةـ كـمـاـ وـلـدـتـهـ أـمـهـاـ أـمـامـ أـسـوـارـ قـصـرـهـ ؟ـ الـأـمـرـ الـذـىـ صـلـمـ مـشـاعـرـ الـرـأـيـ الـعـامـ فـيـ بـلـادـهـ . وـفـيـ عـامـ ١٢٠٢ـ هـجـمـ مـلـكـ الـمـجـرـ بـجـيـوشـهـ عـلـىـ سـتـيفـنـ وـهـزـمـهـ هـزـيـمةـ نـكـرـاءـ ثـمـ خـلـعـهـ عـنـ الـعـرـشـ وـسـلـمـ الـحـكـوـمـةـ لـشـقـيقـهـ فـوـلـكـوـ . وـأـضـافـ اـمـيرـ إـلـىـ أـلـقـابـهـ «ـمـلـكـ الـصـرـبـ»ـ بـعـدـ أـنـ أـقـسـمـ لـهـ تـابـعـهـ فـوـلـكـوـ يـمـينـ الـوـلـاءـ وـالـطـاعـةـ . وـبـعـدـ هـذـاـ الـانتـصـارـ كـتـبـ اـمـيرـ إـلـىـ الـبـابـاـ اـنـوـسـنـتـ الـثـالـثـ يـعـلـمـهـ بـاـنـتـصـارـهـ هـذـاـ عـلـىـ مـلـكـ الـصـرـبـ . فـاـ كـانـ مـنـ الـبـابـاـ إـلـاـ أـنـهـ رـدـ عـلـيـهـ فـيـ رـسـالـةـ وـدـيـةـ يـهـنـهـ عـلـىـ اـنـتـصـارـهـ الـبـاهـرـ «ـالـذـىـ هـوـ أـيـضـاـ اـنـتـصـارـ لـكـنـيـسـةـ الـرـوـمـانـيـةـ»ـ وـلـلـنـفـوذـ الـبـابـوـيـ (١٠)ـ .

كـانـ مـلـكـ الـمـجـرـ عـلـىـ اـسـتـعـداـدـ لـإـخـضـاعـ كـنـيـسـةـ صـرـبـيـاـ لـلـسـلـطـانـ الـبـابـوـيـ مـقـابـلـ اـعـتـرـافـ اـنـوـسـنـتـ الـثـالـثـ بـحـقـوقـهـ كـمـلـكـ عـلـىـ الـصـرـبـ . وـاتـفـقـ الـطـرفـانـ عـلـىـ هـذـاـ ، وـسـرـعـانـ مـاـ أـرـسـلـ الـبـابـاـ إـلـىـ رـئـيـسـ أـسـاقـفـةـ كـالـوـتـرـاـ الـمـجـرـيـ يـفـوضـهـ فـيـ تـلـقـيـ يـمـينـ الـوـلـاءـ وـالـطـاعـةـ مـنـ فـوـلـكـوـ وـمـنـ رـجـالـ الـكـنـيـسـةـ الـصـرـبـيـةـ جـمـيعـاـ لـلـكـرـسـىـ الـبـابـوـىـ . وـطـلـبـ الـبـابـاـ مـنـ رـئـيـسـ أـسـاقـفـةـ أـنـ يـعـلـنـ فـيـ وـضـوـحـ

زائد وباسم البابا فضل الكنيسة الصربيّة تماماً عن كنيسة بيزنطية « لأن بطريق القسطنطينية متمرد ضدنا وهو لا يستحق الاحترام »<sup>(١١)</sup>.

نهج أنوسنت الثالث نفس السياسة العدائية تجاه كنيسة بيزنطة في بلغاريا. فقد حدث أن كتب يوهانترَا « إمبراطور البلغار والولاشين » (١٢٠٧-١١٩٧) بعد أن وحد بلغاريا ورومانيا وأجزاء من روميليا في مملكة واحدة تحت سلطانه، إلى البابا أنوسنت الثالث يطلب منه الاعتراف به « إمبراطوراً » مقابل إخضاعه للكنيسة البلغارية لكنيسة روما. رد البابا على الخان البلغاري يفصل له كيف أن مكتوبه قد شرح صدره وبأنه كان يتطلع إلى حنوه على أمه كنيسة روما « لأن أسلافه من دم روماني ، كما وأن هذا الدم التي الأصيل هو الذي أنبت فيه هذا الولاء للكرسي الرسولي في روما»<sup>(١٢)</sup> على أن البابا لم يلب طلب يوهانترَا في أمر اللقب الإمبراطوري وكتب إليه ليفهمه أن أمر اللقب مسألة ثانوية بالنسبة لمستقبل الكنيسة البلغارية ؛ « خاصة وأن السجلات المحفوظة في الأرشيفات البابوية قد كشفت لنا أن أحد الأمراء البلغار السابقين قد طرد رجال الدين الرومان من ملكه وأحل محلهم قسيسين « فاسدين » من أتباع الكنيسة البيزنطية »<sup>(١٣)</sup>.

وفي عام ١٢٠٣ كتب يوهانترَا من جديد إلى البابا يؤكد له ولاده لكنيسة روما وللبابا « سيد كنائس الشرق والغرب . . . صاحب الحل والربط وخليفة القديس بطرس ». ولکى يستميل البابا للموافقة على الإنعام عليه بلقب الإمبراطور ذكر يوهانترَا أنه ما إن علم إمبراطور وبطريق بيزنطة بهذا التقارب بينه وبين البابا حتى بعثا إليه يقولان « أقدم إلينا فنحن مستعدون لتوبيخك إمبراطوراً وخلق بطريقية الملك ؛ لأنك لا يحسن لامبراطورية أن تخلي من بطريقية »<sup>(١٤)</sup>. ولكنه (يوهانترَا) يفضل قبول

P.L., Vol. CCXV, col. 29. (١١)

P.L., Vol. CCXIV, col. 825. (١٢)

Ibid., col. 1115. (١٣)

P.L., Vol. CCXV, cols. 155 - 56. (١٤)

الاتاج من يدى البابا «لأن ولائى للرسول بطرس وخلفيته يفوق كل شيء»<sup>(١٥)</sup>. كان هذا كفهلا لأن يسرع البابا في استدعاء بازل رئيس أساقفة زاجورا في ١٠ سبتمبر ١٢٠٣ ، ليفوضه نيابة عنه في تتوسيع يوهاننتزا وفي إنشاء بطريركية لملكية البلغار. ولكن رئيس الأساقفة وقع أسيرا في يد السلطات البيزنطية عند دورازو واحتجز هناك ثمانية أيام<sup>(١٦)</sup>.

وفي نفس الوقت أرسل البابا مندوباً خاصاً عنه إلى مدينة درنوفا بالقرب من العاصمة ترنوفا لإنجاز المهمة في بلغاريا . وبالفعل كرس بازل رئيساً للكنيسة البلغاريـ ولاشية وتأتي قسم الولاء والطاعة من الإكليلوس البلغاري لكنيسة روما . وهناك وثيقة هامة موجهة من بازل هذا إلى البابا أنوشت الثالث تكشف عن حرصه على تسفيه الكنيسة البيزنطية وطقوسها لدى البابا . فقد كتب البطريرك البلغاري إلى البابا يطلب منه كمية من الزيت المقدس لاستخدامه في مراسم العماد وبعض الطقوس الأخرى، وراح الكاتب يقول «حقيقة أن لدينا كمية من هذا الزيت ولكنها وردت إلينا من كنيسة القدسـلسطينية ، ولكننا ، مثلنا في هذا مشاكم ، نبغض البيزنطيين وزيتهم»<sup>(١٧)</sup> .

رأى إميري ملك الجزر في أنشطة يوهاننتزا خططاً يهدى سكانه كسيـد على الصرب ، كما أنه رأى في هذا التقارب بين «الإمبراطور» البلغاري والبابا أنوشت الثالث تهديداً مباشراً لنفوذه . ولذا فقد قبض إميري على المنـدوب البابوي وهو في رحلته إلى بلغاريا . ولما علم البابا بهذه كتب رسالة غاضبة إلى الملك الجـزـيـرـيـ جـرـتـ عـلـىـ هـذـاـ المـنـوـالـ : «لـعـلـهـ لـاـيـخـيـ عـلـيـكـمـ كـمـ عـانـىـ الشـعـبـ الـبـلـغـارـيـ الـمـسـكـيـنـ مـنـ جـبـرـوتـ أـبـاطـرـةـ بـيـزـنـطـةـ وـطـغـيـانـهـ .. وـهـاـ أـنـتـ ذـاـ تـقـفـ فـيـ طـرـيقـ اـبـنـاـ الرـوـحـيـ الحـبـيـبـ يـوهـانـنـتـزاـ لـتـحـولـ دـونـ

Ibid.

(١٥)

See the Archbishop's letter to Innocent III in 1204, in P.L., Vol. CCXV, col. 288. (١٦)

Ibid., col. 289.

(١٧)

تتويجه على يد مندوينا ولكنك تمنع أباه الرحيم من استنقاده من مخالب الظلم مع أنه شبيه بذلك ابن الصالى الذى رجع بعد البؤس إلى بيت أبيه يطلب الصفح والغفران، فذبح له أبوه العجل المسمى أضحية لرجوع ابن العاق عن الصالى»<sup>(١٨)</sup>.

\* \* \*

يتضح من هذه الوثائق المتبادلة بين البابا أنوسنت الثالث والسلطات فى صربيا وبغاريا وال مجر مدى حرصه على فصل الكنيستين الصربيه والبلغاريه عن الكنيسة الأم فى القسطنطينية . وكانت هذه سياسة مقصودة لتقويض نفوذ بطريركية بيزنطة المسكونية فى البلقان والإحلال النفوذ اللاتيني مكانها . وتنطق الوثائق التى بين أيدينا ، عن سياسة أنوسنت الثالث تجاه الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها ، بإصرار عينى على إدانة الكنيسة البيزنطية بالضلال والانحراف وإصرار أزيد على تقويم هذه الانحرافات بالقوة بغية توحيد الكنيسة العالمية تحت رعاية « راع واحد » هو أنوسنت ذاته .

فى عام ١١٩٨ كتب البابا أنوسنت الثالث إلى الإمبراطور الكسيوس الثالث يطلب منه « مخافة الله وغرسه الحببية كنيسته روما ». وراح البابا يحدى الإمبراطور من أن الشعب المسيحى والبابا ذاته، لا، بل المسيح نفسه ، غاضبون جميعاً على بيزنطية ؛ لأن إمبراطورها لم يفلح فى إرجاع كنيسة بيزنطة الضالة إلى الوحدة مع سيدة الكنائس فى روما ، « لأنه لا يمكن بحال الاعتراف بكنيسة البيزنطيين المنشقة ككنيسة حقيقية ». واختتم البابا رسالته بتوجيه إنذار إلى الكسيوس بأنه إن لم يتدارك المسؤولون الأمر فإنه عازم على استخدام القوة لمحاربة الخطأ والاعوجاج فى كنيسة بيزنطة المنفصلة، لأنه لن يسمح لها بالمضي فى شقاوتها وانفصalamها عن البابوية صاحبة الإمارة على جسد الكنيسة العالمية<sup>(١٩)</sup>.

Ibid., cols. 413 - 17.

(١٨)

P.L., Vol. CCXIV, cols. 325 - 27.

(١٩)

كذلك كتب أنوسنت الثالث إلى يوحنا العاشر كما تيروس بطريرك القسطنطينية (١١٩٨-١٢٠٦) رسالة حالية من التحية المعهودة في المراسلات بين هايراريكتية الكنائس . وجاءت هذه الرسالة لتنهى صفة الكنيسة عن كنيسة بيزنطة « بسبب حماقتها وسخابة الجهل الخبيثة عليها وانشقاقها عن كنيسة روما » . ومضى البابا في تكريمه لبطريركية القسطنطينية معلناً أنه لن يرضي على هذا العار الذي جلبه البيزنطيون على الشعب المسيحي وكنيسته الطاهرة الواحدة الوحيدة الرسولية<sup>(٢٠)</sup> .

ولكن كاتيروس رد على أنوسنت الثالث وفند مزاعمه ضد كنيسة بيزنطة واستنكر عليه مطالبه لروما بالإمارة على كنائس العالم مذكراً إياه بأن السلطة الوحيدة التي تمتلك هذا الحق هي الجامع المسكونية التي حرصت القسطنطينية دواماً على الالتزام بقراراتها في حين أن كنيسة روما قد عصفت بها بالعبث بقانون الإيمان النبوي وإضافة عبارات دخيلة عليه في خصوص انبثاق الروح القدس . ثم تسائل البطريرك في نهاية رسالته عن أصاب جسد الكنيسة بالصدع والشقاق : روما أم بيزنطة ؟<sup>(٢١)</sup> .

هذا وقد كتب الإمبراطور الكسيوس الثالث إلى البابا ين خطب وده ويتملقه مبدياً استعداده لمناقشة أمر وحدة الكنيسة . على أنه ذكر البابا أن الدولة البيزنطية كثيراً ما قدمت العون للحملات الصليبية ولكن قواد تلك الحملات ، وخاصة فردرريك بربروسا ، قد عاملوا البيزنطيين معاملة قاسية فغزوا أرضهم ونهبوا أقواتهم<sup>(٢٢)</sup> وفي نفس الوقت طلب الكسيوس من البابا التدخل لإرجاع جزيرة قبرص لبيزنطة من يد مخصوصها عموري الثاني من لوزينيان<sup>(٢٣)</sup> .

هذا وقد فات الكسيوس الثالث أن يعلم أن أنوسنت الثالث ذاته قد بسط حمايته على ملك مملكة قبرص في عام ١١٩٨ ، متعهدًا بصون ملكهما

Ibid., cols. 9 327 - 29.

(٢٠)

Ibid., cols. 756 - 57.

(٢١)

Ibid., cols. 765 - 68.

(٢٢)

Gesta Innocentii III, cols. cxxiii - cxxiv.

(٢٣)

ضد أي تدخل خارجي وذلك في عام ١١٩٨<sup>(٢٤)</sup>. ولذا فقد كتب البابا إلى الإمبراطور البيزنطي يقول : « لقد جاء مطلبك لرؤذى آذاننا الرسولية بسبب الشرور المنطوية عليه والنوايا السيئة ضد ولدنا الغالي الحبيب ملك أورشليم وقبرص ». ومضى البابا يحذر الكسيوس من محاولة تهديد قبرص لثلا يضطر الملك عموري إلى تركيز جهوده للدفاع عن الجزيرة فيفت هذا في عصب القضية الكبرى وفي صراعه الصليبي في الأرض المقدسة في الشام<sup>(٢٥)</sup>. كذلك كتب البابا إلى فيليب أغسطس ملك فرنسا يخبره بطلب الكسيوس الثالث ، طالبا منه أن يبعث إليه بتهديد إن هو جرؤ على التعرض للملك عموري وجizerته قبرص<sup>(٢٦)</sup> .

وفي مايو ١٢٠٠ كتب البطريرك يوحنا كاتيروس إلى البابا انوسنت الثالث رسالة هاجم فيها مزاعمه في إمارة روما على الكنيسة العالمية ، موضحا أن موت القديس بطرس في روما لا يمكن بحال أن يبرر هذه الدعوى . فإذا كان بطرس قد بشر في روما فهو أيضا قد بشر في أنطاكية . كما أن بطرس ليس أميز من إخوته الرسل الآخرين الذين قاموا مثله بالتبشير في مداين أخرى . كذلك لا يمكن اعتبار استشهاد بطرس في روما شرقا لها بل عارا عليها . ومضى البطريرك يؤكد أن هناك أميرا واحدا للكنيسة العالمية وهو المسيح ذاته . وهذا الأمير « الضابط للكنيسة » يسير أمورها عن طريق حواسه الخمس أى البطارقة الخمسة ، الذين هم جميعا متساوون في عين الله . أما الكلام الذي وجهه السيد المسيح (أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي) فهو أيضا موجه بنفس التقليل إلى سائر الرسل من إخوة بطرس . وما قيل لواحد من التلاميذ إنما قيل لجميعهم . وإذا كانت روما تفخر بأنها كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، فللتذكرة أيضا أن هذه الإمبراطورية كانت وثنية . أما القدسية فهى

P.I... Vol. CCXIV, col. 417.

(٢٤)

Gesta Innocentii III, loc. cit.

(٢٥)

P.L., Vol. CCXIV, cols. 809 - 10.

(٢٦)

العاصمة الأولى للإمبراطورية الرومانية المسيحية بعد خسران الوثنية وزوالها. كذلك أوضح كاتيروس القيمة التاريخية لأسقفيات أورشليم وأنطاكية وأشار إلى أن لفظة «مسيحي» ظهرت لأول مرة في مدينة أنطاكية . وعليه فإن أنطاكية – وهي أيضاً أسقفيّة القديس بطرس – لها الحق في المناداة بالإمارة على الكنيسة نفسها . واختتم البطريرك البيزنطي رسالته بأن «ما قد أوضحته هنا هو ما تتمسك به الكنيسة البيزنطية في حزم، وأنه شخصياً لن يتزحزح عن هذه المبادئ حتى ولو قريل بالتهديد والوعيد من أية جهة مهما كان سلطانها»<sup>(٢٧)</sup> .

وهكذا فإن أطماء أنوشت الثالث وعداوته لكنيسة بيزنطة قوبلت بالاستنكار الشديد من جانب أكليروس آيا صوفيا وعلى رأسهم يوحنا كاتيروس . ولكن البابا كان يشعر أنه صاحب السلطة كلها في غرب أوروبا، وكان يعلم أن بيزنطة قد شاحت سياسياً . ولذا فقد عقد العزم على إخضاع كنيستها بالقوة لسلطانه . وما من شك أن موقفه العدائى لهذا تجاه إمبراطور القسطنطينية وبطريركها قد ساهم مساهمة إيجابية في تحول الصليبية الرابعة عن هدفها الأصيل إلى غزو مدينة القدس في عام ١٢٠٤ كما سنرى.

بدأ أنوشت الثالث الدعوة إلى حملة صليبية منذ جلس على عرش كنيسة روما . في عام ١١٩٨ كتب إلى أسقف سيراكيوز وإلى مقدم دير سامبوكين يطلب منها استئثار أهالي صقلية لحمل الصليب والرجل للقتال في الأرض المقدسة<sup>(٢٨)</sup> . وفي نفس العام أرسل إلى رئيس أساقفة ناربون ومقدمي أديرتها وأساقفتها يذكرهم بقول داود النبي في مزميره «إذا نسيتك يا أورشليم فلتنس يميني مكرها» ، طالباً منهم الدعوة إلى حمل الصليب والسير إلى بيت المقدس<sup>(٢٩)</sup> . كذلك كتب البابا إلى أسقف ليدن

V. Grumel, Le Patriarcat Byzantin, Vol. II, 2, p. 122.

(٢٧)

P.L., Vol. CCXIV, col. 265.

(٢٨)

Ibid., cols. 308 - 12.

(٢٩)

يطلب منه مواصلة الجهد لإثارة حماس أهل صقلية لقضية أورشليم الضائعة من يد الصليبيين. وأشار البابا في رسالته هذه إلى جهوده في محاولة عقد صلح بين ملك إنجلترا وفرنسا المتنازعين وإلى مفاوضاته مع جمهوريات بيزنطة وجنة والبنديوية بغية تجنيدهما لخدمة الحملة الصليبية المزمع تكوينها<sup>(٣٠)</sup>. بعد هذا أرسل البابا إلى فرنسا مندوبه بطرس كاردينال سانتا ماريا دى فيالاتا ليقنع ملك فرنسا بضرورة عقد صلح بينه وبين ملك إنجلترا لادخار قوة الملاكتين للحملة الصليبية. وفي نفس الوقت كان على هذا القاصد الرسولي الإشراف على كبار رجال الدين الفرنسيين في تبشيرهم بالصليبية. وسرعان ما ظهر الحماس في غرب أوروبا من جديد للحركة الصليبية، كما راح الكثيرون يبشرون بها في مختلف البلدان اللاتينية.

ولعل أشهر من بشر بهذه الصليبية رجل يدعى فولك من أبروشية نويل وهي مدينة صغيرة تقع ما بين باريس ولانجرى سيرمارن. ولم يكن فولك صاحب ثقافة، إذ كان مجرد ريف ساذج ولكنه كان يملك «هذا القبس القدس» الذي جعل المعاصرين يشهونه بيسطاء الصيادين في بحر الجليل الذين اتخذهم المسيح له تلاميذ<sup>(٣١)</sup>. ويظهر فولك بادئ الأمر في المصادر المعاصرة مجرد رجل علماني<sup>(٣٢)</sup>. ولكنه فجأة يطل علينا وهو في مسوح الرهبانية. بعد هذا انطلق فولك إلى باريس حيث راح يدرس اللاهوت ولكأنه «كان يتقطط الحجارة الالزمة ليسقط بها الجبار جوليات<sup>(٣٣)</sup>». وتلتمذ هناك على يد المعلم بطرس لي شانتر الذي قربه منه وكلفه بالتبشير بالصليبية نيابة عنه. وسرعان ما ذاعت شهرة فولك في باريس حتى كان القسيسون يتسابقون في دعوته إلى كنائسهم ليتكلم في جم眾 المصليين هنا وهناك.

Ibid., col. 318.

(٣٠)

J. de Vitry, Historiae Occidentalis (ed. F. Moschi), Dueaci, 1597,

(٣١)

CCCXXIV.

“Saeculariter tanquam animalis”.

(٣٢)

J. de Vitry, op. cit., loc. cit.

(٣٣)

وقد رتب له بطرس لى شانتر تلك المناسبة التي وقف فيها على المنصة في سانت سيفيرين حيث كان حاضرا جهور من خيرة أساتذة اللاهوت والفلسفة، وتكلم فولك وابكي الحاضرين، حتى لانهم راحوا يؤكدون أن «الروح القدس كان ينطق من قم فولك». في حين أن فريقا آخر راح يقارنه بالقديس بولس ذاته<sup>(٣٤)</sup>. وكان شيئا طبيعياً أن نسبت أسطoir عديدة حول شخص هذا «القديس» فتقليل عنه إنه شفى المرضى وأتى بالمعجزات باسم الروح القدس<sup>(٣٥)</sup>.

ولما وصلت الأنباء عن فولك هذا إلى «المسامع البابوية» كتب إليه انوسنت الثالث في نوفمبر ١١٩٨ يبارك له في جهوده ويقوضه بالتبشير باسمه للحملة الصليبية متعاونا مع القاصد الرسولي في فرنسا. كما طلب منه السعي لضم «الرهبان البيض والسود في غالة» إلى صاف الحملة<sup>(٣٦)</sup>.

وبينا راح فولك والقاصد الرسولي يبشران بالصليبية في فرنسا ، كان مارتينوس مقدم دير پايرس يبشر بها في ألمانيا بتغويض من البابا أيضا . ووعد مارتينوس هذا من ينخرط في الحملة بخفران لخطباه وبنصيّب وافر من الأراضي والثروة في بلاد الشرق<sup>(٣٧)</sup>. وقد أبى الكثيرون من رجال الدين والعلمانيين دعوة مارتينوس للاصليبية . كما وكل قيادة بعض الفرق إلى نفر من الأساقفة الألمان حتى تجتمعوا تحت إمرته عند مدينة فيرونا<sup>(٣٨)</sup> .

وفي أواخر عام ١١٩٩ وجه البابا نداءاً إلى رؤساء الأساقفة في غرب أوروبا يأمرهم فيه باقتطاع جزء من دخول سائر رجال الدين لتمويل الصليبية<sup>(٣٩)</sup>. كما أعلن أنه هو وكرادلته في الكيوريا وإكليروس مدينة

Ibid.

(٣٤)

Geoffroy de Villehardouin, *La Conquête de Constantinople* (ed. N. de Wailly), Paris, 1872, C.I.

P.L., Vol. CCXIV, cols. 375 - 76.

(٣٦)

Gunther of Pairis, *Historia Captiae a Latinis Constantinopoleo*, in P.L., Vol. CCXII, cols. 226 - 28.

Ibid., cols. 229 - 30.

(٣٨)

P.L., Vol. CCXIV, Cols. 828 - 30.

(٣٩)

روما قد قرروا دفع «عشور» دخوهم لمدة عام للمساهمة في تمويل الحملة . كذلك خاطب البابا هذا النفر من الكونتات والبارونات الذين كانت لهم سيرة سيئة في المجتمع الغربي يعرض عليهم الغفران لآثامهم القديمة إذا حملوا الصليب وشاركوا في الحملة لخدمة كنيسة القديس بطرس . ويتبين هنا الاتجاه الذي نهجه أنوسنت الثالث في رسالته إلى كونت فورز إذ كتب إليه يذكره بأن البابوات الذين توالتوا على كرسى العرش البطرسى قد أصدروا ضده قرارات اللعنة بسبب جرائمه المتابعة ، ولكنه في وسعه الآن التكfir عن آثامه بحمل شارة الصليب والمشاركة في الحملة الصليبية التي يبشر بها البابا<sup>(٤٠)</sup> . كذلك رحب أنوسنت الثالث بقرار التوبة الذي اتخذه بدلوين كونت فلاندرز بعد أن أصدر ضده قرار الحرمان والقطع . وبلدويين هذا هو أبرز شخصية في الحملة الصليبية الرابعة وهو الذي سيحمل التاج البيزنطي فوق رأسه كأول إمبراطور لاتيني للإمبراطورية البيزنطية بعد غزوها على يد هؤلاء الصليبيين . وليس من قبيل الصدفة أن يكون البابا أنوسنت الثالث قد رفع قرارى الحرمان عن بلدويين وأراضيه وأن يكون البابا قد بسط عليه وزوجه وضياعه حياته الشخصية وحماية الكرسى الرسولى علامه على تبعية بلدويين وأراضيه للسيد البابا أنوسنت الثالث . ولعل أهم فقرة وردت في كتاب البابا هذا تلك التي نص فيها على « حمaitك وعشيرتك وأراضيك التي تملكتها الآن والتي سوف تكون من نصيبك في المستقبل »<sup>(٤١)</sup> .

تحمس الكثيرون لتلبية نداءات أنوسنت الثالث للمشاركة في الحملة الصليبية الرابعة ، وكان على رأس النبلاء الذين حملوا الصليب ثيوبوت كونت شمباني وبرى ، والكونت لويس صاحب بلوا وشارترز ، من أقارب ملكى فرنسا وإنجلترا<sup>(٤٢)</sup> . وبعد قليل أعلن بلدويين كونت فلاندرز هو وزوجه قراهما بالمشاركة في الحملة ، كما حذا حذوهما هنرى شقيق بلدويين ،

P.L., Vol. CCXIV, cols. 384 - 85.

(٤٠)

Ibid., cols. 582 - 85.

(٤١)

Villehardouin, C. II.

(٤٢)

وريئيه من توت ، وغابيوم من بشوين ، وجان من نازلز ، وبرنارد من سوبرهائين وعديدون آخرون<sup>(٤٣)</sup> .. وسرعان ما تحمس للفكرة أيضا هيو كونت سان بول وابن أخيه بطرس من إميان والعديد من أ Cousins<sup>(٤٤)</sup> .

وكان من بين كبار رجال الدين الذين انخرطوا في الحملة الصليبية الرابعة جارنيه أسقف تروي ، ونيفيلون أسقف سواسون ، وأسقف أوتون ، وكوزراد أسقف البرستات ، ومقدم دير فو - دى - سرناي ، ومقدم دير لووس ومارتينوس مقدم دير پايرس ، وجان من نويون القسيس الخاص للكونت بلدوين صاحب فلاندرز وعدد لا يحصى من رجال الدين من المراتب الصغيرة ، جلهم من جماعة السيسترشيان<sup>(٤٥)</sup> . وفي المؤتمر الذي انعقد عند مدينة كومبين أعلن قادة الحملة من النبلاء ، وعلى رأسهم ثيودور، تفويضهم لستة من فرسان الحملة للسفر إلى أي من الموانئ الغربية لعقد اتفاق لنقل رجال الحملة على أسطول إحدى الجمهوريات الإيطالية . وهؤلاء الستة كانوا جيوفري من فلهاردون مارشال شامبان ( وهو مؤرخنا المرموق للحملة الرابعة ) ، وميلون لي بريبات ، وكانون من بشوين ، والارد ماكورو ، وجان من فريز ، وجوتبيه من جودونفيل . قرر هؤلاء السفراء السفر إلى البندقية لفتح باب المفاوضات مع دوجها هنري داندلو في شأن استخدام أسطول جمهوريته لنقل رجال الصليبية الرابعة<sup>(٤٦)</sup> .

رحب داندلو بهؤلاء السفراء الفرنجة وبعد مناقشات ودية اتفق الطرفان على الآتي : تقدم البندقية السفن اللازمة لنقل ٤٥٠٠ من الخيول و ٩٠٠٠ من المقاتلين ، وسفنا أخرى لتقل ٤٥٠٠ من الفرسان و ٢٠,٠٠٠ من المشاة . وتعهد الجمهورية أيضا بضماني تموين رجال الحملة وخيم لهم لمدة تسعة أشهر . « وحبا في الله تعهد البندقية بتزويد الحملة بخمسين قطعة حربية

Ibid., C. V - VII.

(٤٣)

Ibid.

(٤٤)

Ibid., passim.

(٤٥)

Ibid., C. VIII - X.

(٤٦)

بحريية مسلحة — على حسابها — لخدم الله وقضية المسيحية ». وفي مقابل هذا كان على الفرنجية دفع خمسة ماركات عن كل خيل وماركين عن كل رأس . هذا إلى جانب تسليم البندقية نصف الغنائم التي قد تحصل عليها الحملة سواء في البر أو في البحر <sup>(٤٧)</sup> .

بعد هذا دعا داندولو شعب جمهوريته لصلاة خاصة في كاتدرائية سان مارك لسماع قداس الروح القدس « وللابتهاه لله ليلهفهم الصواب في حلفهم مع سفراء الفرنجية » . وقد حضر هذه الصلاة عشرون ألفا من أهل الجمهورية . وعقب الانتهاء من طقوس القدس طلب الدوج من جيوفري قلهاردوان مخاطبة جمهور المصلين وطلب موافقتهم على المعاهدة المبرمة بينهم وبين الجمهورية . ووقف قلهاردوان وتكلم فقال إن السادة من نبلاء فرنسا وهم أبعد وأقوى الخلق شرقا وسلطانا قد بعثوا به وبإخوانه إلى دوج البندقية ليطلبوا منه ومن شعبه النظر بعين العطف إلى قضية أورشليم التي قد وقعت في الإسار ، وذلك بالمساهمة بقوة أسطولهم العظيم في هذه الحملة إلى ماوراء البحار . وقد فعلت كلمات قلهاردوان فعل السحر في قلوب البندقية فانهمر الدمع من عيونهم مدرارا وصاحوا جميعا « نحن موافقون ، نحن موافقون » . وبعد هذا المشهد الرائع تلمس الدوج — الأعمى — خطاه ووقف على المنصة فأشاد بجنس الفرنجية وبيطوطهم وشكر شعبه على حماستهم من أجل الدفاع عن قضية المسيح <sup>(٤٨)</sup> .

وقعت المعاهدة بين الفرنجية وجمهورية البندقية في أبريل ١٢٠١ . وبعدها بقليل أوفد الطرفان رسلا من لذنهما إلى المقام البابوي لاعتماد نصوص هذه المعاهدة . وقد وافق البابا على المعاهدة وبارك جهود الطرفين في خدمة الصليبية الرابعة <sup>(٤٩)</sup> .

Ibid.

(٤٧)

Ibid., C. XVI, C. XVII.

(٤٨)

Gesta Innocentii III, cols. cxxxii.

(٤٩)

روما وبيزنطة

توفى الكونت ثيبيوت في ربيع ١٢٠١ ، فانعقد مؤتمر عند مدينة سواسون لاختيار قائد جديد للحملة الرابعة . وكان بين الحاضرين بلدويين كونت فلاندرز ، ولويس كونت بلوا ، وجيوفرى كونت برش ، وهيو كونت سان بول . اتفق المؤتمرون على توجيه الدعوة إلى بونيفاس ماركيز مونت فرات ليتلقى مهمة قيادة الحملة خلفاً للكونت ثيبيوت الراحل . وافق الماركيز على هذا المطلب ، وعليه فقد صحبه أسقف سواسون وفالك دى نوبل وراهبان آخران إلى كنيسة نوتردام دى سواسون حيث قلده علام الصليب<sup>(٥٠)</sup> وفي يوم أحد أسبوع الفصح لعام ١٢٠٢ بدأ الصليبيون يرحلون عن لاياتهم المختلفة للسفر إلى البندقية . وهناك تجمعوا في معسكراتهم على جزيرة سان نيكولا دى ليدو . على أن جمعاً وافراً منهم أعلنا أنهم لا يمكنهم الرفاء ب النفقات الرحلة . ولذا فقد تبرع أغنياء الحملة بقدر من المال ، ولكن برغم هذا كان المبلغ المتفق عليه مع جمهورية البندقية ما زال يعجز ٣٤,٠٠٠ مارك<sup>(٥١)</sup> .

شرح الدوچ الموقف لشعبه وبعد مشاورات مع نبلاء الجمهورية أعلن داندولو أنه إذا وافق الصليبيون على مساعدة البندقية في غزو مدينة زارا المغاربية فإن جمهورية سان مارك ستنهى الصليبيين دفع المال العاجز « حتى يقيض الله لنا وطمها الغزو بنجاح »<sup>(٥٢)</sup> . وافق قادة الصليبية الرابعة على مشروع داندولو وشعبه ، خاصة بعد أن علموا من الدوچ أن مدينة زارا وافرة الرخاء والخيرات<sup>(٥٣)</sup> .

بعد هذا الاتفاق بين البندقية « والحجاج الفرنجة » لغزو مدينة زارا

Villehardouin, XXVII.

(٥٠)

Ibid., XXXV.

(٥١)

Ibid., XXXVIII.

(٥٢)

Robert de Clari, La Conquête de Constantinople (ed. Z. K. B. T. M. Paris, 1924), pp. 12 - 13.

(٥٣)

المسيحية والتابعة لملك عضو هو وشعبه في الكنيسة اللاتينية ، تجمع الشعب ودوجهم في كاتدرائية سان مارك لطلب البركات من القديس لمشروعهم الحربي . وصعد الدوچ مرة أخرى إلى منصة الكاتدرائية وأعلن بجمهور المصلين أن شرفاً بالغا قد حل بهم وبجمهورياتهم لتحالفهم مع « خير وأشجع الرجال في العالم » في حملة لم يسبق لها مثيل . ثم راح الدوچ يرجو البنادقة من الحاضرين في الكنيسة السماح له بحمل الصابب مع الفرنجة وإنابة ابنه عنه في الحكم أثناء غيابه عن الجمهورية . وافق البنادقة على هذا المطلب ، وهنا رکع الدوچ أمام المذبح « وبكى بكاءً مريراً » . وعلى التو برز أحد خلصائه وعاق شارة الصليب على واجهة قبرته حتى يبصرها الجميع فيجدونه حذوه الشجعان من أهل البندقية (سبتمبر ١٢٠٢) <sup>(٥٤)</sup> .

بينما كان هذا يجري في البندقية كانت أحداث أخرى باللغة الأهمية تتتابع في غرب أوربا . فلقد ظهر الأمير الصغير الكسيوس الرابع نجل الإمبراطور المخلوع إسحق الجيلوس في الغرب اللاتيني . وهناك من الأدلة القوية مايدعو إلى رفض رواية جيوفري فلهاردوان عن وصول الكسيوس لهذا إلى الغرب في أغسطس عام ١٢٠٢ ، وإلى افتراض وصوله في خلال عام ١٢٠١ . فنيكينياتس كونياتس يؤكد أن الإمبراطور المعتصب للعرش الكسيوس الثالث قد أطلق سراح ابن أخيه الكسيوس الرابع من السجن في عام ١٢٠١ وأصطحبه معه إلى إحدى المعارك ضد أحد الضباط المتمردين . والمدعو عمادويل كاميزيس . على أن الأمير الشاب هرب من معسكر عمه واستقل سفينة بيزيه كانت راسية في ميناء آثيرا . وقد تحكم الكسيوس من الإفلات من علاء عمه بأن قص شعره على الطريقة اللاتينية وارتدى ملابس شبيهة بالزي الغربي . وبهذا هرب في عام ١٢٠١ إلى ألمانيا ليطلب العون من أخيه ايريني وزوجها فيليب دوق سوابيا <sup>(٥٥)</sup> .

وهناك دليل آخر نجده في *Gesta Innocentii* في قوله بأن المركيز بونيفاس دي مونت فرات — قائد الحملة الصليبية الرابعة — بعد أن تدارس هو وفيليب دوق سوابيا خطة لإرجاع الأمير الكسيوس إلى عرش بيزنطية قام بزيارة خاصة للبابا أنوسنت الثالث وكان يحمل معه رسالة من فيليب إلى البابا تدور حول هذا الأمر<sup>(٥٦)</sup> فلما علم الإمبراطور بالحال على عرش بيزنطية — الكسيوس الثالث — بالأمر بعث إلى البابا أنوسنت الثالث يعرض عليه موافقته على مناقشة مشروع وحدة كنيستى بيزنطة وروما إن أحجمت البابوية عن تعضيد مخطط فيليب السوابي لصالح ألكسيوس الصغير . ورد البابا على الإمبراطور البيزنطي في ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ برسالة جاء فيها أن الأمير ألكسيوس الأصغر قد زاره في روما، وفي تحديد الفترة التي انصرمت منذ حدوث هذه الزيارة استخدم البابا في رسالته هذه لفظة *Olim* . وهذه الألفاظ بالذات لا يمكن بحال أن تشير إلى تاريخ يقع في أغسطس ١٢٠٢ وهو التاريخ الذي يقدمه لنا فلهاردوان ، وإنما هي تشير إلى تاريخ أبعد من هذا بكثير يتحتم أن يكون في عام ١٢٠١<sup>(٥٧)</sup> . ولهذا فإن دليل فلهاردوان في هذه النقطة غير مقبول .

والواقع أن فيليب السوابي كان على اتصال دائم بالبابا أنوسنت الثالث منذ

*Gesta Innocentii III, col. Cxxii. "Ipse vero (Bonifacius Montisferrati (٥٦)*

*marchio dux Christiani exercitus) de Francia per Alamanniam trans-  
itum fecit, ubi cum Philippe Duce Sueviae, qui se regem gerebat,  
dicebatur habuisse tractatum, ut Alexium sororium suum, filium  
videlicet Isachii quondam Constantinopolitani imperatoris, cuius  
sororem ipse Philippus duxerat in uxorem, ad se captivitatis ergastulo  
fugientem reduci feceret Constantinopolim ab exercitu Christiano ad  
obtiendum Imperium Romaniae. De quo, cum idem marchio ad  
summuni Pontificem accessisset coepit agere a remotis".*

*P.L., Vol. CCXIV, col. 1124. "Nos autem imperiali prudentiae taliter (٥٧)  
duximus respondendum, quod praedictus Alexius olim ad praesentiam  
nostram accedens."*

١١٩٩ يخطب وده من أجل تأييده في الحصول على التاج الألماني بدلاً من المرشح الآخر أوتو من برونزويك . وكان فيليب يعقد العزم على أن يتوجه إمبراطوراً للغرب وبعدها يكمل مشروع شقيقه الراحل هنري السادس في قيادة حملة صليبية على الشرق لها نفس الأغراض التي كان قد رسماها لها خلف بربروسا . وهناك مصدر آخر يذكر أن فيليب السوسي قد كتب إلى البابا انوسنت الثالث في عام ١٢٠٣ يؤكّد له : « إن من الله عليه أو على نسله بالسيطرة على بيزنطة فإنه سيُخضع كنيسة بيزنطة لسلطان كنيسة روما » <sup>(٥٨)</sup> .

وهناك من الدلائل العرضية ما يؤيد صدق هذه النظرية . فثلاًثة كان القائد الأعلى للحملة الصليبية الرابعة ، بونيفاس دي مونت فرات ، متغيّباً عندهما قام رجاله هم والبنادقة بمحاصير مدينة زارا الهنغارية في ١١ نوفمبر ١٢٠٢ ، وهذا يوحى بأن القائد العام للحملة قد تختلف في مدينة البندقية عن عمد لمباشرة أمر بالغ الأهمية والسرية . كذلك ليس من باب الصدفة أنه بعد وصول سفراء الأمير الشاب الكسيوس الرابع إلى البندقية بوقت وجيز جداً ، ظهر سفراء فيليب السوسي : أسقف هالبرشتات ، الحراف برتولد ثون كاتزلنبوجن ، جارنييه ثون بورلاند ، ديترسن ثون لوس ، هنرييك ثرن أهلن ، روجر ثون سوسترن ، الكسندر ثون فيلرز ، وأوري ثون دون ، هنالك أيضاً <sup>(٥٩)</sup> .

سقطت زارا في يد البنادقة وحلفائهم الصليبيين في ١٣ نوفمبر ١٢٠٢ .

ثم اقتسم الفريقيان الغنائم التي وقعت في أيديهما بعد قتل الأهلين ونهب أملاكهم . ولم يكتف الدوج داندلو بهذا وإنما – حسبًا في الانتقام فرق كل

Odoricus Raynaldus, Annales Ecclesiastici, Vols. 13 - 21, Coloniae Agrip- (٥٨)

pinæ, 1694 - 1727, ad. an. 1203, no 29 : "Si omnipotens Dominus regnum Graecorum mihi vel levico m̄is subdiderit, Ecclesiam Constantinoianam Romanae Ecclesiae bona fide et sine fraude faciam fore subjectam in omnibus per omnia fidelis et devotus, atque filius et defensor semper ero."

Villehardouin, XLIV.

(٥٩)

شيء — فقد عمل على هدم أسوار المدينة ودورها مما حدا بأحد المعاصرين إلى القول بأن « حجراً واحداً لم يبق ليساند حجراً آخرًا في المدينة » (٦٠).

وبعد سقوط المدينة وصل الماركيز بونيفاس دى مونت فرات إلى معسكر الصليبيين . وبعد وصوله إلى هناك بأربعين قدم سفراً فيليب السادس والأمير الكسيوس الرابع إلى قادة المعسكر الصليبي وسلموا إليهم رسالة من فيليب يطلب منهم فيها تعهد شقيق زوجه (الكسيوس) بالرعاية ، والعمل على إعادته بالقرة إلى عرش بيزنطة ؛ مقابل وضعه سائر الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها تحت سلطان البابوية ؛ بالإضافة إلى دفع مبلغ ضخم من المال إليهم وكذا إمدادهم بخمسةألف من الفرسان للمشاركة في حملتهم على بيت المقدس (٦١) .

عقد القادة الصليبيون مؤتمراً لمدارسة الأمر ، وكان مقدم دير لووس والمأركيز بونيفاس والكونت بلهوين من فلاندرز والكونت لويس من بلوا والكونت هيو من سان بول يرون ضرورة قبول عروض فيايي السوابي والكسيوس الصغير «لأنه عار علينا أن نرفضها . ولأنه لا مكاسب يرجى تحقيقها في سوريا »<sup>(٦٢)</sup>

أما هنرى داندلو ورجاله فقد رحبوا بقرار القادة الصليبيين؛ لأنهم جمهوريون سان مارك كانت تتحرق شرقاً إلى اليوم الذى تساهم فيه في تقويض الإمبراطورية البيزنطية؛ حيث إن هذا يضمن لها حقوقاً اقتصادية طائلة. كما أن الدوّب

Annales Herbiopolenses. Devastatio Constantinopolitana', in M.G.H.SS., (1+)

Vol. XVI, pp. 9 - 12.

Villchardouin, L.I. : "Seignor, fait li roys, Je vos envoicrai le frere mia femme, (11)

si le met en la Dieu main, qui le gart de mort, et en la vostre . . Tot premierierement, se Dieux done que vos le remetez et son heritance, il mettra tot l'empire de Romainie a la obediencie de Rome, dont ele ere partie pieca . . ”

Ibid., The Letter of Count Hugh of Saint Pol, in A. Duchesne's *Historiae* (12)

Francorum Scriptores (5 Vols., Paris, 1636 - 49), Vol. V, p. 272; Rerum Gallicarum Scriptores, Vol. XVIII, p. 517.

داندلو كانت لديه أسباب أخرى تدعوه إلى التفكير جديداً في الانتقام من القسطنطينية وأهلها ، فلم ينس الدوج ماحل بجالية البندقة في العاصمة البزنطية عام ١١٧١ . وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الإمبراطور عما نويل كوميني كان قد أمر بسم عيني هنري داندلو هذا ؛ مما غرس شعوراً بالحقد والكراء في قلبه تجاه كل ما هو بيزنطي .<sup>(٦٣)</sup> كذلك كانت جمهورية البندقة آنذاك على علاقة طيبة مع سلطان مصر الملك العادل الأيوبي . ويروى كاتب *Estoire d'Eracles* أنه عندما علم الملك العادل بقدوم حملة صليبية جديدة قبالة الشرق أرسل إلى الدوج هنري داندلو يطلب منه تحويل أنظار الحملة عن مصر ؛ واعداً إياه بامتيازات تجارية هائلة في ميناء الإسكندرية وبدفع مبلغ طائل من المال لجمهورية سان مارك .<sup>(٦٤)</sup> ولالمعروف أنه في عام ١٢٠٨ عقد سفيراً البندقة مارينو داندلو وبيترو ميشيل معاهدة مع سلطان مصر ، حصل بموجبها البندقة على امتيازات تجارية خاصة بالفعل في ميناء الإسكندرية .

\* \* \*

لم تكن فكرة المعجم اللاتيني على العاصمة البيزنطية شيئاً جديداً في عام ١٢٠٤ ، فلقد حدثت محاولات جدية لهذا الغرض عدة مرات في مناسبات

(٦٣)

Joannes Baptista Egnatius, *De Exemplis Illustrium Virorum Venetiae Civitatis atque aliarum Gentium* (ed. M. Molinus, Paris, 1554, lib. IX, cap. XII; Marino Sanutus, *Vitae Ducum Venetorum Italicae Scriptores ab Origine Urbis sive ab Anno 421 usque ad Annum 1493*, in Muratori, R.I.S.S., Vol. XXII, col. 532; Marcus Antonius Sabellius, *Dell' Historia Vinitiana, Vinegia*, 1558, lib. XXXIII.

(٦٤)

*Estoire d'Eracles*, pp. 251 - 52; Ernoul, *Chronique* (ed. Mas - Latric), p. 362 : "Il alerent en Constantinople. Adonc orent bien fait li Veniciens la requeste que li Sodanz (le Sultan) lor ot faite, que il destornassent les pelerins d'aler en la terre de Syrie".

سابقة ذكرناها في مكانتها في هذا الكتاب . ولكن الفرصة التي أتاحها الأمير الكسيوس الرابع لقادة الصليبية الرابعة والبنادقة كانت فرصة ذهبية لتحقيق هذا الأمل فاهتبوا دون تردد . وقد وضح لنا في الصفحات القائلة السابقة كيف أن غالبية أفراد الصليبية الرابعة لم يكن لديهم من المال ما يستطيعون به سداد أجور انتقامهم على السفن التي أعدتها جمهورية البندقية لهذا الغرض . والآن وقد وضحت لهم فرص الاغتنام والنهب من كنوز بيزنطة التي لا تحصى ولا تعد سال لعابهم . وكان داندولو يعلم هذا الشعور المت天涯 لدى الصليبيين فراح يبين لهم أن الإمبراطورية البيزنطية وافرة الثراء والخيرات وأن فيها كل ما للد وطاب مما تشتهي الأنفس<sup>(٦٥)</sup> . وهنا أعلن القائد العام للحملة بونيفاس دي موينت فرات قراره بالهجوم على مدينة القسطنطينية مبينا أنه يود الرفاء بعهده للملك الألماني فيليب السوسي لنصرة صهره الكسيوس الأصغر<sup>(٦٦)</sup> .

ومن الهام جداً أن نلحظ أنه في هذه المرحلة بالذات ، عندما قرر الصليبيون الهجوم على العاصمة البيزنطية ، راحت المصادر اللاتينية تكشف الدافع الحقيقية وراء هذا الغزو المرتقب : فالقسطنطينية وبطريركيتها على ضلال مبين ، وكنيسة بيزنطة مهرطقة ومتمرة ضد سلطان البابا ومنحرفة عن قانون الإيمان ، مما جلب عليها وعلى أهلها كراهية السيد البابا حامى الكاثوليكية والإيمان القوي<sup>(٦٧)</sup> .

وقعت أحداث حصار ونب مدينة زارا ما بين ١٣ و ٢٤ نوفمبر ١٢٠٢ .

Robert de Clari, p. 28 : "Seigneur, en Grece a molt rike terr et molt plentyve (٦٥)  
de tous biens; se nous poiemes avoir raisonable acoison d'aler y et de  
prendre viandes en la tere et autre coses . . ."

Ibid. (٦٦)

Gunther of Pairis, Historia Claptae a Latinis Constantinopoleos, col. 324 : (٦٧)  
"oderat autem summus pontifex illam urbem tam ipse quam ejus praede-  
cessores a multo tempore, quoniam jam diu Romanac Ecclesiae rebellis  
exstiterat . . ."

ولما علم البابا بهذا أصدر قرارا بالحرمان ضد الصليبيين . ولكن قادة الحملة أرسلوا سفارة إلى المقام البابوى لطلب من انوسنت قراراً بالغفران . وكانت هذه السفارة تتالف من نيقلون أسقف سواسون ، وجان نويون كاتم سر بلدوين من فلاندرز ، وجان من فريز ، وروبرت من بوفرز . وافق البابا على رفع قرار الحرمان وإصدار قرار بالغفران لصالح الصليبيين وحثّهم على البقاء متحدلين لتم على أيديهم خدمة جليلة الله <sup>(٦٨)</sup> . ولكن الرسول البابوى الذى حمل إلى قادة الصليبية هذا القرار بالعفو والغفران كان يحمل رسالة بقرار الحرمان ضد الدوج داندولو ورجاله <sup>(٦٩)</sup> على أن بونيفاس دى مونت فرات وأقرانه كثروا أمر هذه الرسالة وبعثوا إلى البابا يشرحون له الأسباب التي دعتهم إلى معاونة الپنادقة في غزو مدينة زارا ، كما أنهم أكدوا للبابا أنهم على استعداد لتسليم قرار الحرمان للدوج ورجاله إن أصر انوسنت على ذلك <sup>(٧٠)</sup> .

كان البابا انوسنت الثالث يدرك تماماً أن للصليبيين نوايا مبيتة ضد القسطنطينية ؛ وهو يشير إلى هذا صراحة في رسالة له إلى إمبراطور بيزنطة في نوفمبر ١٢٠٢ <sup>(٧١)</sup> . وفي نوفمبر ١٢٠٣ استولى الصليبيون على مدينة زارا ووضحت بهذا نيتهم على مواصلة الزحف قبلة مدينة قسطنطين . والعجيب في الأمر أن البابا — وقد تلى رسالة القادة الخاصة بالدودج داندولو ورجاله — ظل صامتاً لا يتحرك من نوفمبر ١٢٠٣ حتى يونيو ١٢٠٤ ، حين بعث برسالة إلى بونيفاس دى مونت فرات يطلب منه فيها تسليم قرار الحرمان إلى

P.L., Vol. CCXV, col. 260.

(٦٨)

Gesta Innocentii III, col. CXL.

(٦٩)

P.L., Vol. CCXV, col. 108.

(٧٠)

P.L., Vol. CCXIV, col. 1124 : "quod idem Philippus nuntios suos ad principes exercitus Christiani sine qualibet dilatione transmisit, r. ogans eos et petens ut, quia Pater suus et ipse fuerant jure suo et imperio nequiter spoliati, cum eo Constantinopolitanum deberent régnum intrare..."

روبا و بيزنطة

الدوج داندولو<sup>(٧٢)</sup>. هذا الموقف البابوي الغريب وفشل اذوست الثالث في دفع العدوان ضد زارا في حينه وصيّته «المعتمد» قرابة شهور سبعة يدعونا للقول بأن البابا قد تعمد الصومت ليس من الصليبية بالمعنى في طريقها الخذيد قبلة بيزنطة . فما أن تلقى الصليبيون قرار الغفران البابوي بعد جرائمهم البشعة ضد مدينة تخضع لملك عضو في الكنيسة اللاتينية حتى راحوا يعدون العدة في جرأة بالغة للوثوب على بيزنطة بغية تحقيق نصر صليبي مؤزر على إمبراطورية كريمة وكنيسة متمردة على البابا ذاته . ولذا فإن القول «بانحراف» الصليبية الرابعة عن طريقها الأصيل «صدفة» قبلة بيزنطة قول مردود ويجب تصويبه: ذلك لأن الهجوم على القدسية كان متعيناً ومقصوداً وبتشجيع زائد من نيقولاوس أسقف سواسون وجان دي نويون اللذين كانا قد فوضيا من قبل البابا بالنيابة عنه في الإشراف على الحملة حتى وصول أحد كرادلته للاضطلاع بهذه المهمة . إن غزو القدسية عام ١٢٠٤ قد تم نتيجة لخطوة محكمة تسقط خيوطها في سرية تامة في أروقة غرب أوروبا ؛ وأطراها فيليب السادس وبوذيفاس دي موتن فرات والبابا اذوست الثالث ذاته .

وليس بعجيب إذن أن نرى هنري داندولو يخطب في الصليبيين فيقول :

«أيها السادة إن لدينا الحق كل الحق في الهجوم على القدسية » ، فيرد عليه قادة الصليبية ، علمانيين وإكليروس : وما شأننا وبابل أو الإسكندرية ونحن لا نملك خبراً ولا حماً — إنه من الخير ألا نذهب هناك فنهلك جوعاً<sup>(٧٣)</sup> . هذا ونجده في Cronaca dei Veneziani تنص صراحة على أن البابا اذوست الثالث قد أرسل الأمير الصغير الكسيوس الرابع إلى الدوج هنري داندولو ؛ طالباً منه معاونته في الحصول على تاج الإمبراطورية البيزنطية<sup>(٧٤)</sup> .

P.L., Vol. CCXV, col. 106.

(٧٢)

Robert de Clari, p. 32.

(٧٣)

Martino da Canale, La Cronaca dei Veneziani, Frienze, 1845, pp. 324.  
seq.

(٧٤)

وصل الأمير الكسيوس إلى مدينة زارا في مايو ١٢٠٢ ، حيث رحب به الدوج داندلو ، ثم زوده بعض القطع البحرية . وأبحرت الحملة الصليبية الرابعة ، وفي معيتها الكسيوس هذا ، إلى مدينة دورازو . ولم تجرب المدينة البيزنطية على مقاومة الفرنجية فسلم أهلها المدينة إليهم وأقسموا يمين الولاء والطاعة لالكسيوس . ومن هناك أبحر الكسيوس إلى جزيرة كورفو نقطة تجمع الصليبيين . ولقيه الماركيز بونيفاس دى مونت فرات هناك بحماس وترحاب بالغين وأمر بإقامة خيمة الكسيوس بجوار خيمته . ومن كورفو أبحرت الحملة إلى رأس ماليا حيث التقى الصليبيون بسفيتين تقلان بعض الفرسان العائدين من سوريا . وقفز أحد هؤلاء الفرسان من على ظهر السفينة التي كانت تقاه وصرخ في وجه رفقاء المشدوهين : « إنني لست في حاجة إلى متاعي فإني ماض مع هؤلاء القوم ، ويقيني أنهم مقسمون على غزو عظيم »<sup>(٧٥)</sup> . هذا وقد حدث أن أرسل الفرنجية في سوريا رسالة إلى قادة الصليبية الرابعة يطلبون منهم المساعدة لإنقاذهم من الأخطار المحيطة بهم في الشام : ولكن الصليبيين قد صسوا آذانهم ولم يكتنعوا بأمر الشام والأرض المقدسة<sup>(٧٦)</sup> .

بعد هذا دخل الأسطول الصليبي قنال أبيدوس حيث رست الكتائب وأخذت الأهلين على غرة فنبت المحاصيل كلها . تم استئناف الأسطول لإبحاره ورسى عند خلقدونية المواجهة للقسطنطينية على الجانب الأنضوص للمضايق ؛ قبلة قصر يملكه الإمبراطور الكسيوس الثالث . وانتشر الفرنجية في المناطق المجاورة لخلقدونية ونهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم من غلال . ومن هناك واصلت الحملة الرزحف حتى سكوناري وأقيمت المعسكرات الصليبية على مضائق سان جورج عند سكوتاري .

وحذر الكسيوس الثالث أنه أمام عدو لا يرحم ، فأرسل إليهم أحد اللاتين الذين كانوا في خدمته ويدعى نيكولا روكس ومعه رسالة إلى قادة الصليبية .

تقول هذه الرسالة إن الإمبراطور يعلم أن الفرنجة هم أفضل الأجناس على وجه البسيطة ، ولذا فهو يعجب من زحفهم على أراضي مبراطوريته بدلاً من مواصلة السير إلى الأرض المقدسة : « فأنتم مسيحيون والإمبراطور وشعبه أيضًا مسيحيون » . ثم يعرض الإمبراطور عليهم المال إن كانوا في حاجة إليه<sup>(77)</sup> .

وهنا تصلدى للرسول شاعر فرنجى يدعى كوندون من بثوين فصالح فى وجهه  
أن الکسيوس الثالث قد اغتصب التاج البيزنطى دون حق وعليه إعادة التاج  
إلى الکسيوس الصغير ووضع نفسه تحت رحمته .

كان هذا تحدياً واضحاً لا لكسيوس الثالث بل وإعلاناً للحرب ضد الحكومة البيزنطية . وللذى فإن بارونات الحملة نظموا استعراضاً بحررياً مكنوا فيه ألكسيوس الأصغر من الظهور على مرأى من أهالى العاصمة وهم يصيغون « هذا هو سيدكم الشرعى » ؟ ولكن الأهالى قابلو هذه المظاهرة المفتعلة بفتور شديد (٧٨) .

وفي اليوم التالي بعد صلاة القدس أعد القادة العدة لحصار مدينة قنسطنطين . وكان حماس الأساقفة ومقدمو الأدية المشاركون في الحملة شديداً ، فراحوا يبشرون الجنود والفرسان بالنصر ويحتذونهم على الصلاة وكتابه وصاياهم قبل بدء المعركة<sup>(٧٩)</sup> . وفي السادس من يوليو ١٢٠٣ استولى الصليبيون على قلعة جلاتا التي كانت تتحكم في مداخل مدينة القدس . وتقرر شن هجوم شامل على المدينة من البر ومن البحر . وبعد أربعة أيام من اتخاذ هذا القرار اتخذت كل فرقة موقعها المخطط لها أمام قصر بلا شرفاً . وسرعان ما دار القتال بين اللاتين والمسلمين . وفي أثناء ذلك نجح أسطول البندقية في الوصول إلى الجزء الواقع تحت أسوار المدينة ، ومن هذا الموقع الفريد انطلقت المجنحية تدك المدينة بتوجيهه من الدوچ داندولي الذي ، برغم فقدان بصره ، وقف

Villehardouin, LXVI.

Ibid., LXVIII.

Ibid., LXX.

3.9.  $\overline{\text{Hg}} \text{ Hg}^+$  (88)

第 17 頁

$$C_{\alpha} = \frac{1}{2} \epsilon_{\alpha\beta\gamma} \partial^{\beta} \partial^{\gamma} f_0 \quad (\text{v4})$$

شامخاً على ظهر السفينة ممسكاً برأية القديس مرقص بيده ، وقد أمر أتباعه بنقله إلى المرسى . وما إن لمح البتادقة رأية قدسيهم على الشاطئ تسبقهم حتى وثروا جميعاً على السور ( ١٧ يوليوز ١٢٠٣ ) . وهنافزع الجنديون من حرس السور ولووا هاربين تاركين السور للبتادقة . وبهذا وقعت خمسة عشرون قلعة في يد البتادقة . ولما شن ألكسيوس الثالث هجوماً على البتادقة أشعل هؤلاء النار في المنطقة الواقعة بينهم وبين جند الإمبراطور واحتجموا من أستنها داخل الأبراج التي استولوا عليها . ولما استدار ألكسيوس ليهاجم الفرنجية انقض البتادقة عليه من الخلف واضطروه إلى الانسحاب قبلة قصر فيليوپاتريون . ودارت الدائرة على ألكسيوس الثالث .

وفي تلك الليلة بالذات ، بعد أن أيقن ألكسيوس الثالث أن اللاتين قد عقدوا العزم على غزو المدينة ، فر من عاصمته تحت ستار الظلام وأصطحب معه خلقه المقربين<sup>(٨٠)</sup> . ولما ذاع الخبر في المدينة أسرعت الجماهير إلى السجن الذي كان يحتوي إسحق الجيليوس والبسود الرداء الإمبراطوري وحملوه إلى قصر بلا شرقي حيث أجلسوه على العرش وأقسموا له يمين الولاء والطاعة . وبعدها أرسلوا رسلاً إلى المعسكر الصليبي خارج أسوار المدينة لنقل الأنبياء إلى ألكسيوس الأصغر ابن إسحق ( ١٨ يوليوز - أول أغسطس ١٢٠٣ )<sup>(٨١)</sup> .

أرسل قادة الصليبيية سفارتين من اثنين من الفرنجية واثنين من البتادقة لمقابلة الإمبراطور إسحق الجيليوس وطلب موافقته على العهد الذي كان ولده ألكسيوس الرابع قد التزم بها أمام الصليبيين . ولما علم إسحق الجيليوس بطبيعة هذه العهد صعق لما سمع لأن ما تعهد به ولده كان ينافي العقل<sup>(٨٢)</sup> . ومع هذا فإن الإمبراطور الأعمى الهرم لم ير مفرأ من الموافقة على هذه الشروط التي تعهد

Hygh of St. Pol., loc. cit.

(٨٠)

Villehardouin, LXXXIV.

(٨١)

Ibid., LXXXVII.

(٨٢)

بها ولده «النزر»<sup>(٨٣)</sup>. وبعد وصول تلك المواصلات إلى المعسكر الفرنجى امتنع زعماء البارونات شحيوthem وأحضروا ألكسيوس إلى أبيه.

كان شعب القسطنطينية يبغض آل إنجيلى جمیعاً ، ولكن سخطهم الزائد كان ضد ألكسيوس الصغير الذى رأوا فيه أنموذجاً للانهزامية والنزر . فهو الذى أتى «بأصدقاءه» الفرنجية إلى مدينتهم حيث راح هؤلاء «المتبررون القساة» الآن يضربون الطرقات والشوارع في القسطنطينية في تحد سافر لشاعر الأهلين . وسرعان ما وقع الصدام الذى لا مفر منه بين أهل العاصمة والصلبيين الخمورين . وهنا رجا إسحق وألكسيوس البارونات أن يقيموا معسكراً على منأى من المدينة عند إستانور ، وافق القادة الصليبيون على هذا المطلب . وفي أول أغسطس ١٢٠٣ توج ألكسيوس الرابع شريكًا في الحكم مع والده إسحق إنجيلوس . وبعدها سلم ألكسيوس إلى الدوچ داندولو ١٠٠,٠٠٠ مارك من الفضة كما قدم مبلغاً آخر إلى قادة الفرنجية<sup>(٨٤)</sup> . وكانت هذه المبالغ كافية لأن ترهق خزانة الدولة .

هذا ورغم نقل معسكر الصليبيين إلى إستانور إلا أن السلطات سمحت لهم بزيارة العاصمة . وكان ثراء المدينة كافياً لإيقاظ غريزة النهب لدى الفرنجية كما راح الأساقفة ومقدمو الأديرة اللاتين يرثون بأبصارهم حقداً وجشعأً إلى الأيقونات والأثار المسيحية النادرة التي كانت تكتنز بها كنائس العاصمة . ولقد اضطر ألكسيوس الرابع أمام تصاعد حدة التوتر ، إلى زيارة البارونات في معسكرهم ، حيث طلب منهم عدم مبارحة معسكراً لهم تجنباً لصدام بينهم وبين شعب العاصمة . ولما كانت الخزانة قد أرهقت ولم يعد في إمكان ألكسيوس سداد المال الذى وعد به الفرنجية والبنادقة فقد طاب من القادة إمهاله عاماً كاملاً . وكان هذا يعني بقاء الحملة عند القسطنطينية عاماً آخر . ورب

Bibliothéque de Valenciennes, Manuscript 482, pp. 131 - 135. (٨٣)

Radulphus, Abbot of Coggeshall, Chronicon Terrae Sanctae, Vol. V, ad an. 1203. (٨٤)

البنادقة بهذا القرار وقرر الدوج وضع أسطوله في خدمتهم طوال العام . بعد هذا اصطحب ألكسيوس الرابع الماركوز بونيفاس والكونت هيو من سان بول وهنري من فلاندرز وبعض خلصائه من البيزنطيين للقيام بجولة في أنحاء الإمبراطورية .

في أثناء غياب ألكسيوس الرابع عن العاصمة وقع صدام بين اللاتين وأهال العاصمة . وقد نجم عن هذا الصدام أن نشب حريق كبير التهم كثيراً من المباني وأتى على بعض الكنائس (نوفمبر ١٢٠٣) . وامتدت الألسنة النار إلى الميناء وأصابت أكثر الأحياء ازدحاماً بالسكان وهو الحى الذي كان بجوار آيا صوفيا . وقد ظلت النار مشتعلة لمدة أسبوع كامل فأهلكت عدداً ضخماً من الأطفال والنساء (٨٥) .

جاءت هذه الأحداث لتوّكّد لألكسيوس الرابع أنه يتّحد عليه تغيير موقعه تجاه الصليبيين والبنادقة لإرضاعاً للشعب السانخط على علاقات المودة بينه وبينهم . ولذا فتقدّم بدأ الإمبراطور يستعلي على البارونات الفرنجية ، كما أبطل إرسال المدّايا والعطاءات إليهم .

أمام هذا الموقف الجديد عقد الدوج والبارونات مؤتمراً قرروا فيه إيفاد سفارة إلى البلاط البيزنطي لتهذيد ألكسيوس والده . وذهت السفراء كونون من بشون وجيوفري من فلهاردون وميلون إلى برابانت وثلاثة آخرون من رجال الدوج إلى القصر الإمبراطوري حيث طلبوا من إسحق وولده الوفاء بوعدهما للحملة التي رفعتهما إلى العرش ، وإلا فالعقاب جد وخيمة (٨٦) . كان هذا التهديد السافر تطاولاً لم يسبق له مثيل على التاج البيزنطي داخل القصر الإمبراطوري في مدينة قسطنطين . وما أن انتهى السفراء من الإدلاء بإذنارهم «الفظ» حتى علت أصوات داخل حجرة الاستقبال تطلب عقاب أصحاب هذه الألسنة «الوقة» . والحق أن السفراء الفرنجية ما أن انتهوا من مهمتهم هذه حتى هربوا على خيولهم قبلة معسكسراهم فنجوا بصعوبة من القتل على يد

الحرس الإمبراطوري . وأبلغ السفراء قادة الحملة بتفاصيل الأحداث التي وقعت لهم في القصر . ويروى روبرت دي كلاري أن مقابلة ما تمت بين الدوج والكسيوس الرابع هدد فيها الأول الثاني بقوله : « نحن قد رفعناك من الرجل ولكننا في مقدورنا إغراقك فيه من جديد ، أيها الطفل الأرعن »<sup>(٨٧)</sup> .

بات واضحًا إذن أن الدوج ونبلاء الحملة قد عقدوا العزم على غزو القسطنطينية في الوقت الذي كان يترقب فيه على العرش البيزنطي ألكسيوس الرابع الذي أعطى الحملة الصليبية الرابعة الفرصة للقدوم إلى المدينة . وقبل أن تتتابع الأحداث التي أدت إلى سقوط الدولة البيزنطية في يد الفرنجية ، لابد من إلقاء بعض الضوء على عدة حقائق هامة تساعده على تفهمخلفية هذا الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين :

١ — تعرضت بيزنطة ومصالحها للتهديد من جهة الغرب اللاتيني منذ القرن العاشر . وكانت البابوية هي العامل الأساسي في تمهيد الطريق للأباطرة الألمان لاستئصال شأفة النفوذ البيزنطي في وسط وجنوب إيطاليا . وفي النصف الثاني من القرن العاشر مضى أوتو العظيم وخلفاؤه قدمًا لتحقيق سيطرتهم على موقع النفوذ البيزنطية السابقة والتي صارت تعرف بعد ذلك باسم Regnum Italicum .

٢ — في القرن الحادى عشر باركت البابوية هجوم النورمان على الممتلكات البيزنطية في الجنوب الإيطالي ، كما ساهمت مساهمة إيجابية في حملة روبرت جويسكارد (١٠٨١) للقضاء على بيزنطة . ونهجت الكبورييا وأميرها نفس المنهج في صليبية بوهمند ضد بيزنطة (١١٠٧) وفي ذاك الحلف الذي لم يكتب له النجاح بين روجر الثاني ولويس السابع ضد الدولة البيزنطية في عام ١١٤٧ .

٣ — تبني الموناشيات ولهذه السياسة العدائية تجاه بيزنطة وفكير بربوسا ولده هنري السادس جدياً في ضم بيزنطة إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

٤ — كان الفرنجية يحتقرن البيزنطيين ويهمومهم بالضعف والتفاق والخنوثة . وكان البيزنطيون يكرهون أهل الغرب اللاتيني «المتربرين» خاصة بعد أن أيقنوا أن شارة الصليب التي يحملونها إنما هي قناع لأطامع دنيوية . ولعل خير ما يدل على هذه الكراهة محدث في عام ١١٨٢ عندما ربط أهل القسطنطينية رأس أحد الكرادلة اللاتين في ذيل كلب في شوارع العاصمة (٨٨) .

٥ — جاءت تقريرات المسؤولين في الإمارات الصليبية في سوريا عن بizenطة لتوكيد للكيوريا والدوائر الكنسية في الغرب أن السلطات البيزنطية تمثل تهديداً للقضية الصليبية أشد وأنكى من تهديد الترك لها . وقد تحمس لهذه الفكرة كبار الساسة واللاهوتيين في غرب أوروبا وعلى رأسهم القديس بوناردي كليرفوه وبطرس الوقور وشوجير من سانت دينيس ولويس السابع .

٦ — كان البابا انوسنت الثالث يرى ضرورة إخضاع الكنيسة البيزنطية بالقوة لسلطان كنيسة روما ، كما وضح في رسائله السابقة الذكر . كما أن فيليب السوامي ، لعلمه بهذا ، راح يمني انوسنت بتحقيق هذه الرغبة له وذلك في محاولة كسب وده واسترضائه . كذلك فعل ألكسيوس الرابع في مقابلته للبابا في روما ، وفي تعهداته لقادة الحملة الرابعة عند مدحية زارا .

ولم تكن سياسة انوسنت الثالث في هذا الصدد أمراً جديداً : ففي عام ١٠٧٤ فكر البابا جريجوري السابع جدياً في تحقيق هذا الغرض . كما أن هذه السياسة المهدبراندية في وحدة الكنائس دعت أقلام الكتاب في الغرب إلى تأييد هذه النظرية التي استندوا فيها إلى كتابات القديس أغسطينوس وتعاليم البابا جريجوري العظيم . وبذا أصبحت وحدة الكنائس تحت إمرة البابوية تمثل قانوناً أساسياً من القوانين الكنسية في العصور الوسطى . وأبرز أسلوب من لوكا ضرورة إجبار المراطقة والانشقاقين على قبول الوحيدة . كما نادى بونيرو من سوتري بمقاتلة المراطقة والانشقاقيين قبل التفكير في محاربة الكفار ، وذلك تحت الشعار

المعروف باسم Schismaticos et hereticos debellare<sup>(٨٤)</sup> وقد جاء انوسنت الثالث ليترجم هذه الشعارات والاتجاهات إلى واقع فعل .

٧ — كانت كل الصليبيات في مظهر من مظاهرها رحلة للحج ، فالصليبي الحق هو قبل كل شيء حاج إلى الأرض المقدسة وبغيته رفع صليبي عالياً ، وقد وضح القسم الصليبي في الأنشودة التي كان يتغنى بها الألمان في حملة بربروسا في عام ١١٨٩ :

Des tages do ich das Kriuze nam

..... als ein rehter bilgerin.<sup>(٩٠)</sup>

وكانت القدسية تمثل مكاناً من هذه الأرضي المقدسة بالنسبة للعالم المسيحي ، لأنها كانت تحتوى على أعز ما لدى المسيحية من آثار مقدسة ؛ وهي مقدمة هذه الآثار صليب الصليبوت الذي هو شارة كل صليبي . وكان رجال الدين اللاتين يؤمنون إيماناً قاطعاً بضرورة تخليص هذا الصليب وبقية الآثار المقدسة من أيدي الهرطقة البيزنطيين . فلقد اهتم البابا أوربان الثانى عندما بشر بالحركة الصليبية لا بالتصريح المقدس في أورشليم وإنما بصلب الصليبوت .<sup>(٩١)</sup> كذلك نجد كاتباً بيزنطياً في القرن الثالث عشر — هو زيكولاوس ميزاريتس — يؤكد أنه برغم احتواء أورشليم على الضريح المقدس وباللحمة إلا أن أهل العاصمة البيزنطية كانوا يشعرون أن المسيح ذاته في وسطهم وذلك بسبب احتفاظهم فيها بصلب الصليبوت والحربة المقدسة وإكليل الشوك وقطعة الإسفننج التي قدم اليهود فيها الخل إليه والمسامير التي سمرت جسده إلى خشبة الصليب والأكفان التي قُمِطَ بها الجسد بعد الصليب<sup>(٩٢)</sup> . ويرجح

Bonizo of Sutri, Liber ad Amicum et Liber de Vita Christiana, in P.L., (٨٩)  
Vol. CL, cols. 803 - 56.

M. Coleville, Les Chansons Allemandes des Croisades en Moyen Haut  
Allemand. Paris, 1936, p. 60. (٩٠)

Gesta Dei per Francos, in R.H.C. OCC., Vol. IV, p. 138. (٩١)  
Nicolas Mesarites, Opera, in A. Heisenberg, Neue Quellen zur Geschichte  
des lateinischen Kaiserthums, Munich, 1923, p. 27. (٩٢)

أن الرسالة التي قيل أن ألكسيوس الأول كومين قد بعث بها إلى الكونت روبرت الأول من فلاندرز والتي احتوت قائمة كاملة بتلك الآثار المقدسة قد تلية على جند الصليبية الرابعة عشية غزوهم لمدينة القدسية .

٨ - كان للبنديكتية حكومة وشعباً ، رغبة جد كبيرة في تحطيم كيان البيزنطة لغرضين : الانتقام من أحداث ١١٧١ ، ثم الحصول على امتيازات تجارية واسعة بعد إسقاط الحكومة البيزنطية والفوز بنصيب كبير من أراضيها الساحلية . ولذا فإن نيكيتاس كونياتس المؤرخ البيزنطي المعاصر وشاهد العيان قد كتب فأوضح أن داندولو هو *actor rerum* لما حل بيزنطة من خراب في عام ١٢٠٤ .

٩ - كان أفراد الصليبية الرابعة من علمانيين وأكليروس ينظرون إلى البيزنطيين على أنهم هراطقة إن لم يكونوا « كفاراً » يحل قتالهم وقتلهم بالسيف ، كما تنطق بهذا كتابات المعاصرين .

١٠ - إن ألكسيوس الرابع الذي أعطى الصليبيين الفرصة للقدوم إلى العاصمة البيزنطية سرعان ما اكتشف نواياهم ضد كيان إمبراطوريته . وهذا نجد المصادر الغربية تشير إليه على أنه « خائن كسائر أسلافه » .

وإذا إذ نفحص المصادر الغربية للبحث عن المبررات التي قدمها رجال الدين المسؤولون في الحملة لغزو القدسية نجدها كالتالي :

- إن القدسية تمددت ضد كنيسة روما .

- إن كنيسة بيزنطة منشقة ومهرطقة .

- إن البيزنطيين أعداء للسيدة العذراء .

- إن بيزنطة قد خانت قضية الحركة الصليبية مذ قيامها .

- إن الآثار المقدسة في القدسية يجب ألا تبقى في أيدي هؤلاء الهرطقة فقد آن الآوان لتخلص صليب الصليبيين من أيديهم .

- إن من يساهم في غزو القدسية تغفر له خطاياه لأن البيزنطيين

يضمرون الكراهة والغدر ضد «الحجاج» اللاتين.

— إن الهجوم على مدينة قسطنطين هو تحقيق فعل «لإرادة الله» التي بشر بها أوربان الثاني وخلفاؤه من البابوات حتى أنسنت الثالث<sup>(٩٣)</sup>.

كان من بين أعداء ألكسيوس الرابع شخص يدعى مورتزوفلوس. وقد رأى هذا ضرورة مقابلة التحرشات الصليبية بالعاصمة وتهديداتهم المتكررة لحامل التابع بالقوة العسكرية. وعلى هذا فإنه ذات ليلة جهز سبع عشرة سفينة محملة بمدحود مشتعلة ووجهها إلى مكان تجمع الأسطول الصليبي. ولكن البنادقة نجحوا في إنقاذ أسطولهم من النار بأن دفعوا بالسفن المشتعلة من الميناء إلى المصايف حيث جرفها التيار.

بعد هذا دبر مورتزوفلوس وأعدائه انقلاباً ضد ألكسيوس الرابع والده، ونجحت المؤامرة بسبب الكراهة الزائدة التي كان الشعب يضمّنها لآل إنجلترا. بصفة عامة ولألكسيوس الرابع بصفة خاصة. ولقد عمل قائد الانقلاب على خنق ألكسيوس الرابع، بينما مات والده رعباً وحزناً. وقد تمت المؤامرة في سرية تامة، وروج صاحبها أن وفاة ألكسيوس كانت طبيعية، كما وأنه نظم له جنازة فاخرة وراح ينوح عليه علانية<sup>(٩٤)</sup>.

وصلت أنباء وفاة الإمبراطورين إلى المعسكر الصليبي. ومع أن الدوچ والبارونات كانوا قد هددوا الإمبراطورين الراحلين بخلعهما عن العرش، إلا أنهم راحوا الآن يتباكون عليهما ويهذدون بالانتقام لهما من مورتزوفلوس.. وواقع الأمر أن اللاتين ق استانور قد ارتاحوا لهذه التطورات في العاصمة البيزنطية والتي أعطتهم التبرير لاقدامهم على مهاجمة القسطنطينية. أما مورتزوفلوس فقد أدى واجبه كمواطن بيزنطي مخلص، إذ خلص الإمبراطورية من أيدي شاب ذرق وعجز متهالك؛ ويقال إنه ببر فعلته.

Robert de Clari, pp. 71 - 72, Villehardouin, XCVIII; Da Canale, p. 327;<sup>١</sup> (٩٣)

Gunther of Pairis, cols. 237 - 38.

Villehardouin, XCVIII; Gunther of Pairis, col. 238.

(٩٤)

نشب القتال بين الصليبيين والجيش البيزنطي بقيادة مرتزوفاوسن . وقام الكونت هنرى من فلاندرز بغزو مدينة فيلبيا وهبها كما أسر عدداً كبيراً من أهلها . تعقب مرتزوفاوسن رجاله الكونت هنرى ، ولكن بقية أفراد الجيش الصليبي سرعان ما أحاطوا به وأوقعوا به هزيمة ساحقة . هرب مرتزوفاوسن من الملاك في أرض المعركة بعد أن فقد للعدو رايته الإمبراطورية وأيقونة السيدة العذراء التي كانت تحمل أمام رايته وقت الحرب<sup>(٩٦)</sup> .

بعد هذه الواقعة عقد الفرنجية والبنادقة اتفاقاً للاستيلاء على القدسية وتوزيع غنائمها فيما بينهم . كما عينوا اثنا عشرة رجلاً نصفهم من البنادقة والنصف الآخر من الفرنجية لانتخاب إمبراطور من قادة الحملة يحكم الإمبراطورية البيزنطية « لإعلاء كلمة الله وشرف كنيسة روما » . والفريق الذي لا ينتخب الإمبراطور من بينهم يكون من حقهم تعيين واحد من جماعتهم لكرسي البطريركية في آيا صوفيا . وتقسم لجنة من أربعة وعشرين نصفهم من البنادقة والنصف الآخر من الفرنجية لمساعدة الإمبراطور المنتخب في توزيع الوظائف العليا على رجال الصليبيية وفي تقسيم الإقطاعات على البارونات . ويصدق السيد البابا على قرارات هذا الاتفاق ، ومن يبعث بها يكون عرضة للقرار الحرجي ( ٩٧ ) .

Gunther of Pairis, col. 328.

( 9 )

Villehardouin, XCIX; Choniates, 388, B.

(۹۶)

Rerum Gallicarum Scriptores, Vol. XVIII, pp. 549 seq.

(q.v.)

وقع هذا الإتفاق بين الفرنجية والبنادقة في مارس ١٢٠٤ ، وهكذا تحدد بصفة قاطعة سقوط العاصمة البيزنطية على يد الحملة الصليبية الرابعة . ربط الصليبيون قطع أسطوطم اثنين اثنين لحمل المعدات الازمة لمحاجمة القلاع من على . أما مرتزوقلوس فقد وقف على رأس جيشه وراء أسوار المدينة لمحاجمة الالatin . وقامت السفيتان الصليبيتان « الحاج » و « الجنة » بهجوم مركز على أحد الأبراج ، وتمكن بهذا أحد البنادقة وأحد الفرسان الفرنجية من تساق السلم الذي كان على ظهر السفينة « الحاج » ودخول هذا البرج . وتبعهما جنده صليبيون كثيرون في وثوبهم على الحامية التي كانت تقوم بمهمة الدفاع عن سور المدينة . وهنا تدفق الجندي الصليبيون على بوابات المدينة وحطمواها فدخلوها شاهرين سيفهم لمقاتلة مرتزوقلوس ورجاله . وبعد قتال مرير اضطر الجيش البيزنطي إلى التقهقر تحت وطأة المزيمة ، وهرب مرتزوقلوس في شوارع المدينة إلى قصر بوصوليون<sup>(٩٨)</sup> .

وليج الغزاة قلب مدينة قسطنطين وعملوا نهباً وقتلوا في أهلها . وهكذا قوم كثيرون من شعب العاصمة « حتى بات من العسير حصر أعداد القتلى »<sup>(٩٩)</sup> . وتسلل رب البيت – مرتزوقلوس – خلسة من خلال البوابة الذهبية تاركاً « أحلى المداين » لمصيرها المحظوم . وبعدها أشعل الصليبيون حريقاً مروعآ في الحي المكتظ باسكنان في قلب المدينة ، بينما انتشرت جماعات منهم تنبش الدور والقصور والكنائس والخوانيت بحثاً عن الغنائم . وكان الحصاد وفيراً للغاية حتى فاق كل تقدير : فمن ذهب إلى زمرد وفضة « وكل ما تشتهيه الأنفس من ثمين على وجه المسكونة ، كما يشهد بذلك قلها دون ذاته »<sup>(١٠٠)</sup> .

وكان رجال الدين أشد جند الصليبية ضراوة ونهباً . وفي مسلك مارتينوس

Villehardouin, CVI.

(٩٨)

Gunther of Pairis, col. 244; Villehardouin, CVII.

(٩٩)

Villehardouin, loc. cit.

(١٠٠)

مقدم دير بابايس الدليل المادى على فظاظة جماعة الإكليروس اللاتين وجشعهم . فقد اندس صاحبنا بين عصابة من اللصوص الفربجة وهاجموا سوياً دير باتوكراتور . ولکي يحصل مارتينوس على مفتاح الخزانة المودعة فيها الآثار المقدسة للدير ، فقد هدد الراهب البيزنطي الهرم الذى كان يقوم بحراستها بالقتل إن لم يدله على مكان هذا المفتاح . وتم له ما أراد من نهب وسرقة داخل بيت العبادة هذا (١٠١) .

هذا وتفيض المصادر الغربية بذكر أعمال النهب الذى قام بها الصليبيون داخل كنائس بيزنطة ولكن هذا عمل بطولى كبير حق ما كانت الحركة الصليبية تصبو إليه في تحايلها على آثار المقدسة من أيدي « المراطقة » . استولى الصليبيون على كل شيء جميل احتوته المدينة . ولم يتوقفوا في زحفهم المدمر إلا للقتل أو لنهك الأعراض . ولم يفلت من أيديهم أحد ؛ فقد اختصبوا الراهبات في عقر أديرهن . ودخل الجند السكارى كنيسة آيا صوفيا وأجلسوا عاهرة على العرش البطريركى وجعلوها تغنى أغان بذيئة وترقص الرقصات الرخيصة أمام المذبح الكبير . وركبت الكتب المقدسة ووُقعت تحت الأقدام ، بينما استخدمت الأواني الطاهرة أقداحاً للخمر .

بعد ثلاثة أيام اكتوت بها القدسية على هذا المدواى ، جمع قادة الصليبية الغائم النفيسة لتوزيعها فيما بينهم . ومع أن أشياء كثيرة قد سرقت وأخفقت ، إلا أنهم أحرزوا غنائم قيمتها تعادل ٨٠٠,٠٠٠ جنيه من ذهب وفضة للتوزيع . وقد أضيف إلى هذا آيات الفن النادرة التي كانت في المدينة من عهد قسطنطين العظيم وخلفائه . ويعطينا نيكيتاس كونياتس ، وهو شاهد عيان ، قائمة بآيات الفن التي دمرها الصليبيون وصهروها لتحولها إلى عمارات والتي كان من بينها المثال البرونزى للنئب وروميوس وريموس ، وتمثال پارس مع التفاحة الذهبية ، وهيلين الطروادية ، والتماثيل النحاسية التي أقامها أغسطس بعد واقعة أكتيوم . وتناول هذا الهرم الصليبي أيضاً

آيات الفن المسيحي ، كما نبشوا قبور الأباطرة ومذابح الكنائس وستائرها لنهب ما فيها من معادن نفيسة . وعلى هذه الشاكلة القميضة الرذيلة حقق الصليبيون «أعظم فتح تم ، دونه مجد إسكندر المقدوني وسatan شرمان» كما تروى المصادر الغربية ؛ في حين أن أهل بيزنطة باتوا ينحوون مع نيكيتاس كونياتس :

«أيتها المدينة .. المدينة ، يا خير المدائن .. يا حديث المسكونة ،  
يا منار الأرض ، يا حامية الكنائس ، يا سيدة الإيمان ، يا قلعة العلم ،  
يا ملاذ كل الخير ! لقد تبرعت حتى الثالة من كأس غضب الله ، ولقد حل  
بك أتون أبغض من ذلك الذي انصب لظاه قديعاً على المدائن الخمس»<sup>(١٠٢)</sup>.

بعد هذا اجتمعت لجنة الاشتباكات والتخطى قراراً بانتخاب إمبراطور لاتيني للإمبراطورية البيزنطية ، ووقع الاختيار على بدلوين من فلاندرز ، وأذاع أسقف سواسون هذا القرار على الصليبيين وسط هتافات النصر والفرح<sup>(١٠٣)</sup> . وتم تتويج بدلوين في حفل حافل في كنيسة آيا صوفيا ، حيث قام الماركيز بونيفاس من مونتفرات والكونت لويس من بلوا بأداء عيّن الولاء والطاعة له . وعليه تم تسليم مدينة قسطنطين ، وقد أتت النار على نصفها وجردت تماماً من كنوزها ، إلى أول إمبراطور لاتيني لبيزنطة . ولقد هرب من المدينة أربعة أخماس سكانها ، ولم يبق فيها سوى المسؤولون والمعلمون والمرضى . وتلقى بدلوين أيضاً إقليم تراقيا والأقاليم الآسيوية ، بيشنيا وميريا وليليديا والتي كان يتحمّل عليه إخضاعها فيها بعد . أما الماركيز بونيفاس ، الذي تزوج أرملة إسحق إنجلوس ، ماري ، فقد أصبح ملكاً على تسالونيكا وتلقى إقطاعاً من بدلوين عن مقدونيا وتساليا وإبيروس . أما الكونت لويس فقد أقطع دوقية نيقيا، بينما حصل رينيه من ترت على دوقية فيليبو بولس ، وهنرى من فلاندرز على أبيروس وأعمالها . وعلى هذا المنوال

Nicetas Choniates, Historia (Bonn ed.), p. 763.

(١٠٢)

Villehardouin, CX.

(١٠٣)

قطعت أوصال الإمبراطورية البيزنطية بين بارونات الصليبية الرابعة .

وما إن وصلت أنباء سقوط بيزنطة في يد الصليبيين إلى سوريا حتى سارع عدد من باروناتها إلى القسطنطينية بحثاً عن نصيبيهم ؛ لأنهم لم يصادفوا حظاً في الشام : حصل ستين من برش على دوقة فيلادلفيا إقطاعاً من بدويين ، بينما حصل جيوفري من قلهاهاردين الأصغر على إذن من بونيفاس دي مونت فرات لغزو إقليم المورة<sup>(١٠٤)</sup> .

أما البندقة فقد حصلوا على ما يربو على ربع الإمبراطورية نصبياً لهم من الفتح ، فوقع في أيديهم جزيرة كريت ، وجزر أيونيا ، وأجزاء من الساحل الغربي لليونان وألبانيا ، وجزر بحر إيجة والرقة عند مدخل الدردنيل . وهكذا استولى البندقة على الموانئ الممتازة والقلاع البحرية المنيعة ، ولم يهتموا بالأراضي الواقعة في الداخل وذلك تماشياً مع مصالحهم التجارية قبل كل شيء .

وجنباً إلى جنب مع عملية تقسيم أراضي الإمبراطورية سارت عملية أخرى لا تقل أهمية عنها ألا وهي مهمة خلع الأساقفة البيزنطيين من أبرشياتهم وإحلال أساقفة لاتين مكانهم . فاختير توماس موروسيني من أهالي البندقة ليحتل عرش بطريركية آيا صوفيا بدلاً من يرحنا العاشر كماتيروس الذي كان قد فر من العاصمة إلى تراقيا ، بعد أن اعتزل منصبه ليترك الباب مفتوحاً للإكليروس البيزنطيين الفارين من العاصمة ليختاروا مكانه واحداً من بينهم وهو إذ في منفاه . وفي آثينا نصب بيرارد الفرنسي أول رئيس أساقفة لاتيني في المدينة ، فافتتح بهذه فرعاً من المأيريركية اللاتينية ظل مستمراً هناك حتى وقت الغزو التركي .

ومع أن البابا انوسنت الثالث قد عارض في بادئ الأمر تعيين توماس موروسيني لمنصب البطريركية ، إلا أنه فيما بعد تخلى عن موقفه هذا وبارك

هذا التعين ، بل ومنح موروسيني امتيازات كثيرة طائلة من بينها حتى «مسح» الملوك عند توريتهم . ومضي أنومنت الثالث في سياسته الودية الجديدة قبلة هذا البطريرك من أهالي البندقية فراح يتحدث عن بطريركية بيزنطية على أنها وإن كانت آخر البطريركيات نشوءاً من الناحية الزمنية غير أنها أفضلاها ميكانة وتاريخاً بعد بطريركية روما<sup>(١٠٥)</sup> .

ولما قدم القاصد الرسولي ، بطرس من سان مرسالوس ، استدعي الإكليروس البيزنطي وأمرهم باتباع الطقوس اللاتينية في كنائسهم . وفي إحدى المناسبات عطل موروسيني الصلاة في الكنائس البيزنطية في العاصمة لأن كهنتها رفضوا ذكر اسمه في قداستهم برغم كونه بطريركاً لآيا صوفيا . وسرعان ما اضطر الأساقفة البيزنطيون إلى الهروب من إبروشياتهم خوفاً من جبروت موروسيني . ولم يكتف الغزاة بإحلال أساقفة لاتين بدلاً من البيزنطيين ، وإنما أقاموا أسقفيات لاتينية جديدة . كذلك وجدت الديرية اللاتينية طريقها إلى الإمبراطورية البيزنطية ، فلقد بدأ إرساء نفوذ السيستييرشيان خدمة الفتح . في ٢٥ مايو ١٢٠٥ أرسل البابا أنومنت الثالث رسالة إلى رؤساء أساقفة وأساقفة فرنسا يمتدح فيها جهود الإمبراطور بيلدوين الأول في «توسيق عرى العقبة المسيحية في الشرق» . وأوضح البابا أن بيلدوين قد طلب إليه إيفاد « رجال من أهل التقوى من جماعة السيستييرشيان والكلوبيين » إلى الإمبراطورية الجديدة<sup>(١٠٦)</sup> . كذلك أقطع بونيفاس دي مونت فرات ، ملك تسالونيكا (١٢٠٤ - ١٢٠٧) ، مقدم الدير بطرس من لوسيديو دير كورتايتون على أحد رجال تسالونيكا الذي كان أهله قد فروا منه عند الغزو اللاتيني للمنطقة . وكان هذا بمبادرة نقطة البداية لنفوذ السيستييرشيان في الإمبراطورية البيزنطية . وبعد مضي عشرين عاماً من وقت الغزو صارت هناك ست بيوتات ديرية للسيستيرشيان في الإمبراطورية . وفي نفس الوقت وجدت الديرية الفرنسسكانية

طريقها هي أيضاً إلى قلب الإمبراطورية<sup>(١٠٧)</sup>.

\* \* \*

ليس من العدالة في شيء أن يقال أن البابا أنوسنت الثالث قد وجه بالأمر الواقع فأقر الصليبيين على فعلهم في غزو بيزنطة . ذلك لأن البابا كان يعلم علم اليقين أن الحملة الصليبية الرابعة كانت تستهدف الهجوم على القسطنطينية ، كما وأنه قد تواطأ فتباطىء في إدانة « انحرافهم » على زارا ومدينة قسطنطين العظيم ، وبهذا فقد سمح لقادة الصليبية بالمضي قدماً في مخططهم العدوانى ضد الإمبراطورية البيزنطية . ولو فحصنا مكاتبات أنوسنت الثالث بعد سقوط القسطنطينية لرجدنا أنه كان راضياً كل الرضا عن « النجاح المظفر » الذى حققته الحملة لإعلاء شأن كنيسة روما .

في عام ١٢٠٤ كتب بلدويين من فلاندرز ، أول الأباطرة اللاتين لبيزنطة ، إلى البابا أنوسنت الثالث يزف إليه نباء سقوط القسطنطينية في أيدي الصليبيين وانتخابه إمبراطوراً في حضور القاصد الرسول وبين الافتافت بالنصر والدعاء للسيد البابا وكنيسة القديس بطرس<sup>(١٠٨)</sup> .

رد البابا على بلدويين فعبر له عن الفرحة الغامرة التي ملأت قلبه عند قراءة رسالته وما احتوته من أنباء سارة عن سقوط دولة البيزنطيين وإنضمامها وكنيستها العاقة لسلطان الكرسي الرسولي الروماني . وأشار البابا بهذا الفتح المبين الذى « حول الكنيسة البيزنطية المنشقة المنحرفة إلى طريق السواء على شاكلة سيدتها كنيسة روما»<sup>(١٠٩)</sup> .

كذلك كتب البابا أنوسنت الثالث إلى رجال الدين المشاركون في الصليبية الرابعة في القسطنطينية (١٢٠٤) يذكرهم بقول النبي دانيال عن حكمه الله

See E A.R. Brown, "The Cistercians in the Latin Empire of Constantinople and Greece, 1204 - 1276" in *Traditio*, Vol. XIV (1958), pp. 78-79. (١٠٧)

P.L., Vol. CCXV, cols. 447 - 54. (١٠٨)

Ibid., cols. 454 - 55. (١٠٩)

وقدرته في تبديل الأحوال والأزمان وإذلال من يشاء وإعلاء من يشاء . وعبر البابا عن بهجهة الزائدة لأن نبوءة دانيال قد تحققت أثناء اضطلاعه ذاتياً بالبابوية ، فأذن الله بتحطم دولة البيزنطيين وإنقاذ كنائسهم الضالة من « سحب الجهرة والضلال التي خيمت عليها مثلاً كان الحال مع السينااغوغ » ، وإنخضاعها لسلطان كنيسة روما . ومضى البابا يشرح لقارئيه أن البيزنطيين لم يكنوا يعون طبيعة المسيح المساوية للأب في الجوهر ، ومن ثم « فقد أنكروا انبات الروح القدس من الآبن » ؛ « لأنهم لم يتفقروا بعد أحصاحات الكتاب المقدس » . واختتم انوسنت الثالث رسالته طالباً من رجال الدين اللاتين المثابرة على تشبيت المكاسب اللاتينية في بيزنطة ونشر العقيدة القوية ورفع أوليتها عالية بعد زوال الدولة الكريهة والكنيسة المهرطقة <sup>(١١٠)</sup> .

كذلك كتب الإمبراطور بلدوين إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدمي الأديرة والبارونات والفرسان في غرب أوروبا يصف لهم كيف أن « يد الله قد أنفدت المعجزة ، فهوت دولة البيزنطيين وارتفع سلطان اللاتين ». وفسر بلدوين المذبح التي أحلها الصليبيون بسكان مدينة قسطنطين على أنها تمام للنبوءة القائلة : « وإن واحداً منكم ليقتل بمائة منهم » . وصف بلدوين بيزنطة على أنها قد كانت دواماً العدو اللدود للصلبيب والخليف الأول للكفار ؛ ولذا « فقد انصب غضب الله على أهلها بسبب انحطاط خلقهم وعاداتهم » . ومضى الكاتب يعدد سرعات البيزنطيين في أنهم لم يهتموا بذكر اسم أمير الرسل بطرس في كنائسهم بسبب تعصبهم الأعمى ضد كنيسة روما ؛ كما وأنهم ما كانوا يشرون إلى اللاتين إلا بقولهم : « هؤلاء الكلاب » الذين أحلت كنائسهم سفك دمائهم . ولذا فإن الله — كما عبر بلدوين ذاته — شاء أن تقلع أظافرهم فترول دولتهم ويقضى على كنائسهم بواسطة سيفه المنتقم الجبار ألا وهو الحملة الصليبية ذاتها <sup>(١١١)</sup> . واختتم بلدوين رسالته هذه بحث

الإكليروس في الغرب على ترغيب الناس في الهجرة إلى القسطنطينية حيث تفيض الأرض عسلا ولبنا وحيث يحصلون الغفران من المسيح عن سابق ذلامهم<sup>(١١٢)</sup>.

وتجد هذه المعانى ذاتها في رسالة للبابا أنوسنت الثالث إلى رئيس أساقفة تور . تحدث البابا في هذه الرسالة عن ألقانة من بلدة راماتيم صوفيم — والد النبي صموئيل — الذي كانت له امرأتان اسم الواحدة حنة واسم الأخرى فنتة . وشبه الكاتب كنيسة روما بالمرأة الأولى وكنيسة بيزنطة بالثانية ؛ لأن حنة كانت تقية تسكب نفسها أمام الرب ، أما فنتة فكانت قاسية القلب تغيظ ضررها غيظاً شديداً لأن لها أولاداً في حين أن الأخرى كان الرب قد أغلق رحمها . ومضى أنوسنت في تسفيه الكنيسة البيزنطية لحماقتها ، التي كانت من قبل حماقة فنتة ، ولم يكتف بها في قانون الإيمان ، ولا ينفصلها عن جسد الكنيسة الرومانية العالمية ، ومخالفتها لها في الطقوس والعقيدة . ثم أوضح كاتب الرسالة أن « الإرادة العلوية شاعت أخيراً أن تدل عجرفة البيزنطيين ويقضى على خلال كنيستهم » ؛ وذلك بسقوط الدولة البيزنطية في يد الصليبيين . وتحدث البابا عن الكسيوس الرابع فوصمه بالخيانة والغدر بملفاعة الفرنجية ، مؤكداً أن مسلكه هذا دليل آخر على الخسارة اللصيقية بجنسه . واستطرد البابا يزف إلى قارئيه نبأ اختيار بدلوين من فلاندرز إمبراطوراً لبيزنطة . وجاءت خاتمة الرسالة لتحث الأساقفة على ترغيب المؤمنين في الذهاب إلى القسطنطينية للحفاظ بسيوفهم على عطية الله بختنه . الصليبيين ، واعداً من يلبي النداء بالأرض.

= est quae Latinos omnes non hominum nomine dignabatur sed canum :  
qvorum sanguinem effundere pene inter merita reputabat . . . Haec  
et huicmodi deliramenta, quae epistolaris explicare non valet angustia  
impletis iniuriantibus eorum quae ipsum Dominum ad nauisiam pro-  
vocabant, divina justitia nostro ministerio digna ultione percussit,  
et expulis hominibus Deum odientibus et amantibus sese terram nobis  
dedit omnium bonorum . . ”

الى تفليس عسلا ولبنأ ، وأيضاً بغفران للخطايا وبركات من بطرس  
الرسول (١١٣) .

وفي نفس العام (١٢٠٤) كتَّ البابا انوسنت الثالث إلى رجال الدين اللاتين في الصليبية الرابعة يأمرهم بضرورة إدخال الطقوس اللاتينية في سائر كنائس الإمبراطورية البيزنطية ؛ وذلك حتى يكون الإكليروس كلَّه متوافقاً مع العقيدة والطقوس الكنيسة الرومانية ، وحتى يكون سائر أعضاء الكنيسة العالمية أهلاً لرعاية أمير الكنيسة : البابا ذاته . وأعلن البابا في ختام رسالته أنه موقد قاصداً رسولياً من لدنه للإشراف على أمور كنيسة بيزنطة (١١٤) .

\* \* \*

على ضوء الرثائق سالفَة الذكر يتضح موقف البابا انوسنت الثالث تجاه غزو القسطنطينية دون لبس ولا غموض . وليس من باب الصدفة أن نجد كثيراً من المعانى التي وردت في هذه الرسائل مطابقة تماماً لما كان البابا ذاته قد كتب إلى السلطات البيزنطية في عام ١١٩٨ ، حينما كان يهددها باتخاذ إجراءات عنيفة لإنصاف كنيسة القسطنطينية المنشقة . وفي هذا الدليل القاطع على دور انوسنت الثالث في الصليبية الرابعة التي انتهت بغزو مدينة قسطنطين . حقيقة أن البابا قد عبر عن استنكاره للمذابح التي وقعت في العاصمة البيزنطية عند الغزو (١١٥) ، بعد أن وصلته التفاصيل عنها ، ولكن من الإنصاف أن نقول أن غضبة البابا قد انبثقت أولاً وقبل كل شيء بسبب اختيار ترمس موروسيني الكرسي البطريركيَّة البيزنطية دون أحد رأيه في هذا

Bibliothéque de Valenciennes, Manuscript 482, ff. 139 - 144 : "Frate (١١٣)

rnitatem vestram monemus et exhortamus in Domino per apostolica  
scripta mandantes, quatinus tam clericos quam laicos efficaciter in-  
ducatis ut ad capescendas spirituales et pariter temporales divitias ad  
praelatum imperatorem accedant . ."

P.L., Vol. CCXV, cols. 471 - 72.

(١١٤)

Gesta Innocentii III, col. CXL.I.

(١١٥)

الاختيار<sup>(١١٦)</sup> . والذى ساء البابا كثيراً هو علمه بأنَّ البندقة كانوا يخبطون لاحتكار عرش البطريركية بجمهوريتهم دون سواهم ، ولذا نجدهم يدعون موروسيني لأنَّ يقسم بالألا يقبل في مجلس آيا صوفيا أعضاءً ليسوا ببنادقة . غير أنَّ البابا أجبر موروسيني على استئناف هذا القسم الذى أداه لبني بلدته ، علانية . وبعدها اتسمت العلاقات بين موروسيني والبابا بالانسجام التام : فاعتمد البابا انتخابه وراح يتحدث عن بطريركية القدسية «اللاتينية» على أنها أفضل البطريركيات جميعاً ، بعد بطريركية روما<sup>(١١٧)</sup> . وفي نفس الوقت نجد أنوسنت الثالث يصدر قراراً بالغفران والعفو عن الدوج هنري داندولو ويعتبره بركات القديس بطرس<sup>(١١٨)</sup> .

كذلك كتب البابا أنوسنت الثالث إلى الماركيز بونيفاس دى مونت فرات ، ملك تسالونيكا ، يمحوه على الثبات على حبه لأمه كنيسة روما .. ورد الماركيز فأكمل البابا للاءه للكنيسة الرومانية والعمل على رفع شأنها ، مدللاً على هذا بدوره الكبير في إخضاع إمبراطورية بيزنطة وكنيستها للسيد الأوحد «راعي وحى المسيحية» : البابا ذاته<sup>(١١٩)</sup> . وكان بونيفاس قد تزوج من ماري أرملا اسحق أنجيلاوس . ولذا فقد كتب إليها البابا يهنىءها على نبلتها للطقوس البيزنطية وتحولها إلى الطقوس اللاتينية القويمة ، وكذا على تلقيفها «جسد المسيح» ، في شركة التناول ، من يد المندوب البابوي في القدسية . كما أعلن البابا في نهاية رسالته ماري أنه يرحب بها وزوجها وأملاكهما تحت حمايته وسatan الكرسي الرسولي للقديس بطرس<sup>(١٢٠)</sup> .

\* \* \*

P.L., Vol. CCXV, col. 516.

(١١٦)

Ibid., col. 515.

(١١٧)

Ibid., col. 521.

(١١٨)

Ibid., col. 624.

(١١٩)

Ibid., col. 714.

(١٢٠)

لم يكن سقوط بيزنطة في يد اللاتين عام ١٢٠٤ نتيجة لانحراف الحملة الصليبية الرابعة ، وإنما جاءت خاتمة الفصل طويل ومرير من العلاقات بين روما القديمة وروما الجديدة .

\* \* \*

## BIBLIOGRAPHY

### **I. Original Sources**

- Aimé de Monte Cassino, *L'Ystoire de li Normant*, (ed. O. Declerc), Rouen, 1892.
- Albanés, J., *Gallia Christiana Novissima*, 7 Vols., Montbéliard, 1895 - 1902.
- Albert of Aix, *Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesie*, in R.H.C. Occ., vol. IV.
- Ambroise, *L'Estoire de la Guerre Sainte*, (ed. G. Paris), Paris, 1897.
- Anglo - Norman Texts, *The Crusade and Death of Richard I.* (ed. R. Johnston), Oxford, 1961.
- Anna Comnena, *Alexiad*, (ed. B. Leib), 3 Vols., Paris, 1937 - 45.
- Anonymi *Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum*, (ed. L. Bréhier as *Histoire de la Première Croisade*), Paris, 1924.
- Ansbert, *Gesta Frederici Imperatoris in Expeditione Sacra*, in M.G.H.S.S., in usum scholarum, 1892.
- Baronius, *Annales Ecclesiastici*, Lucques, 1746.
- Baudri de Dol, *Historia Hierosolymitana*, in R.H.C. Occ., Vol. IV.
- Benedict of Peterborough, *Gesta Regis Henrici II*, (ed. Stubbs), 2 Vols., Rolls Series, London, 1867.
- Bernard of Clairvaux, *Opera*, in J. Mabillon's *Opera Omnia*, 2 Vols., Paris, 1839.
- Canale, Martino da, *La Cronica dei Venziani*, (ed. Galvani), Frienze, 1845.
- Choniates, Nicetas, *Historia*, (C.S.H.B.), Bonn, 1835.

- Chronique Rimée de la Petite Arménie. in R.H.C. Arm., Vol. I.
- Chroust, A., Quellen zur Geschichte des Kreuzzuges Kaiser Friedrichs I, Berlin, 1928.
- Duchesne, L., Liber Pontificalis, 2 Vols., Paris, 1884 - 92, 3 rd ed. C. Vogel, Paris, 1955 - 57.
- Einhard, Vita Karoli Magni, in Scriptores Rerum Germanicarum, in usum scholarum, Neudruck, 1947.
- Ekkehard of Aura, Hierosolymita, in R.H.C. Occ., Vol. V.
- Ernoul, Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier, (ed. Masurel), Paris, 1871.
- Estoire d'Eracles, in R.H.C. Occ., Vols. I and II.
- Foucher of Chartres, Gesta Francorum Hierusalem Peregrinantium, in R.H.C. Occ., Vol. III.
- Gerhoh, De Investigatione Antichristi, in M.G.H.SS., Libelli de Lite, III.
- Gregory the Priest, Chronicle, in R.H.C. Arm., Vol. I.
- Historia Belli Sacri, in R.H.C. Occ., Vol. III.
- Jaffé, P., Monumenta Gregoriana, Bernoldi, 1864. Bibliotheca Rerum Germanicarum, 6 Vols., Berlin, 1864 - 73.  
Regesta Pontificum Romanorum, Leipzig, 1885 - 88.
- Kinnamos, John, Epitome Historiarum, in C.S.H.B., Bonn, 1836.
- Lambert of Arras, Canons of the Council of Clermont, in Mansi, Concilia, Vol.XX.
- Mlaterra, Geoffroi, Historia Sicula, (ed. Muratori), in Scriptores, V.
- Matthew of Edessa, Chronique, (ed. Dalaurieur), Paris, 1858.
- Michael the Syrian, Chronicle, (ed. Chabot), 4 Vols., Paris, 1899-1910.

- Odo de Deuil, *De Profectione Ludovici VII in Orientem*, (ed. V. Berry), New York, 1948.
- Orderic Vitalis, *Historia Ecclesiastica*, (ed. A. Le Prevost and L. Delisle), 5 Vols., Paris, 1838 - 55.
- Radulph of Caen, *Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana*, in R.H.C. Occ., Vol. III.
- Raymond of Aguilers, *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem*, in R.H.C. Occ., Vol. III.
- Robert de Clari, *La Conquête de Constantinople*, (ed. P. Lauer), Paris, 1924.
- Robert the Monk, *Historia Hierosolymitana*, in R.H.C. Occ., Vol. III.
- Villehardouin, Geoffroy de, *La Conquête de Constantinople*, (ed. N. de Wailly), Paris, 1872; New ed. by E. Faral, 2 vols., Paris, 1938 - 39; earlier ed. by P. Paris, Paris, 1838; early English trans. by T. Smith, London, 1829; recent paperback ed. by Sir Frank T. Marzials, N.Y. 1958.
- William of Tyre, *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum*, in R.H.C. Occ.; Vol. I.
- Zonaras, Joannes, *Epitome Historiarum*, in C.S.H.B., Bonn, 1897.

## **II. Modern Works**

- Bédier, J., *Les Chansons des Croisades*, Paris, 1909.
- Bréhier, L., *Le Schisme Oriental du XIe Siècle*, Paris, 1899.
- Bury, J., *A History of the Eastern Roman Empire*, London, 1912.
- Chalandon, F., *Histoire de la Domination Normande en Italie et en Sicilie*, 2 Vols Paris, 1907.
- Les Comnenes, 2 Vols., N.Y., 1960.

- Diehl, C., *Figures Byzantins*, Paris, 1918.
- Dvornik, F., *The Idea of Apostolicity in Byzantium and the Legend of the Apostle Andrew*, Cambridge, Massachusetts, 1958.
- Fliche, A., "La Réforme Grégorienne et la Reconquête Chrétienne (10 57 - 1125)", Vol. VIII of *Histoire de l'Eglise*, ed. Fliche, A. and Martine, E. Paris, 1950.
- Grümel, V., *Le Patriarcat Byzantin*, Paris, 1947.
- Hagenmeyer, H. *Chronologie de la Première Croisade*, Paris, 1902.
- Hefélc, C.J. and Leclercq, *Histoire des Conciles*, Paris, 1907 - 14.
- Hill, G., *History of Cyprus*, 4 Vols., Cambridge, 1948 - 52.
- Hussey, J., *The Byzantine World*, Lond, 1957.
- Lamma, P., *Comneni e Staufer*, 2 Vols., Rome, 1955 - 57.
- Mas Latrie, L., *Histoire de l'Isle de Chypre sous le Régne de la Maison de Lusignan*, vol., I, *Historic*; vols. II and III, *Documents*, Paris, 1852 - 61.
- Norden, W., *Das Papsttum und Byzanz*, Berlin, 1903.
- Ostrogorsky, G., *History of the Byzantine State*, (trans. by J. Hussey, Oxford, 1956).
- Riant, P., *Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades*, Paris, 1881.
- Runciman, J.C.S., *A History of the First Bulgarian Empire*, London, 1930.
- Runciman, S. (Sir), *A History of the Crusades*, 3 Vols., Cambridge, 1951 - 54.  
The Eastern Schism, London, 1955.
- Schlumberger, G., *L'Epopee Byzantine au XIe Siècle*, 3 Vols., Paris, 1896 - 1905.  
*Byzance et Croisades*, Paris, 1927.

¶ ० ४

- Setton, K.M. and Baldwin (eds.), *A History of the Crusades*, Philadelphia, 1955 - 62.
- Vacandard, E., *Vie de St. Bernard, Abbé de Clairvaux*, 2 vols., Paris, 1895.
- Vasiliev, A., *History of the Byzantine Empire (324 - 1453)*, (trans. by Blackwell, B.; Oxford, 1952).



م إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية  
تحت رقم ١٩٧٠/٣٨٨٦

مطابع دار المعارف بمصر  
سنة ١٩٧٠





Bibliotheca Alexandrina



0413116

101782

**To: www.al-mostafa.com**